الحائزة على جائزة كتارا للرواية العربية 2017 - فئة الروايات غير المنشورة

حسين السكاف

وجوه لتمثال زائف

رواية

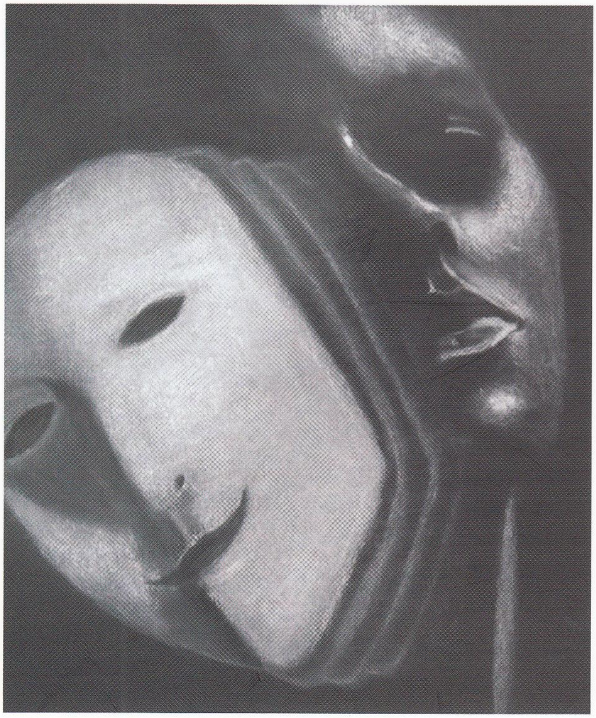

كتارا
katara
دار كتارا للنشر
Katara Publishing House

هذه الرواية حائزة على «جائزة كتارا للرواية العربية 2017»
«فئة الروايات غير المنشورة»

كتارا
katara
جائزة كتارا للرواية العربية

وجوهٌ لتمثال زائف

رواية

المؤلف: **حسين السگاف**

الغلاف للفنانة: **جميلة منصور الأنصاري**

عدد الصفحات: **518 صفحات**
رقم الإيداع: 514/2018
الرقم الدولي: **(ردمك)**
ISBN/978/9927/126/51/2
الطبعة الأولى: **2018م**

جميع الحقوق محفوظة للناشر

كتارا
katara
دار كتارا للنشر
Katara Publishing House

قطر، الدوحة، المؤسسة العامة للحي الثقافي «كتارا»، مبنى 15، ص ب: 16214
هاتف: 0097444080045 | البريد الإلكتروني: info@kataraph.com

دار كتارا للنشر ليست مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره.
إن الآراء المعبر عنها في هذا الكتاب تعكس وجهات نظر المؤلف ولا تعكس بالضرورة آراء دار كتارا للنشر.

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إليكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي، والتسجيل على أشرطة أو أقراص قرائية أو أي وسيلة نشر أخرى، أو حفظ معلومات واسترجاعها، دون إذن خطي من الناشر.

كتارا
katara
دار كتارا للنشر
Katara Publishing House

2018

إهداء إلى

ياسين عطية،
الفنـــان الــذي تــرك منفــاه
ســاعـــيًا بـــكل إخـــــلاص،
صوب تمثال الشهيد..

١

كلما نظرت إلى البحيرة التي أمامي، أتلمس بتلذذ معنى «ساحر» أو «مدهش» أو «جميل»، تلك الكلمات التي ظلّت مجرد كلمات جوفاء لا معنى لها طيلة سنوات حياتي التي عشتها في بلدي الأم. أغلب الكلمات التي لها دلالة الجمال أو المتعة كانت موءودة المعنى في تلك البقعة المظلمة التي كنت أعيشها وأتنفس رائحتها المؤلمة بمرارة. وإذا تعمَّقتُ كثيرًا في التفكير بسحر هذه البحيرة وهذا المكان وجماله، أعرف جيدًا لماذا تسيّدت هذه البلاد بلدانَ العالم في الثقافة والفن والفلسفة والموسيقى.

هذه البحيرة بطبيعتها الساحرة، بمائها وطيورها وحيواناتها الأخرى، بأشجارها وورودها؛ تشكل عالمًا لا ينقصه السحر والإلهام والجمال، والمدهش في الأمر أنها ليست طبيعية، بل هي فكرة ولدتْ في ذهن عمدة المدينة قبل مائة وعشرة أعوام، حين كانت مجرد قطعة أرض واسعة تقع ضمن ممتلكات البلدية، وكانت تحيطها مزارع عامرة بالحنطة والشعير والبنجر السكري والخردل وغيرها. كانت القطعة المتروكة تشكل مصدر إزعاج لأصحاب

المزارع المجاورة؛ كونها مهملة ومتروكة لينمو على سطحها العديد من الحشائش الضارة، والتي يذرّ الهواء بذورها بعد موسم التزهير، فيدخل المزارع المجاورة، ويختلط بمزروعات الفلاحين؛ مما يسبب لهم مشاكل حقيقية عند الموسم القادم. وحين كثرت الشكاوى من قطعة الأرض المتروكة تلك، بزغت فكرة في ذهن عمدة البلدية، وقرر إنشاء بحيرة اصطناعية تحفّها الأشجار وتسبح داخلها الأسماك، وتعيش عليها شتى أنواع الطيور، وقد تم له ذلك بعد أن حدد المهندسون شكل البحيرة وعمقها ومساحتها. حُفِرَت الأرض وأصبحت على شكل وعاء كونكريتي كبير جدًّا قبل أن تمتلئ بالماء عن طريق قناة صغيرة ترتبط بالنهر القريب، أُنشئت خصيصًا لهذا الغرض.

بيتي الواسع حيث أسكن الآن يقع على حافة البحيرة تقريبًا، ويفصل بينهما شارع أسفلتي ضيق مخصص للدراجات الهوائية، بالإضافة إلى رصيف عريض مخصص للسابلة الذين يأتون للنزهة مع أطفالهم في عطلة نهاية الأسبوع، أو مع كلابهم بشكل يومي، خصوصًا وقت الغروب، وهناك أيضًا المهرولون طمعًا بأجسام جميلة لا تنقصها الرشاقة والصحة، بالإضافة إلى نزهات العجائز على كراسيهم المتحركة التي تدفعها غالبًا ممرضات أكثر حيوية.

بيتي الجميل هذا، جاءني هدية من السيد الرئيس، رئيس بلدي الأم، الذي ولدتُ فيه، والذي كنت أنتمي إليه. حصلتُ على هذا

البيت هدية شكر وعرفان لجهودي «العظيمة» -كما يعتقد السيد الرئيس- التي بذلتها في خدمتِه، والتي صار بفضلها ينام عميقًا ودون كوابيس، كما وضَّحَ لي في لقائنا الأخير.

في هذه اللحظة الصيفية الرائعة؛ حيث يستسلم جسدي إلى كرسي الاسترخاء وسط حديقة منزلي، يقام احتفالٌ مهيبٌ في بلدي الأم، وأمام أهم المباني الحكومية في العاصمة، حيث يزيح رئيس الجمهورية شخصيًّا، الستار عن تمثال الشهيد البطل «مرهون عيسى الصاحب»، الذي أفدى بحياته أرواح عشرات الأطفال لينقذهم من الموت، حين احتضن إرهابيًّا «نَتِنًا» أراد تفجير نفسه وسط حشد من الأطفال كانوا خارجين من مدرستهم بعد انتهاء دوامهم المدرسي. كان الإرهابي يريد إغراءهم بحلوى يسيل لها اللعاب، ثم ينفذ جريمته.

في هذه اللحظة، يُرفع الستار عن نُصبٍ يُمثِّلني، يُشبِهني، بل هو أنا.

أنا صاحب فكرة التمثال، وأنا أيضًا مَن أشرف على تصميمه، والدولة هي الممول الرئيس للمشروع.

أنا «مرهون عيسى الصاحب»، الشهيد العظيم في بلدي، والمواطن الثري الذي يحمل جنسية هذا البلد الأوروبي، ويجلس متمتعًا أمام أجمل بحيرة رأتها عيناه، وأحبها.

2

لم تأتِ هذه الامتيازات التي أتمتع بها الآن عبثًا.

لقد حصلت عليها بالدم. نعم، كان ثمنها الدم، دم الضحايا الذين لم يقترفوا ذنبًا إلَّا أنهم وُلِدوا في بلدِ الفجيعة.

أعترف أن من بين الدماء المسفوكة بسلاحي وخبرتي في القتل، أو حتى التي خطَّطتُ لها ونفَّذها من كان بإمرتي، كانت تعود لأرواح انتهازية، أو شريرة، أو حتى مجرمة تستحق القتل، ولكن كان من بين ضحاياي أرواح مُحبة طاهرة، كانت تحترم إنسانية الإنسان، وتناضل من أجل امتلاك الإنسان حريته وكرامته. تلك الأرواح المزهقة، بجمالها وقبحها، كانت الثمن الذي دفعه غيري كي أتمتع بحياتي المرفَّهة هذه.

قبل أربع سنوات، أي قبل أن أحلَّ «مواطنًا صالحًا» في هذا البلد الجميل، كنت في بلدي الأم أعمل مديرًا عامًّا لـ«المؤسسة العامة للثقافة والنشر»، مؤسسة أنشأتُها أنا، وهي لا تمُتُّ بصِلةٍ إلى وزارة الثقافة إلا بالاسم فقط؛ فقد كانت مستقلة بشكل مطلق، بل كانت أكثر استقلالًا من أيِّ وزارةٍ أو كيانٍ حكومي، بل أكثر من هذا، كانت

لهـا الكلمـة العليـا عـلى كلِّ الـوزارات والمؤسسـات الحكوميـة دون أن يعرفهـا أحـد. هـذه المؤسسـة كنـتُ قـد أسسـتها مـع السـيد وكيـل وزيـر الداخليـة، أو يمكننـي القـول «الوزيـر» الفعـلي لـوزارة الداخليـة؛ لـذا أطلقـتُ عليـه تسـمية السـيد «الوزيـر»، وكنـت أقولهـا لـه في كل مقابلـة تجمعنـا، وصرتُ أقولهـا أيضًـا بينـي وبـين نفسـي حـين أفكـر بصـوت عـالٍ، السـيد «الوزيـر» بـدلًا مـن السـيد الوكيـل؛ لأنـه كان «الوزيـر» الفعـلي الـذي يديـر شـؤون الـوزارة ويسـيطر عليهـا بقبضـة حديديـة.

حـدث ذلـك عندمـا قابلتـه للمـرة الأولى في مكتبـه الفخـم. دخلـتُ عليـه بمعيـة «ضرغـام»، زميـلي السـابق في السـجن. كان العَـمُّ عـلي، الـذي أخضعنـي إلى اختبـارات عديـدة دون علـمٍ منـي، هـو مـن اقترحني عـلى السـيد «الوزيـر» كأهـم شـخص مؤهـل للقيـام بالمهـمات التـي كان يفكـر بهـا سـيادته، والتـي يريـد تنفيذهـا بـأسرع وقـت، وبـأي ثمـن، ولكـن دون أن يفصـح لي عـن طبيعـة تلـك المهـمات. لكـن الاختبـارات التـي أخضعنـي إليهـا العـم عـلي جعلتنـي عـلى يقـين بمعرفـة طبيعتهـا وأهدافهـا.

نظـرتُ إلى سـعة المـكان وأناقتـه وأنـا أدخـل مكتـب السـيد «الوزيـر»، وحـين وقـع نظـري عليـه للمـرة الأولى شـعرت بضآلتـه؛ فقـد بـدا صغـير الحجـم إلى حـد التقزيـم أمـام فخامـة مكتبـه والأثـاث المبهـر، ثـم لاحظـتُ حـوَلًا طفيفًـا في عينـه اليسرى حـين ينظـر شـزرًا، وهـي النظـرة التـي تعـوَّد عليهـا –عـلى مـا يبـدو– منـذ الصغـر؛ ممـا أثـار اعتقـادي بـأن الرجـل يحـترف الشـك والريبـة.

12

«تحياتي سيادة الوزير، سعيد أن ألتقي حضرتك».

مـدَّ الرجـل لي يـده مصافحًـا، ثـم نظـر إلى ضرغـام متسـائلًا عـن سـبب ورود كلمـة «وزيـر» بـدلًا مـن وكيـل، فسـارع ضرغـام بإطـلاق ابتسـامته وهـو يقـول:

«السـيد مرهـون، الـذي أعرفـه منـذ سـنوات عديـدة، يمتـاز بمعرفتـه والتزامـه بأصـول اللياقـة والاحـترام».

أشار لنا السيد «الوزير» بالجلوس، وقال موجِّهًا كلامه لي:

«هـل تعـرف لمـاذا أنـتَ هنـا؟.. هـل أخـبرك السـيد ضرغـام أو اللواء عـلي بـما أفكـر بـه؟»

نظـرتُ صـوب ضرغـام، ثـم سرعـان مـا نظـرت بوجـه السـيد «الوزيـر» قائـلًا:

«لم يقـل لي أحـد شـيئًا عـن طبيعـة اللقـاء، ولكنـي أسـتطيع، ربـما، أن أستشـفَّ مـا تفكِّـر بـه سـيادتك..».

ابتسـم الرجـل مندهشًـا، واعترتـه رغبـة الدخـول في لعبـة التوقعـات، فقـال بـشيء مـن التحـدي الفـرِح:

«وما الذي تتوقعه؟»

نظرتُ إلى أصابع يدي، ثم رفعتُ رأسي ناظرًا إلى السيد «الوزير» وقلت:

«أتوقـع بـأن سـيادتك، تبحـث عـن شـاب قـوي الـروح، صبـور، ويحـترف العمـل بجديّـة وسريّـة تامـة».

«الله.. الله..». قال الرجل فرِحًا، وأضاف: «تعجبني نباهتك أيها الشاب، لم يكن اللواء علي مخطئًا حين رشحك..»، ثم طلبَ من ضرغام أن يغادر المكتب كون مهمته قد انتهت عند ذلك الحد، وما إن وصل ضرغام باب المكتب حتى أمره السيد «الوزير» بإرسال فنجانَي قهوة وماء معدني.

بعد أن أغلق ضرغام الباب وراءه، طلب مني السيد «الوزير» الاسترخاء، وأن أعُده صديقًا لي؛ كون الذي سيجري بيننا يتطلب المكاشفة بكل صراحة وجدية. شكرته وأعلنت عن شعوري بالراحة.

ابتسم الرجل، ودخل في وضع استرخاء واضح.. أشعل سيجارة ثم أزاح علبة السجائر نحوي إشارةً منه بتحقيق رغبتي في التدخين. رددت العلبة إلى مكانها قائلًا:

«التدخين نوع من العبودية، وأنا أنشد الحرية بشكلها المطلق، أريد أن أكون حرًّا على الدوام، حريتي أكبر من أي شيء تتصوره سيادة «الوزير»».

«معكَ حق، وأتمنى ألا يزعجك دخان سيجارتي».

«لا أبدًا، لقد عشت سنوات طويلة وسط جمهرة من المدخنين..». نفثَ دخان سيجارته صوب السقف، ثم أعاد نظره نحوي ليسأل بخبث :

«تقصد السجناء؟»

«نعـم، ذلـك مـا كنـت أقصـده.. ويبـدو أن سـيادتك قـد اطّلعـت عـلى سـيرتي الذاتيـة غـير المشرِّفـة».

أطلـق ضحكـة ودودة وقـال موضحًـا بـأن طبيعـة عملـه تتطلـب معرفـة أدق التفاصيـل، وأن المهـمات التـي ينـوي تكليفـي بهـا تتطلـب أكثـر مـن ذلـك.. هـززتُ رأسي موافقًـا، وفي تلـك الأثنـاء دخل السـاعي حامـلاً صينيـة تحتـوي عـلى فنجـانَي قهـوة وقنينتَـي مـاء مـن فئـة النصـف لـتر، ومـا إن خـرج السـاعي حتـى قـال لي السـيد «الوزيـر» وهو يرتشـف قهوتـه ودون أن ينظـر صـوبي:

«ما رأيك في أن تكون مديرًا لمؤسسة تابعة لوزارتي؟»

لم تكـن كلماتـه مفاجـأة لي؛ فقـد كانـت مـن ضمـن توقعـاتي، ولكـن رغبـة عارمـة تملكتنـي في إنهـاء لعبـة التوريـة والـكلام غـير المبـاشر، فقلـت:

«سـيادة «الوزيـر»، هـل تسـمح لي بالتكلُّـم صراحـةً؟» هـزَّ رأسـه موافقًـا، فأضفـت: «أعتقـد أن مؤهـلاتي وسـيرتي الذاتيـة التـي تعرفهـا جيـدًا، ترشـدني إلى أن المؤسسـة التـي تريـد منـي أن أكـون مديـرًا لهـا، هـي مؤسسـة تحـترف القتـل، هـل أنـا محـق؟». اصطنـع سـيادته ابتسـامة صغـيرة وقـال:

«لا.. لا.. عفـوًا، ليـس بهـذه الصـورة، ولكـن هنـاك أمـورًا أراهـا ضروريـة لخدمـة الوطـن بعـد أن تخلَّـصَ مـن الديكتاتوريـة.. نحـن نريـد بنـاء وطـن جميـل متسـامح يكـون فيـه المواطـن راضيًـا ومسـتمتعًا بالحيـاة..»، ثـم اسـتدرك ومسـحة مـن الجديّـة قـد ارتسـمت عـلى ملامحه:

«ولكن هناك من لا يريد لهذا الوطن العزيز النهوض والارتقاء إلى مصافّ دول العالم المتحضرة؛ لذا نجد من الضروري التخلص منهم!» دعكتُ كفيّ وأنا أضعهما بين ركبتي، ثم نظرت بوجه الرجل مبتسماً وسألت:

«سيادة «الوزير»، كم خصصتَ من الوقت لهذه المقابلة؟»

قفزَ من كرسيه واقفًا وخرج من خلف الطاولة متجهًا نحوي فاردًا ذراعيه وهو يقول بفرح مصطنع:

«الوقت كله لكَ.. أقصد لنا، وتحديدًا، لهذه المقابلة التي ستحدد مصير البلد ومستقبله، وقوة الدولة التي نعمل على تأسيسها».

أعجبتني فكرته، ووجدت في كلامه الذي لا يخلو من مبالغة واضحة، خصوصًا حول مستقبل البلد وقوة الدولة، جدية واضحة حول تأسيس مؤسسة سرية. في تلك اللحظة شعرت بأن عليَّ مهمة التدخل في حيثيات إنشائها، فقلت متسائلًا:

«هل فكَّرت سيادتكَ باسم تطلقه على المؤسسة؟»

«لا.. ليس بعد». قالها ليمنحني نشوةَ تحقُّق توقعاتي، فقلت:

«ما رأي حضرتكَ بـ«المؤسسة العامة للثقافة والنشر»؟»

نظر لي مندهشًا، وقال متسائلًا:

«الثقافة والنشر؟»

لأجيبه مقتنعًا بكل كلمة؛ حيث قلت:

«نعـم، فـلا يوجـد مـكان أوسـع وأفضـل مـن مجـال الثقافـة؛ كونـه شـاملًا ومتسـعًا، وسـيادتك تعـرف ذلـك جيـدًا».

أطلقَ ضحكة تلمستُ منها الرضا، الذي أفصح عنه قائلًا:

«عظيـم، أوافقـك الـرأي، سـيكون اسـمها «المؤسسـة العامـة للثقافـة والنـشر»، كـما تفضلـت». قـال ذلـك وهـو يـدوّن الاسـم عـلى ورقـة أمامـه، ثـم رفـع رأسـه لينظـر صـوبي وقـال موضحًـا ضرورة ابتعـاد بنايـة المؤسسـة عـن مبنـى الـوزارة، وأن مـن المهـم اسـتحداث حلقـة وصْـلٍ بينـي وبينـه؛ لأنـه يجـد أن لقاءاتنـا يجـب أن تتمتـع بسريـة تامـة، وألا أقـوم بزيـارة مكتبـه في الـوزارة إلا عنـد الـضرورة، ثـم قـال مقترحًـا عـليَّ:

«ما رأيكَ بأن يكون «ضرغام» حلقة الوصل بيننا؟»

دهشـت لمقترحـه الـذي أصابنـي بخيبـة كبـيرة، فقلـت بجديـة واضحـة:

«سـيادة الوزيـر، إذا أردت أن تقتـل المؤسسـة حتـى قبـل ولادتهـا، فعليـك الاعتـماد عـلى جبـان رعديـد مثـل ضرغـام، ولا تنـسَ بأنـكَ في هـذا تسـلّمه أهـم وأخطـر أسرارك.. سـيادة الوزيـر، أنـا أعـرف «ضرغـام» منـذ أيـام السـجن، وأعـرف حجـم جبنـه وانتهازيتـه؛ لـذا فهـو غـير جديـر بائتمانـه عـلى أي شيء، مهـما كان تافهًـا!»

كان الرجـل ينظـر إليَّ مندهشًـا وهـو يسـتمع لكلامـي، ولكـن كانـت ابتسـامة خفيفـة قـد صاحبـتْ دهشـته، فقـال:

«أراك متحاملاً على الرجل! ثم لماذا تتحدث عنه بهذه الطريقة؟ ألا تعرف بأنه من أقاربي؟»

شعرت أنه يريد استفزازي، أو ربما اختباري، فقلت واثقًا:

«هذا يعزز مقدار حرصي واهتمامي بسرية عملي وجديته». ضحك سيادته ونفى أن يكون «ضرغام» أحد أقاربه، فقلتُ:

«أفضّل أن تكون العلاقة محصورة بيني وبين حضرتكَ فقط، وأن يكون الهاتف الوسيط بيننا، فالهاتف لا يخون إلا إذا أهملته!»

«رائع.. إن ما تقترحه رائع جدًّا». قال ذلك وأشعل سيجارة، ثم راح يفتش عن بقايا قهوة في قعر الفنجان، وحين لم يجد رفع سماعة الهاتف وطلبها من الساعي، ثم قال وكأنه قد اكتشف أمرًا مهماً:

«ولكن يا عزيزي، أجد أن من غير المنطقي أن نكتب رسائل مهمة وخطيرة عبر الهاتف، فهناك إمكانية كشفها».

«يمكننا الاتفاق على كتاب معين ليكون شيفرة بيننا.. وبالتأكيد، سيادتك خير العارفين بأنها طريقة قديمة جدًّا، لكن الكتاب هو ما سيُحدد سرية وأمان عملنا..».

راقت له الفكرة ووافق على الفور، وقال مُقترِحًا:

«ما رأيك بكتاب «إطلاق الوسيلة»، يكون شيفرتنا؟»

كنتُ قد قرأت الكتاب من قبلُ ووجدته هزيلاً مقرفًا، وكنت متوقعًا منه أن يقترح كتابًا ينتمي إلى عالمه الخاص، فقلت متهكماً:

«وما السرية في هذا الكتاب؟.. الكتاب متوفر، وبمتناول الكثير من الناس، فقد تم توزيع آلاف النسخ منه، وبالمجان، ثم أريد أن أقول شيئًا، معتمدًا على طلبكَ في أن أتحدث بصراحة تامة، وأتمنى أن تفهمني بتجرد.. حين نكون وحدنا.. أنا وحضرتك فقط.. أرجو ألّا نتطرق إلى موضوع الدين والإيمان، فنحن نعمل في الإجرام، وأداتنا الجريمة؛ فلماذا نُدخل الدين في عملنا وهو ضد كل ما نقوم به؟» لاحظت انتباهه لما أقول، وكان قد تلمس مني واقعية لم يكن يتوقعها، فأضفت قائلًا: «لو أراد أي شخص أن يجتهد بمعرفة كتاب الشيفرة الذي تستخدمه حضرتكَ، أليس من الأولى أن يفكر بذلك الكتاب كونكَ تنتمي إليه؟»

راح السيد «الوزير» يدور حول نفسه غارقًا في تفكير عميق، حتى بانت حيرته حين أفرد يديه إلى جانبي جسده وكأنه يقول لي ماذا تقترح إذن، فقلت له بشكل واضح ودقيق:

«حفلة التيس».

ابتسم مستفهمًا حول الذي سمعه، وظهر كأنه يشعر بأن إهانة دفينة قد وُجّهت إليه، فقلت على الفور:

«هذه رواية لروائي بيروفي، يعني من البيرو، اسمه ماريو بارغاس يوسا. هل سمعت به من قبل؟»

«لا..».

«طيب، هل بالإمكان أن تبعث شخصًا الآن إلى شارع المكتبات ليأتي لنا بنسختين من الرواية؟»

كتبتُ على ورقة صغيرة اسم الرواية والمؤلف، ودار النشر، وسلّمتها إليه كي يعطيها إلى الساعي، ثم قلت له:

«سيادة الوزير، هل من الممكن أن نتفق على كل ما نفكر فيه ونحن نشرب قهوة مكتبك الفاخرة؟»

جلسنا نتحدث ساعات، ويبدو أن السيد «الوزير» قد خصص يومه بالفعل لتلك المقابلة، حتى إنه خلع فردتَي حذائه، واستبدل دشداشة بيضاء بملابسه الرسمية، وشرع بدسّ قدميه في نعال بلاستيكية، بنية اللون، رخيصة الثمن.. حينها، انبثقت من ذاكرتي وبحضورٍ شرسٍ، رائحة الدم الساخن، ودون وعي مني قلتُ وكأني أمازحه، ولكن بتشنج وانزعاج:

- «سيادة «الوزير»، هذه النعال لا تليق بمقامك.. اتركها! ثم إن الأرضية مفروشة بأفضل أنواع السجاد في العالم. دعْ لقدميك الراحة والاسترخاء..». ضحكَ سيادته وأثنى على الفكرة، ثم صار يشرح لي أهمية النعال البلاستيكية عند الوضوء كونه لا يتأثر بالبلل.. فقلت وابتسامتي تغطي انزعاجي:

- «وما الضير في أن تبتلّ نعالٌ جلدية أو حتى تهترئ؟ فسيادتك تستطيع شراء محل مملوء بالأحذية كل يوم! الخير كثير والحمد لله..». وفي داخلي كانت الصورة تختلف تمامًا، فقد كنت على يقين بأن تبريرات هذا الرجل بدرجة وزير، تعود إلى زمن الفقر والعوز الذي عاشه؛ حيث كان فقدان أو عطب النعال يعد كارثة عائلية كبيرة، وقد ينتظر فيها الرجل أيامًا ربما تطول حتى يتمكن من

شراء أرخص نعال في السوق «النعال البلاستيكية» المصنوعة من المواد المعاد تصنيعها.

ضحك السيد «الوزير» وهو يحمد الله على نعمته، وعاد إلى كرسي الاسترخاء، وجلس فاتحًا فخذيه.

تحدثنا كثيرًا، وتعددت فناجين القهوة، ومشاريع الموت، ومحاولات التسقيط الأخلاقي والسياسي دون ذكر أسماء لأشخاص، أو حتى الإشارة إلى شخصية بعينها. كان يتحدث عن أهمية تلك العمليات والفائدة التي ستُجنى من ورائها.

أضحى عدد أعقاب السجائر في مطفأة السيد «الوزير» أكثر عددًا من فناجين القهوة التي شربناها، وحين حل موعد الأكل، كونه أعلن عن حاجته للطعام تلفونيًّا، وكنا قد جلسنا متقابلين تتوسطنا طاولة الطعام المنتصبة في إحدى زوايا المكتب؛ وصلتنا نسختان من رواية «حفلة التيس». نظر السيد «الوزير» لشكل الرواية وهاله حجمها، ثم نظر إلى الشيطان المرسوم على غلافها ورفع بصره نحوي، فقلتُ له ممازحًا:

«هذه صورتي! فلا تتعجب كثيرًا، إنه يشبهني تمامًا!»

اتفقنا على تأسيس «المؤسسة العامة للثقافة والنشر» بشكل قاطع، وتم تأمين هاتفين نقالين برقمين جديدين، واتفقنا أيضًا على إرسال الشيفرة عن طريق التلفون SMS، أما الرسائل العينية والطرود فتكون عن طريق ساعٍ متخصص بين الوزارة والمؤسسة التي سأُديرها، وقد أوكلَ سيادته لي مهمة اختيار الموظفين بالإضافة

إلى الساعي، ثم أمَر بإصدار هويتين شخصيتين لي؛ الأولى: هوية لواء في الشرطة تحمل اسمي وصورتي، وأما الثانية: فقد كانت هوية باسم الدكتور مرهون الصاحب، أستاذ الفلسفة.

ثم خصص لي سيارة مدرعة من سيارات الوزارة مع سائق، لكنني رفضت وجود سائق أو أي شخص برفقتي شارحًا له السبب الذي وافق عليه معتذرًا.

دسستُ الهاتف النقال والهويتين في جيبي، وهممت مودعًا له على أمل اللقاء حين تكون بناية المؤسسة جاهزة، وكنت أتوقع أن تخصص الوزارة إحدى بناياتها لتكون مقرًّا للمؤسسة، ولكنه استوقفني وطلب مني أن أجد المكان المناسب، أي إنه طلب مني اختيار البناية والموقع، وأن تكون بعيدة عن الوزارة، وكانت تلك التفاتة أو نقطة مهمة تُحسب له.

حين فتَح السيد «الوزير» باب مكتبه كي أخرج مودِّعًا له، وهَممتُ بالفعل على مغادرته بأسرع وقت؛ لأنني كنتُ على وشكِ الانهيار نتيجة الرعب الداخلي الذي كنت أعيشه وجهود تمثيل الشجاعة واللامبالاة، سمعته وهو يسأل:

«لم نتحدث عن المرتب الشهري سيادة اللواء!»

التفَتُّ إليه مستندًا على آخر قطرة شجاعة وأنا أبتسم بشكل مسرحي، قائلًا:

«ألم نتفق على أن نناقش الأمور المهمة جدًّا في اللقاء القادم؟»

أطلق ضحكة مجلجلة وهو يقول:

«لقد ملأت يومي فرحًا وبهجة، سيادة اللواء العزيز!.. نلتقي قريبًا».

❊ ❊ ❊

«لواء لم يُتمَّ الثلاثين من عمره، أليس هذا مضحكًا؟!»

قلتها لنفسي وأنا أستلم مفاتيح وأوراق السيارة المُدرَّعة من الموظف المرافق، ثم قُدتُ السيارة متوجهًا إلى بيتي، أقصد غرفتي التابعة لبيت «أم عامر»، بعد أن طلبتُ من المرافق أن يُؤمِّن لي غطاءً (چادر) للسيارة؛ لأنني أعرف أنها سيارة مفضوحة ولا يركبها إلا رجال السلطة، ولكون المنطقة التي أسكن فيها منطقة شعبية فقيرة، أغنى شخص فيها عاهرة متقاعدة، سئم لسانها من كلماتها البذيئة منذ سنوات، حتى إنه قرر في إحدى المرات الهروب من فمها النتن جراء التبغ والكحول، حين أغرى «سعيد الحلاق» على قَطعِهِ بشفرة الحلاقة عندما نعتتهُ أم عامر بـ«الزنانة»، ولم يُخلِّصها من شفرة سعيد سوى قبضة كفي التي هويتُ بها على قمة رأسه، ليفقد على إثرها الوعي لدقائق معدودة، ومنذ تلك اللحظة وأنا الحبيب المدلل عند تلك العاهرة المقرفة أحيانًا.

حين وصلتُ مكان سكني، غطيت السيارة بغطائها، ثم طلبتُ

من غسان الخنشي، صبي أو مدير أعمال «أم عامر»، أن يقوم على حراسة السيارة، ففعل بنفسٍ راضية وإخلاص لافت.

أصرَّت أم عامر على أن أحلَّ ضيفًا عليها في تلك الساعة، قالت إنها تريدني بموضوع ضروري جدًّا. دخلتُ معها غرفتها، وكانت قد أعدت صينية كبيرة موضوعة على طاولة واطئة، احتوت على عدة أنواع من المقبلات، بالإضافة إلى قنينة ويسكي وثلج. نظرتُ إلى الصينية وأنا أضحك بصوت مسموع قائلاً:

«هل تعرفين يا «أم عامر» أين كنتُ اليوم؟»

ثم أضفت دون انتظار ردها:

«كنتُ في مكان مهم جدًّا، ومرعب جدًّا، كنت خائفًا جدًّا، على الرغم من أني تماديت بعض الشيء، فقد كانت لحظات مصيرية؛ إمَّا أن أكون أو لا أكون، كما يقول عمي شكسبير - رحمه الله..!»

ذُهلتْ أم عامر أمام كلماتي التي لم تفهم منها شيئًا، وصارت تردد: «الله يرحمه!» عدة مرات وهي تنظر إلي، ثم قالت وكأنها تواسيني:

«طيب، اجلس، ودعنا نتكلم فيما هو أهم، رغم أني أشك في أنكَ سكران..!»

جلسنا حول الطاولة بصينيتها العامرة، وسكبتْ أم عامر الويسكي في كأسين، قدمتْ إحداهما لي بعد أن وضعتْ قطعتين من الثلج، بينما فضلتْ كعادتها شرب الويسكي دون ثلج، ثم قالت بشيء من الفرح:

«حبيبي مرهون، أريدكَ أن تقف معي في مشروع العمر، وإذا نجحت الخطة فستكون لك مكافأة مادية كبيرة، بالإضافة إلى شقة جميلة تسكنها مجانًا طيلة حياتك..!»

ضحكتُ بصوتٍ عالٍ، وقلت ساخرًا:

«ماذا حلَّ بكِ يا أم عامر العظيمة؟ هل سرقتِ بنكًا أم قتلتِ معمماً واستحوذتِ على سرقاته؟»

هزتْ يدها استخفافًا وكأنها تنعتني بالسكر أو الجنون، ثم قالت بجدية:

«حبيبي، الموضوع يتعلق بالبناية التي أمامنا، فهي معروضة للبيع، وكما تعرف فإنها بناية جديدة، وليست مثل هذا الحوش الواسع الذي اشتريته بعرق جبيني منذ عشرين عامًا..».

ضحكتُ في داخلي وأنا أقول سرًّا: «عرق جبينك أم عرق العاهرات؟» وكانت أم عامر مسترسلة في حديثها:

«فهذا الحوش آيل للسقوط، هو مبنيّ منذ زمن العثمانيين، ولكن البناية التي أمامنا بُنيت منذ عشر سنوات، وتتكون من أربعة طوابق، وكل طابق فيها يحتوي على أربع شقق محترمة..».

قاطعتها متسائلًا:

«وما المطلوب مني؟» ثم ناولتها كأسي المنتحرة كي تُحييها من جديد.

قالت وهي تسكب في الكأس:

«أريـدكَ أن تقنـع صاحـب العـمارة أن يبيعنـي الطابـق الأول فقـط؛ لأننـي لا أملـك المـال الـكافي لـشراء البنايـة بأكملهـا، فـماذا تقـول؟»

وضعـتُ سـبابة يـدي اليمنـى عـلى عينـيَّ بالتعاقـب ثـم عـلى أنفـي، قائـلاً لهـا:

«مـن هاتـين العينـين، وعـلى هـذا الأنـف! غـدًا أكلـم صاحـب البنايـة، فقـط قـولي لي مـا اسـمه وأيـن أجـده».

بـان الفـرح عـلى وجههـا المدهـون بأصبـاغ مقرفـة حاولـتْ دون جـدوى أن تخبّـئ الشـحوب والتجاعيـد عليـه، وقالـت لي عـلى الفـور متسـائلة:

«هـل تريـد واحـدة مـن البنـات تقـضي معهـا ليلتـك، أم تريـد النـوم وحيـدًا هـذه الليلـة بعـد أن تُرهـق عينيـك بالكتـب التـي تقرؤهـا حتـى الفجـر؟»

تذكـرت الكتـاب الـذي ينتظـرني منـذ ليلـة أمـس، ونهضـتُ ضاحـكًا لمعرفتـي مـاذا سـيحل بـأم عامـر حـين تسـمع مـا سـأقوله لهـا، فقلـت مصطنعًـا الجديّـة:

«سأصعد إلى غرفتي؛ فصديقي «إمانويل كانت» ينتظرني..!»

لطمـتْ أم عامـر صدرهـا وهـي تسـألني إن كنـت قـد سـكرت. ضحكـت ثـم أشرت إلى الصينيـة قائـلاً دون أن أرد عـلى سـؤالها التقليدي:

«اطلبي من كوثر أن تأتي بهذه الصينية إلى غرفتي».

نهضت أم عامر وهي تضرب صدرها بعزة وكرامة قائلة:

«أنـا مـن يحمـل الصينيـة إلى غرفتـك.. كوثـر غـير موجـودة، خرجـت مـع نـاس».

قلت لها بحزم:

«لا.. أنتِ، لا.. دعي إحدى الفتيات تفعل هذا».

ظهرت خيبة على ملامحها المتعبة وقالت بدلال واضح:

«ابن حرام، أدري بكَ ابن حرام.. ولكن، أحبكَ».

❋ ❋ ❋

في ظهـيرة اليـوم التـالي ذهبـتُ إلى السـيد جـواد الشَّـكَري، صاحـب البنايـة، الـذي اتخذ مـن أحـد دكاكـين الطابـق الأرضي مكتبًـا لـه. كنـت أعرفـه، فقـد التقيـت بـه عـدة مـرات حـين كنـتُ أبحـث عـن سـكن، والحقيقـة هـو مـن دلّنـي عـلى أم عامـر كونهـا تؤجـر غـرف بيتهـا المتهالـك بالأجـرة اليوميـة..

وأنـا أقـترب مـن السـيد جـواد، دوّى صـوت انفجـار عنيـف هـزَّ المنطقـة بأكملهـا. قفـزَ الشَّـكَري مـن كرسـيه دون إرادة منـه، فسـقطتْ عمامتـه وبانـت صلعتـه الورديـة اللـون ببقـع بيضـاء. احتضنتُه وأنـا أردد: «يـا سـتير..! الله السـتير..!»، ثـم أشرتُ عـلى مـكان عمامتـه السـوداء التـي سـقطت في بركـة آسـنة. انتشـلها ووضعهـا عـلى رأسـه دون أن ينتبـه إلى الميـاه الآسـنة التـي تسرّبـت إليهـا، حينهـا تأكـدت بـأن العمامة ليسـت خطًّـا أحمـر، بـل مجـرد طويـات لقـماش أسـود لا يتعـدى ثمنـه سـعر حذاء

طفل على أعتاب الفرح وهو يدخل عامه الدراسي الأول. أجلستُ السيد على الكرسي مطمئنًا إياه:

«سلامات سلامات.. يبدو أنها سيارة مفخّخة بعيدة عن منطقتنا..».

رحَّب بي السيد معتذرًا، ومبررًا بأن الخوف صار ملازمًا لأبناء البلد، ثم دخل مكتبه ليأتي لي بكرسي كي أجالسه حيث الرصيف.

ما إن جلست حتى راح يشرح لي كيف أن الخوف صار ملازمًا للبشر، منذ انتشار أصوات الانفجارات وإطلاق الرصاص بشكل عشوائي. وافقته على كل ما قاله كي أصل إلى غايتي، ثم قلتُ له ممازحًا:

«لم أعرف عنكَ البخل، ألا تطلب لنا شايًا؟» التفتَ ناحية اليمين وصاح بصوتٍ عالٍ على صاحب المقهى الصغير حيث الجهة المقابلة، طالبًا منه قدحي شاي. حينها سألته وكأنني لا أعرف شيئًا:

«سمعتُ أن هذه البناية معروضة للبيع، هل هذا صحيح؟ ومَن هو مالكها؟» ابتسم الرجل ووافقني على أن الخبر صحيح، وأنه هو مالك العقار.. سألته عن السعر المطلوب، وما إذا كان هناك شركاء أو ورثة في العقار، فنفى ذلك مؤكدًا أن العقار له وحده، ولا شريَك لهُ، ثم سألته عن السبب الذي دفعه إلى عرض أملاكه للبيع، فقال إن السبب يكمن في انعدام الأمن وكثرة اللصوص والخاطفين، والتهديدات المستمرة من قبل بعض الجماعات المسلحة، ثم تفكيره بشكل جدي في السفر خارج البلد؛ لأنه أبٌ لأسرة تضم

28

عـددًا مـن البنـات اللـواتي صِرْنَ يَخشـينَ الخـروج بسـبب الاختطـاف، وبالتـالي إلحـاق العـار بالعائلـة، بالإضافـة إلى امتلاكـه بعـض العقـارات في بلـد آخـر، كل ذلـك كان وراء التفكـير في البيـع. قلـت لـه بوضـوح تـام ودون أي مقدمـات:

«إذا وجـدتُ لـك المشـتري، وبسـعر أعـلى مـن المطلـوب، فكـم ستكون حصتـي؟» نظـر بوجهـي مندهشًـا وكأنـه لم يصـدِّق مـا سـمع، فقـال:

«هـذا العقـار يقـف في حلقـي كشـوكة حقـيرة، عرضتـه للبيـع منـذ سـنة تقريبًـا ولم أحصـل عـلى السـعر المناسـب!»

ثم استدرك قائلًا:

«كل مبلـغ إضـافي يـأتي فـوق الثمـن الـذي حددتـه أنـا، يكـون لـك حـلالًا مبـاركًا..».

مسـكتُ يـده وقلـت لـه مؤكـدًا موافقتـي، ثـم اسـتأذنته لإجـراء مكالمـة تلفونيـة سريعـة.. تنحَّيـتُ جانبًـا وضغطـتُ عـلى أزرار التلفـون النقـال طالبًـا السـيد «الوزيـر».

أخبرتـهُ بالعقـار المعـروض للبيـع وأهميتـه، وقـد سـألته عـن المبلـغ المخصـص مـن قبـل الـوزارة لـشراء العقـار الخـاص بالمؤسسـة، فقـال إن المبلـغ مفتـوح، ولا حـدود لذلـك؛ كـون المسـألة مسـتعجلة وتخـص الأمـن القومـي للبلـد، فأخبرتـه بالمبلـغ المطلـوب، وقـد أضفـت مـا يعـادل النصـف عـلى مـا طلبـه السـيد الشَّـكَري، فوافـق عـلى الفـور، بعد

أن شـدد عـلى ضرورة التأكـد مـن أن العقـار خـالٍ مـن المشـاكل القانونية، ومـا إن طمأنتـه عـلى ذلـك حتـى طلـب منـي الاتفـاق مـع البائـع عـلى الحضـور غـدًا إلى محكمـة البـداءة لتسـجيل العقـار ونقـل الملكيـة باسـمي أنـا، وليـس باسـم الـوزارة؛ ضمانًـا لسريـة الأمـر..

صعقنـي الخبر، ورحـتُ أقلِّـب الأمـر بـكل الاحتـمالات علّنـي أجـد سـببًا لهـذا الكـرم الهائـل، فهـل مـن المعقـول أن تفـرِّط الـوزارة، أو هـذا الرجـل بدرجـة «وزيـر» بهـذا المبلـغ الكبـير لصالحـي! ولكنـي توصلـت إلى أن هنـاك، ربـما، اتفاقـات جانبيـة ستُجرى معـي بعـد نقـل الملكيـة.

رجعتُ إلى السيد جواد مبتسماً وقلتُ له مبشرًا:

«غـدًا تحـضر إلى محكمـة البـداءة ومعـك الأوراق الرسـمية والحجـة الخاصـة بالعقـار كـي ننقـل ملكيـة هـذا العقـار باسـمي، يمكنـك مـن الآن أن تعتـبرني قـد اشـتريت العقـار..!» وقـف الرجـل مذهـولًا وصافحنـي، وقبَّلنـي شـاكرًا، وراح يسـأل لأكثـر مـن مـرة إن كنـت متأكـدًا ممـا أقـول.

طمأنتـه وبـددت شـكوكه ببضـع كلـمات، وحـين تأكـد مـن جديـة مـا أقولـه، قـال بأنـه سـيمنحني خمسـة بالمائـة مـن ثمـن العقـار كعربـون محبـة وشـكر وعرفـان لجهـودي، فقلـت لـه بأننـي أكتفـي بثلاثـة في المائـة، والاثنـين في المائـة المتبقيـة أريدهـا بـركات ودعـوات منـك لي بالخـير والسـلامة.. ثـم قلـت مازحًـا:

«لأنـك سـيد مبـارك ودعواتـك مجابـة»، ثـم أضفـت قائـلًا بأننـي ربـما أحتـاج في يـومٍ مـا موقفًـا شـجاعًا منـه إذا ضاقـت بي الدنيـا.

قبَّلني مرة أخرى فمالتْ عِمامته إلى الوراء، وقال بأنه لن ينسى جميلي ومعروفي ما دام على قيد الحياة.. ثم جلسَ على كرسيه واستلم قدح الشاي من الصبي. حينها قلتُ له بشيء من الحزم والجدية:

«سيد جواد، أرجو أن تسمعني جيدًا! سوف توقّع على عقد البيع بمبلغ أعلى من المبلغ الذي طلبته، ولكنك ستستلم مني الثمن الذي طلبته فقط، وأرجو ألا تسأل عن السبب؛ لأنكَ تعرف الأصول في هذا البلد التعبان.. هل اتفقنا؟»

وافق الرجل بسرعة، وشدد على أن أقتطع مبلغ الثلاثة في المائة من الثمن المتفق عليه.. اتفقنا على إجراء المكاتبة بشكلها الرسمي والأصولي صباح الغد.

❁ ❁ ❁

بعد عودتي إلى غرفتي في بيت «أم عامر»، وبعد أن ودَّعت السيد جواد الشَّكَري، رنَّ هاتفي الخاص بالسيد «الوزير»، ضغطتُ على زر القبول فجاءني صوته مرحبًا:

«أرجو أن تأتي إلى الوزارة الآن كي تستلم المبلغ الخاص بالعقار؛ من أجل أن يكون كل شيء جاهزًا في صباح الغد..».

سألته إن كان يودُّ إلقاء نظرة على العقار، فقال أن لا ضرورة لذلك؛ فهو قد عرف العقار وعنوانه وموقعه، وإنهُ يجدهُ مناسبًا جدًّا لعملنا.

أزحتُ الغطاء عن السيارة وتوجهتُ إلى الوزارة. أوقفتني

سيطرة عسكرية في منتصف المسافة. طلَب مني أحد أفرادها أوراقي الرسمية. أظهرت لهم هوية اللواء مرهون الصاحب، أخذ الجندي تحية عسكرية وأشار لي بتجاوز السيطرة بكل سهولة.

حين وصلت الوزارة، وقبل وصولي إلى البوابة بأمتار قليلة، قابلتُ الشخص نفسه الذي ودَّعني ليلة أمس بعد أن سلّمني مفاتيح وأوراق السيارة. كان بانتظاري، وكانت أمامه على الأرض حقيبة سفر، وفي يده دفتر كبير بعض الشيء.

حال اقترابي منه، أدى التحية العسكرية قائلًا:

«احترامي لكَ سيادة اللواء، لقد أمرني السيد الوكيل بتسليم هذه الحقيبة إلى حضرتكم، أرجو سيادتكَ أن توقّع لي على استلامها..».
فتح الدفتر بعد أن أزاح القلم الذي كان في داخله ليُسلّمه لي بأدبٍ مبالغ فيه.

وضعتُ توقيعي على الورقة بعد أن قرأت ما هو مدوَّن فيها، ثم عمد الرجل إلى وضع الحقيبة في حوض سيارتي وأدَّى التحية العسكرية مودعًا.

عدتُ إلى غرفتي وبحوزتي مبلغ هائل من دون أن أقابل السيد «الوزير».

❋ ❋ ❋

عند بوابة محكمة البداءة، وجدتُ رجلًا وقورًا بانتظاري. كان يرتدي بدلة سوداء وربطة عنق داكنة الزرقة. كان شرطيان

يقفـان خلفـه. اقـترب مني مـادًّا كفـه للمصافحـة وهـو يسـأل: «هـل حضرتـك السـيد مرهـون الصاحـب؟» أجبتـه بالإيجـاب، ثـم سـألته إن كان يعرفنــي، فنفــى، ولكنـه أشـار إلى سـيارتي وقـال بأنـه يعـرف السـيارة جيـدًا.

عرّفني بنفسـه «حسـين الأسـدي» القـاضي الأول لمحكمـة البـداءة، وأنـه بانتظـاري لإتمـام مراسـيم البيـع، ثـم سـألني: «هـل السـيد جـواد الشَّـكَري حـاضر للتنـازل وبيـع العقـار بشـكل رسـمي؟»

قلـتُ لـه، مخمِّنًـا، إن السـيد الشَّـكَري لا بـد وأن يكـون داخـل بنايـة المحكمـة الآن، وكنـت شـبه متأكـد مـن ذلـك، فـما إن دخلنـا البنايـة حتـى رأيتُـهُ قادمًـا نحـوي وهـو يلـوّح بـالأوراق هاتفًـا: «كل شيء أصبـح جاهـزًا، لقـد جَهّـزت كل شيء».

أُجريـتْ عمليـة البيـع بشـكل سـلس ودون أي متاعـب، حتـى إن الشَّـكَري تعجـب مـن الاهتـمام المبالـغ فيـه مـن قبـل السـيد القـاضي، الـذي سـأل في النهايـة موجّهًـا سـؤاله إلى السـيد جـواد: «هـل اسـتلمت المبلـغ كامـلًا؟» صـوَّبَ الشَّـكَري نظـره نحـوي متسـائلًا، فأومـأت بـرأسي مطمئنًـا لـه، فقـال: «نعـم، والحمـد الله»، وبهـذا أتـم القـاضي البيـع.

خرجـتُ والسـيد جـواد مـن بنايـة المحكمـة متوجهـين إلى سـيارتي، فتحـت صنـدوق السـيارة وأشرت لـه لاسـتلام الحقيبـة التـي تحتـوي عـلى المبلـغ الـذي طلبـه. شـكرني وحمـل الحقيبـة متوجهًـا إلى سـيارته بعـد أن ودّعنـي بحـرارة.

33

3

لم يكـن انزعاجـي وحالـة التشـنّج التـي أصابتنـي وأنـا أشـاهد السـيد «الوزيـر» محـاولًا دس قدميـه في النعـال البلاسـتيكية وليدة لحظـة، أو نتيجة مـزاج لحظـوي متعكـر. الحقيقـة، أن للنعـال قصـة مؤثـرة في حيـاتي، بـل إن للنعـال الأثـر الكبـير في تغيـير مـسرى حيـاتي بشـكل كامـل.

كنـتُ في السـابعة مـن عمـري حـين قُتِـلَ والـدي بطلـقٍ نـاري أثنـاء محاولتـهِ سرقـة بيـت أحـد الأغنيـاء، وكنـتُ برفقـة والـدتي حـين تسـلمتِ الجثـة مـن مستشـفى العاصمـة. وكان العـم «مانـع» قـد اهتـم كثـيرًا بالأمر ولم يفارقنـا لحظـة. كان صديـق والـدي المقـرّب لدرجـة أنـه كان يزورنـا باسـتمرار، حتـى حـين يكـون والـدي غائبًـا عـن البيـت.

كان والـدي حـين مقتلـه يرتـدي قميصًـا أسـود وبنطـالًا مـن اللـون نفسـه؛ لهـذا عَمَلَـتْ بقـع الـدم المتيبّـس عـلى ملابسـه عـلى زيـادة حلكـة السـواد، فظهـر كأفعًـى عظيمـة متباينـة السـواد.

شـاهدتُ ثقبًـا في رأسـهِ، وتحديـدًا أعـلى عينـه اليمنـى، كان الثقـب مسـودًّا أيضًـا، ومـن الواضـح أن عامـل المشرحـة قـد قـام بتنظيف وغسـل وجـه القتيـل مـن الـدم. عرفـتُ فيـما بعـد أنهـا لم تكـن شـهامة منـه أو

عنايـة إنسـانية، بـل مـن أجـل التقـاط صـورة للقتيـل لتبقـى في ملفـه عنـد الشرطـة، وأيضًـا في أرشـيف المستشـفى.

حـين تسـلمنا جثـة والـدي مـن الدائـرة الطبيـة كنـا بمعية ضابـط شرطة أظهـر إعجابـه الشـديد بأمـي؛ حيـث صـار يغازلهـا، ممـا أثـار غضـب العـم مانـع الـذي راح يذكِّـر الضابـط بالمصـاب الأليـم الـذي حَـلَّ بهـذه المـرأة وولدهـا الصغـير.. كنـتُ حينهـا أنظـر في عينـي الضابـط الـذي كان مبتسـماً عـلى الـدوام، ربـما كنـتُ أفتـش عـن مصـدر الوقاحـة واللامبـالاة التـي كان عليهـا. قـام ذلـك الضابـط بالتوقيـع عـلى ورقـة تسـليم الجثـة، فحفظـتُ اسـمه وباتـت صورتـه لا تفارقنـي منـذ ذلـك اليـوم.

اسـتلمنا مـع الجثـة سلسـلة المفاتيـح الخاصـة بـأبي، لم أكـن أعـرف سرّ احتفاظـه بكومـة المفاتيـح، رغـم أن بـاب بيتنـا لم يُقفَـل بتاتًـا! عرفـتُ فيـما بعـد أن مـا مـن مفتـاح مـن هـذه المفاتيـح يعـود إلى بيتنـا، بـل كانـت عـدّة العمـل الخاصـة بوالـدي، مفاتيـح لغـرض السرقـة. والغريب أننا اسـتلمنا، أيضًـا، نعْـليّ والـدي اللذيـن كانـا في قدميـه أثنـاء محاولتـه السرقـة.

نعلان بلاستيكيان بنيًّا اللون.

احتفظـتُ بالمفاتيـح دون أن يسـألني عنهـا أحـد بعـد ذلـك اليـوم، ولكـن، ومنـذ ذلـك اليـوم، بـتُّ أنظـر إلى النعـال وكأنهـا عنـوان مـوت، فـصرتُ أمقتهـا، لدرجـة أننـي أحرقـت كل نعـال كانـت في بيتنـا، فقـد جمعتهـا ورميتهـا في تنـور أمـي. الحقيقـة، كان وقـودًا لا يسـتهان بـه في إيقاد نـار التنـور، لدرجـة أن الخبـز اكتسـبَ مذاقًـا خاصًّـا، لم أذق مثلـه مـن قبـل أو فيـما بعـد. كان خبـزًا خاصًّـا جـدًّا.

كنتُ أحبُّ العم مانع؛ فقد كان يُقدم لي الحلوى في كل مرة يزورنا، وكان والدي دائماً ما يلتقيه في ساحة وقوف السيارات التي استأجرها العم مانع من أمانة العاصمة، وصار المسؤول عنها، وأصبحتْ مورد رزقه الوحيد.

بعد أيام من دفن والدي، صار العم مانع دائم الحضور في بيتنا، وبمرور قرابة الستة أشهر تزوج من والدتي، والحقيقة لم أرَ مراسيم زواج أو زفاف، والذي حدث أن والدتي أخبرتني بأن العم صار زوجًا لها، وهو الآن بمثابة أبٍ لي.

قرر العم مانع أن يأخذني معه كل صباح إلى ساحة وقوف السيارات حتى أتعلم السياقة، ذلك ما أغراني به، والحقيقة، كان العرض مغريًا لصبي بعمري..

منذ اليوم الأول، أوكَلَ لي العمُّ مانع مهمة غسل السيارات؛ حيث كان عليَّ أن أسأل أصحاب السيارات إن كانوا يرغبون في غسل سياراتهم. حدث هذا بعد أن أخذني إلى الغرفة الصغيرة المبنية من الطابوق، وسقف معدني من الزينكو الذي كنت أتمتع بصوت قطرات المطر وهي تنهمر عليه في الشتاء، هناك سلّمني سطلًا بلاستيكيًّا أحمر اللون، وكانت في داخله خرق بالية، ثم شرح لي كيف أضع مسحوق الغسيل أو الشامبو في السطل، وأضيف عليه كمية الماء، ثم أقوم بغسل السيارة، بعد أن شرَح لي المراحل المهمة. ومع مرور الزمن أتقنتُ المهنة وصرتُ محترفًا لها..

بعـد فـترة امتـدت لأكثـر مـن عـام، طلَـب مني العـم مانـع أن أبيـت الليـل في الغرفـة بغـرض حراسـة السـاحة، حينهـا أظهـرت لـه ممانعتـي متحججًـا باشـتياقي لوالـدتي، بالإضافـة إلى خـوفي مـن وحشـة الليـل في مـكان موحـش. صفعنـي عـلى رأسي وقـال:

«متـى تصبـح رجـلًا؟ هـل تخـاف وأنـتَ ابـن البطـل الـذي كان يُرعِب كل مَــن عرَفه؟»

بكيـت حينهـا بمـرارة، حيـث تذكـرت والـدي، ولكـن العـم المانـع أصرَّ عـلى بقائـي ومبيتـي في الغرفـة، وطلـب مني ألا أقلـق؛ فهـو سـيكون معـي، وأكـد لي ذلـك..

حملـتْ أمـي مـن العـم مانـع، وبعـد شـهور وضعـت طفلـة جميلـة أسـمتها «وداد»، ومـا إن تخطـت أختـي عامهـا الأول حتـى اختفـت أمـي تمامًـا، اختفـت مـع أختـي، وصـارت الغرفـة في السـاحة مسـكني وملاذي الوحيـد..

وصـار العـم مانـع يسـألني عـن أمـي، وإن كنـت قـد سـمعت أي خـبر عنهـا، فأجيبـه في كل مـرة بالنفـي، وتلـك كانـت الحقيقـة، لكنـه كان كثـيرًا مـا يُظهـر غضبـه منـي، خصوصًـا حـين يـشرب عـدة كـؤوس مـن العَـرق، فيُظهـر اتجاهـي عدوانيتـه. يُجلسـني قبالتـه عـلى صفيحـة، ويخلـع نعلـه البلاسـتيكي، ويبـدأ بـضربي وهـو يحـاول إجبـاري عـلى الاعـتراف بمـكان أمـي الـذي يعتقـد بأننـي أعرفـه، ولا يكتفـي بذلـك، بـل يقـوم بحبسـي في الغرفـة بعـد أن يقفلهـا عـليَّ مـن الخـارج. وتكـررت تلـك الحالـة لمـرات عديـدة، فـصرتُ أكـره كل مفتـاح أراه، باسـتثناء

مفتاح السيارة؛ فقد كنت شغوفًا بالسياقة. كنتُ أصفّ السيارات وأنا أسوقها واقفًا، صحيح أنها أمتار قليلة، لكنها كانت مشوقة، وكنت أشعر بمتعة خاصة وكأنني أحاول الهروب من واقعي المرّ..

صار العم مانع، بعد فترة من هروب أمي، يناديني بـ«ابن الشريفة جدًّا» يصاحبها حركة سافلة من قبضة كفه اليمنى دلالة الطعن بالشرف. في البداية كان يحدث ذلك بيني وبينه، حين نكون وحدنا في الغرفة، ولكنه تمادى كثيرًا، وصار يناديني بهذا النعت أمام الناس وفي ساعات العمل، وكنت أسكت وأنا أنظر إلى نعليه البلاستيكيين، خوفًا من أن يضربني بهما..

حين كان الشوق يهزني لأمي، أصير أنا من يسأل عنها العم مانع، ولكنه كان في كل مرة يقول: «لست خبيرًا بأماكن العاهرات، فلا تسألني مرة أخرى».

❋ ❋ ❋

لم أكن أشعر بوحشة اليتم فحسب، بل كنت حين ألتفت لأجد جمهرة من الأيتام يعبثون بطفولتهم، كنت أصرخ داخل أعماقي: «أنا الأفضل، والأكثر مهارة في اجترار الوجع وارتضاع المرارة!».

❋ ❋ ❋

39

بعـد ثـلاث سـنوات مـن إقامتـي في غرفـة «السـاحة»، وعمـلي فيهـا مراقبًـا وسـائقًا وغاسـلًا للسـيارات وحارسًـا، رغـم صغـر سـني، حـدث في ليلـة مـن ليـالي الشـتاء البـاردة أن زارنـا بعـض أصدقـاء مانـع. دخلـوا الغرفـة التـي بالـكاد اتسـعت لهـم. كانـوا ثلاثـة، وكنـت أعرفهـم، فقـد سـبق وأن رأيتهـم مـع مانـع، ولكـن ليسـوا مجتمعـين كـما في تلـك المـرة، كان أحدهـم هـو الأكثـر زيـارة لغرفتنـا. كان يسـهر مـع مانـع حتـى يتمكـن السـكر منـه فيغـادر منتشـيًا، أمـا الآخـران فكانـا يأتيـان بـين الحـين والآخـر. كنـت أنـا مـن يعمـل لهـم «المـزَّة»، وكنـت غالبًـا مـا أطبـخ لهـم الحمـص أو الباقـلاء؛ كونهـا سـهلة ومحبـذة لديهـم.

بعـد أن اتخـذ كل منهـم صفيحـة معدنيـة للجلـوس، وأمـام كل منهـم صفيحـة أخـرى كطاولـة صغـيرة توضـع عليهـا الـكأس والأطبـاق، وبعـد أن قمـت بخدمتهـم، وصـاروا يكرعـون الـكأس تلـو الأخـرى، غلبنـي النعـاس وقـررت النـوم، فقلـت لمانـع بأننـي سـأنام في الزاويـة حيـث الفـراش الإسـفنجي في مؤخـرة الغرفـة، وكان زوج أمـي ووالـد شـقيقتي منسـدحًا عـلى السريـر الوحيـد عنـد بـاب الغرفـة، ولكـن أحـد الضيـوف طلـب منـي الاقـتراب منـه، وبالفعـل اقتربـتُ منـه ظنًّـا منـي أنـه سـيعطيني شـيئًا كـما جـرت العـادة، لكنـه سـحَبني إلى حجـره وصـار يُداعـب وجنتـي، ثـم حـوَّلَ إحـدى يديـه إلى قفـاي فارتعـد جسـدي.. شـعرتُ حينهـا بـأن شـيئًا كارثيًّـا سـيقع. حاولـت التملـص منـه، ولكنـه بقـي متمسـكًا بي، فلـم يكـن أمامـي إلّا أن أبصـق بوجهـه وأنعتـه بأقـذر النعـوت وأنـا أحـاول الهـرب مـن الغرفـة، وبالفعـل نجحـت بالهـرب

بقفـزة سريعـة فـوق السرير الـذي يضطجـع عليـه مانـع، ومـن ثـم إلى خـارج الغرفـة رغـم محاولـة زوج أمـي الإمسـاك بي..

خبأتُ جسـدي الصغـير خلـف إحـدى السـيارات المركونـة في زاويـة قصيَّـة. لم يخـرج أحـد للبحـث عنـي حينهـا، فبقيـت هنـاك حتـى خـرج الجميـع باسـتثناء مانـع، وعندمـا تأكـدت مـن نومـه، دخلـت الغرفـة ودسسـت جسـدي تحـت الغطـاء، ونمـت باكيًـا.

قبـل بـزوغ الفجـر، شـعرت بركلـة رفعـتْ جسـدي عـن الأرض، وصـوت ينعتنـي بأقـذر الصفـات. حـدث ذلـك بعد أن استيقظ السـكران طلبًـا لإطفـاء عطشـه، وحـين شـاهدني –وكان أثـر الخمرة مـا زال مسـيطرًا عليـه– انهـال عـلي بالـركلات والشـتائم؛ عقابًـا لي عـلى مـا فعلتـه بالرجـل الـذي أراد اغتصـابي، وكنـت أظـن بأنـه سـيكافِئني عـلى فعلتـي تلـك؛ كـوني عرفـت كيـف أحافـظ عـلى كرامتـي وشرفي، ولكنـه قـام بـضربي بوحشـية، ختمهـا بعـدة ضربـات مؤلمـة مسـتخدمًا نعالـه البلاسـتيكية.

أنهكـه التعـب وعـاد إلى سريـره ليكمـل نومـه، وعـدت إلى زاويتـي باكيًـا، يعترينـي الغضـب عـلى الرجـل الذي صـار كابوسًـا في حيـاتي. منذ تلـك اللحظـة، صرت أتـضرع إلى رب العالمـين أن يعيـد إليَّ أمـي، بعـد أن يميـت مانـع، حتـى صـار موتـه مـع مـرور الأيـام أمنيتـي الوحيـدة بعـد أن ذقـت عـلى يـده ونعالـه أعظـم الإهانـات.

لا أدري، وأنـا في العـاشرة مـن عمـري، كيـف قـررت قتـل مانـع، بعـد أن يئسـت مـن اسـتجابة الله لرجائـي، وفكـرت بأكثـر مـن طريقـة، وكانـت أفضـل الطـرق التـي فكـرت بهـا هـي أن أسـكب

قدر الحمص الساخن على رأسه وهو نائم.. ولكني وفي إحدى الصباحات سمعت من أحد أصحاب السيارات الذي نعرفه منذ زمن ليس بالقصير، والذي يمتلك محلًّا تجاريًّا قريبًا من الساحة، حين سأله مانع عن شخص آخر نعرفه أيضًا، كان قد غاب عدة أيام، ولم يعد يركن سيارته عندنا، وكان مانع يريد معرفة ما إذا كان الرجل الغائب قد وجد موقفًا آخرَ لسيارته، فأجابه التاجر بأن الرجل الغائب قد قُتل، حيث قتلته زوجته بسكين المطبخ وهو نائم، غرَستْ المرأة السكين في صدره وجاءت في القلب مباشرة.

صرتُ أقلّب الفكرة في رأسي كثيرًا، وحين اقتنعتُ طلَبت من عمّي أن يشتري لنا سكينًا جديدة؛ كون التي نملكها لم تعد صالحة للعمل، ضحك ودسّ يده في حقيبة النقود الجلدية، وأخرج مبلغًا من المال طالبًا مني الذهاب إلى السوق المجاور لأشتري السكين التي أجدها جيدة، وبالفعل اشتريت سكينًا طويلة بعض الشيء مدببة وحادة، وبمقبض خشبي جميل.

صرتُ كلما أشتغل في السكين لعمل السلطات أو المزَّة لمانع أو من معه، أفكر في السكين ممعنًا النظر بها، ومتخيلًا طريقها الساخن وهي تمر مخترقة صدر مانع.

الحقيقة، لم أستخدم السكين الجديدة كثيرًا، فقد كنت أستخدم القديمة في أغلب الأحيان؛ كي لا تفقد الجديدة حدّة نصلها.. وكنت أستخدمها فقط حين يكون عمي موجودًا..

42

بعد قرابة الأسبوع من شراء السكين الجديدة، شرب مانع العديد من كؤوس العرق، وكان صامتًا ساهمًا ينظر صوبي بعين منكسرة، لم أتبيَّن ما كان يفكر فيه، ولكن، وبعد فترة وهو مستمر على حالته تلك، خرج صوته مرتعشًا وهو يطلب مني مغادرة الغرفة في الصباح الباكر، وألا أعود إليها مرة أخرى، فهو لا يريد رؤيتي مرة أخرى؛ كون حضوري أمامه يذكره بهناء، أمي التي هربتْ منه ومني دون معرفة وجهتها، أو السبب وراء اتخاذها قرار الهرب.

اغرورقت عيناي بالدموع وأنا أنظر صوبه وسألته: «أين يمكنني الذهاب وأنا لا أعرف سوى هذه الغرفة وهذه الساحة مأوى لي؟» لم يجبني، ولكنه مال إلى وسادته وأفرد جسده على السرير طلبًا للنوم.

بقيتُ في زاويتي متكورًا ودموعي تنهمر بصمت، تمامًا كدموع تلك الشمعة المنتصبة على الصفيحة المعدنية وسط المسافة بيني وبين مانع، والتي كانت تسكب ضوءها الباهت على وجهه. تصورت الضوء نفسه وهو يضيء على استحياء وجهي المرتعب الحزين، فشعرتُ بوحشة مرَّة، ووحشة بمرارة غريبة لم أذقها من قبل، ورحت أفكر بأمي التي تركتني عند هذا الرجل الذي صرت أمقُته، وكلما طال تفكيري بأمي ازداد غضبي عليها.. لا أدري كم بقيت على هذا الحال وأنا غارق بتفكيري الذي تغلّفه الوحشة والتيه، حين انتبهت إلى شخير مانع وهو يتردد بإيقاع منتظم، في تلك اللحظة، ودون تفكير مني، حيث شُلَّ تفكيري، وأصبحتُ لا أرى سوى غشاوة

داكنة الصُّفرة أمام عيني، ولهيب وحرارة تنبثق من كتفيَّ.. أخذت السكين الجديدة بيدي اليمنى ماسكًا مقبضها بقوة.. اقتربت من مانع الذي كان نائماً على ظهره وشفتاه تهتزان على نفخات شخيره.. وقفتُ إلى جانبه وقد مسكتُ السكين الجديدة بقبضتيّ الاثنتين، وفي لحظة استجمع جسدي كل قوة فيه، غرست السكين وسط صدره، غارت إلى الداخل، وفتح مانع عينيه وكأنه أمام أكثر مشاهد الدنيا رعبًا، اتسعت عيناه، وشهق شهقة عميقة وعيناه جاحظتان تنظران صوب السقف المعدني، وبعد دقائق معدودات همد دون حراك.

تركتُ السكين مغروسة في صدره، وتناولت حقيبة النقود الجلدية الصغيرة، ثم رحت أبحث عن المفاتيح التي كانت بحوزته؛ حيث فكّرتُ أن أقفل باب الغرفة عليه بعد أن أهرب دون أن أدري إلى أين، ولم أنسَ نعاله البلاستيكية التي أخذتها ووضعتها داخل كيس بلاستيكي، لأضيف إليه حقيبة النقود الجلدية الصغيرة، أما سلسلة المفاتيح، فقد دسستها داخل الكيس أيضًا، ولكن بعد أن أقفلت القفل المعلق على باب الغرفة من الخارج. إنها المرة الأولى التي أحبس فيها «مانع» وحيدًا في الغرفة، وكأنني أثأر لدموعي وألمي ووحشتي التي كنت أعيشها حينما كان يحبسني بالغرفة لساعات طوال.

توجهتُ بخطواتٍ سريعة متجهًا نحو الجسر. عرفتُ حينها أن الوقت يقترب من الفجر؛ حيث سمعت أذان الفجر الذي

زاد من وحشتي وخوفي، وحين وصلت تحت الجسر جلست منتظرًا شيئًا لا أعرفه.

❋ ❋ ❋

عند السابعة صباحًا، توجهتُ إلى بستان يقع على حافة النهر، وفي طريقي اشتريتُ خبزًا وجبنًا، وقنينة عصير أحمر اللون ليس له طَعمُ أي فاكهة أعرفها.

دخلتُ البستان وجلست تحت نخلة قريبة من سوره الطيني. تناولت طعامي، ثم أخرجت حقيبة النقود، وأخذت حفنة من دراهمها ودسستها في جيبي، أغلقت الحقيبة وأرجعتها إلى الكيس، وحين اصطدمت أصابعي بسلسلة مفاتيح مانع، أخرجتها، لأجد أنها تحتوي على قطعة معدنية تضم مجموعة مفكات للبراغي بأحجام مختلفة، بالإضافة إلى سكين صغيرة وقلامة أظافر.

أدخلتُ يدي في جيبي الآخر؛ لأنني تذكرت مفاتيح والدي التي لم تفارقني لحظة واحدة منذ أكثر من ثلاث سنوات، حينها وردتْ في رأسي فكرة دفن الكيس البلاستيكي عند السور الطيني. وضعت مفاتيح والدي في الكيس، وكذلك مفاتيح مانع، بعد أن أخرجت جامعة المفكات منها، بالإضافة إلى حقيبة نقود مانع ونعاله البلاستيكية، ثم عقدت رأس الكيس جيدًا، وبدأت أحفر حفرة جنب السور مستخدمًا المفكات الصغيرة، وحين أصبحت

الحفـرة جاهـزة، بعـد أن اسـتمرت عمليـة الحفـر لأكثـر مـن سـاعة، وبعـد جهـد عظيـم، وضعـتُ الكيـس داخـل الحفـرة، وأعـدت الـتراب عليهـا، ثـم دككتـه جيـدًا، وحينهـا فكـرت أن أرسـم شـيئًا عـلى الجـدار الطينـي؛ كـي يدلّنـي عـلى الكيـس حـين أحتاجـه مـرة أخـرى. بـدأت برسـم دائـرة، ثـم جعلـت لهـا عينـين، وصرت بعـد ذلـك أُخطـط دون وعـي مني حتـى اكتمـل وجـه فتـاة صغـيرة، وجـه دون ألـوان، تميـزه خطـوط محفـورة بطـين جـفّ مـن زمـنٍ بعيـد. تراجعـت خطـوات إلى الـوراء وتأكـدت بأنني رسـمت وجـه أختـي في عمرهـا الحـالي، رغـم أني لم أرهـا منـذ فـرار أمـي.

جلسـتُ بعـد ذلـك متأمـلاً مـكان الحفـرة، ثـم فتحـت قنينـة العصـير وشربـت كل مـا كان بداخلهـا..

أفـردت جسـدي الصغـير عـلى الأرض، ونمـت نومًـا عميقًـا، لا أعـرف كـم امتـد زمنـه، ولكـن الـذي أعرفـه هـو أنني أفقـت مفزوعًـا عـلى رفسـة مـن قـدم ضابـط شرطـة، راح يشـتمني ويكيـل لي الصفعـات عـلى رأسي ورقبتـي، ثـم حملنـي ككلـب صغـير بـين يديـه، واتجـه بي إلى السـيارة التـي كانـت متوقفـة إلى جانـب الجـدار الطينـي، وكان معـه شرطيـان، وشرطـي ثالـث كان يقـود السـيارة.

أدخلنـي الضابـط داخـل السـيارة بعـد أن صفعنـي عـدة صفعـات ناعتًـا أمـي بالزنـى وبأنني ابـن حـرام.. تذكـرت صـورة الضابـط الـذي صـار يغـازل أمـي حـين كانـت تسـتعدّ بحزنهـا وشـحوب وجههـا لاسـتلام جثـة والـدي القتيـل. ضغَطـتُ عـلى أسـناني وراحـت دموعـي

تنهمـر سـاخنة.. في تلـك اللحظـة شـعرت بغربـة حالكـة السـواد، ولا أدري بـأن تلـك الغربـة قـد عشـقتني منـذ تلـك اللحظـة، وأنهـا قـررت عـدم مفارقتـي، ومنـذ تلـك اللحظـة، صـارت الحيـاة بـكل كـرمٍ، تُغـدق عـلى روحـي مـرارة الغربـة والقسـوة.

4

كعصفـورٍ خائـفٍ، مرتجـفٍ مـن بـردِ ليلـةٍ ثلجيـة، كنـت أقـضي الدقائـق الثقيلـة واللزجـة كقطـرات قـير سـاخن، ولا أدري كـم دقيقـة مـرة خـلال الأيـام السـبعة التـي قضيتهـا في تحقيقـات مصاحبـة للـضرب والإهانـة، ونعْتِـي بأقـذر النعـوت، خصوصًـا بعـد أن عرفـوا بأننـي لا أعـرف مـكان أمـي وأختـي، وأنهـا هربـتْ لأسـباب أجهلهـا. كنـت أنـام خائفًـا مرتجفًـا في غرفـة صغـيرة بأرضيـة كونكريتيـة بـاردة، خاليـة مـن أي قطعـة فـراش، حيـث كنـتُ أفكّـر مرعوبًـا بالإعـدام كعقوبـة وحيـدة لفعلتـي؛ لذلـك كنـت أُنكـر قتـلي لمانـع بشـدة وإصرار، ولكنـي اعترفـت بأننـي كنـت أجـيرًا عنـد مانـع، وأننـي هربـت منـه حـين أراد اغتصـابي، تركتـه هاربًـا ولم أقتلـه.

بعـد الأيـام السـبعة تلـك، تركـوني وحيـدًا في الغرفـة الصغـيرة ثلاثـة أيـام إضافيـة. لا أحـد ينـادي باسـمي أو يهـزأ مني، كان «عـلي» الشرطـي يـدسّ لي طبـق الطعـام المعـدني مـن تحـت البـاب الحديـدي مرتـين في اليـوم.

كنت أرى الشرطي علي، الذي كان برتبة عريف، وكأنه المسؤول عني، فهو من تسلَّمني لحظة القبض عليَّ ودخولي مركز الشرطة، وهو من يتولّى توصيل الطعام لي، وكان يحزن كثيرًا حين يتم تعذيبي بغية الاعتراف بجريمتي. هو من كان يأخذني من غرفة السجن إلى التحقيق، وهو أيضًا من كان يعيدني إليها. وفي آخر مرة، قبل يوم الاعتراف بيوم واحد، فُتِحَ عليَّ باب الغرفة ليلًا، لا أدري إلى أي رقم كانت تشير عقارب الساعة المعلقة على جدارٍ لا أعرفه. كنت نائماً، وقد استيقظت فزعًا على قرقعة الباب الحديدي، لأشاهد الشرطي علي واقفًا أمامي بكامل ملابسه العسكرية. هممت بالوقوف، فأشار إليَّ بعدم الحركة. بقيت متمسكًا بالأرض ورحت أنظر بوجهه، لاحظت عينيه محمرتين ووجهه شاحبًا. لن أنسى ذلك الوجه ما حييت، كان في تلك الليلة يحمل همًّا وحزنًا عميقين. نظر إليَّ طويلًا وقال:

«بعد قليل يأتي إليك ملازم حاتم، عليكَ أن تسمع كلامه ولا تجادله، وأريدكَ أن تعدهُ بتنفيذ كل ما يطلبه منكَ.. مفهوم؟»
ارتجف جسدي وشعرت بدوار يلفّني، لقد كان مجرد ذكر اسم حاتم يصيبني بالفزع، لكثرة ما ذقت على يديه من إهانة وتعذيب. بقيتُ ناظرًا في عيني العريف علي، ثم اغرورقت عيني بالدموع حين هممت بسؤاله:

«هل سيعدمونني؟»

أطلقَ ضحكة ثم قال:

«أنـتَ صبـي شريـف، ومثلـكَ لا يُعـدَم، أنـت شريـف رغـم كل المصائـب التـي عشـتها.. سـتعيش طويـلاً، فمثلـك لا يمـوت بسـهولة.. فقـط اسـمع كلام المـلازم حاتـم، وتمسَّـكْ بشرفـك وكرامتـك مهـما كانـت الظـروف..!»

خـرج العريـف عـلي بعـد أن طمأننـي، ولكـن كيـف تعـرف روحـي الاطمئنـان وأنـا سـأقابل الضابـط في هـذا الليـل الموحـش؟

بعـد قرابـة العـشر دقائـق فُتِـحَ بـاب الغرفـة مـرة أخـرى، ودخـل المـلازم حاتـم يرتـدي دشداشـة بنيـة غامقـة، وينتعـل نعـالًا بلاسـتيكية رماديـة اللـون. ارتعبـتُ متكـورًا حيـث الزاويـة وكأن جسـدي يسـتعد لتلقـي الـركلات، وارتعبـت أكثـر حـال وقـوع نظـري عـلى النعـال..

وقـفَ المـلازم حاتـم أمامـي. كانـت يـده اليمنـى تمسـك دشداشـته عنـد مـكان رمـز ذكورتـه الـذي صـار يداعبـه بشـكل واضـح ومخيـف، مـع حالـة صمـت مرعبـة لم تـدم طويـلاً، حيـث قـال:

«إذا لم تعـدني الآن، بأنـك سـتعترف غـدًا بجريمتـك، فسـوف أغتصبـك..!»

ارتجـف جسـدي، وجحظـت عينـاي خوفًـا، أردت أن أقـول شـيئًا، ولكـن فمـي جـفَّ بسرعـة هائلـة وتعـذر عـليَّ النطـق، ثـم أكمـل المـلازم كلامـه:

«إذا وعـدتي الآن بأنـك سـتعترف غـدًا بـكل الحقيقـة فسـأتركك تنـام بسـلام، ولكـن إن رفضـت فسـأغتصبك الآن! فـماذا تقـول؟»

لا أدري كيف خرجت الكلمات من جوفي وأنا أعده بالاعتراف غدًا.. ضحك ضحكة مجلجلة وقال:

«كنتُ أعرفُ بأنكَ شريف وتريد الحفاظ على شرفك.. ولكن إن نكثت الوعد فسأغتصبك دون تردد.. مفهوم؟»

أومأت برأسي موافقًا وأنا أتذكر ملامح العريف علي وكل كلمة قالها..

خرج ملازم حاتم «يشحط» بنعاله وهو يقول:

«نم، نوم العوافي ابن العاهرة».

❁ ❁ ❁

فُتِح الباب بجلجلة مفزعة، حدث ذلك مع بداية الصباح، ربما كانت السادسة صباحًا.

دخل الشرطي علي بكامل ملابسه العسكرية وطلب مني التهيُّؤ للخروج نهائيًّا من هذا المكان «القذر»، حسب تعبيره، فاليوم هو يوم المحاكمة.

قادني بعنف سحبًا ككيس قمامة وهو يمسك بيدي اليسرى، وكان ينظر صوب الملازم حاتم، فعرفت أنه ينفذ الأوامر. جرني إلى الخارج، وحمَلني ثم رماني في غرفة أو قفص حديدي كبير مبني على ظهر سيارة عسكرية، ثم صعد هو الآخر ليجلس قبالتي محدّقًا إليَّ، مبتسماً.. حينها

سمعت أن باب القفص قد تم قفله من الخارج.. «يا إلهي، كم كرهت الأقفال!»

بعد أقل من ساعة، فُتِحَ باب القفص مرة أخرى، بعد توقف السيارة وسماع قلقلة القفل واحتكاك السلاسل. طلب منا الملازم حاتم النزول، يبدو أنه كان يجلس إلى جانب السائق، وهو من قفل وفتح باب القفص الحديدي.. مسك العريف علي بيدي مرة أخرى، وكانت قبضته مؤلمة جدًّا، سحبني إلى الأسفل حتى مسَّتْ قدمَيَّ الأرض، ثم سار بي عدة خطوات لندخل بناية كبيرة، واسعة، مكتظة بالبشر. عرفتُ بعد ذلك بأنهم ينتظرون المثول أمام القاضي للنطق بالحكم، وكان معهم بعض الأقارب.

حين وقفتُ أمام القاضي، كدتُ أبول على نفسي خوفًا، حين نظر القاضي صوبي بنظرة حقيرة غاضبة، ولم يرفع نظره عني حتى بعد أن تحدث أحد الرجال عن أشياء لا أعرفها، وحين انتهى الرجل من كلامه، اعتدل القاضي بجلسته دون أن يحيد نظره عني، ثم سألني:

«هل أنتَ مرهون عيسى صاحب؟» تملكني الخوف وحاولت النطق، ولكن لا أدري كيف خرجت من فمي كلمة واحدة:

«أي».. جاءتني صفعة من الخلف تبينت أنها يد علي الشرطي، حين قال:

«قل نعم سيدي!»

فقلت: «نعم سيدي».

«هل أنتَ من قتل المجني عليه المدعو مانع حفظي سدهان؟»

«نعم سيدي».

ثم سألني القاضي بعض الأسئلة التي أجبت عليها كلها، بنفس العبارة التي أمرني بها العريف علي..

وبعد لحظة صمت، نطق القاضي بالحكم، حيث قرر إيداعي سجن الأحداث لمدة ثماني سنوات.

❋ ❋ ❋

في سجن الأحداث، تعلمتُ القراءة والكتابة، كما تعلمتُ الدفاع عن النفس بكل الطرق المتاحة، وتعرضتُ إلى محاولات اغتصاب عديدة من قبل الأحداث الذين كانوا أكبر مني سنًّا، لكنني، وفي كل مرة كنت أنجو بطريقة ما.

في نهاية إحدى حصص تدريس السجناء الأميين من أمثالي، بقيتُ في المكتبة التي كنا ندرس فيها، ولم أخرج مع بقية الأحداث. نظر الأستاذ عدنان الندائي صوبي وسألني إن كنت أريد أن أقول شيئًا.. نظرتُ في عينيه وقلت:

«أريد أن أتعلَّم».

ضحك الأستاذ وقال: «أنت تتعلم بالفعل، وأنتَ من أهم طلابي، أنت شاطر وتتعلم بسرعة، فماذا تريد أكثر من هذا؟»

«أنا لا أقصد القراءة والكتابة فقط.. بل أريد أن أتعلم الثقافة..».
ضحك الأستاذ مرة أخرى، ولكن الدهشة كانت واضحة على ملامحه، فسألني:

«ومن أين تعلمت هذه الكلمة؟»

«منكَ.. فأنتَ قلت لنا في أول يوم حضرنا عندك.. إن الإنسان المثقف يكون محترمًا دائماً».

عندها قال الأستاذ كلامًا عميقًا لم أفهمه:

«أنتَ تبحث عن الاحترام من خلال الثقافة، وهذا يذكّرني بشريحة كبيرة من مجتمعنا كانت تعاني التهميش والازدراء من قبل المجتمع، فطلبوا الثقافة ليتخلصوا من عقدتهم تلك.. إن طلب الثقافة والسعي إليها بجد ومثابرة شيء جميل، ولكن إياك والادّعاء والكذب في مجال الثقافة، وتذكَّر بأنكَ ستكون مسخًا حين تمارس هاتين الخصلتين الذميمتين..!» ثم استدرك وكأنه يعود إلى وعيه أو يعود إلى واقعه المتقيّح، فأضاف:

«طيب، الآن فهمت قصدكَ.. الأمر بسيط، فأنت تمتاز بقابلية الحفظ السريع.. سوف أعطيك بعض القصص لتقرأها، هل يرضيك هذا؟» وقفتُ صامتًا وأنا أنظر إليه، وحين طالت فترة الصمت قال:

«هل هناك شيء آخر؟»

«نعم أستاذ.. أريدكَ أن تبقيني في المكتبة أطول وقت ممكن، فهناك من يحاول اغتصابي..!»

ارتعد الأستاذ عدنان وقال صارخًا وكأن شيئًا قد احترق داخله: «اغتصاب! هنا؟! كلكم أطفال، فمن هذا الذي يريد اغتصابك؟»

❋ ❋ ❋

كان الأستاذ عدنان قد دخل السجن بتهمة قتل زوجة أبيه الأرملة، وقد حُكِمَ عليه بالسجن المؤبد، وبعد خمس سنوات قضاها في السجن ولحُسن سلوكه، وشهادة إدارة السجن بأخلاقه العالية وهدوئه، انتُدِبَ ليكون مدرسًا للصبيان السجناء من الأميين، وكذلك المسؤول عن مكتبة سجن الأحداث.

لم تكن حياته سهلة، فقد اتُّهِمَ وهو في شبابه بالجنون؛ كونه كان كثير القراءة.. «إنها ضريبة المجتمع الأمي التي يدفعها المثقف أو المُحب للثقافة على أقل تقدير..!» هذا ما قاله لي في وقتٍ لاحق.

عدنان الندائي، الشاب المسكين الذي كان نادرًا ما يختلط بأقرانه، وإذا صادف وتبادل الحديث مع أحدهم، فإنه يتحدث عن آخر كتاب قرأه، أو عن أهمية الحريّة والنظر للحياة والتعامل معها بجدية، وضرورة الثقافة في بناء الروح البشرية.. وهذا ما دفع بأقرانه لنعْتِه بالجنون.

حين تخرَّجَ من الثانوية بمعدل عالٍ، اختار قسم الفلسفة، وصار طالبًا في الجامعة، وحين عرَف أقرانه بدراسته للفلسفة صار اسمه «الفيلسوف المجنون»؛ لذلك حين قُتِلَتْ زوجة أبيه وولدها البالغ من العمر عشر سنوات، لسبب لا يجهله هو، اتُّهِمَ عدنان بقتلها وقتل أخيه غير الشقيق. ونظرًا لسكوته المطبق، وعدم الردّ على أسئلة المحققين والقضاة، وهلوساته الكثيرة حول الظلم وأحكام المجتمع القاسية، وضرورة التخلص من التخلّف، أُثبِتَتْ عليه التهمة وحُكِمَ بالمؤبد.

هذا ما قاله لي الأستاذ عدنان وهو يعدُّ لي كمَّ الضرائب التي على المثقف أن يدفعها في مجتمع تسوده الأمية والشعوذة، حيث صارت لي معهُ جلسات عديدة حدثني فيها عن منابع العلم والثقافة، وأهم شيء تعلمته منه، بالإضافة إلى القراءة والكتابة، هو القدرة على تحليل الشخصية، فقد تعلمتُ منهُ تفسير حركة اليدين والعينين، والسبب الكامن وراء التحدث بصوتٍ عالٍ من قبل بعض الأشخاص، بينما آخرون يتحدثون ببطء وروية، وبكلمات واضحة مفهومة.

بمساعدة الأستاذ عدنان الذي استطاع أن يجد لي عملاً ثابتًا في المكتبة، حيث أقنَع إدارة السجن بحاجته إلى خدماتي في تنظيف المكتبة والاهتمام بتوفير مستلزمات الدروس للطلبة؛ تعلمتُ القراءة والكتابة، وأصبحتُ شغوفًا بالقراءة حين تمكنت منها. قرأت كل شيء، وكنتُ أحفظ ما كنت أقرأ، وحين اكتشف الأستاذ موهبتي في

57

الحفظ السريع والذاكرة القوية أو «الفولاذية»، كما كان يسميها، صار يختبرني بشكل يومي، حتى إنني حفظت له قصائده، على أمل أن يخرج من السجن ويُصدرها بديوان.

صارت موهبتي في الحفظ وسيلة تسلية عند الصبيان السجناء، خصوصًا في أمسياتنا الليلية؛ حيث كان عملي في المكتبة يقتصر على النهار فقط، من السابعة صباحًا حتى الثالثة ظهرًا، وبعد ذلك تنتهي حصة الثقافة، لأدخل في حصة الكذب والخداع والصراعات والدفاع عن النفس، ومشاكل قد تصل أحيانًا إلى التهديد بالقتل. كان عليَّ -وحسب الاتفاق مع ضابط الأمن- أن أخرج من المكتبة متوجهًا إلى مكتبه مباشرة؛ كي أخبره شفاهيًّا بتقريري اليومي عن الأستاذ عدنان والحصص التعليمية التي أعطاها للطلبة، والأهم من ذلك الأحاديث الجانبية التي كانت تجري بين الطلبة السجناء، بالإضافة إلى أسماء الكتب المستعارة واسم المستعير. كنت أخبره بما أعتقده جيدًا ولا يخالف الحقيقة، ولكني لم أخبره بخصوصية التعليم التي كانت قائمة بيني وبين الأستاذ عدنان، الذي كان يعرف بالمهمة التي أوكلها لي ضابط الأمن.

حين أخرج من غرفة ضابط الأمن، أتوجه صوب المحجر الخاص بي وخمسة عشر سجينًا حدثًا مثلي، وهناك تبدأ المشاكل، حيث توزيع الواجبات في التنظيف والطبخ وإعداد الشاي وغيرها.. كان سعدون أكبرنا سنًّا؛ لذا صار المسؤول عنا، فهو من يوزع علينا المهمات، وهو أيضًا من كان يعاقبنا. كنت أكرهه، وكان يتجنبني

أحيانًـا لأنـه كان شـبه متأكـد مـن علاقتـي بضابـط الأمـن، ولكنـه كان يختلـق لي المشـاكل بـين حـين وآخـر، وكلهـا مشـاكل تافهـة جـدًّا..

في أمسـيةٍ كنـتُ مـع بعـض الأحـداث مجتمعـين نتسـلّى بالنـكات والضحـك، وكذلـك اختبـار موهبتـي في الحفـظ، قـال سـعدون بأنـه سـيعطيني جملـة صعبـة، وأنـه متأكـد مـن عـدم مقـدرتي عـلى إعادتهـا عليـه بعـد نصـف سـاعة. صـاح الصبيـان بفـرح، أن أقبـلَ التحـدي، فوافقـتُ. حينهـا اشـترط سـعدون عـليّ أن يُسـمعني الجملـة همسًـا في أُذني. وبعـد جـدال بـين رفـض وقبـول، وافقـتُ عـلى شرطـه، فهمَـس في أذني جملتـه: «أنـا أكـره الكبـير، الكبـير قتـل أبي وأخـي، وأُخطـط كل يـوم لقتلـه!» وحـين حـلّ موعـده ليسـمع مني مـا أمـلاه عـليَّ، قلـتُ لـه الجملـة كاملـة دون زيـادة أو نقصـان، ومـا إن قلـت الكلمـة الأخـيرة مـن جملتـه، حتـى انتفـضَ صارخًـا بي:

«أيهـا الحقـير، مـاذا تقصـد؟.. هـل تقصـد أنـك تكـره السـيد الرئيـس؟.. هـل تريـد قتـل الرئيـس؟»

ارتعـدَ جسـدي خوفًـا، وصرتُ أتلمَّـس في كلماتـه وحركـة جسـده مـوتي، فلـم يخطـر ببـالي أنـه خطـط لإيقاعـي بأمـر بهـذه الخطـورة.

نهضـتُ مـن مـكاني وصفعتـهُ صفعـة طرحتـهُ أرضًـا، فـراح يـصرخ ويبكـي ويتلـوى. صحيـح هـو كان أكـبر منـي سـنًّا، ولكنـي كنـت أضاهيـه بالبنيـة الجسـمانية، بـل كنـت أطـول منـه قليـلاً..

أتـى السـجان رافعًـا هراوتـه.. وفي هـذه الأثنـاء اقتربـت مـن رأس سـعدون وهمسـت بأُذُنـه:

«إذا تفوهت بكلمة فسوف أقتلك.. التزمِ الصمتَ لأغفر لك مخططك التافه».

نظر السجَّان إلى سعدون وهو ممدَّدٌ على الأرض يتلوى، فقلت له بأن سعدون يشكو من ألم في بطنه وعلينا نقله إلى طبيب السجن.

تم نقله إلى غرفة الدكتور كريم طبيب السجن، الذي كان سجينًا هو الآخر، ولا أحد يعرف ما هي تهمته.

بعد نصف ساعة عاد سعدون سالمًا معافًى، إلا من لطخة حمراء على صدغه استطعت أن أرى فيها آثار أصابعي، ومنذ ذلك الحين صار سعدون تحت سيطرتي أو لنقل إمرتي.

بعد ثلاث سنوات من تعليمي وعملي في المكتبة، اختفى الأستاذ عدنان الندائي، ولم نعد نراه في غرفة المكتبة الواسعة نسبيًّا والبائسة بكل تأكيد، وهذا ما دعاني إلى مفاتحة ضابط الأمن بخصوص سير الدروس، فقال بأن إدارة السجن ستصدر أمرًا بتعييني أنا الصبي «مرهون الصاحب» مدرسًا للغة العربية؛ كون أغلب الطلاب من الأميين، وأكون أيضًا المسؤول عن المكتبة حتى يتم تعيين مدرس آخر من قبل الجهات العليا، وأخبرني أيضًا بأن ذلك ما أوصى به الأستاذ عدنان قبل ترحيله إلى سجنٍ آخر.

الحقيقة، لم تكن إدارة السجن مهتمة بالتعليم كثيرًا، بقدر اهتمامها بالتقارير التي أوصلها لهم، فقد كانوا على يقين بأن السيطرة الأمنية أهم بكثير من أي شيء آخر.

وجدتُ نفسي في حيرة وارتباك. هل من الممكن أن أكون معلماً وأنا من دخل السجن وهو لا يعرف القراءة والكتابة؟ ذلك السؤال وأسئلة أخرى كانت تجول في رأسي الصغير بضجيج رتيب مثل ناعور قديم.

وحين حلت ساعة التدريس، وجدتُ حلًّا مؤقتًا، وهو أن أتقمص شخصية الأستاذ الندائي الذي أحببته وحفظتُ عنه الكثير. ومنذ الدرس الأول نجحت في السيطرة على التلاميذ السجناء، بعد أن أخبرتهم بأن ضابط الأمن قد كلفني بنقل كل صغيرة وكبيرة له، وأن هناك مكافأة لمن يثبت حسن تصرفه وتعلمه.

منذ ذلك اليوم، صارت أيامي تتلاحق بين التدريس والمكتبة والقراءة نهارًا، وكتابة التقارير عن الصبيان السجناء، والوشاية وحياكة الدسائس والمؤامرات ليلاً.

❋ ❋ ❋

قرأت أكثر كتب المكتبة، بل وهناك بعض الكتب قرأتها لأكثر من مرة وحفظتها، خصوصًا تلك التي أوصاني بها الأستاذ عدنان، ومع مرور الأيام صرت أطلب من ضابط الأمن تزويد المكتبة ببعض الكتب الموجودة في السوق، والتي لا تتوفر في مكتبتنا، وقد أقنعته بأن الانشغال في القراءة يقلل من المشاكل بين السجناء. ومع استلامي لعدد لا بأس به من الكتب، صارت قراءتي أكثر تعمقًا.

بعد مضي سنتين على عملي في المكتبة، والتدريس الذي كان

مقتصرًا على تعليم الحروف الأبجدية لمن لا يعرف القراءة والكتابة، وكيفية صياغة الكلمات لتعطي معناها، وبعد نهار متعب، ومساء أكثر شقاءً، حيث قمنا بغسل الملابس وتنظيف العنابر تحت أوامر العساكر وضربهم لنا أحيانًا؛ هرعتُ إلى فراشي، وما هي إلا دقائق حتى غفوت بعمق، ولكني وبعد فترة لم أتبيّنها، شعرت وكأنني في كابوس مميت، سرعان ما تبيّن أنه واقع، فهناك من يحاول خنقي. تحركتُ قليلًا ولكني لم أستطع، ثم شعرتُ باختناق، انتفض جسدي هلعًا، فتبيَّنت أن شخصًا قد التصق بي من الخلف وهو يضع خرقة على فمي كي لا أصدر صوتًا. شخص ما كان يريد اغتصابي، هذا ما فكرت به لكثرة حدوث هذه الأفعال داخل السجن.

استطعت التخلص منه، وصرت قبالته مباشرة. عرفتُهُ، كان حازم، السجين الذي التحق بنا منذ أسبوع واحد فقط، كان أكبر مني سنًّا. كان على مشارف الثامنة عشرة، وأنا ابن الخامسة عشرة، كان أطول مني قليلًا، ولكنه نحيف جدًّا، وكنت أعتقد بأن نحافته اللافتة جاءت نتيجة التدخين الشره مذ كان طفلًا.. وقفتُ أمامه محذرًا، وأنه سيكون غدًا بين يدي من لا يرحم. ضحك وقال كلمة لا تزال ترنُّ في أذني:

«مهما يكن، سأنال منك، يا حلو!»

في الصباح، كان حازم أحد طلابي، جالسًا في الفصل الدراسي ودفتره أمامه. طلبتُ منه أن يكتب بعض الكلمات. ضحك وقال مستفهمًا:

«كيف للصغار أن يعلموا الكبار؟»

فقلت لـه بـأن الكبـار إذا كانـوا غـير متعلمـين فهـم صغـار مهـما طال بهـم العمـر. الحقيقـة كنـت أفـور غضبًـا عليـه، كانـت سـحنته تثـير فيَّ رغبـة غـير إنسـانية، لقـد تمنيـت قتلـه.

بعـد الظهـر، ذهبـتُ إلى مكتـب ضابـط الأمـن وقدمـتُ لـه التقريـر شـفاهيًّا، وكان مـن ضمـن التقريـر مـا حـدث لي مـع حـازم في الليلـة السـابقة، ومـا كان مـن الضابـط إلا أن رفـع الميكروفـون وفتـح الـزر الخـاص بمكـبرات الصـوت، ونـادى عـلى حـازم حـداد للحضـور إلى غرفـة ضابـط أمـن السـجن، ثـم أشـار لي بالخـروج ولم أعـرف مـا حـدث بعـد ذلـك، غـير أننـي، وبعـد مـرور قرابـة السـاعة، شـاهدت حـازم وهـو يدخـل محمـولًا بأيـدي الحـرس الذيـن ألقـوه هامـدًا عـلى الأرض. كانـت آثـار التعذيـب واضحـة عـلى كل جسـده؛ عينـاه متورمتـان، وشـفتاه مدميتـان، ولكنـه كان يتنفـس.

❋ ❋ ❋

كنـتُ أشـعر بمكابـدات بعـض السـجناء الذيـن لا يحظـون بزيـارة الأهل أو المعـارف؛ لأننـي كنـت أحدهـم، ولكنـي أعـرف أن لا عائلـة عنـدي، وبالتـالي لا أتوقـع زيـارة أحـد؛ لـذا لم أكـن مكترثًـا لتلـك الحالة، لكنهـا كانت تشـكل مصـدر إحبـاط وتعاسـة لبعـض السـجناء، بـل كانـت تغـدق عليهم الشـعور بالوحشـة والغربـة. وتحـت تأثـير ذلـك الشـعور، أصبـح قسـمٌ منهم أكثـر شراسـة وعدوانيـة، بينـما نحا القسـم الآخـر إلى الخنـوع والتملّـق وتنفيذ الأوامـر بـكل إخـلاص؛ بغيـة حمايـة أنفسـهم مـن الإهانـات أو الغـدر.

عرَفت خلال أحاديثنا المسائية مقدار ذلك الخوف المتجذِّر داخل أرواحهم؛ الخوف من كل شيء، فهم عُرضة للاعتداء والإهانة بشكل مستمر وسافر، خصوصًا من قبل السجَّانين وإدارة السجن، وهناك من قال بأن السبب وراء ذلك يعود إلى عدم استفادة إدارة السجن من السجناء الذين لا يحظون بالزيارات؛ كون الإدارة غالبًا ما تحصل على بعض الأموال كـ«رِشًا» من قبل أهل السجناء، والتي غالبًا ما يمنحونها صاغرين إلى الإدارة ثمنًا لبعض التوصيات.

ولكن الغريب، أن أحدهم أشارَ إلى حالة مرعبة، وقد أثنى على قوله العديد من السجناء الحاضرين؛ إذ أشار إلى أنه من السهل جدًّا بيع السجين الذي لا أهل له إلى خصومه أصحاب الثأر أو أعدائه، وقد حدَث هذا الأمر كثيرًا..

لم أكن مصدقًا ما سمعت، حتى مَثُلْتُ أمام النقيب ضياء، ضابط أمن السجن، بعد أن أنهيتُ وقت التدريس وأقفلت المكتبة لأسلمه التقرير اليومي كما جرت العادة.

طلب مني السيد النقيب الجلوس، ثم طلب تأجيل سرد حيثيات التقرير اليومي، كونه يريد التحدث معي بأمر مهم.

كنت مصغيًا إليه حين أخبرني بأن هناك سجينًا يشكو من مرض مزمن، وهو لا يعرف بمرضه، فقد شخَّصَ الدكتور كريم المرض، ووجد أن من الضروري نقله إلى المستشفى لإجراء عملية جراحية له، شريطة ألّا يعلم السجين بالأمر، كونه سيتسبب

في مضاعفة خطورة المرض؛ لذا راح يسألني إن كنت مستعدًّا للمساعدة في تخدير السجين حتى يتم نقله إلى المستشفى دون أي مشاكل.

«أنا تحت أمرك سيادة النقيب، فقط دلني على الطريقة..». تلمست الفرح في عيني نقيب ضياء حالما سمع كلماتي، وسرعان ما راح يشرح لي الخطة:

«تذهب إلى غرفة الدكتور كريم، وتتسلم منه عبوة صغيرة عبارة عن قطرة عيون، ولكن بداخلها مخدِّر، خمس قطرات كافية لتخدير الإنسان، تضعها في قدح الشاي وتسقيه للشخص المطلوب.. هل هذا صعب عليك؟».

«لا أبدًا.. أنا متأكد من أنني سأُتِمّ العملية بنجاح».

ابتسم السيد النقيب، ورفع هاتفه مبشرًا الدكتور كريم بموافقتي واستعدادي لمساعدة المريض. وبعد أن أعاد سماعة الهاتف إلى مكانها، أخبرني بأن الدكتور كريم هو من رشَّحني لهذه المهمة، ثم طلبَ مني الذهاب إلى غرفة الدكتور كريم لاستلام عبوة المخدِّر، وحين سألته عن اسم الشخص المريض، أخبرني بأن الدكتور كريم سيخبرني بذلك.

أجريت المهمة بنجاح، فقد خدَّرت السجين كما شرح لي الدكتور كريم مُشدِّدًا على إسقاء السجين كوب الشاي، حين يكون جميع السجناء خارج العنبر، ولكني استدعيت السجين إلى المكتبة بعد خروج السجناء التلاميذ، وأسقيته الشاي بحجة أنني ارتحت له

وأريـد التحـدث معـه في أمـر مهـم، رحـتُ أسـأله عـن صحتـه وهـل يشـكو مـن مـرضٍ معـين، كـوني أحظـى باحـترام طبيـب السـجن ويمكننـي مسـاعدته، ولكنـه نفـى أي عـارض صحـي قـد تعـرض لـه خـلال السـنة الماضيـة، وراح يحدثنـي عـن والـده الـذي قُتِـلَ في الحـرب، وكيـف كان يتمتـع بصحـة عظيمـة وبنيـة جسـمانية متميـزة، وأنـه قـد ورثهـا عـن والـده، وسـيكون نسـخة مـن والـده عندمـا يكتمـل بنـاؤه الجسـدي مسـتقبلًا.

كان يحدثنـي وهـو يرتشـف شـايه دفعـة تلـو أخـرى، حتـى أسـبَل عينيـه وغفـا دون أن يكمـل كأسـه.

أقفلـتُ بـاب المكتبـة وتوجهـتُ إلى غرفـة الدكتـور كريـم لأخـبره بـما حـدث، ومـا هـي إلا دقائـق حتـى أتـى رجـلان يحمـلان نقالـة، وضعـا السـجين المخـدَّر عليهـا وأخـذاه بسـيارة الإسـعاف التـي يبـدو أنهـا كانـت تنتظـر تخديـر السـجين منـذ سـاعات.

حديـث السـجين قبـل تخديـره عـن سـلامته الصحيـة وبنيتـه القويـة أثـار عنـدي الشـكوك، خصوصًـا عندمـا أخـبرني بأنـه لم يمثـل بـين يـدي دكتـور السـجن مـن قبـل، وتأكـدتْ شـكوكي بـأن هنـاك لعبـة في الأمـر حـين أمـرني النقيـب ضيـاء في اليـوم التـالي بجمْـع حاجيـات السـجين، وسـمَح لي بأخـذ مـا أرغـب فيـه، ثـم نقْـل المُتبقِّـي مـن حاجياتـه إلى غرفـة النقيـب ليُجـري الـلازم. ولم أكـن أعـرف مـا الـلازم الـذي عليـه أن يجريـه.

منـذ تلـك السـاعة، أصبحـت متيقنًـا بـأن مخططـات تجـري في الخفـاء

لبيع السجناء، وقد تعزز هذا مع مرور الوقت، حيث تم تكليفي بأكثر من عملية، وكانت جميعها تجري بالطريقة نفسها باستثناء سجينين كان لي حرية اختيار الطريقة التي أقضي بها عليهما.

ازدادت عمليات التخدير والقتل خصوصًا عندما سُرِّبَتْ إشاعة بين السجناء، أكدتها إدارة السجن فيما بعد، بأن هناك قرارًا بالعفو العام عن السجناء سيصدر قريبًا.

5

خرجتُ من السجن وأنا ابن السادسة عشرة، وكنتُ قد قتلتُ سعدون شنقًا، وبالطريقة ذاتها قتلت حازم حداد. العمليتان أتممتهما على طريقتي، وحسب ما أريد. حدث ذلك حين أخبرني النقيب ضياء بإصدار أمر تصفية سعدون وحازم داخل السجن، وليس عن طريق إرسالهما إلى خارج السجن كما حدث مع الآخرين الذين قمتُ بتخديرهم؛ لهذا اقترحتُ على السيد النقيب أن يترك الأمر لي مُطمئِنًا إيَّاه بأن العملية ستسجل على أنها انتحار.

بعد العديد من عمليات التخدير التي قمت بها لصالح النقيب ضياء والدكتور كريم، صرنا نلعب على المكشوف. يصدر لي الأمر دون تبريرات من قِبله، فأقوم بما يلزم وعلى أكمل وجه، حتى عرفت بأن هناك من يستفيد من جثة السجين المخدَّر لغرض إنقاذ إنسان آخر أحق منه بالعيش. كانت الفكرة مفهومة ولا تحتاج إلى تفاصيل. والتفصيل الصغير الذي سمعته بطريقة غير مباشرة عن طريق حديث متفكّه كان يدور بين النقيب والدكتور، هو أن اختفاء أو موت أي سجين

سيوفر للدولة مبالغ مالية لا بأس بها، يمكن صرفها على التعليم أو الصحة أو تعبيد الشوارع. كانا يضحكان وكأنهما قد اكتشفا فكرة فلسفية فريدة من نوعها.

الحقيقة، كنت أمتلك رغبة عارمة في قتل سعدون وحازم، فبعد أن أراد سعدون توريطي بشتم رأس النظام، ونجوت منها بحزم وسرعة بديهة، لم يكفَّ عن دسائسه ضدي، وفي كل مرة كانت رغبتي في قتله تتعاظم. أما حازم، فبرغم كل الوسائل التي اتخذتها ضده، من خلال الضرب أو وشاية كان يحظى من جرائها بجلسة تعذيب من الطراز الخاص، فإنه لم يكفَّ عن ملاحقتي، وكان كلما وقع نظره عليَّ يناديني بـ«الحلو... مرهوني الحلو!» وكانت كلماته تلك تثير داخلي رغبة في الانتقام.

إحدى الروايات التي قرأتها قبل أن يبلّغني النقيب ضياء قرار تصفية سعدون وحازم، أهدتني إلى طريقة قتلهما، أهدتني إلى أن أعمل من أحد الشراشف، بعد تمزيقه على شكل أشرطة طويلة، حبلاً مبرومًا بشكل جيد ألفّه على رقبة المشروع، «أقصد مشروع القتل»، ثم أعلّق جسده المخدَّر في السقف، وهذا ما فعلته مع سعدون وحازم، والاثنان قد توفيا انتحارًا، هذا ما كتبه الدكتور كريم في ورقتي الوفاة..

❊ ❊ ❊

لم يكن لي بيتٌ أو مأوًى ألتجئ إليه. خرجتُ حاملاً ثقل السنوات الست في كيسٍ كبير، لم أكن أشعر بثقله؛ فقد كنت

منشغلًا بالحريّة، أبحث عنها في خيوط الشمس التي لم تشرق بعد. وبذرّات هواء خالٍ من عفونة السجن. شعرتُ بأن قدميَّ كانتا أكثر سعادة مني. كانتا تخطوان بهمة وسعادة إلى الأمام ناشدةً قطْعَ أطول مسافة ممكنة، حيث لا حواجز أو أوامر بالعودة إلى الوراء. كان الكيس يحتوي على ملابسي وكتابين: «السياب، حياته وشعره» لعيسى بلاطة، ورواية «زوربا» لليوناني كازانتزاكيس، التي قرأتها مرات عديدة. والكتابان كانا هدية من الأستاذ عدنان. وكان يحتوي أيضًا على طاسة معدنية تعود للمشنوق سعدون، وقدح معدني يعود إلى حازم حداد، بالإضافة إلى أشياء معدنية أخرى تخص المخدَّرين الراحلين. وفي جيب سروالي وريقات نقدية صغيرة لا تؤمِّن لي معيشة أسبوع، حسب ما كنت أظن، أما جيب قميصي، فقد كان يخبّئ ورقة صغيرة أعطاني إياها الدكتور كريم بعد ثنيها عدة ثنيات، وكتب على الثنية الأخيرة عنوان طبيب آخر كان زميلًا له في زمنٍ ما.

لا أعرف ما كانت تحتويه الورقة، ولكن يمكنني قراءة العنوان.

توجهت من دون تفكير إلى البستان، إلى المكان الذي غادرته منذ ست سنوات محمولًا بين قبضتي الملازم حاتم القاسيتين.

ربما شدَّني حنين خفي إلى ما كنت قد أخفيته في حفرة جنب الجدار الطيني، أو ربما رؤية وجه أختي المتخيّل، الذي رسمته حفرًا على الطين المتحجّر. حال تجاوزي الجدار الطيني، ومع أول خطوة

داخـل البسـتان، تذكـرت عينـي مانـع الجاحظتـين وهـو يلفـظ أنفاسـه الأخـيرة، وتجسـدت أمامـي بعـد ذلـك ملامـح الملازم حاتـم الـذي أراد اغتصـابي وأجـبرني عـلى الاعـتراف.

أخرجـتُ مـا كنـت قـد دفنتـه.. كل شيء تركتـه وجدتـه كـما هـو، وكانـت فرحتـي كبـيرة حـين عثـرت عـلى حقيبـة نقـود مانـع الصغـيرة. أخرجتهـا، ثـم وضعـت طاسـة سـعدون وقـدح حـازم وأشـياء معدنيـة أخـرى لضحايـا آخريـن داخـل الكيـس، ثـم أعدتـه إلى الحفـرة بعـد أن وسّـعتها قليـلاً، ورددت الـتراب إليهـا.

عـلى إثـر شـعوري بالجـوع ورغبتـي في البحـث عـن مـكانٍ يؤوينـي، خرجـتُ حامـلاً كيـس السـجن متجهًـا صـوب المدينـة حيـث السـوق، علّنـي أشـتري شـيئًا أقتـل بـه جوعـي وأطفـئ عطـشي.

كانـت دهشـتي كبـيرة حـين وضعـت بعضًـا مـن الدراهـم التـي أخذتهـا مـن حقيبـة مانـع في يـد البائـع ثمنًـا لوجبـة طعـام. نظَـر الرجـل إلى القطـع المعدنيـة وأطلـقَ ضحكـة عاليـة لا تخلـو مـن حـركات المندهـش، ثـم قـال دون أن يُنهـي نوبـة الضحـك:

«ما هذا؟.. هل أنتَ مجنون، أم أنكَ من أهل الكهف؟»

نظـرتُ إليـه مندهشًـا دون أن أقـول كلمـة واحـدة، ويبـدو أنـه انتبـه لحـيرتي فقـال:

«يـا ابنـي، هـذه الدراهـم لم يعـد لهـا قيمـة، فبعـد سـنوات الحصـار الاقتصـادي اختفـتْ هـذه العملـة، وحلَّـتْ محلهـا الأوراق النقديـة المزيفـة، أقصـد المطبوعـة».

أخرجتُ كل ما كان في جيبي من نقود، حتى التي خرجتُ بها من السجن، ووضعتها أمامه قائلاً إن هذا كل ما أملك.

ناولني الرجل صحن رز ساخن بعد أن سكب عليه قليلاً من حساء الفاصوليا، وقال بعد أن أعاد لي كل النقود:

«تفضل، كلْ وسدَّ جوعَك، وتذكَّرْ بأنك تستطيع أن تحصل على طبق مثله كلما شعرت بالجوع.. يبدو أنك من أهل الله..!»

كانت صدمتي كبيرة حين شاهدت الناس يحملون الأوراق النقدية في أكياس القمامة الكبيرة، وفي العربات الصغيرة داخل سوق التجار الذي رحت أتجول تحت سقفه، بعد تناولي طبق الرز بالفاصوليا الساخن، فعرفت حينها أن حال البلد قد تغيّر نحو الأسوأ، وأن عليَّ الحصول على المال بأي ثمن من أجل تأمين عيشي، وتذكرت الورقة التي أعطاني إياها الدكتور كريم، تحسستها في جيبي، وتأكدتُ من وجودها، ثم أخرجتها وقرأت العنوان المخطوط عليها، وكنت أعرفه جيدًا، فهو ليس ببعيد عن ساحة وقوف السيارات التي كنت أعمل بها تحت إمرة القتيل مانع.

كان الوقت مبكرًا حين وصلت عيادة الدكتور حمزة ضيدان، اختصاصي الأنف والأذن والحنجرة. هذا ما أخبرني به الرجل الكهل حارس البناية، الذي أودعت كيس السجن عنده حتى عودتي. الحقيقة، كان الرجل مترددًا في بادئ الأمر، ولكنه ولسبب لا أعرفه، وافق شريطة أن يتبين ما بداخله، وبالفعل تفحّص الكيس

ثم ركنه جانبًا قبل أن يخبرني بأن أمامي ساعتين حتى يحين موعد مجيء الدكتور وفتح العيادة.

كانت هناك مقهًى قريبة قررت الذهاب إليها والانتظار حتى يحين الوقت لأعود إلى العيادة.. جلست مندهشًا من حركة الناس، وفي الوقت نفسه كنت خائفًا من شيء لا أعرفه. قررت القفز على خوفي، حين رحت أنظر إلى المارة وأستمع إلى أحاديث من يجلس خلفي.. ثلاثة رجال لم أتبين ملامحهم كانوا يتحدثون عن أهمية الوقت الضائع في حياة الإنسان، بشكل ساخر، وكانوا يضحكون:

«إن كان الوقت من ذهب فبِعْهُ واشترِ لأطفالك الخبز».. ضحكات..

«الوقت كالسيف إن لم تشحَذه فارمِه في الزبالة»..

«الوقت كالخيط إن لم تقطعه سيبقى كما هو». تتعالى الضحكات..

«الوقت الضائع هو من منَح الأرجنتين بطولة كأس العالم».. تسرّبت عدوى الضحك إليَّ وبدأتُ أضحك سرًّا، حتى جاءت الجملة الأخيرة لترنَّ في ذهني كجرس محذِّر:

«وقت السجين يُحسب بالسنين وعظمة جبل الإهانات، ووقت الرياضي العداء يحسب بالثواني، وعدد الجوائز؛ فاركض يا ابن آدم لعلك تفوز..».

«فاز باللذات من كان حقيرًا..!». تعالت الضحكات مع عبارة قالها أحدهم: «صدقت يا مسيلمة الكذّاب».

كنت أعرف هذه المقولة التي تم تحريفها: «فاز باللذات من كان جسورًا..!» فأي لذة تلك التي تتطلب الجسارة أو «الحقارة»، كما أشار محترف التحشيش الذي يجلس خلفي؟ وأي فوز يجعل إنسانًا مثلي ذا شأن في هذه الحياة القاسية؟ سؤال لم أجد الإجابة عليه.

أزفَ الوقت وتوجهت إلى البناية حيث عيادة الدكتور حمزة، بعد أن دفعت ثمن الشاي.

وجدتُ الحارس الكهل جالسًا حيث تركته، وعرفت أن اسمه «حاج نزيه». أخبرني بأن الدكتور «حمزة» في عيادته، ولكنه لا يفتح باب العيادة إلا عند تمام الساعة، أي بعد عشرين دقيقة تقريبًا.

طلبتُ منه السماح بالصعود إلى الطابق الثاني حيث العيادة، وقلت بأنني سأنتظر عند الباب حتى يحين الوقت.

حين وجدتُ نفسي أمام باب العيادة وقرأت اللوحة التي خُطَّ عليها اسم الدكتور، طرقتُ الباب دون انتظار الوقت المحدد، وبعد لحظات خرج رجل أنيق يرتدي صدرية بيضاء وينتعل نعالًا بيضاء مصنوعة من القماش. ألقيت عليه التحية وقلت بأنني أريد مقابلة الدكتور حمزة؛ كوني أحمل له رسالة من صديق قديم اسمه الدكتور كريم. نظرَ الرجل صوبي وملامحه تأسرها دهشة واضحة، ثم أشار لي بالدخول دون أن يتفوه بكلمة. دخلتُ، وراح هو يمشي أمامي حتى دخلنا غرفة سأعرف فيما بعد بأنها غرفة الفحص. جلس خلف مكتبه وأشار لي بالجلوس حيث كرسي المراجعين، وأول شيء سألني عنه هو اسمي، فقلت:

«مرهون عيسى صاحب.. سيدي».

ازدادت دهشة الرجل ونظر لي بتمعن وسألني:

«هل كنت سجينًا يا مرهون؟» ثم أضاف بسرعة مَن لا يريد أن يمنحني فرصة الرد: «أجب بدون كلمة سيدي، فأنا طبيب، والناس ينادونني «دكتور»!»

فقلت:

«نعم، دكتور.. والدكتور كريم كان طبيب السجن، وقد بعث لك بهذه الرسالة..».

ناولته الرسالة وشاهدتُ ارتجافةَ أصابعه، ارتجافة لم أفهم سببها إلا بعد مرور عدة أشهر.

في أثناء فتحه لورقة الرسالة، سألني عن عمري، فقلت إن عمري ستة عشر عامًا. ابتسم وقال إن بنيتي الجسمانية تمنحني خمس سنواتٍ زيادة عن عمري في أقل تقدير، ثم راح يقرأ ما هو مكتوب في الورقة، وحين أنهى قراءتها نظر صوبي متسائلًا:

«هل قرأت هذه الورقة يا مرهون؟»

أجبته بالنفي وقال بأنه متأكد من هذا، ثم قال بأننا سنتحدث طويلًا في المساء، فهناك الكثير من الكلام بيننا.. دخلتْ عبارته تلك إلى روحي، وشعرتُ بحبٍّ واحترام صوب الرجل. ابتسمتُ له وأشرت برأسي علامة الرضا.. نهض من كرسيه وتوجه نحوي، وضع ساعده الأيسر على كتفي وطلب مني النزول حيث بوابة البناية لأنادي حارسها، وأن أعود برفقته.

حين دخلت مرة أخرى إلى العيادة برفقة حاج نزيه، كانت هناك امرأة متلفعة بالسواد مع صبي قد يكون في التاسعة من عمره، نظرتُ صوبه، فوجدته متألمًا.

دخل حاج نزيه غرفة الفحص ودخلت من بعده. كان الدكتور حمزة يجلس خلف مكتبه، وحال دخولنا قال لحاج نزيه وهو يلوّح بمفتاح كان يمسكه بين أصابعه:

«خذ هذا المفتاح وافتح الغرفة التي على سطح البناية، واطلبْ من هذا البطل أن يُنظفها ويُرتبها، ثم أعطه المفتاح..».

أجاب الرجل بأدب واحترام: «حاضر دكتور.. أنت تأمر..»، ثم نظر الدكتور صوبي وقال:

«اسمع يا بطل، عليك القيام بكل ما يقوله لك هذا الرجل الطيب، وحين انتهاء زمن العيادة، سأصعد إليك حيث الغرفة لأشاهد عملك؛ فهذا اختبار لك.. إن نجحت فستعمل معي..».

كادت الفرحة تطرحني أرضًا، فلم أعرف بأن الدكتور «كريم» قد طلب في ورقته إيجاد عمل لي، وشعرت لأول مرة، ومنذ سنوات طويلة، بأن هناك من يهتم بي أو حتى يفكر في مصلحتي.

انفرد الدكتور حمزة بحاج نزيه بعد أن طلَب مني مغادرة غرفة الفحص والانتظار خارجًا. ومرة أخرى صرتُ أمام الصبي المتألم،

جلستُ في الجهة المقابلة له حيث صف الكراسي الملاصق للجدار، ورحت أنظر صوبه، وحين التقت أنظارنا ابتسمتُ له، فأشاح بنظره عني.

❋ ❋ ❋

شعرتُ منذ اللحظة الأولى حين دخولي غرفة السطح، والتي سأعرف فيما بعدُ بأنها المخزن التابع لعيادة الدكتور حمزة، بأُلفة وراحة لم أشعر بها منذ زمنٍ بعيد.. كانت تضم جهازًا طبيًّا قديماً لم أعرف وظيفته، وسريرًا لفحص المرضى يتوسطه شق كبير في جلده، ثم رفوفًا مثبَّتة على الجدران تحتوي على بعض العلب المتشابهة، وأضابير أرشيفية وأوراقًا، وفي إحدى الزوايا كانت ثلاثة كراسيّ قديمة متراكمة بعضها فوق بعض، ولفت انتباهي أن هناك مغسلة يدَيْنِ مثبَّتة عند الباب داخل الغرفة. أما الأكثر حضورًا في الغرفة، فكان الغبار والتراب المتراكمان على أسطح كل تلك الأشياء.

أثناء تفحصي للغرفة، دخلتُ في حالة شرود ذهني، لم أعرف كم طال أمدها، ولكنني أفقتُ على صوت حاج نزيه وهو يقول:

«يا ابني، عليك تنظيف هذه الغرفة، وإزالة الغبار، وغسل الأرضية، ثم ترتيب أثاثها بشكل ملائم بعد إزالة الغبار عنها، وأن تأخذ الماء من حنفية هذه المغسلة..».

نظَـر في وجهـي مبتسـماً، وكانـت المـرة الأولى التـي أراه مبتسـماً، وأضـاف: «عليـك أن تجعلهـا نظيفـة كغرفـة الفحـص في عيـادة الدكتـور حمـزة..».

كانـت السـاعة العتيقـة المعلقـة عـلى الجـدار تشـير إلى الرابعـة بعـد الظهـر عندمـا بـاشرت تنظيـف الغرفـة، ولا أدري كيـف سـيطرتْ عـلى ذهنـي فكـرة التنظيـف تحـت إشراف ضابـط السـجن، وأن أي خلـل سـيؤدي بالـضرورة إلى عقوبـة قاسـية، والحقيقـة لقـد خدمتنـي تلـك الفكـرة بشـكل جيـد، وجعلتنـي أشـعر بأننـي مـا زالـت محتفظًـا بشـعور ورهبـة يوميـات السـجن.

بـدأت مـن السـقف لإزالـة الغبـار وخيـوط العناكـب، نـزولًا إلى الرفـوف وبقيـة الأثـاث، وقـد سـاعدني كثـيرًا حـاج نزيـه حـين عـاد إليَّ، بعـد دقائـق مـن توجيهـه لي بطبيعـة العمـل، وهـو يحمـل سـطلًا بلاسـتيكيًّا وبعـض الخـرق وعبـوة صابـون سـائل. تذكّـرت القتيـل مانـع وسـاعات غسـل السـيارات تحـت حـرارة الشـمس الحارقـة.

عنـد السـاعة الثامنـة كان حـاج نزيـه يقـف وسـط إطـار بـاب الغرفـة، يضـع كفيـه عـلى جانبيـه وهـو ينظـر بإعجـاب، فهمـتُ منـه التشـجيع والمـؤازرة. كان قـد وضـع أمامـه حيـث الأرض كيـس السـجن الـذي أودعتـه لديـه ظهـرًا. ابتسـم لي وأخـبرني بـأن الدكتـور حمـزة سـيأتي بعـد السـاعة التاسـعة ليتفحـص عمـلي.

حـاج نزيـه، رجـل عجـوز قـد تجـاوز السـبعين منـذ سـنتين تقريبًـا، ولكنـه قـوي، ويمتـاز بقامـة طويلـة رشـيقة، لم يعـرف ظهـره التقـوّس

بعـد. يصعـد السـلالم بخفـة وحيويـة شـاب عشريـني، وغالبًـا مـا يطلـب منـه أصحـاب الشـقق مـن شركات وأطبـاء ومخـازن تابعـة لمحـلات تجاريـة معروفـة في الشـارع الرئيـس المحـاذي للبنايـة، أن يقـوم بحمـل أشـيائهم ومسـاعدتهم فيـما لا طاقـة لهـم عليـه، رغـم أنهـم أصغـر منـه سـنًّا. ذلـك مـا أخـبرني بـه الدكتـور حمـزة.

شـاهدت الدكتـور عـلى بـاب الغرفـة عنـد السـاعة التاسـعة والربـع، وكان حـاج نزيـه بصحبتـه وهـو يحمـل منضـدة خشـبية متوسـطة الحجـم مصنوعـة مـن خشـب البلـوط، وضعهـا وسـط الغرفـة وغادرنـا.

تجـول الدكتـور حمـزة بنظـره فاحصًـا الغرفـة ومـا تحتويـه، نظـر إلى الأرضيـة ثـم سـحبَ كرسـيًّا وقرَّبـه مـن الطاولـة وجلـس، ليطلـب منـي الجلـوس قبالتـه. مـا إن جلسـت حتـى قـال:

«حدثني عن ظروف السجن، والدكتور كريم تحديدًا..».

اكتفـى بعبارتـه تلـك وانتظـر منـي البـدء في الحديـث، ولكنـه قـرأ دهشـتي وحـيرتي، وحـين طـال صمتـي، طلـبَ منـي الاسـترخاء وأن أعـده أخًـا كبـيرًا، فهـو يعـرف كل شيء عـن الدكتـور كريـم، ولكنـه يريـد معرفـة وضعـه ومكانتـه داخـل السـجن.

بـدأتُ الحديـث، عـن نفسـي، وكيـف تعلمـت القـراءة والكتابـة وصرتُ معلـمًا مـن بعدهـا، ثـم حدثتـه عـن الدكتـور كريـم وعلاقتـه الوطيـدة بضابـط أمـن السـجن، والمهـم في حديثـي، والـذي قـرأت أهميته عـلى ملامـح الدكتـور أثنـاء الحديـث، كان حـول مسـاعدة الدكتـور كريم في توفـير الكتـب والروايـات، والكتـب التاريخيـة، والدواويـن الشـعرية،

التي كانت ترهقني لعدم فهم معنى العديد من كلماتها. ابتسم الدكتور ثم سألني عن أهم الكتب التي قرأتها. ذكرت له عددًا ليس بالقليل من العناوين، فأبدى إعجابه، وازدادت دهشتُهُ حين عرف بأنني أحفظ أغلب الكتب التي قرأتها، كما أني أحفظ أيضًا ديوان الأستاذ عدنان الذي علَّمني القراءة والكتابة.

أثناء الحديث، تذكرت الجملة التي قالها لي الأستاذ عدنان حين أخبرته بأنني أريد أن أكون مثقفًا، فطمعتُ بتفسيرها وفهمها؛ لذا ذكرتها للدكتور حمزة قائلًا:

«كانت دهشة الأستاذ عدنان كبيرة حين أخبرته بأنني أريد أن أكون مثقفًا، وليس متعلماً فقط.. حينها قال لي جملة لا تزال ترنّ في ذاكرتي، ولكنني لم أفهمها جيدًا.. قال: «أنتَ تبحث عن الاحترام من خلال الثقافة، وهذا يذكّرني بشريحة كبيرة من مجتمعنا كانت تعاني التهميش والازدراء من قِبل المجتمع، فطلبوا الثقافة ليتخلصوا من عقدتهم تلك».. فهل تعرف ماذا كان يقصد من وراء كلامه؟».

ابتسم الدكتور حمزة وهو ينظر إليَّ بعطف جميل، وقال مطمئنًا لي:

«لا عليك، سأشرح لك ما قصده أستاذك الفيلسوف في وقت آخر، والآن عليَّ أن أقول لكَ شيئًا مهمًّا..».

دخل حاج نزيه مقاطعًا كلام الدكتور وهو يحمل كيسًا بلاستيكيًّا وضَعه على الطاولة، ثم غادرنا بعد أن أخبرنا بأنه يجلس عند باب العمارة وهو رهن الإشارة إذا احتجنا شيئًا.

انتـشرت رائحـة اللحـم المشـوي منبعثـة مـن الكيـس، فامتـلأت الغرفـة برائحـة الشـواء، فلـم أكـن أشـعر بالجـوع حتـى وصلتنـي تلـك الرائحــة، شــعرتُ بأننــي لم أتنــاول الطعــام منــذ شــهور.

فتـح دكتـور حمـزة الكيـس وأخـرج مـا بداخلـه، كان كبابًـا مـع خبـز سـاخن وبعـض الخضـار والطماطـم المشـوية عـلى الفحـم. ناولنـي الطبـق المصنـوع مـن الفلـين الخفيـف وهـو يحتـوي وجبـة كاملـة لشـخص واحـد، ثـم أخـذ الطبـق الثـاني ووضعـه أمامـه، وقـال:

«ليكـن بيننـا الـزاد والملـح، وأن نتعاهـد عـلى أن يكـون أحدنـا سـندًا للآخـر. تفضـل، كلْ»..

هـزت كلماتـه كيـاني، ورحـتُ أنظـر في الطبـق لأُداري حـيرتي، ورُحتُ أسـأل نفـسي: تُـرى هـل يقصـد مـا يقـول؟.. ومـا الـذي كتبـه الدكتـور كريـم في الورقـة حتـى يعاملنـي هـذا الرجـل المحـترم بهـذا اللطـف؟

باشرنـا الأكل صامتـين، وقبـل أن أنهـي وجبتـي، قـال الدكتـور حمـزة بعـد أن تأكـد مـن خلـو فمـه مـن الطعـام:

«اسـمع يـا مرهـون، سـتكون أخـي الصغـير الـذي عـليَّ واجـب رعايتـه، والـذي عليـه واجـب الطاعـة، وسـتكون هـذه الغرفـة بالإضافـة إلى كونهـا مخزنًـا تابعًـا لعيـادتي، غرفتـك التـي ستسـكن فيهـا، وفي أوقـات فتـح عيـادتي سـتكون السـكرتير الـذي يسـتقبل المراجعـين، ويـدوِّن بياناتهـم في السـجل، ويدخلهـم عـليَّ بعـد أن يسـتحصل منهـم مبلـغ الكشـف والمراجعـة، فـماذا تقـول؟»

أخذتني الدهشة، وسيطر عليّ ذهول وكأني أدخل الحياة للمرة الأولى، وأن من يجلس أمامي «ملاك» في يده مصباح علاء الدين الذي قرأت قصته في حكايات ألف ليلة وليلة. وقبل أن أتفوه بكلمة واحدة، أضاف الدكتور: «بالطبع يمكنك رفض كل ما عرضته عليك، فأنت حرّ».

وقفتُ على قدمي. كانت ساقاي ترتجفان فرحًا أو خوفًا، لست أدري، ولكني شعرت بأنني أرقص لأول مرة في حياتي، أو أكاد أطير، فقلت مرتجفًا:

«هل يمكنني رفض طوق النجاة وأنا الغريق منذ أن ولدتني أمي؟»

أطلق الدكتور حمزة ضحكة عارمة لا ينقصها الفرح والإعجاب، فقام واحتضنني قائلًا: «كم أنتَ رائع أيها البطل!»

شعرت بسخونة دموعي وهي تنهمر بغزارة رغم أني لم أشعر بحالة البكاء، فقد كانت تلك المرة الأولى التي يحتضنني فيها إنسان ويشعرني بفيض من الحنان.

حين شرع الدكتور حمزة بمغادرة الغرفة، التفتَ إليَّ وقال:

«غدًا، حين موعد فتح العيادة سأجلب لكَ غطاءً جيدًا، وسأوصي حاج نزيه بتأمين ما تستخدمه هذه الليلة للنوم».

❋ ❋ ❋

علمتنـي سـنوات السـجن ألاّ أنـام. سـاعتان فقـط كانتـا كافيتـين لتمنحـاني طاقـة ونشـاطًا يكفيـاني ليومـين متتاليـين، وتلـك الميـزة التـي أهـداني إليهـا عقـلي وجسـدي تحـت تأثـير الخـوف والظلـم، جعلتنـي وبعـد شـهر كامـل مـن عمـلي في عيـادة الدكتـور، أن أكـون حـارس البنايـة أيضًـا. حـدث ذلـك حـين اعترتنـي رغبـة في رد الجميـل للرجـل العجـوز حـاج نزيـه، الـذي أغـدَق علـيَّ حنانـه وعطفـه، وكان يؤَمِّـن لي كل مـا أحتاجـه، حتـى قبـل أن أنطـق بـه.

كنـا نتسـامر كل ليلـة حتـى وقـت متأخـر، كان يحكـي لي عـن عائلتـه وبناتـه الأربـع اللـواتي أكملـن تعليمهـنَّ الجامعـي، دون أن يحصلـن عـلى وظيفـة أو زوج محـترم قـادر عـلى صيانـة زوجتـه واحترامهـا، ثـم حدثنـي عـن زوجتـه التـي قُتلـت سـهوًا في حـادث إطـلاق نـار «فرحًـا» بعـرس أحـد الأقـارب.

كان حـاج نزيـه يعـرف أنني كنت مسـجونًا في سـجن الأحـداث، وأني دخلـت السـجن في العـاشرة مـن عمـري، كـوني قتلـت الرجل الـذي أراد اغتصـابي؛ وذلـك مـا جعلـه معجبًـا بي ويحترمنـي جـدًّا، لأننـي حافظـت عـلى شرفي، وأعتقـد أن ذلـك يقـف أيضًـا وراء اهتـمام ورعايـة الدكتـور حمـزة لي، لكـن الفضـول صـار ينهـش روحـي أكثـر؛ لأعـرف مـا كتبـه الدكتـور كريـم في الورقـة التـي وضَعْتهـا بـين يـدي الدكتـور حمـزة دون أن أطَّلِـعَ عليهـا.

في إحـدى الأمسـيات، اقترحـت عـلى حـاج نزيـه أن يذهـب إلى بيتـه وأكـون أنـا حـارس البنايـة لتلـك الليلـة. ابتسـم لي وشـكرني، ورفـض

متحججًا بأنه يتقاضى راتبًا شهريًّا جراء عمله، وإن تهاون به يكون ما يتقاضاه حرامًا، فقلت له:

«يا عم، ما تقوله صحيح، ولكن إن تركت البناية دون حراسة، أو تهاونت بعملك، ولكنك لم تفعل هذا؛ لأنني أنوب عنكَ وأقوم بما تقوم به تمامًا. حين يكون الشخص مجبرًا على ترك عمله، ويطلب من شخص آخر النيابة عنه، فأين الخطأ في هذا؟.. أنتَ بمنزلة أبي، وأنا راغب في مساعدتك..».

اقتنع، وطبَع قبلة على جبهتي، ثم قال:

«لتكن هذه الليلة للتجربة، من يدري؟ ربما تكون بديلًا عني حين الرحمن يأخذ أمانته..».

كانت الساعة تشير إلى العاشرة والنصف حين ذهب حاج نزيه إلى بيته الذي يبعد عن مكان عمله قرابة النصف ساعة مشيًا على الأقدام، لكنه لم يعد إلى البناية في اليوم التالي، وصار أغلب سكان البناية يسألون عنه، ولم نتبين سبب غيابه حتى جاءنا الخبر بعد الخامسة مساءً.

في تلك الليلة، وصل حاج نزيه على غير عادته إلى البيت، ولكنه حين دخل الصالة وجد ابنته الكبرى في أحضان عشيقها، ابن الجيران الذي يعرفه جيدًا، والذي رفض طلبه في الزواج من ابنته؛ لكونه لا يحمل شهادة ويمتهن تربية الحَمَام؛ حيث يقضي كل نهاره على سطح الدار ليمارس «هواية» تربية الحمام.

كانـت الصدمـة شـديدة عـلى الثلاثـة، حتـى قفـز الشـاب دافعًـا حـاج نزيـه ليهـرب خـارج الـدار؛ ممـا تسـبب بسـقوط حـاج نزيـه أرضًـا، لكنـه سرعـان مـا وقـف مرتعشًـا مـن هـول الموقـف، وحـين ظـل واقفًـا أمـام ابنتـه الكـبرى التـي يحبهـا جـدًّا، والتـي تَسَـمَّرتْ في مكانهـا عاريـة الصـدر، مصفـرَّة الوجـه، ناشـفة الشـفتين، وهـي تحـدِّق إلى وجـه والدهـا بعينـين مرعوبتـين، وبنظـرات جامـدة. أخـرج والدهـا مسدسـه وصـوَّبَ نحـو رأسـها، ثـم أطلـق طلقـة واحـدة فقـط كانـت كافيـة لتحويـل الفتـاة إلى جثـة هامـدة. وقـف يتأملهـا دامـع العينـين، ثـم خـرج متوجهًـا إلى المطبـخ ليـأتي بسـكين حـادة ويقطـع بهـا كـف ابنتـه اليمنـى ويضعهـا عـلى صدرهـا، بعـد أن أعـاد إليـه «سـتره».

وقـف متأمـلاً رعـب المشـهد وفجيعتـه وهـو لا يزال ممسـكًا بمسدسـه، وفي لحظـة، أطلـق الطلقـة الثانيـة عـلى رأسـه، فسـقط قـرب جسـد ابنتـه السـاخن، ليمتـزج دمـه بدمهـا مـرة أخـرى وكأنـه يعيدهـا إلى صُلبـهِ.

أخـذني الدكتـور حمـزة في سـيارته الفارهـة حيـث يرقـد جثـمان الحـاج نزيـه وابنتـه البكـر. كانـت المستشـفى مقفـرة إلا مـن بعـض المراجعـين، ورائحـة كريهـة لم أعـرف طبيعتهـا.

اسـتخرج شـهادة الوفـاة للقتيلـة ووالدهـا، بعـد أن أخـذ موافقـة الشرطـة، وبعـد أن ألقـى نظـرة عـلى الجثتـين، طلَـب مـن الطبيـب إعـادة الكـف المقطوعـة إلى مكانهـا؛ مـن أجـل ألا تدفـن الفتـاة في «مقـبرة الزانيـات» إذا اكتُشـف أمرهـا عنـد التغسـيل والتكفـين، ثـم تكفَّـلَ بتكاليـف الدفـن وإقامـة العـزاء..

عند انتهاء اليوم الأخير من العزاء، طلَب الدكتور حمزة مقابلة بنات حاج نزيه، وعلى الفور أُفرِغتْ صالة الضيوف، وخرجت النسوة ليتجمَّعنَ في إحدى غرف الدار. دخلنا إلى الصالة ووجدنا البنات الثلاث مُلَفَّعات بالسواد، منتفخات العيون والوجه، ألقى الدكتور حمزة التحية عليهن ثم جلس قبالتهن، وجلستُ أنا إلى جانبه. ترحَّمَ الدكتور على روح حاج نزيه وبنته ثم قال:

«كان حاج نزيه بمثابة والدي، وكنت وما زلت أحبه وأحترمه لِرفعة أخلاقه وطيبته وأمانته؛ لذا أتمنى أن أكون لكُنَّ الأخ الذي عليه واجب الرعاية والنصح، ورجائي ألا تتردَّدنَ في طلب المساعدة أو حتى المشورة.. سأترك على هذه الطاولة كارتي الشخصي، وفيه تلفوناتي وعنوان عيادتي..»، ثم أشار نحوي قائلاً: «هذا مساعدي مرهون، سيكون عونًا لكُنَّ كما هو عون لي..».

كنتُ منكَّس الرأس، لكني كنتُ أختلس النظر بين حين وآخر لأشاهد البنات، كنَّ جميلات جدًّا رغم حزنهنَّ، وكانت الوسطى الأكثر جمالًا وفتنة.

نهضَ الدكتور حمزة ونهضتُ وراءه، ثم قال وهو يودع بنات المنتحر: «أتمنى أن أسمع أخباركنَّ قريبًا..»، ثم طلب مني أن أناوله كيس النقود البلاستيكي الذي أودعه عندي قبل دخولنا. أخذ الكيس ووضعه على الطاولة الصغيرة إلى جانب كارته الشخصي، ثم ألقى تحية الوداع وخرجنا.

6

منذ لحظة خروجي من السجن، كنت أتوقع مقابلة الملازم حاتم في مكانٍ ما، الملازم الذي ألقى القبض عليَّ في البستان، والذي أذاقني مرَّ التعذيب وأقسى الإهانات، وهددني بالاغتصاب إن لم أعترف بالحقيقة. كان السؤال الوحيد الذي يدور في ذهني، كيف سينظر إليَّ، هل أقرأ الخجل في عينيه، أم سيسخر مني ويزدريني؟

ظلَّ السؤال يسيطر على مخيلتي وأنا أتصور مقابلته، حتى دخل العيادة رجل بصحبة امرأة وصبي. كنت جالسًا خلف الطاولة أدوّن أسماء المراجعين وأنتظر خروج المراجع من غرفة الفحص حتى أنادي على التالي، اقترب الرجل مني بمعية من معه وألقى التحية، رددتُ عليه التحية دون أن أتبين ملامحه، فسألتُ عن اسم المراجع وعمره، فقال:

«همام علي عبد الجليل.. ثلاث عشرة سنة».

دونتُ الاسم والعمر، وطلبت مبلغ الكشف، مدّ الرجل يده وكان المبلغ بين أصابعه، نظرتُ في وجه الرجل وأنا أتسلم المبلغ مبتسماً شاكرًا له.

ارتعدَ جسدي، وشعرت بأن طيورًا صغيرة بدأت تحلّق داخل قفصي الصدري، «يا إلهي هذا الوجه أعرفه!!» ابتعد الرجل ومن معه ليأخذوا مكانهم حيث الكراسي المقابلة، وبقيتُ أنظر إليه وقد تذكرتهُ جيدًا، لكن السنوات قد غيرت من ملامحه الكثير.

لم أصبر كثيرًا، خرجتُ من وراء الطاولة واقتربت منه، ثم جلست إلى جانبه قائلًا:

«أعتقد أني أعرفكَ من قبل، هل أنا محق؟»

نظر الرجل صوبي مبتسماً وقال بأنه يمتلك الشعور نفسه، ولكنه فَضَّلَ عدم السؤال تفاديًا لإحراجي إن كنت أنا من يتصوره، فطلبتُ منه راجيًا أن يوضح أكثر، فقال بأنه يعرف صبيًّا اسمه مرهون يشبهني بعض الشيء، ولكنه ليس متأكدًا.. ازدادت رعشة جسدي واتسعت عيناي لدهشتي، فقلت:

«إن كنت أنا مرهون، فمن تكون حضرتك؟»

قال:

«أنا عليٌّ الشرطي..» وقبل أن يكمل كلامه احتضنتهُ وقبّلتهُ، وراح هو الآخر يُقبّلني ويقول:

«والله كبرت يا مرهون، صرت رجلًا ما شاء الله..».

كانت فرحتي كبيرة بالعثور على العريف علي، أقصد المفوض علي، فقد أصبح مفوضًا كما أخبرني، وأنه الآن يعمل تحت إمرة أحد القضاة، فقد كره العمل في مراكز الشرطة، وأن الاحتكاك بالموقوفين كان يشكل كابوسًا مرعبًا له.

سـألني عـن أشـياء كثـيرة، وكنـتُ أجيبـه باختصـار، لكـن تفكـيري كان منشـغلًا بسـؤال محـدد أصررتُ عـلى طرحـه حـين يخـرج مـن غرفـة الفحـص مـع ابنـه، عسـى أن أحظـى بوقـت أطـول للحديـث معـه.

حـين خـرج مـن الغرفـة، أردت إعـادة مبلـغ الكشـف لـه فأبـى، مشـيرًا إلى أن الوحيـد الـذي لـه الحـق في إعـادة المبلـغ هـو الدكتـور حمـزة، ولسـت أنـا، فأنـا لسـت صاحـب العيـادة. ضحكنـا، وانتقلـت عـدوى الضحـك لزوجتـه وابنـه، ثـم وبشـكل مباغـت سـألته:

«هـل تتذكـر المـلازم حاتـم؟.. تـرى أيـن هـو الآن؟.. وهـل مـا زال قاسـيًا مـع الموقوفـين؟»

ابتسـم وقـال: «تقصـد المقـدّم حاتـم، لقـد صـار برتبـة مقـدّم.. لا تنسَ السـنوات التـي مضـتْ يـا ابنـي..»، ثـم أرشـدني إلى مـكان عمـل حاتـم الجديـد والمنطقـة التـي يسـكنها، وقبـل أن يخـرج كتـب لي رقـم هاتفـه طالبًـا منـي اللقـاء بأقـرب وقـت، وشـدد عـلى أن أتصـل بـه إذا كنـت بحاجـة لـشيء، مهـما كان صغـيرًا أو كبـيرًا. قبَّلتـه وصافحـتُ ابنـه وودعتهـم حتـى بـاب العيـادة.

❋ ❋ ❋

بعـد مـرور أقـل مـن شـهر عـلى انتحـار حـاج نزيـه، وحـين كنـت في العيـادة منشـغلًا بتنظيفهـا وإعدادهـا قبـل حلـول موعـد فتحهـا بوجـه المراجعـين، رنَّ الهاتـف الخـاص بالعيـادة. كنـت بعيـدًا عنـه بعـض

الـشيء، إلا أننـي اسـتطعت الـرد في الوقـت المناسـب. الحقيقـة، أن الهاتـف كان قـد ألـحَّ في رنينـه طويـلاً، وحـين رفعـت سـماعة الهاتـف، جـاءني صـوت نسـائي عـذب مـن الجهـة الأخـرى، كانـت «هيـام» ابنـة حـاج نزيـه، طلبـتْ الحديـث مـع الدكتـور، فأخبرتهـا أن الوقـت مـا زال مبكـرًا، وأن الدكتـور لم يحـضر بعـدُ، ثـم سـألتها إن كان هنـاك أمـر مهـم أو مسـتعجل لأخـبر بـه الدكتـور، فأبـتْ أن تخـبرني، ولكنهـا طلبـت منـي إخبـار الدكتـور بـضرورة الاتصـال بهـا. أملَـتْ عـليَّ رقـم هاتـف الـدار كـي أوصلـه للدكتـور.

بعـد يومـين مـن اتصالهـا، دخلـتْ هيـام عيـادة الدكتـور حمـزة قبـل نصـف سـاعة مـن موعـد افتتاحهـا، وكان الدكتـور قـد حـضر قبلهـا بعـشر دقائـق. كانـت جميلـة جـدًّا، قـوام رشـيق ونهـدان منتفضـان عـلى عمـرٍ أثقلـه الشـبق، رغـم تلفُّعهـا بالملابـس السـوداء.

يسـتفزني النهـد المنتفـض، بـل يسـحقني، لدرجـة أصابتـي بـدوار تصاحبـه رعشـة في سـاقي اليـسرى، وكأننـي أصـل الـذروة، وهـذه الحالـة لازمتنـي منـذ خروجـي مـن السـجن؛ حيـث بـات النهـد عالمـي الـسرِّي الـذي لم أدخلـه بعـد.

دخلـتْ هيـام غرفـة الفحـص، وبعـد ربـع سـاعة خـرج الدكتـور وهيـام إلى جانبـه.

وقفـتُ لهـما احترامًـا، ولكـن الدكتـور طلـب منـي العـودة إلى الكرسي خلـف منضـدة تسـجيل المراجعـين، وقال:

«أخـي العزيـز مرهـون، مـن اليـوم سـتكون هيـام مسـاعدتك في

العيـادة، وأتمنـى عليـكَ راجيًـا أن تقـوم بتعليمهـا وتدريبهـا عـلى كل مـا يخـص عمـل السـكرتارية..».

نهضـتُ مـن فـوري وقرَّبـت أحـد الكـراسي إلى جانـب الكـرسي الـذي أجلـس عليـه، وطلبـتُ منهـا الجلـوس لتراقـب عمـلي. ابتسـم الدكتـور لهمَّتـي وتفهُّمـي للوضـع الجديـد.

كان يومًـا عصيبًـا جـدًّا، ليـس لأنني كنت أفكـر بفقـدان وظيفتـي، لقـد كان ذلـك هيِّنًـا عـليَّ جـدًّا مقابـل احتكاكـي بفتـاة لأول مـرة في حيـاتي. كانـت قريبـة منـي، وكنـت أشـم عطرهـا ودفء أنفاسـها. والـذي هـز كيـاني أكثـر، ملاطفاتهـا ومزاحهـا ومهارتهـا في قلـب الكلـمات وإطـلاق النـكات.

كنـت أضحـك متشـنجًا مـن وقاحـة رغبتـي وشـبقي، لدرجـة أننـي أحسسـت بـألم شـديد أسـفل بطنـي، ولزوجـة سـاخنة. كان يومًـا عصيبًـا جـدًّا، ويبـدو أنهـا انتبهـتْ لاضطـرابي ورعشـة يـديَّ وتلعثمـي، فقـد كانـت تبتسـم كثـيرًا، وأحيانًـا تضحـك لسـبب لا أعرفـه. لقـد أحببتُهـا.. لا، بـل صرت مُتيّـماً بهـا منـذ الثلاثـين دقيقـة الأولى مـن لقائنـا..

عنـد الثامنـة، ودّعتنـا هيـام متوجهـة إلى بيتهـا، بعـد أن طلـب منهـا الدكتـور حمـزة ذلـك.

بعـد أن انتهـى وقـت العيـادة، دعـاني الدكتور حمـزة إلى غرفـة الفحص وطلـب منـي الجلـوس لأمـر مهم، ومـا إن جلسـت حتـى قال:

«أنـت تعـرف كـم أحبـك يـا مرهـون، أنـتَ أخـي الصغـير كـما

93

أخبرتـك في أكثـر مـن مـرة؛ لـذا أرجـو منـكَ أن تفهـم موقفـي.. عائلـة حـاج نزيـه تمـر بظـروف صعبـة، وهـم بحاجـة إلى مدخـول مـادي يُعينهـم، خصوصًـا وأن البـلاد تعيـش حالـة حصـار اقتصـادي مريـرة؛ لذلـك طلبتْ هيـام مني أن أجـد لهـا أو لإحـدى أخواتهـا عملاً مناسـبًا، وأنـتَ تعـرف بأنهـنَّ جامعيـات، ولكـن الحصـول عـلى فرصـة عمـل صعبـة جـدًّا، والحقيقـة لم أجـد فرصـة عمـل مناسـبة لهـا سـوى عيـادتي، خصوصًـا وأننـي فكـرت أن أزيـل عـن كاهلـكَ بعـض المتاعـب، كونـكَ تشـتغل بوظيفتـين في آنٍ واحـد..».

أردتُ أن أقـول شـيئًا، لكـن الدكتـور طلـب منـي الاسـتماع حتـى يُنهـي كلامـه، فأضـاف:

«لـذا وجـدت الفرصـة مناسـبة لهـا ولـكَ، أنـتَ تتفـرغ لعمـل الحراسـة وتلبيـة احتياجـات المؤجّريـن، وهـي تعمـل في العيـادة لتحصـل في نهايـة كل شـهر عـلى مبلـغ حـلال يعينهـا..».

سكتَ الدكتور وأنا أنظر في عينيه، ثم أضاف:

«وأريـدكَ أن تعلـم أيضًـا بأننـي وجـدت عمـلاً مناسـبًا لأختهـا الأكـبر «سـهام» في المستشفى التـي أعمـل بـه، وغـدًا صباحًـا سـأمرّ عـلى بيتهـم لأخذهـا إلى عملهـا الجديـد..»، ثـم صمـتَ وهـو ينظـر في عينـي مبتسـماً، وفهمـت أنـه يسـمح لي بالـكلام فقلـت:

«أنـت يـا حـضرة الدكتـور أخـي الكبـير، وهـذا شرف عظيـم لي، وإنَّ مـا فكـرتَ بـه بخصـوص الآنسـة هيـام يعـدّ موقفًـا شريفًـا ونبيـلاً مـن حضرتـك، فشـكرًا لحضرتـك..!»

انسحب الدكتور من خلف مكتبه واتجه نحوي ليحتضنني قائلًا:

«كم أنتَ كبير يا مرهون.. أعتز بك أخًا وصديقًا.. رغم صغر سنّكَ، فأنتَ كبير العقل عظيم الشهامة.. شكرًا للدكتور كريم على هديته الثمينة هذه..».

❋ ❋ ❋

كنت جالسًا عند بوابة البناية من الداخل، بعد أن أغلقت بابها الحديدي المشبّك، وكنت أنظر صوب الخارج دون أن أرى شيئًا. كان تفكيري منشغلًا بـ«هيام» بقوامها ونهديها، وضحكاتها ومداعباتها البريئة. شعور جديد لم أعرفه من قبل، أتصور نفسي أقبّلها، بعد أن تطلب هي مني ذلك، ثم تمد يدها إلى أشيائي فأستيقظ من خيالي فزعًا، لاعنًا عقلي وخيالي بسبب تلك الأفكار، ولكني سرعان ما أعود إلى لعبة التفكير بها وإحضار صورتها، منقادًا إلى حلاوة اللعبة ودغدغاتها التي غلبتْ بمتعتها حتى الشيطان، وبقيت سابحًا بتفكيري الساحر وأنا أشم عطر هيام حتى ترطَّبَ سروالي دون إرادة مني، فشعرت بالخزي والعار يغلف روحي.

صعدتُ إلى غرفة السطح وتحممت، ثم استبدلت ملابسي، وتذكَّرت بأن تلك الملابس كان حاج نزيه قد اشتراها لي، مما زاد شعوري بالعار، ولكنه يظل عارًا جميلًا، ما دام بقي عند حدود

المخيلـة. ابتسـمت وتذكـرت حينهـا مقولـة ريتشـارد فاغـر التـي كان الأسـتاذ عدنـان يرددهـا عـلى مسـامعي بـين حـين وآخـر:

«الخيال يخلق الحقيقة».

عـدتُ إلى مـكاني حيـث البوابـة، ومـا إن فارقـتْ هيـام خيـالي حتـى احتلـه المـلازم حاتـم أو المقـدّم حاتـم. تصـورت نفـسي وأنـا أسـتدل عـلى داره وأتابعـه، ثـم أجلـس في مـكانٍ مـا أراقـب حركـة الدار، وأسـأل بعـض المـارة عـن بعـض المعلومـات المهمـة عنـه وعـن عائلتـه.. لا أدري كـم استغرق زمـن التفكـير بحاتـم، ولكنـي خرجـت مـن تفكـيري عـلى إثـر نبـاح كلـب. كان ينبـح منفعـلاً، ولم أسـتطع رؤيتـه، حيـث كان نباحـه يصـل مـن جهـة اليمـين، أي مـن جهـة الشـارع الرئيـس. اسـتمر النبـاح لفـترة، ثـم سـمعت دوي إطلاقـة سـكت الكلـب بعدهـا. بقيـتُ جالسًـا مـكاني متأهبًـا لأي حركـة، ولكننـي لم أرَ شـيئًا، ولم أقـرر فتـح البوابـة لتبيـان الأمـر، فـما دام الأمـر بعيـدًا عـن البنايـة لا يدخـل في مجـال عملي..

عـدت إلى تفكـيري بحاتـم، ورحـتُ مـرة أخـرى أُخطـط إلى كيفيـة معرفـة كل شيء عنـه، حتـى قـررت الذهـاب في صبـاح اليـوم التـالي إلى مقربـة مـن مـكان عملـه، أو الذهـاب إلى منطقـة سـكناه والعـودة إلى البنايـة حـين يكـون تواجـدي ضروريًّـا، وعـادة مـا يكـون بعـد السـاعة الثانيـة ظهـرًا.

في صبـاح اليـوم التـالي، وحـين خرجـت مـن البنايـة متوجهًـا إلى منطقـة عمـل المقـدّم حاتـم، عرفـت بـأن صاحـب أحـد المحـال التجاريـة القريبـة مـن البنايـة كان يضـع كلـب حراسـة داخـل محلـه ليـلاً،

وأن المحل قد سُرِقَ بكامل محتوياته بعد أن قتَل السُّرّاق الكلب.. شاهدتُ صاحب المحل وهو يبكي بمرارة على كلبه.

وصلتُ قريبًا من مركز الشرطة الذي يترأسه المقدّم حاتم، شاهدتُ بعض السيارات متوقفة قربَ باب المركز، فخطرتْ لي فكرة أعادتني إلى سنوات عملي مع القتيل مانع. اقتربتُ من الشرطي الذي يقف حارسًا عند البوابة وسألته إن كان أحدًا يريد غسل سيارته، ثم أوضحت له بأنني شاب بسيط ومحتاج إلى بعض النقود لتأمين لقمتي، أحب العمل بشرف بدلًا من أن أسلك طريقًا غير شريف.. أطلق الشرطي ضحكة عارمة وقال بأن هذه السيارات تعود إلى ضبّاط ونواب ضبّاط، وهم لا يعطون المال، بل تعودوا الأخذ، وإن أرادوا غسل سياراتهم، فهم غالبًا ما يكلّفون الرُّتب الأدنى منهم بذلك، فقلت له: «طيب دلني على سيارة السيد المدير وأنا أغسلها له مجانًا..».

أشار لي على سيارة حمراء فارهة، وطلَب مني الانتظار حتى يدخل ويسأل السيد المدير إن كانت لديه الرغبة في غسل سيارته.

لم يجدني الشرطي حين عاد إلى مكانه، فقد كنتُ قد غادرت المكان بعد أن حفِظتُ رقم سيارة المقدّم حاتم ونوعها ولونها.. كانت جميلة لدرجة أني اشتهيتُ قيادتها، فقد عاد بي الحنين إلى سنوات موقف السيارات حين كنتُ صغيرًا أقود السيارة بضعة أمتار لأركنها في المكان المناسب.

توجهـتُ مـن فـوري إلى منطقـة سُـكنَى المقـدّم حاتـم، وهنـاك حالفنـي الحـظ بالعثـور عـلى مقهًـى في الشـارع الـذي يقـع فيـه بيتـه، ولكنـي لم أعـرف أي بيـت مـن تلـك البيـوت يسـكنه حاتـم. جلسـتُ منتظـرًا صيـدي، حيـث ذهـب تفكـيري إلى اسـتجواب أي شـخص أقابله مـن أبنـاء المنطقـة لاصطيـاد أي معلومـة، ولكنـي سرعـان مـا انتبهـت إلى نـادل المقهـى الـذي عـادةً مـا يكـون الأكثـر معرفـة بأبنـاء المنطقـة.

سـحبتُ كتـابي الصغـير مـن جيـب بنطـالي، ورحـت أتظاهـر بالقـراءة حتـى اقـترب منـي النـادل. كان رجـلًا أربعينيًّـا، معتـدل القـوام، متوسـط الطـول. تبينـتُ فيـما بعـدُ أنـه صاحـب المقهـى ونادلهـا الوحيـد. طلبـتُ منـه شـايًا، وحـين أتـى بالشـاي ووضعـه عـلى الطاولـة، قـال:

«هـل تعـرف بـأن الفـرح دائـماً مـا يغمـرني كلـما رأيـت شـابًا يقـرأ كتابًـا؟.. يـا أخـي صـارت الأميـة منتـشرة كالمـرض في مجتمعنـا!»

نظرتُ صوبه مبتسماً وسألت:

«وهـل تحـب القـراءة؟.. أقصـد هـل تمـارس القـراءة وأنـتَ منشـغل في عملـك؟»

قـال بأنـه يقـرأ عـلى الـدوام، يعـد يومـه ضائعًـا إذا تعـذّر عليـه قـراءة الصفحـات المخصصـة لليـوم الواحـد. عرفـتُ أيضًـا أنـه كان مدرسًـا للغـة العربيـة في إحـدى مـدارس العاصمـة حيـث الأحيـاء الفقـيرة، وقـال بأنـه تـرك التعليـم بسـبب الحصـار وقلـة الراتـب الـذي لا يُمكنـه تغطيـة أجـور المواصـلات، فكيـف بلقمـة العيـش؟ لـذا اشـترى المقهـى ليكـون مصـدر عيشـة، وقـدّم اسـتقالته مـن وظيفتـه.

حديث مطوَّل جرى بيننا، قرأت من خلاله بعض الاستلطاف والراحة في ملامحه تجاهي، وذلك ما شجّعني على سؤاله:

«يسكن أحد أقرباء والدي قريبًا من هنا، إلا أن والدي لا يعرف عنوانه بالضبط ليتسنى له زيارته، فهل تعرف أين يسكن ضابط شرطة برتبة مقدّم اسمه حاتم؟» ابتسم الرجل وأكَّد معرفته بالسيد المقدّم وقال بأنه أحد زبائنه «أحيانًا»، وشدَّدَ على كلمة أحيانًا، مبررًا بأن السيد المقدّم مشغول دائماً.. ثم أشار لي على بيته.

حين هممتُ بالمغادرة سألني: «إذا قابلني السيد المقدّم فماذا أقول له؟.. ما اسم الشخص الذي سأل عنه؟»

فقلت له بثقة عالية:

«يمكنك أن تخبره بأن أحد أبناء حاج نزيه قد سأل عنه..».

غادرتهُ فرحًا وكأني أتممت مهمة صعبة، لم أعرف أنها ستمر بكل يسر .

عدتُ إلى عملي مارًّا بشارع المكتبات. اشتريت رواية «العميل السرّي» لجوزيف كونراد؛ لتكون رفيقة ليلتي التي لا أعرف كيف ستنتهي، لكثرة حوادث الاعتداء والسرقات الليلية التي غالبًا ما تنتهي بالقتل، إضافة إلى القلق الذي أصابني منذ الصباح، حين عرفت بسرقة المحل التجاري وقتل كلب الحراسة.

بعـد أن غـادر الدكتـور حمـزة عيادتـه برفقـة هيـام، كونـه قـد تكفَّـلَ بتوصيلهـا كل ليلـة إلى بيتهـا، دخلـتُ عـالم كونـراد، متتبعًـا خطـوات «فيرلـوك» بطـل روايتـه، وهنـاك وجـدت بعـض مشـاهد تقـترب مـن بعـض مـا مـررت بـه، ولكـن الأكثـر قربًـا كانـت شـخصية «وينـي» زوجـة فيرلـوك، التـي فجَّـرَتْ غيظهـا وقامـت بتمزيـق قلـب زوجهـا بسـكينٍ اخترقـتْ صـدره وهـو نائـم، ثـم هربـتْ. صـورة «رائعـة» للأخـذ بالثـأر، أعادتنـي إلى صـدر مانـع والسـكين التـي اسـتقرت بقلبـه.

في سـاعات الحراسـة الليليـة، كنـت أسـمع بـين حـين وآخـر، وبينـما أكـون منغمسًـا في القـراءة، بعـض إطلاقـات ناريـة بعيـدة، وأحيانًـا قريبـة نسـبيًا، وكنـت عنـد الصبـاح أسـأل البعـض إن كانـوا قـد سـمعوا صـوت الرصـاص، وإن كانـوا يعرفـون سـبب إطلاقهـا، فكنـت أحصـل عـلى أجوبـة مختلفـة. هنـاك مـن يقـول إنهـا حملـة لقتـل الـكلاب السـائبة، وآخـر يقـول مطـاردة لصـوص، وهنـاك مـن يقـول، بصـوتٍ منخفـضٍ، إنهـا حملـة إعدامـات.

كان الليـل يعيـد لروحـي صفاءهـا الـذي يحـاول النهـار جاهـدًا اسـتلابه، نتيجـة العمـل والاحتـكاك بالآخـر، لكـن، وكثـيرًا مـا كانـت حركـة وأصـوات القطـط والـكلاب السـائبة تخرجنـي مـن عـوالم سـاحرة تجـود بهـا مخيلتـي المزدحمـة بالمشـاهد التـي اختزنتهـا نتيجـة القـراءة، لتكـون مـلاذًا ممتعًـا أحتمـي بـه مـن قسـاوة الذكريـات المـرَّة.

❋ ❋ ❋

100

غـدًا أجمـع مرتبـي الشـهري مـن مُؤجِّـري شـقق البنايـة، الـشركات والأطبـاء وأصحـاب المخـازن والرجـال الثلاثـة الذيـن يسـتأجرون ثـلاث شـقق مـن البنايـة، والذيـن لا يأتـون إليهـا إلا يومـي الخميـس والجمعـة بصحبـة إحـدى صديقاتهـم.

لقـد أوصـاني حـاج نزيـه بهـم أكثـر مـن مـرة، مشـيرًا إلى أن مـا يحصل عليـه منهـم يعـادل مجمـوع مـا يحصـل عليـه مـن بقيـة المسـتأجرين، وأحيانًـا يزيـد.

كانـوا ثلاثـة رجـال محترمين جـدًّا، أحيانًـا، يأتـون بصحبـة أصدقائهم، تلحقهـم بعـد ذلـك بعـض الفتيـات اللـواتي نعرفهـنَّ جيـدًا، أمـا التـي تـأتي لأول مـرة، فقـد كنـا -أنـا وحـاج نزيـه مـن قبـلي- نحصـل عـلى اسـمها قبـل قدومهـا، وحـين تـأتي نصطحبهـا إلى الشـقة ثـم نعـود إلى عملنـا.

لم أقابـل صاحـب البنايـة مـن قبـل، ولم يسـبق لي التعـرف عليـه، فوكيـل أعمالـه يـأتي مـرة واحـدة كل شـهر ليسـتحصل الإيجـارات، ويسـأل بشـكل عابـر عـن احتياجـات البنايـة. تعلمنـا أن نخـبره بـأن البنايـة عـلى مـا يـرام ولا ينقصهـا شيء؛ لأننـا مهـما طلبنـا، فلـن يلبـي طلبنـا؛ لـذا تعودنـا، أنـا وسـكان البنايـة، حـل مشـاكلنا بأنفسـنا. والحقيقـة أن صاحـب البنايـة ووكيلـه لا يسـاهمان بـأي مبلـغ مـن مرتبـي؛ لـذا فهـما غـير مكترثـين لوظيفتـي رغـم أنهـما يسـألان عنـي بعـض المؤجريـن الذيـن وجـدوا فيَّ همـة ونشـاطًا وحبًّـا للمسـاعدة، وأنـني أنشـط وأسرع بكثـير مـن حـاج نزيـه، ولم

يسألا عن عمري ومؤهلاتي، فقد خدمتني بنيتي الجسمانية التي تمنحني خمس سنوات أكثر من عمري كما أخبرني الدكتور حمزة في أول لقاء جمعني به.

كان الدكتور حمزة فقط من يعرف عمري الحقيقي؛ لذا فقد سبق له وأن نبَّهني على أنني سأُتمُّ الثامنة عشرة من عمري بعد قرابة العام، وعليَّ التفكير بشكل جدي في أمر تأدية الخدمة العسكرية الإلزامية. أرعبني ذلك الأمر، صرت أردد مع نفسي متسائلًا: «هل سأفقد حريتي مرة أخرى؟»

أحد الرجال الثلاثة ممن أراهم يومي الخميس والجمعة كان صديقًا للدكتور حمزة، والذي سأعرف فيما بعدُ أنه رجل أمن مهم. والحقيقة لم أكن أعرف مدى أهميته، ولكن ذلك ما قاله لي الدكتور حمزة حين طلبَ مني جلب صورتين شخصيتين لي. وبعد أسبوع، سلمني الدكتور هوية حارس بناية صادرة من دائرة الأمن باسم «مرهون عباس صويحب» بدلًا من «مرهون عيسى صاحب»، وكان مدوَّنًا عليها سنة التولد تظهرني أكبر من عمري الحقيقي بخمس سنوات. نظرتُ إلى الهوية وقلت على الفور بأن هناك خطأ في الاسم. طلَب الدكتور مني الجلوس، وشرح لي أهمية ذلك الخطأ؛ لأنني سجين سابق، وأن تغيير اسمي ضروري من أجل بقائي في العمل، خصوصًا وأنني أنال إعجاب السيد الضابط؛ نظرًا لنباهتي وإخلاصي في العمل، وبخدمته بشكل خاص، فهو لا يريد حارسًا جديدًا لا يعرفه من قبل،

ربـما يسـبب لـه المتاعـب. تفهَّمـت الموضـوع وفرحـت بـ«الخطـأ» جـدًّا؛ كونـه يشـكل خطـوة مهمـة في إخفـاء بعـض معـالم المـاضي المـؤلم.

انتهيـتُ مـن روايـة «مـدام بوفـاري» بعـد روايـة «العميـل السـرّي» السـاحرة، ولا أدري لمـاذا كنـت أرى مـدام بوفـاري بصـورة وملامـح هيـام، رغـم أنهـا غـير متزوجـة، ولم أعـرف عنهـا بعـدُ الـشيء الكثـير.. ولكنـي حـين انتهيـت مـن الروايـة، هـزَّني شـوق لقـراءة «كتـاب عيسـى بلاطـة» الـذي أهـداني إيـاه الأسـتاذ عدنـان قبـل ترحيلـه مـن السـجن ببضعـة شـهور، بعـد أن أخـذ موافقـة ضابـط أمـن السـجن النقيـب ضيـاء، ذلـك الكتـاب الـذي كنـتُ غالبًـا مـا أُبحـر بـه هاربًـا مـن عالمـين مؤلمـين: عـالم السـجن الكابـوسي، وعـالم دواخـلي التـي تكتنـز مـرارة الشـعور بالحيـف والغربـة. أخرجـت الكتـاب مـن كيـس السـجن، واصطحبتـه معـي ليكـون أنيـسي في ليلـة الحراسـة، وأثنـاء مـا كنـت أقـرأ سـألتُ نفسي: «لمـاذا لا أشـتري كتابًـا آخـر عـن السـيّاب، ربـما يضيـف لي متعـة مـن نـوع آخـر؟» لـذا قـررت الذهـاب إلى شـارع المكتبـات الـذي أعشـقُ، لـشراء كتـاب آخـر؛ طمعًـا في مضاعفـة شـحنة المتعـة، وبالفعـل، وبعـد أن جمعـت مرتبـي الشـهري عـلى شـكل مبالـغ صغـيرة تحصّلـت عليهـا بعـد مـروري عـلى كل المؤجريـن، ذهبـت إلى هنـاك واشـتريت كتابًـا سـبق لـه وأن طـاف بـين أيـدي القـرّاء، بعنـوان «بـدر شـاكر السـيَّاب»، مـن تأليـف إحسـان عبـاس، بالإضافـة إلى روايتـي ماركيـز «مائـة عـام مـن العزلـة» و«الحـب في زمـن الكولـيرا».

حين كنت أقرأ كتاب السيّاب الجديد، وبعد أن قرأت على الصفحة الخامسة عشرة ثلاثَ كلمات فقط كعنوان للفصل الأول «البحث عن النخلة»، قلَّبت الصفحة لأجد شيئًا غريبًا، كانت رسالة حب «مرعبة» مخطوطة بقلم الرصاص وبخط جميل جدًّا:

«حبيبي وملاذي،

مشتاقة لمائك وخصوبتك..

ما زلتُ مصرَّة على الهروب لبلدٍ آخر.

تشجّع وساعدني

حبيبتك «النخلة».»

104

7

مضى شهر بأكمله وأنا أراقب منزل المقدَّم حاتم، ولكني لم أفلح برؤيته حتى ولو من بعيد. أحيانًا كنتُ أشاهد سيارته الفارهة التي حفظتُ رقمها عن ظهر قلب، منذ أن أشار إليها شرطي الحراسة عند بوابة مركز الشرطة، متوقفة في مرآب الدار، ولكني لم أرَ حاتم. كانت مشكلتي في كل مرة أراقب فيها داره تكمن في صاحب المقهى، فالكذبة التي أطلقتها بوجهه بغية التملّص من الاستدلال عليَّ، والتي خدمتني في حينها، صارتْ عائقًا كبيرًا أمامي، وحالت دون تمكني من دخول المقهى ثانية. والحقيقة، كان المقهى أفضل مكانٍ لمراقبة بيت حاتم، فقد كنتُ متخوفًا من أن يكون صاحب المقهى، المغرم بالقراءة والذي احترمته جدًّا، قد أخبر حاتم باسم والدي المزيف، فدخلت الريبة إلى روحه.

حفظتُ كلَّ شبرٍ في محيط بيت حاتم، ولكن من الخارج فقط، صحيح أني كنت أراقبه نهارًا، ولكني أيضًا كنت أسرق بعضًا من ساعات الليل عدا يومي الخميس والجمعة؛ لأراقب الدار، وقد تجرأتُ لثلاث مرات في تجاوز سور البيت قفزًا، والتجوال في محيطه

بعد التأكد من خلو البيت من ساكنيه. كانت المرات الثلاث كافية لتكوين فكرة مهمة، رغم الخوف الشديد الذي كان يعتريني، ولكني لا أدري لماذا كلما اعتراني الخوف أصبح أكثر جسارة وأنشط حركة وخفة..

وجدتُ في الحديقة الخلفية ملاذًا مهماًّ؛ حيث شجرة التين الكبيرة المنتصبة عند الزاوية اليسرى، كانت وارفة الظلال، وتعد مخبأً مهماًّ أثناء الليل.

في كلِّ مرة كنتُ أسأل نفسي «إن كنتَ تريد رؤية حاتم فقط، فلماذا تتفحص داره وتبحث عن سبل النزول أو الدخول إليها؟» وفي كل مرة لا أجد الجواب، حتى عثرتُ على شيء مهم حين كنتُ في أحد الصباحات داخل غرفتي «غرفة السطح»، حين حاولت فتح بعض العلب الكرتونية الصغيرة، التي لا أعرف محتوياتها، كوني كنت أعرف ما تحتويه بعض العلب نتيجة عملي في العيادة، حينها وجدت في إحدى العلب مشارط طبية باهرة الحدة والقوة، وحالما فتحتُ بعضًا من العلب المتشابهة عرفتُ بأن هناك أحجامًا مختلفة للمشارط. اخترتُ واحدًا من الحجم الكبير واستخدمته سكينًا لتقطيع الخضار والفواكه، كان عظيماً ومخيفًا، والغريب، كلما قطعت به شيئًا، تصورته يقطع رقبة حاتم، فترسخت الفكرة في ذهني، حتى صار أحد المشارط لا يفارقني، وكلما عزمت على الخروج صرت، وبحرصٍ شديدٍ، أتأكد من وجوده في جيبي تمامًا كما أتأكد من وجود المفاتيح الخاصة بالبناية.

في ليلـة غـاب عنهـا القمـر، وصلـت بيـت حاتـم، كانـت الأضـواء مُطفـأةً إلا شـبّاكًا واحـدًا كان كريـماً بضوئـه. اسـتدرتُ خلـف الـدار، وبقفـزة رشـيقة تجاوزتُ سـياج الحديقـة وصرتُ خلـف شـجرة التـين. رحـتُ أنظـر صـوب الشـبّاك المضيء علّنـي أتبـين أي شـخص موجـود في الداخـل، ومـا هـي إلا دقائـق حتـى فُتـحَ البـاب الحديـدي المفـضي إلى الحديقـة، لأشـاهد رجـلًا يرتـدي بيجامـة فاتحـة اللـون بخطـوط غامقـة. صـار الرجـل يتجـول بخطـوات بطيئـة في أرجـاء الحديقـة وهـو يدخـن سـيجارته، حتـى صـار قريبًـا منـي. نظـرتُ إليـه متفحصًـا ملامحـه، فتأكـدتُ مـن أنـه المقـدّم حاتـم. اسـتدار مانحًـا ظهـره لي، ثـم خطـا خطوتـين وتوقّـف ناظـرًا صـوب الـدار تمامًـا، وحينهـا شرعـتْ أصابعـي بالبحـث عـن المـشرط. مسـكتُ المـشرط بقبضـةٍ صارمـةٍ ثـم قفـزت بسرعـة خاطفـة لأكـون خلفـه تمامًـا. أراد أن يسـتدير ليتبـين مصـدر الصـوت، لكـنَّ سرعتـي لم تمنحـه الفرصـة، طوّقـت وجهـه بذراعـي الأيـسر، ومـرَّرت المـشرط عـلى رقبتـه. سـمعتُ حينهـا شـخيرًا مـرًّا وكأنهـا صرخـة اعتـذار مكتومـة قـد أطلقهـا بوجـه العـالم.

سـقط عـلى الأرض رافسًـا الهـواء برجليـه، ويـداه ترتعشـان كعصفـور صغـير يحـاول الطـيران، كانـت عينـاه متسـعتين لدرجـة الجحـوظ وهـو ينظـر في وجهـي، حاولـتُ منحـهُ فرصـة التعـرّف عـليَّ، إلا أننـي لا أعتقـد بأنـه عرفنـي جيـدًا، فقـد كانـت الظلمـة شـديدة، وكانـت حركتـي أشـد وأسرع حـين غرسـت المـشرط وسـط رقبتـه مـرة أخـرى وسـحَبته جهـة اليسـار بقـوة، لأشـاهد الـدم نافـرًا مـن الشريـان.

حين همَد الرجل دون حراك، وقَع نظري على ساعته اليدوية، فانتزعتها ثم انتزعت خاتمًا ذهبيًّا كان في بُنصر كفه اليمنى، ودسستهما سريعًا في جيب بنطالي.

تركتهُ ملقًى على الأرض حيث العشب المستعد لاستقبال الندى، ودخلت البيت حذرًا وكفي اليمنى يقبض على المشرط بقوة.

دخلتُ بخفة قطٍّ متأهب للصيد. عرفتُ أن الباب الذي خرج منه القتيل حاتم هو باب المطبخ، ثم وبعد بضع خطوات دخلت الصالة، كانت بأثاث فاخر جدًّا، وقع نظري على مسدس موضوع على طاولة صغيرة محصورة بين كنبتين جلديتين، كان رائعًا برّاقًا، حملته ودسسته في حزامي جهة الظَّهْر، ثم شدَّت انتباهي «فازة» نحاسية، جميلة اللون والشكل، رفعتها وصرتُ أقلّبها، ثم نظرت بداخلها فشاهدت أوراقًا نقدية لم أتبينها جيدًا..

وكأن عقلي قد عاد إلى طبيعته، بعد أن كان غائبًا خلال عملية القتل، حيث فكرت بإمكانية وجود أشخاص آخرين داخل البيت، وأنَّ عليَّ الإسراع بالخروج.. حملتُ «الفازة» ثم توجهت حيث باب الحديقة الذي دخلت منه، ولكني انحرفت نحو اليمين حيث مغسلة الصحون، فتحت الحنفية وغسلت يدي والمشرط، ثم تناولت كيسًا بلاستيكيًّا كان يحتوي على حبات خيار، أفرغته ووضعت الفازة داخله. لففت الكيس عليها ووضعتها تحت إبطي الأيسر. خرجت مارًّا بجثة حاتم الهامدة. تجاوزت سياج الحديقة بقفزة ماهرة لأكون خارج مسرح الجريمة.

«يـا والـدي! لقـد حـذوتُ حـذوكَ، وامتهنـتُ مهنتـكَ، ربما سـألتقيك يومًـا مـا بعـد أن ألاقـي المصـير نفسـه الـذي لقيتـه أنـتَ..». ذلـك مـا كان يـدور في ذهنـي وأنـا في طريقـي إلى البنايـة التـي أحرسـها، فلـم أعـد مهتـماًّ بحاتـم وجثته وعينيـه الحمراويـن وهـو يهـددني بالاغتصاب حـين كنـت صبيًّـا. لقـد طويـت صفحتـه إلى الأبـد، ولكنـي لم أنـسَ بأنني قـد قتلـت رجـلاً منـذ دقائـق، وأنَّ منظـر الـدم المتدفـق مـن شريـان الرقبـة كان رائعًـا.

وصلـتُ غرفتـي مرتجفًـا بذهـنٍ مشـوش. دسسـتُ الكيـس الـذي يحتـوي عـلى الفـازة تحـت السريـر بعـد أن أودعـت السـاعة والخاتـم داخلـه، واسـتبدلت ملابسـي ثـم نزلـت لأجلـس خلـف بـاب البنايـة الموصـد.

كانـت ليلـة مُـرَّة جـدًّا، فقـد شـعرتُ بخـوفٍ شـديد، ولكـن دون نـدم، بـل كنـتُ فرحًـا لمنظـر الـدم وهـو يتدفـق بتلـك الغـزارة، وكأن كل قطـرة منـه تقـدّم لي الشـكر والاعتـذار في الوقـت نفسـه.

شـعرتُ بارتعـاش بـدني وبـرد مـؤلم، رغـم أن الجـو كان معتـدلاً، بـل لطيفًـا جـدًّا، ولأول مـرة منـذ تسـلمي وظيفـة الحراسـة أنـام وأنـا جالـس خلـف البـاب دون شـعور مني.

صحـوتُ عـلى نبـاحِ كلاب قريـب، فلـم أعـرف كـم مـن الوقـت مـضى عـليَّ وأنـا نائـم.. نظـرتُ إلى الخـارج مـن خـلال بـاب البنايـة «المشـبَّك» فشـاهدتُ منظـرًا مرعبًـا: سـتة كلاب تشـكّل دائـرة أمـام البـاب مبـاشرة، ووسـط الدائـرة حيـث الأرض جثـة لقطـة غطـى

109

الوحـل كامـل جسـدها، وحـين نظـرتُ إليهـا جيـدًا لاحظـتُ أنَّ أكفهـا الأربـع قـد تـم قطعهـا. تيقنـتُ حينهـا أن الـكلاب تخـاف مخالـب القطـط وليس أنيابها كما يعتقـد البعـض. بـادر أحـد الـكلاب بتحسـس جثـة القطـة بحـذر مسـتخدمًا إحـدى قوائمـه ليتأكـد مـن موتهـا، تـلاه كلـب آخـر مكـرّرًا الحركـة نفسـها. كانـت الـكلاب تصـدر أصواتًـا مثـل أنـين أو همهمـة، وكأنهـا تجسـد مشـهدًا مسرحيًّـا عظيـم الوقـع شـديد القسـاوة.

فكَّـرتُ أن أفعـل شـيئًا لمسـاعدة القطـة، رغـم تأكـدي مـن أنهـا جثـة هامـدة، كنـتُ أريـد إنهـاء ذلـك المشـهد المرعـب بـأي شـكل.. ضربـتُ البـاب بكفـيَّ فاهتـز حديـده مصـدرًا صوتًـا أفـزع الـكلاب، لتبتعـد قليـلاً عـن جثـة القطـة، ولكـن سرعـان مـا عـاد أحدهـا وحمـل الجثـة بـين أسـنانه وابتعـد.

❋ ❋ ❋

«المدينة التي لا تحرسها الكلاب، يحكمها ابن آوى».

ذلك ما قاله أجدادنا العظام ونقشوه على طينهم المفخور،

ولكن، كيف يكون حال المدينة حين تسرقها الكلاب؟

❋ ❋ ❋

قبـل توقفـي عـن العمـل في العيـادة وحلـول هيـام الجميلـة بـدلًا عنـي، كان الدكتـور حمـزة غالبًـا مـا يصعـد إلى غرفـة السـطح مـرة أو مرتـين في الأسـبوع ليـشرب شـاي مرهـون المميـز، كـما كان يُطلـقُ عليـه. كنـتُ في كل مـرة أعـدّ لـه الشـاي يحدثنـي عـن أمـور كثـيرة. الحقيقـة أن دكتـور حمـزة كان كثـيرًا مـا يتحـدث إليَّ في أوقـات فراغـه أيضًـا، حـين لا يكـون هنـاك مراجعـون، وكأننـي الشـخص الوحيـد الـذي يمكنـه التحـدث إليـه بصراحـة تامـة. كنـت متأكـدًا مـن أنـه يتخـذ مـن الشـاي ذريعـة ليدخـل عـوالم الحديـث ومتعتـه. كان معجبًـا بطريقـة عمـلي للشـاي الـذي لم يـذُق مثلـه قَـط، حسـب قولـه، وفي كل مـرة أقـول لـه بأنهـا إحـدى حسـنات السـجن القليلـة، فهنـاك أتقنـت إعـداد الشـاي عـلى يـد رجـل لم يعـرف في حياتـه مهنـة أخـرى غـير إعـداد الشـاي وتقديمـه للزبائـن.

بعـد أن حلّـت هيـام موظفـة في العيـادة، صـار الدكتـور حمـزة نـادرًا مـا يصعـد إلى غرفـة السـطح طلبًـا للشـاي، ولكنـه لم ينقطـع عـن ذلـك تمامًـا، فقـد يـزورني بـين حـين وآخـر، وفي الفـترة الأخـيرة، تلمسـت في روحـه ثقـة عاليـة بي، حـين راح يحدثنـي عـن علاقتـه الزوجيـة ومشـاكله مـع زوجتـه.. وفي إحـدى الجلسـات، سـألته إن كان يعـرف سـبب سـجن الدكتـور كريـم، فقـال بعـد أن طلـب منـي إبقـاء الأمـر سرًّا بيننـا، بـأن الدكتـور «كريـم» جـرّاح ماهـر بشـهادة كبـار الأطبـاء في البلـد، وكان يعمـل بأكـبر وأشـهر مستشـفى متخصـص بالجراحـة في العاصمـة، ولكنـه ولتعاسـة حظّـهِ كان هنـاك بعـض الخصـوم مـن الأطبـاء يتربصـون بـه بسـبب

111

الغـيرة، فلفَّقـوا لـه تهمـة المتاجـرة بالأعضـاء البشريـة، عـلى إثـر ذلـك تـم سـجنه دون محاكمـة، وحتـى اللحظـة لم يقـف أمـام قـاضٍ أو تُوجـه لـه تهمـة معينـة..

ثم نظر بوجهي مبتسماً وقال:

«هل تعرف بأن الدكتور كريم قد خرج من السجن؟»

❊ ❊ ❊

هيـام، وبعـد أيـام قليلـة عـلى مباشرتهـا العمـل في عيـادة الدكتـور حمـزة، صـارت في كل مـرة تـأتي إلى عملهـا تعطينـي وهـي في طريقهـا إلى العيـادة كيسًـا بلاسـتيكيًا، يحتـوي بعـض الأكلات البيتيـة، وكنـتُ أشـكرها وفي الوقـت نفسـه أطلـب منهـا عـدم التعـوّد عـلى ذلـك، رغـم شـوقي للطعـام الخـاص والنكهـة المميـزة، حتـى صرت مدمنًـا طعامهـا.. وفي إحـدى المـرات وجـدتُ في الكيـس، بالإضافـة إلى أربعـة «ساندويتشـات»، قميصًـا جديـدًا أسـود اللـون، مصنوعًـا مـن قـماش فاخـر، اعتقـدتُ بأنـه غـالي الثمـن؛ ولذلـك سـألتها قبـل انتهـاء عملهـا بدقائـق عـن مـكان شراء القميـص، لكنهـا أخبرتنـي لتثـير دهشـتي بأنهـا هـي مـن خاطتـه لي خصيصًـا. عرفـتُ بعـد ذلـك بأنهـا كانـت ولا تـزال رغـم حصولهـا عـلى وظيفـة سـكرتيرة طبيـب، مسـتمرة في مزاولـة مهنـة الخياطـة في بيتهـا، وأنهـا تخيـط الثيـاب لأشـخاص مـن طبقـة خاصـة لا تراهـم، بـل هنـاك امـرأة تعمـل وسـيطًا بينهـا وبـين الزبائـن، بعـد أن تسـجل طلبهـم ومقاسـاتهم..

112

القميص الأسود الذي أهدتني إياه هيام، لبسته لأول مرة في ليلة قتل حاتم، وقد ساعدني كثيرًا بلونه الحزين على الاختباء بشكل عظيم خلف شجرة التين، وكذلك إخفاء بقع الدم التي تلطَّخَ بها.

في اليوم التالي، وكان منظر الدم المتدفق لم يغادر ذاكرتي بعد، كنتُ جالسًا عند البوابة حين وصلت هيام في موعدها، ألقت التحية ثم نظرت إليَّ نظرة متفحصة، قرأتُ الفزع فيها، ثم قالت متسائلة بخوف واضح: «ما بكَ يا مرهون؟ لماذا وجهك شاحب وعيناك غائرتان؟» ابتسمتُ لها وأخبرتها بأنني على ما يرام، ثم تحججتُ بالسهر وقلة النوم، فطلبتْ مني أن أتناول كل ما هو موجود في الكيس الذي أعطتني إياه منذ قليل، وقالت بأنها ستعد الشاي قبل وصول الدكتور حمزة، حيث يمكنني الصعود إلى العيادة لنشربه معًا.

بعد نصف ساعة من دخول هيام العيادة، دخلتُ طارقًا الباب المموارب لتعرف بأنني أتيت.. خرجتْ هيام من الغرفة الصغيرة التي تشبه المطبخ مُرحِّبة بي، طالبة مني الجلوس:

«اليوم يمكننا التحدث طويلاً؛ فقد اتصل الدكتور حمزة واعتذر عن المجيء كونه مريضًا، وطلب مني البقاء في العيادة حتى آخر دقيقة عمل كالمعتاد؛ لإخبار المراجعين وتسجيل أسمائهم وتأجيل مراجعتهم إلى اليوم التالي».

«من كل قلبي أتمنى له الشفاء العاجل.. الدكتور حمزة بنُبله وشهامته صار أخًا كبيرًا لنا..». قلتُ ذلك صادقًا، ثم سألتها عن

أختها سهام، وعن أحوالها، وإن كانت مرتاحة بعملها في المستشفى، ردت بشيء من السعادة بأن أحوال أختها جيدة جدًّا، وهي مرتاحة جدًّا باستثناء غيابها المستمر ليلاً بسبب الدوام الليلي، وأن سر راحتها وسعادتها هو الدكتور حمزة صاحب الأفضال الكبيرة عليها وعلى عائلتها، وأضافتْ قائلة:

«تصور يا مرهون، أن الدكتور حمزة دائماً ما يأتي إلى بيتنا ويسأل عنا وكأنه وليّ أمرنا..! الله يحفظه..».

قدمتْ لي كأس الشاي، وجلستْ قبالتي مبتسمة، ناظرةً إليَّ بحنو واضح، وقالت:

«مرهون، أريد أن أسألك سؤالًا خاصًّا، وأرجو ألا تفهمني خطأً..». ابتسمتُ لها مترقبًا طرح سؤالها، مشيرًا إلى أنني سأردّ عليه بكل سعادة. ابتسمتْ ودعكتْ خصلات شعرها جهة الأذن اليمنى وقالت:

«هل جرّبت الحب؟»

ارتعد جسدي وشعرتُ بدوار مفاجئ. حاولتُ مداراة حيرتي بابتسامة متشنجة، ثم حاولتُ الرد ولكنني تلعثمت، وشعرت أن كل حروف الكلمات قد وقفتْ بوضع الاستعداد العسكري داخل حنجرتي رافضة الخروج، حتى كادت تخنقني.

انتبهتْ هيام لارتباكي وأطلقتْ ضحكة مسموعة، ثم قالت وهي تمسح بكفها على رأسي:

114

«يـا الله! كـم أنـتَ خجـول! هـل أحرَجـكَ سـؤالي؟» ثـم قالـت دون انتظـار ردي: «الحقيقـة أن السـبب مـن وراء سـؤالي هـو حالتـكَ الغريبـة التـي رأيتـكَ عليهـا قبـل قليـل حـين شـاهدتكَ وأنـا أدخـل البنايـة، مصفـرَّ الوجـه حزينًـا، ففكـرت، ربـما تكـون بحاجـة إلى إنسـان تتكلـم معـه عـن حالـة الحـب التـي تعيشـها.. هـل أنـا محقـة؟.. هـل تعيـش حالـة حـب؟»

تنحنحـتُ قليـلاً، ونجحـتُ بإخـراج بعـض الكلـمات، ولكـن بصعوبـة، حيـث أصـاب حلقـي الجفـاف: «لا أبـدًا، ليـس الحـب مـا يقـف وراء حالتـي تلـك، ولكـن السـهر وقلـة النـوم كـما قلـتُ لـكِ. أمـا الحـب فلـم أجربـه مـن قبـلُ، حتـى إننـي يتيـم الأب وفاقـد الأم، ولم أذق طعـم الحـب مـن قبـل..».

«الحـب، يـا مرهـون، يجعـل الحيـاة أجمـل، فهـو الدافـع الـذي يجعلنـا متمسـكين بالحيـاة رغـم صعوبتهـا وقسـاوتها..!» قالـت، ثـم أضافـتْ متسـائلة: «ولكـن هـل فكـرت أن تحـب فتـاة في المسـتقبل؟».

«يبـدو أن موضـوع الحـب، الجديـد عـليَّ كليًّـا، سـيكون موضـوع أمسـيتنا لهـذه الليلـة، ولكنـه موضـوع جميـل..» قلـت في سريـرتي، ثـم ركَّـزتُ نظـري في عينـي هيـام محـاولاً إظهـار بعـض شـجاعة وقلـت: «حـين أجـد الفتـاة التـي أشـعر بحبهـا، يمكننـي التفكـير بالموضـوع بشـكل جـدي..».

«أهـا..!» صاحـت هيـام، وأضافـت: «هـذا يعنـي أنـك تبحـث عـن الفتـاة التـي تُحِبـكَ أولاً، وليـس التـي أنـتَ تحبهـا.. هـذا ذكاء وقـوة

شخصية..» قالت كلماتها بصوت مرتفع بعض الشيء وهي تضرب كفها بالكف الأخرى وكأنها التقطت صيدًا لغويًّا مهمًّا، وأضافت ماسكة كفي اليمنى التي كانت متمسكة بكأس الشاي خوفًا من ظهور ارتعاشة أصابعها:

«هل تعرف، يا مرهون، بأنني أحبك؟ ألا تجدني جديرة بحبكَ؟»

شعرتُ بسخونة كفها، ولفَّني الدوار. أغمضتُ عينيَّ، وشعرتُ بفراشات الدنيا مرفرفة بأجنحتها داخل صدري، كاد يغمى عليَّ، ولكن دخول أحد المراجعين أنقذ الموقف.

وقفتُ وفي يدي كأس الشاي الفارغة ثم قلت لها بأن عليَّ الخروج لأتفقد البناية، وأنني سأعود بعد قليل.

خرجتُ من العيادة وساقاي ترتجفان، ولكنني لم أعد للعيادة حتى حين حلَّ موعد إغلاقها، كنتُ جالسًا على سريري أفكر في هيام التي سحرتني منذ لحظة رؤيتها للمرة الأولى عند انتهاء عزاء والدها وشقيقتها الكبرى.

تذكرتُ الكيس البلاستيكي الذي دسسته تحت السرير ليلة أمس، وهممتُ بتناوله، ولكن منعني من ذلك طرقات خفيفة على باب الغرفة. وقفتُ مستندًا على السرير، وتوجهت لفتح الباب، كانت المفاجأة.. هيام تقف بكل جبروتها أمامي مبتسمة:

- «مرهون، أخاف الذهاب إلى البيت في هذا الليل وحدي، وقد هاتفتُ أختي «وئام»، وأخبرتها بأنني ربما أبيت في العيادة حتى الصباح، فرحَّبتْ بالفكرة، خصوصًا وأن أصوات الرصاص هذه

116

الليلـة لا تـكاد تنقطـع، كـما تسـمع الآن، وكـما قالـت وئـام.. وهـي محقـة بذلـك.. مـا رأيـك؟».

رفـرف قلبـي فرحًـا، وقلـت لهـا إن أمامـي نصـف سـاعة لتفقـد البنايـة وإقفـال بابهـا، وطلبـت منهـا عـلى حيـاء الدخـول إلى الغرفـة وإعـداد وجبـة عشـاء حتـى أعـود.

كان جسـدي يرتعـش طـوال فـترة تفقـدي للبنايـة، لم أكـن أُصـدِّق بأننـي سـأكون مـع هيامـي في غرفـة واحـدة، ولليلـة كاملـة، ثـم الـذي لم أكـن قـادرًا عـلى تصـوره قَـط، هـو أنَّ هيـام تبـوح لي بحبهـا، فكلـما فكـرت بهـا يقـف فـارق العمـر حيـال أحلامـي وتصـوراتي.. يبـدو أن بنيتـي الجسـدية قـد خدعتهـا، فهـي لا تعـرف عمـري الحقيقـي!»

كانـت عيـادة الدكتـور حمـزة مُقفلـة وقـد أُطفئـت الإنـارة داخلهـا.. لقـد قامـت هيـام بذلـك! هـذا يعنـي أنهـا لم تفكـر بالعـودة إلى العيـادة لتبيـت ليلتهـا، والمرجَّـح أنهـا فكـرتْ بالمبيـت في فـراشي.

حـين وصلـت غرفتـي، كان البـاب موصـدًا، فعمـدتُ إلى طرقـه احترامًـا لهيـام وخصوصيتهـا.

فَتحـتْ هيـام البـاب وتفاجـأتُ حـين شـاهدتها مرتديـة إحـدى بيجامـاتي، ولكـن الـذي أذهلنـي هـو رؤيـة قدميهـا وقـد دستهما في نعال مانـع القتيـل، سـألتها بـشيء مـن الارتبـاك والعصبيـة: «أيـن عثـرتِ عـلى هـذه النعـال؟» أجابـتْ وهـي تبتسـم بارتبـاك واضـح؛ حيـث يبـدو أنهـا لاحظـتْ غضبـي:

117

«في هـذا الكيـس الكبـير.. مرهـون، مـا قصـة هـذا الكيـس؟ لقـد وجـدت داخلـه مفاتيـح وأشـياء أخـرى، وكذلـك دراهـم قديمـة لم تعـد صالحـة للتـداول!»

نظرتُ صوبها وقلت مؤنّبًا:

«يبـدو أنـكِ تفحّصـتِ الكيـس جيـدًا..» سـحبتُ نفسًـا عميقًـا وجسـدي يرتعـش أكثـر بفعـل رؤيـة النعـال البلاسـتيكية، ثـم قلـت وأنـا أناولهـا نعـالي الإسـفنجية: «خـذي هـذا وأعيـدي النعـال البلاسـتيكية إلى الكيـس، فهـو مـن المـاضي، والمـاضي لا يليـق بلحظتنـا..»

ابتسمتْ وقالتْ وهي تدس قدميها في النعال الإسفنجية:

«أقسـم بأنـكَ شـاعر، لا، بـل مثقـف مـن طـراز خـاص، وهـذا مـا دلتنـي عليـه الكتـب التـي تضمّهـا غرفتك الجميلـة. هل قـرأتَ جميع هـذه الكتب؟»

«نعـم.. فالقـراءة طريقـي الوحيـد لفهـم عالمنـا الدامـي والملتبـس..» أشـارت بحركـة ارتفـاع كتفيهـا وبسـط راحتيهـا بأنهـا تسـمع كلامًـا محـيّرا بعـض الـشيء.

كانـت هيـام قـد أعـدت مائـدة جميلـة متنوعـة عـلى بسـاطتها. عرفـتُ وأنـا أنظـر إليهـا بأنهـا قـد أفرغـت أكثـر محتويـات الثلاجـة الصغـيرة التـي تنتصـب في الزاويـة اليسرى مـن الغرفـة.

جلسـتْ إلى جـواري بعـد أن أعـادتْ نعـال مانـع القتيـل إلى الكيـس الكبـير، ثـم قالـتْ بنـبرة ودودة وهـي تدنـو بفمهـا مـن وجهـي، حيـث شـممتُ رائحـة ذكّرتنـي بصـورة طفـل رضيـع، كنـتُ قـد رأيتـه مـن

قبـل، وقالـت: «أتمنـى ألا تحدثنـي بعصبيـة أو انفعـال مـرة أخـرى، فلـم أعتـد عـلى الحديـث أو الـرد عـلى رجـل منفعـل.. هـل نتفـق؟»

هـزت رأسي موافقًـا دون النظـر إليهـا، ولكنهـا أخـذتْ تحيـط وجهي بكفيهـا، وأدارتـه صـوب وجههـا، ثـم طبعـتْ قبلة عـلى شـفتي، لم أعرف متـى تحـررت شـفتاي منهـا.. جعلتنـي أسـبح في بحـر جسـدها.. كان لسـاني مجـداف القـارب الـذي راح يجـوب البحـر بهـدوء جـذل وهـو يعـرف أن قبطانـه ثملٌ بخمـرة الحـب.. ثـم ارتفـع الـشراع ثاقبًـا عذريـة السـماء ليعلـن بدايـة رحلـة لا يُعـرف لهـا مغـزًى أو نهايـة، سـوى لـذة الإبحـار.

غفـوتُ لصقهـا، فجالـتْ ذاكـرتي متخبطـة جـدران السـجن، مسـتحضرة الأجسـاد المتراصـة وهـي تغفـو منفـردة بكوابيسـها، متوحـدة بذعرهـا. وفي محاولـة منـي لتغيـير صـورة الذاكـرة المريـرة، احتضنـتُ جسـدها، ولأول مـرة أحتضـن فيهـا جسـد مَـن ينـام إلى جانبـي. غفـوتُ دون كوابيـس، بـل عـادت لي الأحـلام الجميلـة، عـادت لي صـورتي وأنـا أرى نفـسي عائـماً في بحـرٍ مـن الأثـداء..

8

بعد أن خرجتْ هيام بكامل انتشاء شهوتها وألقها الأنثوي من غرفتي صباحًا، وكنا قد تناولنا فطورنا الإنساني والروحي بلذة وشهية عارمة فتحتْ أمامنا معنًى جديدًا لحياةٍ كانت منذ سويعات لا تطاق؛ دسستُ يدي تحت السرير وتناولتُ الكيس البلاستيكي الذي يحتوي على «الفازة» النحاسية التي جلبتها من بيت المقدّم حاتم بعد قتله. أخرجتها من الكيس ورحتُ أتأمل جمال الأشكال والرموز المنقوشة عليها، ثم قلّبت فوهتها إلى الأسفل لتتساقط أوراق نقدية أجنبية خضراء من فئة المائة. كانت عشرين ورقة، لم أكن أعرف تمامًا ما قيمة الورقة الواحدة منها، إلا أنني كنت أسمع بها كأفضل عملة أجنبية متداولة في بلدي.

دسستُ ورقة واحدة في جيب قميصي، وأرجعتُ البقية داخل «الفازة» وأودعتها كيسها ومكانها السابق أسفل السرير.

خرجتُ من غرفتي عازمًا على زيارة شارع المكتبات، الذي قررت زيارته منذ ليلة أمس لشراء المزيد من الكتب، حين أثنتْ هيام على شغفي بالقراءة وأعجبت بكمية الكتب التي أملكها، رغم قلتها.

121

لا أعـرف أيـن يمكـن تحويـل العملـة الأجنبيـة؛ لـذا سـألت أحـد المؤجريـن في البنايـة، وكان تاجـرًا يمتلـك محـلًّا تجاريًّـا قريبًـا. أرشـدني إلى شـخص غالبًـا مـا كنـت أشـاهده واقفًـا قـرب أحـد المحـلات القريبـة. ذهبـتُ إليـه وناولتـه الورقـة بعـد أن نقلـت لـه تحيـات الرجـل التاجـر، ابتسـم لي وتفحَّـصَ الورقـة جيـدًا، ثـم دسَّـها في جيبـه، وأخـرج مـن جيـب بنطالـه رزمـة مـن الأوراق النقديـة المحليـة، وراح يعـد الوريقـات حتـى توقـف وناولنـي المبلـغ. فاجأتنـي كميـة النقـود التـي سـلَّمني إياها الرجـل. سـألته إن كان متأكـدًا مـن المبلـغ، وأنـه مُسـاوٍ للورقـة الخضـراء، فهـزَّ رأسـهُ مبتسـماً. كان المبلـغ يعـادل أو يزيـد عـلى مـا أحصـل عليـه خـلال أربعـة أشـهر.

توجهـتُ صـوب شـارع المكتبـات وأنـا أفكـر بالفائـدة التـي جنيتهـا مـن وراء قتـل رجـل أراد اغتصـابي. حينهـا حدثـت نفسـي بقناعـة واسـترخاء: «بـما أنـه كان يمتلـك الرغبـة في اغتصـابي؛ لـذا يكـون مـن الطبيعـي قـد اغتصـب الكثيريـن قبـلي، وربـما بعـدي، فـأي عقوبـة يسـتحقها؟ ربـما يكـون المـوت أهونهـا، ثـم إننـي قـد تحررت مـن عقـدة اسـمها المقـدّم حاتـم، وحصلـت عـلى مبلـغ محـترم يمكّننـي مـن تأمـين أغلـب مـا أحتاجـه»، وهنـا تذكـرتُ والـدي الـذي كان لا يبخـل عـليَّ بـشيء، وكان يغـدق علينـا بكـرم وحـب، ولم نعـرف العـوز طـوال السـنوات السـبع التـي عشـتها داخـل أسرتي قبـل أن يغادرنـا مقتـولًا، وأن كل ذلـك الرفـاه كان بفضـل السرقـة التـي كان يحترفهـا.

وصلتُ شارع المكتبات، ووقفتُ عند بدايته حيث شدَّني تجمع كبير لبشر متحلقين حول رجل مرتفع بعض الشيء بفعل صندوق خشبي كان يرتقيه وهو يصيح وكأنه يعلن عن فجيعة. كان يذيع بصوتٍ واضح الانكسار، بأن الكاتب الشهير والمرموق قد قرر بيع مكتبته الخاصة ليؤمّن لقمة عيش عائلته، فمن يشتري كتابًا كأنه يساهم بمساعدة ودعم هذا الكاتب العظيم، قال ذلك وهو يشير صوب رجل ستيني أبيض الشعر مغرورق العينين، يجلس على صفيحة معدنية إلى الطرف الأيسر من التجمع البشري وفي يده كأس شاي. كان ينظر إلى الكأس وهو يقلِّب شايه ويطيل، وكأنه يحدثه بما يعتريه من خجل ومرارة.

كان الرجل صاحب الصوت المنكسر يعلن عن كتابٍ بين يديه وهو يشرح أهميته، فأشرت له بيدي بأنني راغب في اقتنائه، ولكنه حين انتبه لإشارتي زاد من سعر الكتاب، وراح يسأل إن كان هناك من يزيد على السعر، حينها فهمتُ ما تعنيه كلمة مزايدة. ارتفع سعر الكتاب الذي لم أكن أعرف مضمونه مرتين وثلاثًا، وفي المرة الرابعة حين أشرت للرجل وظل على إثر إشارتي يطلب المزيد عدة مرات، نظر صوبي مبتسماً وهو يسلّمني الكتاب بعد أن ذكَر لي المبلغ الذي عليَّ دفعه.. سلمته الأوراق النقدية التي لا تصل إلى الخمسة في المائة من المبلغ الذي تسلمته من رجل الصيرفة.

انسحبتُ من الحشد واستدرتُ نحو اليمين لأدخل الشارع، حينها شَدَّ انتباهي وقوف رجل وكأنه يقف متعمّدًا في طريقي ليلفت

نظـري. نظـرتُ في وجهـهِ وتلمسـتُ شـقاء سـنوات مريـرة عـلى ملامحـه، شـعرتُ بأننـي أعرفـه، لكـن الصدمـة شوشـت ذاكـرتي للحظـات. كان ينظـر إليَّ مبتسـماً، ومـا إن قابلتـه بابتسـامة حتـى قفـزتْ ذاكـرتي دون درايـة منـي إلى سـنوات السـجن، فهتفـت: «الندائـي.. أسـتاذ عدنـان الندائـي؟!» احتضننـي وراح يشـمُّني كابـنٍ مفقـودٍ منـذ سـنوات.

سـحبني صـوب المقهـى، وهنـاك جلسـنا عـلى الرصيـف المحـاذي لها، فلقـد تعـذَّرَ علينـا العثـور عـلى مـكان لنـا داخلهـا. راح يسـألني ألـف سـؤال وسـؤال، وكلهـا تتعلـق بمطالعتـي للكتـب، وذكَّـرني بالكتـاب الـذي أهـداني إيـاه قبـل ترحيلـه إلى سـجن آخـر، حينهـا دخلنـا بنقـاش جميـل حـول «شباك وفيقـة»، ثـم انتقلنـا إلى رمزية جيكـور عند السياب. وفي لحظـة صمـت، نظـر الأسـتاذ عدنـان عميقًـا في عينـي وكأنـه يريـد المزيـد، فقلـت: «ينظـر الشـاعر في الآفـاق بحثًـا عـن الكوكـب الـذي يعلـن ميلاد الخـلاص، ويسـري عـلى جـواد الحلـم الأشـهب مـن المدينـة إلى جيكـور ليقـدم طعامـه إلى الجيـاع، ودموعـه للبائسـين، ودعـاءه لأن يقـذف الـبركان نيرانـه، ويرسـل الفـرات طوفانـه. ويقـدّم نفسـه ليتـوّج بالشـوك ويُصلـب، ويدعـو الطيـور والنمـل لتـولم مـن جرحـه. وعندمـا يعـود لجيكـور ماضيهـا البهيـج، يصيـح الديـك فيضمحـلّ الحلـم أمـام عينيـه الدامعتـين..» عندهـا صـاح الأسـتاذ عدنـان:

«جيكور، نامي في ظلام السنين».

ضحكـتُ بصـوت عـالٍ يملـؤه الفـرح، وأطلـق أسـتاذي ضحـكات صاخبـة حتـى اغرورقـت عينـاه بالدمـوع، ومـرة أخـرى راح يضمنـي

124

إلى صدره وهو يقول: «ما زلتَ تحفظ المقطع دون أن تنسى كلمة واحدة..!» وراح يعبرِّ عن سعادته بالعثور على «المثقف المجرم»، حسب تعبيره الذي صدمني جدًّا، كوني وجدتُ فيه تسمية تنطبق عليَّ تمامًا، رغم أنه كان يقصد جريمة قتل مانع فقط، فهو لا يعلم ما اقترفته يداي، بعد ذلك.

نظر الندائي صوب الكتاب الذي بين يديَّ. سحَبهُ إليه وراح يتصفَّحهُ، ثم قال: «هل تعرف يا صديقي، بأن هذا الكتاب كان ولا يزال حلماً بالنسبة لي؟.. كنتُ أحلم باقتنائه، وإنني قرأت فصولًا منه حين أعارني إياه أحد الأصدقاء الذي سرعان ما استرده، وكنتُ قد قرأتُ عنه الكثير..» دغدغتْ كلمة «صديقي» مشاعري، وشعرتُ بالغبطة تغلّف روحي، تمامًا كما شعرت بعظمة الرجل ومقدار احترامه لعقله، عظمة روحية لا تتناسب مع ضآلة جسده ورقَّة حاله.

معلمي الأول صاحب الجسد الهزيل، وفي لحظة استرخاء حميمة، راح يتفحصني، ثم قال: «لقد كبرت يا مرهون، أتمنى أن يتناسب جسدك الفتي هذا مع عقلك، وأن يكون العقل هو من يسيطر على هذه العضلات، والطول الفارع، والقوام الفتي، وليس العكس..» ثم استدرك قائلًا: «لنعد إلى الكتاب»، فقلت دون أدنى تفكير:

«هو لك أستاذي الجليل، فأنا لا أعرف شيئًا عن الكتاب، وأنتَ أولى به..».

125

ردَّ الكتـاب إليَّ وطلـب مني قراءتـه بتمعّـن وعمـق، وطلَب أن أسـتغل موهبتـي في الحفـظ كـي أحفـظ أكـبر قـدر ممكـن منـه عـن ظهـر قلـب؛ لأنـه سـلاح أدبي وثقـافي مهـم، وقـال كلمـة مهمـة لا تـزال تـرنّ في ذهنـي:

«إنـه كتـاب الحريـة يـا صديقـي، فيـه ومـن خلالـه سـتعرف معنـى الحريـة الشـخصية وأهميتهـا في بنـاء الـذات..».

تجولنـا في شـارع المكتبـات بعـد أن أعلنـت عـن رغبتـي الملحـة في إهدائـه هديـة قيّمـة يختارهـا هـو، فأخـبرني بأنـه يرغـب في هديـة آنيَّـةٍ وأخـرى دائمـة، أمـا الهديـة الآنيـة فهـي طبـق مـن «الكبـة» الشـهيرة في شـارع المكتبـات. حينهـا تأكـدت مـن أنـه يشـكو العـوز، وكان مظهـره قـد أوحـى لي بذلـك مـن قبـل، أمـا الهديـة الأخـرى فكانـت، حسـب مـا قالـه لي، كتابًـا أختـاره أنـا ليعـرف مـن خلالـه أي مسـتوى ثقـافي وصلـتُ إليـه منـذ أن غـادرني وأنـا ابـن الثالثـة عشرة. ابتسـمتُ وقلـت بأننـي مـا زلـت تلميـذه النجيـب؛ لـذا أجـد صعوبـة بالغـة في تحقيـق طلبـه، ورجوتـه أن يختـار الكتـاب الـذي يرغـب في اقتنائـه. ربَّـتَ عـلى كتفـي وقـال بأننـي مـا زلـت محتفظًـا بأهـم مـا يميـزني: الـذكاء، وسرعـة البديهـة.. فَرِحـتُ لإشـارته تلـك، وتوجهنـا صـوب بائـع الكبـة.

حـين خرجنـا مـن الـدكان الصغـير لبائـع الكبـة، لفـت انتباهـي بعـد بضـع خطـوات، مجموعـة مـن الكتـب مرزومـة بحبـل رفيـع مصنـوع مـن الجنفـاص، موضوعـة عـلى الأرض أمـام رجـل عجـوز ذَكّـرني بحاج نزيـه. اقتربـتُ منـه ورفعـتُ الرزمـة عـن الأرض ورحـت أتفحـص عناوينهـا. كانـت الكتـب متفقـة عـلى اسـم واحـد رغـم اختـلاف

عناوينها «نيكوس كزانتازاكي».. إنها مجموعة المؤلفات المتاحة للكاتب اليوناني.. سألت عن ثمنها، ثم ناولت الرجل العجوز المبلغ الذي ذكره لي وشكرته دون مساومة على الثمن، التفتُّ إلى أستاذي مبتسماً، ووضعتُ الرزمة بين يديه قائلاً:

«إنها هديتي لكَ، وأعدُكَ بأنني سأقرؤها بعد أن تنتهي منها، ثم أعيدها إليك.. وأنت تعرف بأنني لم أقرأ لهذا الكاتب من قبل غير رواية «زوربا» التي ما زلت أحتفظ بها حتى الآن، وما زلتُ أتذكَّر كل ما قلتهُ لي عن تلك الرواية حين كنا داخل أتعس مكان في عالمنا التعس..».

ومرة أخرى احتضنني معبرًا عن امتنانه وزهوه بأنني أحد تلاميذه.

في تلك اللحظة، تمتم أستاذ عدنان بكلمات غير واضحة وكأنه يخاطب حظه العاثر، ولكنني فهمت بأنه يأسف لأنه غير متمكن من دعوتي إلى بيته لنقضي أوقاتًا حميمة نتحدث خلالها عن أي شيء يُنسينا مرارة وتعاسة ما نعيشه.

كانت لديَّ رغبة عارمة في ألّا أضيّع ذلك الكنز الذي عثرتُ عليه، إنه كنز المعرفة والمتعة والمؤانسة، والأهم من ذلك الإنسانية الأثيرة التي يتمتع بها. صحيح أن الدكتور حمزة صار لي عونًا وفرحًا طالما كسر عتمة وحدتي وغربتي، وصحيح أن الكتب بعالمها الساحر والمتناقض كانت عالمي الأول تقريبًا، إلا أن للأستاذ عدنان وقعًا خاصًّا داخل روحي، فقلتُ له بما يشبه الملاطفة:

«أستاذي العزيز، لا أريد أن ألتقيكَ صدفة مرة أخرى؛ لذا أتمنى عليك راجيًا أن تقبل دعوتي بتوصيلكَ إلى بيتكَ حتى أعرف كيف أجدكَ إن هزَّني الشوق إلى معلمي الأول..».

ارتبكَ مبتسمًا، ثم وافق بعد فترة صمت لم تدم طويلًا.

أشار الأستاذ إلى سائق التاكسي بالوقوف عند بداية زقاق قد يكفي لمرور عربة صغيرة يدفعها طفل سيئ الطالع، وحين ناولتُ السائق المبلغ المتفق عليه، توجهنا داخل الزقاق، واستقبلتنا رائحة فقر لا تنقصه الأصالة والتوغل عميقًا في عمر الزمن.. وبعد بضع خطوات، توقفنا عند باب خشبي بدرفة واحدة. أخرج الأستاذ مفتاحًا من جيبه وقال وهو يشرع بفتح الباب:

«أرجو أن تعذر لي فقري وبؤس حالي..»

فقلت له ضاحكًا: «أرجو أن تعذر لي يُتمي ووحدتي ووحشة طريقي..» أطلق ضحكة صادقة وهو ينظر إليّ بحب وإعجاب، ثم قال:

«لقد أصبحت شاعرًا أيها الشاب الشريف.. تأكد من أنكَ كنتَ مصدر فخري وإعجابي.. ولا تزال».

بيتٌ متهالك مبنيّ من الطابوق الأجرد، لا تغطّيه أي إشارة تدل على مرتبة ترتقي قليلًا عن خط الفقر.. بيت موحش خاوٍ، يشبه إلى حدٍّ بعيدٍ روح صاحبه في إحباطها وانكسارها.. غرفتان وباحة مفتوحة بوجه السماء، ثم سلّم مبني من الطابوق، استُغل المثلث الذي تحته حيث الأرض مطبخًا بائسًا بأوانٍ معدنية عتيقة.

السلَّم يفضي إلى سطح بمساحة مربعة مثقوبة إلى الداخل بمربع أصغر منها لتشكل فضاء باحة البيت، مُسَيَّجَة بسياج خشبي تتخلله قضبان معدنية كانت منذ أعوام مضت قد طُليتْ باللون الأخضر.. عند انتهاء السلَّم وقبل بداية أرضية السطح، هناك غرفة صغيرة غالبًا ما تتخذها العوائل مخزنًا لإيداع أفرشة السطح صيفًا.

في إحدى زوايا باحة الدار، كانت هناك أربعة كراسي خشبية غير صالحة للاستعمال وطاولة صغيرة، دعاني إليها الأستاذ عدنان منبهًا إلى ضرورة التأكد من صلاحية الكرسي قبل الشروع بالجلوس عليه. وضعتُ الكتاب على الطاولة واخترتُ أحد الكراسي بعد أن تفحصته وعرفتُ رغبته الدائمة في الرقص وإطلاق أنينه الخشبي كأنه يتوجع وهو يستقبل عجيزة الجالس.

توجه الندائي إلى مطبخه تحت السلم وهو يعلن رغبته في إعداد الشاي بعد وجبة الكبة «الدسمة» التي تناولناها في شارع المكتبات، ثم راح يشرح لي قصة البيت، وكيف صار ملكًا له؛ حيث عرفتُ بأن التهمة التي وجِّهَتْ إليه ودخل السجن على إثرها كانت قد أُسقِطَتْ عنه. حدث ذلك بعد أن تم القبض على لصٍّ داخل بيت يعود إلى أحد الأغنياء، وأثناء التحقيق المصاحب للتعذيب، اعترف اللص بأغلب جرائمه السابقة، وكان من بينها جريمة قتله لزوجة والد عدنان وولدها. وعلى إثر ذلك، أُسقطتْ عنه التهمة وخرج من السجن.

أُعيدتْ له اعتباراته القانونية والمدنية وصار البيت ملكًا له كونه الوريث الوحيد لوالده.

أسعدني الخبر جدًّا، وهنأته على ذلك، ولكنه أخبرني بحزن متراكم منذ زمن بعيد، بأنه كان يعرف القاتل، فقد كان عشيقًا لأرملة أبيه، وأنه قد التزم الصمت، ولم يدلِ بما يعرفه أمام القاضي، حفاظًا على شرف أبيه وسمعة عائلته.. «يا إلهي، هل يمكن لإنسان شفاف مثله أن يتحمل عذابات السجن والإهانات من أجل وهم اسمه شرف العائلة؟ أو شرف أب متوفًّى؟» قلت ذلك بقرارة نفسي، ثم قلت له بروحٍ يعتصرها الألم: «لقد خسرت الكثير بصمتكَ ذاك»، فقال بألم أكبر: «خسرت وظيفتي بسببه أيضًا، حيث رفضتْ كافة الدوائر الرسمية التي راجعتها بغية تعييني في أي وظيفة كانت».

سألته عن مصدر رزقه، فأشار إلى ماكينة خياطة مركونة في الزاوية المقابلة لباب إحدى الغرفتين، وعرفت أنه يقوم بتصليح الملابس لأبناء المنطقة لقاء أجر زهيد يؤمن له خبزه اليومي، وقال مبتسماً: «إن حياة الإنسان أبسط من أن تؤخذ بجديّة إن كانت متوقفة على رغيف خبز وحبة طماطم، أو حفنة باقلاء في أحسن الأحوال!»

اقترحتُ عليه أن يؤجر لي الغرفة العليّة حيث السطح. صحيح أنني فكرت بطريقة تمكنني من مساعدته ماديًّا، مع حفظ كرامته، لكنني فكرت جادًّا بضرورة تأجير الغرفة لأكون قريبًا منه، ورحتُ شارحًا له أهمية حصولي على الغرفة كوني أسكن في غرفة عائدة إلى عيادة دكتور وبشكل مؤقت.

وافـق بعـد تـردد طويـل، وجـاءت موافقتـه بعـد أن أخبرتـه بأنني لـن أبيـت في الغرفـة نظـرًا لطبيعـة عمـلي الـذي يتطلـب تواجـدي في البنايـة لغـرض الحراسـة وخدمـة المسـتأجرين نهـارًا طـوال أيـام الأسـبوع، مـا عـدا ليلـة الخميـس وصبـاح الجمعـة، حيـث تتطلـب مني خدمـة المسـتأجرين الثلاثـة.

في اليـوم التـالي مـن زيـارتي لبيـت الندائـي، نقلـتُ جـزءًا مـن أغراضي إلى الغرفـة العليّـة، وكنـت قـد اشـتريتُ في طريقـي إلى غرفتـي الجديـدة قفـلاً لبابهـا، ولم أنـسَ نقـل بعـض الكتـب لأضعهـا بـين يـدي الأسـتاذ ليقرأهـا، ويعيدهـا إليَّ حسـب الاتفـاق الـذي أصرَّ عليـه بشـكل حـازم.

بقـي موضـوع بـدل الإيجـار الشـهري عائقًـا كبـيرًا؛ حيـث رفـض أخـذ أي مبلـغ، ولكنـي اسـتخدمت طريقـة النقـاش الطويـل داخـلاً في موضـوع الحقـوق والحـلال والحـرام حتـى وافـق عـلى مبلـغ رمـزي. دفعـتُ لـه عـلى إثـر ذلـك بـدل إيجـار لسـنة كاملـة، بعـد أن حولـتَ أربعـة أوراق خـضراء ممـا أخذتـه مـن بيـت حاتـم القتيـل إلى العملـة «الوطنيـة» وأنـا في طريقـي إليـه.

صرتُ قريبًـا مـن الإنسـان الـذي أحـب وأحـترم، وصـار الأسـتاذ عدنـان معلمـي مـرة أخـرى، ولكـن هـذه المـرة بشـكلٍ مختلـف، فقـد أصرَّ عـلى دخـولي عـالم الفلسـفة وقـراءة الكتـب التـي تنتشـلني مـن عالمـي الوضيـع –حسـب تعبـيره– إلى عـالم الثقافـة الحقـة، وصـار يـزورني أحيانًـا في البنايـة، وكنـا نقـضي بضـع سـاعات بعـد الظهـر عنـد بـاب البنايـة حتـى حلـول المغيـب ليودعنـي متوجهًـا إلى بيتـه، بعـد أن نُشـبع

131

ساعات لقائنا بالنقاشات وتبادُل الكتب والأفكار، وإن مرَّ يوم أو يومان دون أن نلتقي، كنت أذهب إليه سائلًا عنه، وغالبًا ما أجده منكبًّا على ماكينة الخياطة أو كتاب، فأطمئن عليه وأعود إلى عملي.

❋ ❋ ❋

صارت هيام تأتي إلى عملها قبل ساعة من موعده، وأحيانًا قبل ذلك.. وصارت لقاءاتنا يومية في عيادة الدكتور حمزة.. كنا نقفل الباب من الداخل ونتبادل الحب بكل سحره وكأننا نلتقي للمرة الأولى.

صارت تحدثني عن عائلتها وطبيعة حياتها، ومن بين حديثها فهمتُ أن أختها سهام ربما تكون على علاقة مع الدكتور حمزة الذي كثيرًا ما يأتي ليأخذها في سيارته بحجة إيصالها إلى مكان عملها، حتى باتت سهام كثيرة الغياب عن البيت، وأنها تبدو مرتبكة ساهمة في أكثر الأوقات خصوصًا خلال الأسابيع القليلة الماضية.

الحقيقة لم أُعر الموضوع أهمية كبيرة، بالرغم من معرفتي بأن الدكتور حمزة متزوج ولديه أطفال، وهو يحب زوجته ويقدس بيته وعائلته، ولكن الحدث الصادم هو ما سمعته على لسان الدكتور حمزة.

في أحد المساءات، طلب مني الدكتور حمزة أن أوصل هيام إلى

132

بيتها قبل موعد مغادرتها بساعتين.. أوصلتها مستخدمًا سيارة الدكتور، التي اعتاد أن يسلمني مفاتيحها حال وصوله إلى باب البناية كي أركنها في مكانٍ مناسب، فقد كنت المسؤول أيضًا عن حراسة وتنظيم مرآب السيارات الخاص بالبناية، ومن الطبيعي أن يتم تسليمي مفاتيح السيارات من قبل أغلب المستأجرين؛ كي أُنظِّم وقوفها حسب أولوية الخروج، كوني على علم مسبق بأوقات مغادرتهم.

حين عدتُ إلى العيادة وجدت الدكتور مهمومًا، يحمل رأسه بين راحتيه وكأنه يخاف عليه الانفجار.. طرقتُ الباب، فرفع رأسه ناظرًا إليَّ، مما مكَّنني من رؤية احمرار عينيه ومسحة الحزن والغضب والشحوب المرتسم على وجهه.

طلب مني إعداد الشاي، وشدَّد على ضرورة إقفال العيادة من الداخل، كونه يريد التحدث إليَّ.

كادت الوساوس تفتك بي، وصرتُ أفتش عن زاوية يمكنني من خلالها تخمين الموضوع المهم الذي يكدِّر صفو الدكتور، والذي يريد محادثتي بخصوصه، وفي كل مرة أقلّب بها تفكيري محاولًا التخمين، أجد نفسي محاصرًا بموضوع علاقتي بهيام، ولكن وبعد أن وضعتَ قدح الشاي أمامه، وجلست على الكرسي المقابل بطلبٍ منه، سألني بشكل مفاجئ ودون مقدمات:

«هل تذكر الورقة التي قدّمتها لي في أول يوم تأتي فيه إلى هذه العيادة؟»

«عفوًا دكتور، هل تقصد ورقة الدكتور كريم؟»

هزَّ رأسه بالإيجاب، دون أن يتفوه بكلمة، فقلت: «نعم أتذكرها»، ثم أضفت متوجسًا: «هل حدث أي مكروه للدكتور كريم؟» ابتسم ابتسامة باهتة ونفى أن يكون الدكتور كريم قد أصيب بأي مكروه، وأن الموضوع لا يتعلق به، ثم أضاف وهو ينظر إليَّ نظرة حادة وكأنه يطلب مني الاستماع والتركيز لأهمية ما يقول:

«في تلك الورقة، كتب الدكتور كريم جملة مختصرة جعلتني أتمسك بكَ، بل كانت سبب اهتمامي الكبير بكَ طوال الفترة التي عرفتكَ فيها. هل تريد معرفة الجملة التي حملتها تلك الورقة؟»

ظل الفضول ينهش رغبتي الملحة في معرفة ما كان مكتوبًا في تلك الورقة منذ أن سلمتها للدكتور حمزة، فقد كنتُ متشوقًا لمعرفة السر وراء اهتمامه العظيم بي، فأجبته بالإيجاب راجيًا.

سحب الورقة من جيبه وراح يقرأ: «تَمَسَّكْ بهذا الفتى؛ فإنه معينُكَ وحاميكَ عند الشدائد». ثم نظر بوجهي باحثًا عن أي ردة فعل، ويبدو أنه فهم من خلال اعتيادي النظر صوب الأرض بأنني فهمت المغزى والمحتوى كما يجب، ثم راح يقص عليَّ ما عرفه عني خلال سنوات سجني، وذكر لي أمر استخدام المخدِّر، ثم ذكر لي بعض أسماء الضحايا، خصوصًا سعدون وحازم، قتيليّ اللذين قتلتهما بعد حصولي على المخدّر من الدكتور كريم.

بعد أن أنهى الدكتور حمزة كلامه سألته بصوت منكسر:

134

«هل أفهم من هذا أنك كنتَ تدخرني لمهمة ما؟»

ازدادت ابتسامته وضوحًا كما ازداد شحوبها وضوحًا أكثر وقال:

«ليس تمامًا، فأنتَ تعرف كم أحببتكَ، وما مقدار اهتمامي بكَ، لدرجة أنني جعلتكَ أخًا لي، ولكني اليوم بحاجة ماسّة لكَ؛ فأنا أعيش في خضم مشكلة كبيرة قد أجد على يديك حلًّا لها..».

«أنا رهن إشارتكَ، أنت تأمر وأنا أُنفِّذ..».

بانَ الاسترخاء عليه، ونزل بجسده قليلًا وكأنه يروم النوم جلوسًا على كرسيه، وقال بأنه كان يعرف مقدار إخلاصي له، وأن الجحود بعيد كل البعد عني، فأنا أحتفظ بالجميل حتى أرده مضاعفًا، ثم شرع شارحًا مشكلته، بعد أن بدأ بشكوى قلة النوم والتفكير المرهق والمضايقات التي يتعرض إليها، حتى وصل لب الموضوع قائلًا:

«لقد خدعتني «سهام» -أنت تعرفها فهي أخت هيام- لقد أغرتني على الشروع بعلاقة جنسية استمرت منذ تَعيينها في المستشفى حتى الآن، ولا أخفيك بأنني كنت سعيدًا بعلاقتي بها، كانت تمنحني شحنة إنسانية ومتعة عالية، وكانت تعجبني جدًّا بكتمانها سر علاقتنا، خصوصًا وأنتَ تعرف بأنني متزوج، ولكنها ومنذ أقل من شهرين أخبرتني بأنها حامل في شهرها الثالث، أي بعد أن تأكدت من صعوبة إسقاط الجنين، وطلَبتْ مني الزواج وإشهاره بشكل رسمي وعلني، وهي تعرف مسبقًا أن ذلك من المستحيلات؛ كون وضعي الاجتماعي والمهني لا يسمح لي بذلك، ومنذ يومين تشاجرنا، وهددتني بفضح

الأمـر لزوجتـي إن لم أتخـذ القـرار خـلال أسـبوع، ولا أدري كيـف أحـل هـذه المشـكلة، فقـد ضاقـت بيَّ السـبل. هـل تنصحنـي بـشيء؟ هـل لديك فكـرةٌ مـا تنقـذني بهـا؟»

نظـرتُ صـوب الأرض مـرة أخـرى، تلفُّنـي الحـيرة، وشـعرت بفـراغ كبـير داخـل جمجمتـي، وأنَّ دماغـي قـد هـرب مـن صندوقـه. وبعـد لحظـات، رفعـت رأسي ناظـرًا صـوب الدكتـور وقلـت: «تأكـد بأننـي رهـن إشـارتك، والـذي تـراه مناسـبًا سـأُنجزه عـلى أتـم وجـه؛ لـذا أجـد أن مـن المنطـق أن تجـد حضرتـك الحـل وليـس أنـا..».

«هنـاك حـل واحـد..» قـال الدكتـور حمـزة، ولاحظـتُ ارتعاشـة أصابـع يديـه وهـو يقبـض عـلى القلـم الـذي راح ينظـر إليـه، ثـم أضـاف: «أن تأخـذ «سـهام» إلى مدخـل مستشـفى خصـوصي سـأعطيك عنوانـه لاحقًـا، ولكـن المشـكلة تكمـن في رفـض سـهام الذهـاب إلى أي مستشـفًى؛ خوفًـا مـن إجبارهـا عـلى الإجهـاض، فـما الحـل؟» في تلـك اللحظـة قفـزت إلى ذهنـي فكـرة المُخـدّر، خصوصًـا وأنـه جـاء عـلى ذِكـره في بدايـة حديثـه معـي. شرحـت لـه أهميـة المخـدِّر في مثـل تلـك الحـالات، ورحـت أقـص عليـه كيـف كنـتُ أسـتخدمه حـين كان الدكتـور كريـم يـزودني بـه لأسـقيه لمـن يـروم تخديـره مـع الشـاي، فوافـق عـلى الفكـرة مـن فـوره، وطلـب منـي أخـذ السـيارة والذهـاب إلى صيدليـة بعينهـا لطلـب المُخـدَّر. كتـب عـلى الورقـة الخاصـة بالعيـادة اسـم المخـدر ثـم قطعهـا وسـلمني إياهـا قائـلًا:

«بعـد أن تتسـلم المُخـدّر -وأنـتَ تعـرف كيـف تسـتخدمه- عليـك

136

الذهاب بعد ساعتين من الآن إلى بيت حاج نزيه، وتخبر سهام بأنني مريض، وأني طلبتُ منكَ توصيلها إلى عملها حيث المستشفى التي تعمل فيه، ثم تسقيها المُخدّر بطريقتكَ التي سأعرفها حين عودتك؛ لأنني سأنتظركَ هنا حتى تعود، وحال خروجك من هنا سأتصل بصاحب الصيدلية لأخبره بضرورة تجهيزكَ بالمُخدّر..»، ثم نظر صوبي مبتسماً وقال كأنه يزفُّ لي بشرى سارة: «ألم تشتق إلى رؤية الدكتور كريم؟»

اتسعت عيناي فرحًا وأنا أنظر إليه، وهتفتُ فرحًا معبرًا عن اشتياقي له، فأخبرني بأن الدكتور كريم سيكون بانتظاري وسهام المخدَّرة عند بوابة المستشفى الخاص، ثم ناولني ورقة أخرى مكتوبًا عليها عنوان المستشفى، وشدَّد عليَّ بألّا أترجل من السيارة حين وصولي إلى بيت سهام، وأن أستخدم منبه السيارة لمرة واحدة فقط، حينها ستخرج سهام ظانَّة بأنني من يجلس خلف المقود وليس أنتَ.

وصلتُ الصيدلية بعد أن ركنتُ السيارة في مكانٍ مناسب. ناولت الصيدلي الورقة المدون عليها اسم « المُخدّر» مُنبِّهًا على أنني قادم من عيادة الدكتور حمزة. ابتسم الرجل لي ثم غاب لثوانٍ، ليعود وفي يده علبة من الورق المقوى، لم أكن قد شاهدتها من قبل، فقلت في سريرتي على طريقة نقاد الأدب والفن: «المهم المضمون وليس الشكل». دفعتُ ثمن العلبة وخرجت من الصيدلية باحثًا عن دكان بغية شراء علبتي عصير، حيث فكرت بسقي سهام المخدر عن طريق خلطه بالعصير.

جلستُ خلف المقود والسيارة مطفأة، بعد أن اشتريت العصير، كان معبَّأً في علبة كارتونية من فئة الربع لتر، فتحتُ العلبة بشكل متقن وسكبت كمية جيدة من المخدر داخلها، ثم أعدت طي فتحتها مرة أخرى، ورججتها، ثم ترجلتُ من السيارة بعد أن وضعت علبتي العصير في جيبَيْ سترتي، وحال وقوفي أمام صندوق السيارة، خلَعت سترتي ووضعتها داخل الصندوق، ثم أغلقته وعدت جالسًا خلف المقود. نظرتُ إلى ساعتي اليدوية، ووجدت أن أمامي ساعة كاملة حتى أكون أمام بيت سهام، أو بيت حبيبتي هيام، حينها أخذتني نفسي إلى وجبة عشاء طالما سال لعابي لها وأنا في السجن.. الكباب المشوي مع الطماطم المشوية على الفحم، وكنت أعرف مطعماً فاخرًا يمتاز به.

قدتُ السيارة إلى حيث المطعم وتناولت وجبة شهية أدخلت إلى روحي السعادة، بل شعرت بنشوة خاصة، ربما تكون خليطًا بين الرغبة في تنفيذ الأوامر ومتعة الغدر، فقد كان حدسي يأخذني إلى فكرة مفادها بأنني سأغدر بسهام، ولكن، وفي الوقت نفسه، أُنفِّذ أوامر الرجل «النبيل» الذي منحني الأمان والعمل والراحة النفسية.

عند الساعة المتفق عليها تمامًا، ضغطتُ على منبه السيارة لمرة واحدة حسب التوصية. كنتُ أقف بسيارة الدكتور حمزة عند باب بيت حاج نزيه، وما هي إلا ثوانٍ حتى خرجت سهام وكأنها كانت تقف منتظرة خلف الباب.

138

كانت مفاجأة عظيمة لها حين شاهدتني أجلس خلف المقود، وليس الدكتور حمزة، وراحت تسأل من فورها عن الدكتور، فأخبرتها بأنه مريض..

«سلامته.. ألف سلامة عليه» قالتْ وهي تدس جسدها جلوسًا على المقعد المجاور لي.

انطلقتُ بالسيارة بعد أن شاهدت حبيبتي هيام واقفة عند الباب تراقب الموقف، ولكني لم أمنحها فرصة رؤيتي، وما هي إلا بضعة أمتار، حتى أعلنتُ لسهام شكوى روحي وجسدي من العطش. توقفتُ عند دكان كنت أعرفه جيدًا، معلنًا بأنني سأشتري علبة عصير وأعود بسرعة، وأخبرتها بأن سترتي التي تحتوي على محفظة النقود قد وضعتها في حقيبة السيارة.

فتحتُ صندوق السيارة، وأخذت سترتي وحملتها على ذراعي تاركًا صندوق السيارة مفتوحًا.

دخلتُ الدكان واشتريت علبة بسكويت، ثم عدت إلى صندوق السيارة ووضعت سترتي داخلها بعد أن أخرجت علبتي العصير من جَيْبَيْها. جلستُ خلف المقود وناولت علبة العصير المخلوط بالمُخدّر لسهام بعد أن غرست القصبة داخلها، وقلت:

«صحة وهنا.. اشربي وشاركيني متعة امتصاص العصير اللذيذ..».

139

شكرتني وراحتْ تمصّ من العلبة معلنة عن متعتها بطعم العصير اللذيذ، وكنت قد انطلقت بالسيارة حيث الطريق المؤدي إلى مكان عملها، والذي تعرفه جيدًا.

بعد أن أفرغنا العلبتين من العصير في جوفينا، وأثناء ما كانت تحدثني عن هيام، وعن ذلك الإعجاب والاحترام الذي تكنّه لي؛ لأنها تراني إنسانًا شهمًا، طالما ساعدتها في أمور كثيرة؛ كنتُ أستمع لها والخوف يعتريني من ألّا يؤتي المُخدّر فعلته، ولكن وقبل قرابة النصف كيلومتر من وصولنا إلى المستشفى حيث عملها، أعلنتْ عن خَدَرِها ورغبتها في النوم، فطلبتُ منها مُقترِحًا أن تغمض عينيها وتسترخي، لربما تكون مرهقة، ففعلتْ، وكانت «شكرًا» آخر كلمة أسمعها منها.

توقفتُ بسيارتي، وتأكدتُ من أنها قد نامت بفعل المُخدّر. أدرتُ محرك السيارة، وبسرعة انطلقت حيث عنوان المستشفى الذي كتبه لي الدكتور حمزة، وكان شعورٌ مركَّبٌ قلقٌ يعتريني؛ حيث رغبتي العارمة في ملاقاة الدكتور كريم تختلط بشعورٍ مؤلمٍ، قادني إلى فكرة أشد إيلامًا، تشير إلى أنها المرة الأخيرة التي أرى فيها سهام؛ لذلك صرتُ أنظر إليها بين لحظة وأخرى. كانت تشع جمالًا.

وصلتُ المستشفى، وكنت قبل وصولي قد توقفت وجرّدتُ سهام من حُليها الذهبية؛ ظنًّا مني أنها ستخضع لعملية إجهاض، وخشيت أن تُسرق مصوغاتها الذهبية، ففكرت بالاحتفاظ بها حتى خروجها من المستشفى، برغم أني لم أكن واثقًا من ذلك.

شـاهدتُ الدكتـور كريـم واقفًـا عنـد بوابـة بيـت فخـم في منطقـة سـكنية راقيـة، وخلفـه رجـل وامـرأة يتوسـطهما سرير متحـرك. انتبهـت أن منظـر المبنـى لا يوحـي بأنـه مستشـفى أو مؤسسـة حكوميـة. عرفـت فيـما بعـدُ أن مستشـفى كامـل بأجهزتـه وطاقمـه الطبـي يقـع تحـت البيـت في مسـاحة كبـيرة وكأنـه ملجـأ نـووي، أو هكـذا خُطِّـطَ لـه منـذ البدايـة، أن يكـون ملجـأ نوويًـا، واسـتُغلّ فيـما بعـدُ ليكـون مستشـفى خاصًّـا.

لم تتغـير ملامـح الدكتـور كريـم كثـيرًا، سـوى شـعره الأبيـض الـذي انتبهـت لـه بعـد أن عانقتـه، ولم يسـتمر عناقنـا إلا ثـواني معـدودات، حيث عمـد إلى إبعـادي عنـه، موضحًـا أن لا وقـت للعواطـف، وقـال أيضًـا إنـه يعـرف عنـي كل شيء، وسـأعرف عنـه كل شيء في الأيـام القادمـة، ثـم أشـار للرجـل والمـرأة أن يهتـماّ بالمـرأة، فتوجهـا بالسريـر الطبـي المتحـرك صـوب السـيارة، وأنـزلا سـهام ثـم وضعاهـا عـلى السريـر، وغابـا داخـل المستشـفى. أشـار لي الدكتـور كريـم بـضرورة العـودة سريعًـا إلى العيـادة، فالدكتـور حمـزة بانتظـاري.. عانقتـه مـرة أخـرى ثـم توجهـت إلى السـيارة وانطلقـتُ صـوب العيـادة.

❊ ❊ ❊

لم أجـد الدكتـور حمـزة في عيادتـه حـين عـدت إلى البنايـة، كانـت العيـادة مقفلـة.

تفقّـدتُ البنايـة بعـد أن أوصـدت بوابتهـا، وصعـدت حيـث غرفتـي كـي أغـيرّ ملابـسي وأعـود مبـاشِرًا حراسـتي، ومـا إن وصلـت بـاب

الغرفة حتى وجدتها مشرعة، وأن الدكتور حمزة جالس إلى الطاولة يقرأ في كتاب أعرفه، حيث كان أحد كتبي المرصوفة على الرف. نظر صوبي مبتسماً..

«أهلًا بالبطل..».

قالها وقد لاحظتُ تغيّرًا كبيرًا على ملامحهِ بالمقارنة مع ما كان عليه قبل سويعات. كان في انشراح وبهجة وكأن حملاً ثقيلاً قد انزاح عن كاهله، ثم قال مبتسماً:

«اجلسْ أيها البطل، فقد طلبت لكَ عشاء فاخرًا من أفضل مطاعم العاصمة، وأعددت لك الشاي أيضًا.. تفضل..».

لم يكن مهماً إخباره بأنني كنت قد تناولت وجبة شهية منذ قليل، وأنني لست بجائع. لقد كتمتُ ذلك لأنني أمقت التفاصيل الصغيرة والتحدث بها؛ لأنها مجرد ثرثرة.

باشرت بالأكل وكأن الجوع قد أخذ مني مأخذه.

انتهينا من الأكل، وحال مباشرتنا بشرب الشاي لفت الدكتور انتباهي وهو يطلب مني الإصغاء لما سيقوله، حيث أشار إلى أن الأمر في غاية الجدية، وقال:

«اسمعني جيدًا يا مرهون البطل، من اليوم بدأ عملك الحقيقي، فطوال الفترة الماضية كنا ندَّخركَ لتكون لولبًا رئيسًا لعمل مهم وحيوي وحساس أيضًا، لقد كنا أنا والدكتور كريم نختبركَ بدقة كاملة، وقد نجحتَ في كل

الاختبـارات، بالإضافـة إلى امتـلاكك مهـارات رائعـة وذكاء وسرعـة بديهـة لافتـة..».

أخَذ رشفة من الشاي، وسألني سؤالًا صادمًا:

«هل تعرف لماذا دخل الدكتور كريم السجن؟»

«نعـم، فقـد سـبق وأخبرتنـي بـأن البعـض مـن زملائـه في العمـل قـد لفّقـوا لـه تهمـة سرقـة بعـض الأعضـاء مـن المـرضى، حسـب مـا أتذكـر..».

ابتسم الدكتور وقال:

«ذلـك كان جـزءًا مـن الحقيقـة، ولكنـي سـأقصّ عليـكَ الحقيقـة كاملـة..».

اعتدلَ في جلسته وأضاف:

«الدكتـور كريـم أحـد أمهـر الجراحـين في البلـد، وقـد ذاع صيتـه ووصـل إلى أعـلى المسـتويات؛ لهـذا تـم توظيفـه في مستشـفى سري غـير مسـجل في أي مؤسسـة صحيـة أو طبيـة في البلـد. بصراحـة المستشـفى يعـود إلى ابـن الرئيـس..»

الكلمـة الأخـيرة هـزَّتْ كيـاني، وانتبـه الدكتـور حمـزة لتململـي وارتباكـي، فطمأننـي وطلـب منـي ألا أخـاف ثـم قـال:

«إنـه المستشـفى الـذي أوصلـتَ سـهام إليـه منـذ قليـل.. بصراحـة تامـة، ولا أريـد أن أخفـي عليـك سرًّا لأنـك أصبحـت واحـدًا منـا، إنـه مستشـفى متخصـص بتجـارة الأعضـاء البشريـة.. والدكتـور

كريم هو رئيس أحد الأقسام المهمة فيه، وفي إحدى المرات اتُّهِم بأنه هرَّبَ بعض الأعضاء البشرية خارج المستشفى، وقام ببيعها لحسابه الخاص، وبسبب هذه التهمة أُدخِلَ السجن دون محاكمة؛ وبالتالي فإنه لم يكن يعرف المدة التي يجب عليه قضاؤها في السجن، ولكنه حظيَ باهتمامٍ خاص، وصار يمثل السلطة داخل السجن. جاء ذلك بتوصيةٍ خاصة من قبل ابن الرئيس، كونه لم يكن متأكدًا من صحة التهمة التي اتُّهم بها الدكتور كريم. وحين أصدر الرئيس قرار العفو العام عن السجناء، لم يشمل القرار الدكتور كريم؛ لأنه لم يكن محكومًا، بينما خرجتَ أنتَ متمتعًا بالقرار.. ولكنه خرج بعد صدور القرار بشهرين، حين تأكدتْ براءته من التهمة، بالإضافة إلى حاجتهم الماسة إلى خبرته في مجال الجراحة؛ ولذلك السبب أُعيد إلى المستشفى مرة أخرى..».

وضع الدكتور حمزة يده على كتفي حين أكمل جملته الأخيرة، ثم سألني عن طبيعة اللقاء الذي جرى بيني وبين الدكتور كريم. وقد منحني سؤاله شعورًا بأنه يريد أن يمنحني استراحة قصيرة من الموضوع الرئيس الذي هزَّ كياني، كانت حركة ذكية منه، فمثل تلك الطريقة كنتُ قد تلمستها في عدد من الروايات العالمية التي قرأتها. أخبرته بالذي حدث دون زيادة أو نقصان، ودون أن أتطرق إلى انطباعي الشخصي حول المقابلة القصيرة؛ لأنني أعتبرها واحدة من التفاصيل الشخصية الصغيرة.

هـزَّ الدكتـور حمـزة رأسـه وكأنـه يقـول بأنـه يتفهَّـم الحالـة والسـبب الكامـن وراء سرعـة اللقـاء، ثـم قـال متسـائلًا:

«هـل تعـرف كيـف يحصـل المستشـفى عـلى الأعضـاء البشريـة؟» أبديـتُ عـدم معرفتـي بالموضـوع طمعًـا في شرح تفصيـلي قـد يؤكـد لي بعـض شـكوكي. ضحـك وراح يـشرح لي أمـرًا مرعبًـا أساسـه الاحتيـال والسرقـة، حيـث السـارق لا يدخـل البيـوت أو المحـال التجاريـة، بـل يدخـل جسـم الإنسـان ليجـرده مـن أحـد أعضائـه الداخليـة، أو ربـما كلهـا. كان الأمـر مرعبًـا جـدًّا بالنسـبة لي، لكـن روحـي بقسـاوتها ولا مُبالاتهـا، كانـت عونًـا لي عـلى التماسـك، وحـين تبـيَّنَ الدكتـور حمـزة بأننـي أصبحـت عـلى درايـة تامـة بمعنـى المصطلـح، راح يكمـل مـا بـدأه، فأخـبرني بـأن المستشـفى يحصـل عـلى الأعضـاء بالدرجـة الأولى مـن أجسـاد السـجناء، خصوصًـا مـن تريـد السـلطة التخلـص منهـم، وأيضًـا هنـاك سـجناء أبريـاء يتـم اعتقالهـم عشـوائيًّا، حـين تـأتي إلى المستشـفى طلبيـة كبـيرة. وعـادة مـا يتـم تغييـب المعتقلـين دون رجعـة، حيـث تدفـن جثثهـم الخاويـة مـن أعضائهـا في مقابـر جماعيـة خاصـة بالمستشـفى. أمـا المصـدر الآخـر، فهـم الأطبـاء ممـن يمتلكـون عيـادات خاصـة، المتعاقـدون مـع إدارة المستشـفى. في العيـادة يقـوم الطبيـب بفحـص العضـو المـراد سرقتـه، وحـين يجـده سـليمًا، يقـوم بإرسـال «المريـض» مـع سـائق خـاص بعيادتـه إلى المستشـفى، بذريعـة إجـراء بعـض التحاليـل مجانًـا».

ثم نظر في عينيَّ نظرة عميقة، وبعد لحظة صمت متفحصة قال:

«وأنتَ يا مرهون، ستكون السائق الذي يوصل الأشخاص ممن أختارهم أنا ليكونوا مصدرًا لتزويد المستشفى بالأعضاء المطلوبة، فأنا أحد أولئكَ الأطباء..».

شعرتُ بدُوار يلفُّني، وأنني محاصر بعالم «نذل» حتى إني بِتُّ أشعر بذرات الهواء وقد صارت ثقيلة وصعبة الاستنشاق كالحصى تمامًا، وهذا ما لاحظه الدكتور حمزة، فقال على الفور:

«ستكون لكَ سيارتكَ الخاصة يا مرهون؛ لأنها يجب أن تكون مسجلة ومعروفة لدى موظفي بوابة المستشفى، وبهذا ستدخل إلى داخل مرآب المستشفى وليس في الشارع كما حدَث معك وأنتَ تسلّم لهم سهام..».

حين قفزَ اسم سهام أمامي سألته مرتعبًا:

«هل أفهم من كلامك بأن سهام لن تخرج من المستشفى إلا على ظهرها جثة هامدة؟»

فأجابني بكل برود ولكن بأسف مصطنع:

«نعم، ليرحمها الله..!»

«لقد بعتها بالتفصيخ إذن!» ذلكَ ما قلته في داخلي وأنا أتأسف عليها وعلى جمالها، شاعرًا بحجم نذالتي؛ لأنني أنا من سلّمها لأيدي الجزارين، أو الجزار الكبير، دكتور كريم الذي أحبه.

سألت الدكتور حمزة سؤالًا آنيًّا استحضرته مخيلتي وأنا أستمع له:

146

«دكتـور، هـل مَـنْ قمـتُ بتخديرهـم وأنـا في سـجن الأحـداث نـزولًا عنـد أوامـر الدكتـور كريـم والنقيـب ضيـاء، قـد ذهبـوا إلى مستشـفى «التفصيـخ؟» أطلـق حمـزة ضحكـة عارمـة اسـتمرت لوقـت ليـس بالقصـير، ثـم حـاولَ أن يهـدأ قليـلًا، ماسـحًا عينيـه مـن دموعهـا التـي سـالت ضحـكًا، وأشـار إلى دقـة المصطلـح الـذي ذكرتـه:

«مستشـفى التفصيـخ.. رائـع.. مصطلـح رائـع..». جاريتـه بالضحك، وعندمـا حانـت الفرصـة لي، سـألته مذكِّـرًا إيـاه بموضـوع مهم:

«يـا دكتـور، أعتقـد بأننـي لـن أفيـدك كثـيرًا، فـما هـي إلا شـهور قليلـة ويتـم سـوقي إلى الخدمـة العسـكرية. لقـد أتممـتُ الثامنـة عـشرة، ومـا هـي إلا شـهور قليلـة وأُسـاق إلى خدمـة ...».

أطلـق الدكتـور ضحكـة عارمـة، وراح يسـحب درج مكتبـه، وأخـرج منـه دفـترًا أحمـر اللـون عرفـت فيـما بعـدُ بأنـه دفـتر الخدمـة العسـكرية، ثـم أخـرج هويَّـة الأحـوال المدنيـة باسـم مرهـون عيسـى صاحـب، وعمـره خمـس وعـشرون سـنة، وقـد دوَّن في دفـتر الخدمـة العسـكرية بـأن صاحـب الدفـتر معفًـى مـن الخدمـة العسـكرية كونـه يعـاني مـن عـوق بنسـبة سـتين في المائـة، ولم يذكـروا نـوع الإعاقـة، وأخـيرًا أخـرج لي مـن الـدرج نفسـه إجـازة سـوقٍ باسـمي سـارية المفعـول..

9

لم تكـن الليلـة التـي قضيتهـا في غرفتـي بعـد أن غـادرني الدكتـور حمـزة، إلا ليلـة كابوسـية بامتيـاز، فقـد رأيـت في منامـي «سـهام» عـلى شـكل فـم مفتـوح يطلـق الكلـمات دون أن تتحـرك شـفتاه، وكأنـه مكـبر صـوت يطلـق نذيـر كارثـة وشـيكة الوقـوع، ثـم صـار يقـذف دفقـات مـن الـدم القـاني يسـبح بداخلـه كائنـات حيـة، اكتشـفت حـين قرّبتهـا لنظـري بأنهـا أطفـال صغـار عـراة بحجـم الـدود، كانـوا يرقصـون رقصـة «الغيـظ» وهـم يمـدون ألسـنتهم خارجًـا، إشـارة إلى السـخرية، وسرعـان مـا تحولـت الصـورة، حيـث شـاهدت أحـد الأطفـال بصـورة أختـي الغائبـة «وداد» التـي أتذكـر ملامحهـا وهـي رضيعـة، كانـت تمـدّ لسـانها سـاخرةً مني، ثـم تبلعـه لتقـول: «مرهـون النـذل.. نـذل، نـذل مرهـون»، فتعـود لتخـرج لسـانها سـاخرة منـي، وتعـاود جملتهـا مـرة أخـرى، وهكـذا تتكـرر العبـارة والصـورة، وأنـا أنظـر إليهـا مسـلوب القـوى والإرادة، كان داخـلي يفـور غضبًـا عليهـا، وكنـت أريـد قتلهـا، ولكننـي كنـت مكبـلاً بـشيء لا أعرفـه.

استيقظتُ فزعًا، ليس من الكابوس، ولكن الذي أفزعني هو تذكري بأن لي أمًّا وأُختًا، لي عائلة وإن كانت صغيرة، والسؤال الذي حيرني كثيرًا هو لماذا لم أبحث عنهما حال خروجي من السجن؟ صحيح أنني لا أعرف لأمي أي عنوان أو مكان، إلا أن هناك مكانًا معينًا ربما يكون حلقة وصل، إنه بيتنا القديم الذي هجرته أمي، والذي ولدتْ فيه أختي وداد. قررت من فوري الذهاب إلى البيت عسى أن تكون أمي قد عادت إليه.

لم يكن البيت خاويًا كما توقَّعت، عرفت ذلك حين طرقتُ الباب، وبعد برهة خرجتْ لي امرأة عجوز، سألتني بنبرة جافة نزقة عمّا أريد، فسألتها عن أمي بعد أن ذكَرتُ لها اسمها، إن كانت قد عادت إلى البيت الذي كانت تستأجره. نفتِ المرأة معرفتها بصاحبة الاسم، وصفقتِ البابَ بوجهي. تراجعتُ بضع خطوات إلى الوراء وأنا أنظر صوب الباب الموصد بنَزَق عجوز خَرِفة، وما إن تحوَّلَ نظري جهة اليمين حتى لفتت انتباهي عبارة مكتوبة بالأسود: «البيت رهن البيع، الرجاء الاتصال برقم الهاتف للاستفسار». كان رقم الهاتف مكتوبًا على الجدار بأرقام كبيرة. حفظت الرقم على الفور بعد أن رددته في سريرتي مرتين، وقررت العودة إلى البناية حيث عملي ومسكني، ولكني بعد أن خطوت عدة خطوات تذكرت «أم علي» جارتنا وصديقة والدتي، ربما تعرف شيئًا عنها. توجهت إلى دارها طارقًا الباب بفرح غامر ودون تردد، كأني تذكَّرت شيئًا ثمينًا. فُتِحَ الباب وخرج لي رجل خمسيني، عرفته رغم تغيّر ملامحه، كان العم «أبو علي»، ألقيت عليه التحية وسألته إن كانت

زوجته تعرف شيئًا عن أمي. سألني من أكون، فقلت له بأنني مرهون ابن عيسى الصاحب، رمقني بنظرة عبوسة وقال:

«أنت مرهون القاتل ابن العاهرة؟.. ألم يعدموك حتى الآن؟.. اغرب عن وجهي أيها المجرم. لعنك الله ولعن أمك الفاجرة التي حَمَلتْ وأنجبتْ سفاحًا..!» ثم أغلق الباب بغضب واضح، فأصدر صوتًا عارمًا شعرت وكأن الباب يشتمني هو الآخر وينعتني بما نعتني به الرجل.

عدتُ إلى جدار بيتنا القديم لأتأكد من حفظ رقم الهاتف المدون عليه، فتأكدت بأني ما زلت أحتفظ بملكة الحفظ السريع.

في طريق عودتي إلى البناية خائبًا، وصوت الأبواب المرتجّة غَلقًا بوجهي يرن في أذني، قررت شراء البيت، بيتنا القديم الذي ولدتُ فيه.. وعزمت على الاتصال برقم الهاتف لأعرف الثمن المطلوب، ولكن الحزن عاد فتملكني، فمن أين لي بالمال لشراء بيت في قلب العاصمة؟ ذلك السؤال الذي بقيت أردده كثيرًا، دفعني إلى موافقة الدكتور حمزة على العرض الذي قدمه لي ليلة أمس، حيث سيطرت الفكرة على ذهني بشكل تام، ولم يعد يشغلني شيء سواها.. «عليَّ شراء البيت لأنه حلقة الوصل بيني وبين أمي».

حين عدت إلى غرفتي، أخرجتُ حُليّ سهام من جيبي وأودعتها الكيس الكبير، حيث مفاتيح ونعال القتيل مانع، وطاسة سعدون وقدح حازم المعدنيان، ومزهرية حاتم النحاسية، وبعض الأشياء المعدنية التي احتفظت بها كمخلفات لمجموعة المخدّرين الذين

ذهبـوا إلى مستشـفيات «التفصيـخ» عـن طريـق بوابـة السـجن. كان الوقـت مبكـرًا لفتـح عيـادة الدكتـور حمـزة، ولا أدري لمـاذا حملـت الكيـس وخرجـت بـه متوجهًـا إلى بيـت الندائـي!

وجـدتُ الأسـتاذ عدنـان منكبًّـا عـلى ماكينـة الخياطـة وإلى جانبـه كتـاب مفتـوح.. كان يعمـل عـلى ماكينـة الخياطـة، وبـين لحظـة وأخـرى يقـرأ في الكتـاب. سـألته مازحًـا: «أسـتاذ عدنـان، هـل تمـارس هوايـة القـراءة وأنـت نائـم أيضًـا؟» فأجابنـي بالإيجـاب، وقـال بأنـه يسـتغل وقـت النـوم لمراجعـة مـا قـرأه في صحـوه. ضحكنـا، واسـتمرت نوبـة ضحكنـا حتـى انتبـه للكيـس الكبـير الـذي وضعتـه أمامـي، فسـألني عنـه ومـا يحتويـه، فأخبرتـه بأنـه مجـرد ملابـس وأشـياء شـخصية غـير ذات قيمـة.

صعـدتُ إلى غرفتـي وأودعـت الكيـس هنـاك، ثـم عـدت إلى الأسـتاذ بعـد أن أخرجـت مـا تبقـى مـن الأوراق النقديـة الخـضراء مـن قلـب «الفـازة» النحاسـية ودسسـتها في جيبـي.

أعلـن الندائـي عـن سروره لأنني أتيـت لزيارتـه، ليـس لأنـه مشـتاق لرؤيتـي، ولكنـه قـال بصراحـة ووضـوح، بأنـه بحاجـة إلى ترديـد مـا قـرأه بصـوت عـالٍ، وراح يحدّثنـي عـن الفلسـفة الهيجيليـة وموقـف الفيلسـوف الدنماركـي سـورن كيركغـارد منهـا، ومـن ثـم وعـدني بأنـه سـيوفر لي كتابًـا يحكـي قصـة الفيلسـوف الدنماركـي وأهـم أفـكاره الفلسـفية، كونـه أعارني منـذ فـترة كتابًـا صغـيرًا يتحـدث عـن أهـم مبـادئ الفلسـفة الهيجيليـة. كان حديثـه ممتعًـا، وحالمـا سـنحت الفرصـة لي كـي أُفـرغ مـا في رأسي مـن

152

أفكار وهموم، سألته عن كيفية شراء بيت من قِبل شخص لا يمتلك المال الكافي، فأجابني ضاحكًا بتهكُّم دون أن يرفع نظرة عن ماكينة الخياطة، تمامًا كما كان يتحدث عن الفلسفة وهو منكب على ماكينته: «السرقة.. هي الطريق الأقصر للغنى رغم مخاطرها..!» أطلقتُ ضحكة مجلجلة قابلني بمثلها دون النظر إليَّ.

وضعتُ الأوراق النقدية الخضراء أمامه حيث ماكينة الخياطة، وطلبتُ منه أن يدّخرها لي، متمنيًا تزويده بأوراق أخرى حتى يكتمل ثمن شراء البيت. لم يكن الأستاذ عدنان على معرفة عن أي بيتٍ أتحدث، ولكنه نظر صوبي وقال متسائلًا:

«من أين لكَ المال؟» فقلت واثقًا:

«من عملي.. فما بين يديكَ هو كل ما أملك، أو بعبارة أصح، كل ما استطعت جمعه خلال الفترة الماضية».

«أصدقكَ، ولكني أصدق حدسي أيضًا.. اسمع يا مرهون، إن قررت امتهان السرقة فستكون أعظم سارق في تاريخ البلد..!»

ضحكت وقلت متسائلًا:

«هل تقصد السرقات الروبنهودية؟»

نظر الأستاذ صوبي وعاد مطرقًا رأسه صوب الماكينة.

❋ ❋ ❋

فكرتُ كثيرًا بسرقة بعض الشقق داخل البناية التي أحرسها؛ كوني أعرف تمامًا ما تحتويه، ولكنني سرعان ما أبعدت الفكرة من رأسي، فالبناية تمثل مصدر رزقي واستقراري؛ لذا رحت أفتش في ذهني عن بعض الأماكن التي يمكنني اقتحامها وسرقتها.

الغريب أن بيت الدكتور كريم كان أول ما فكرت به؛ لمعرفتي بأنه يشتغل ليلًا، وذلك قد يُسهِّل الأمر عليّ كثيرًا، إضافة إلى الاحتمال الكبير بأن يكون هناك مبلغ مالي كبير؛ كونه يجني أموالًا طائلة من عمله غير النزيه، بل عمله الإجرامي. حينها أقنعت نفسي قائلًا: «ما الضير في أخذ مال الجريمة الكبرى بجريمة أصغر منها؟» وما إن اقتنعتْ نفسي بالفكرة حتى انتبهت إلى أن محبة الدكتور كريم داخل روحي قد بدأت بالتلاشي منذ أن عرفت طبيعة عمله.

كما وعدني الدكتور حمزة، فقد حصلتُ في أحد المساءات على سيارة حديثة بعض الشيء، وما إن مضت ثلاث ساعات على تسلمي لمفاتيح السيارة حتى أخبرتني هيام المنشغلة بالبحث عن أختها التي غابت عن البيت منذ يومين، بأن الدكتور حمزة يطلبني.

حين مثُلتُ أمامه طلَب مني توصيل امرأة على مشارف الأربعين إلى الدكتور كريم؛ لأخذ بعض الفحوصات ثم إعادتها إلى العيادة مع أوراق الفحص حتى ينظر في نتيجة التحليل. كانت المرأة قد أتت إلى العيادة بمفردها، وهذا ما شجع على التفكير بإرسالها إلى «التفصيخ»، وما طلبُ الدكتور حمزة بإعادة المرأة إلى العيادة إلا تطمين لها.

حين عدت إلى العيادة، بعد أن أوصلت المرأة الأربعينية إلى

مستشفى «التفصيخ»، سألت الدكتور حمزة سؤالًا يبدو وكأنه في منتهى الغباء:

«دكتور، هل الدكتور كريم يعيش في المستشفى أم له بيت خاص وأسرة؟»

ضحك الدكتور حمزة وقال بأن الدكتور كريم رجل طبيعي، وهو يعيش مثلنا، ويمتلك بيتًا رائعًا وأسرة صغيرة متكونة من زوجة وبنتين صغيرتين وُلدتا في وقت واحد، أي توءم، ثم راح يصف بإعجابٍ هندسة البيت والمنطقة التي يقع ضمنها. وفي نهاية وقت العمل في العيادة، منحني الدكتور حمزة ورقتين خضراوين من العملة الأجنبية مكافأةً على عملي. ذلك ما أكّد لي بشكل قاطع، أن المرأة قد قُتلتْ واستُلبَ من جسدها كل عضو مفيد للمتاجرة. ثم إني وبعد ثلاثة أيام، حين كنتُ وهيام نبحث في الجريدة عن نشر الإعلان الخاص بفقدان أختها سهام، ضمن زاوية «خرج ولم يعد»، شاهدتُ صورة المرأة وعرفتُ اسمها ورقم هاتف أهلها. كانت تلك هي العملية الثانية لي في تزويد المستشفى بمشاريع «التفصيخ» البشرية وأنا خارج السجن.

في صبيحة اليوم التالي، كنتُ على موعد مع هيام للبحث عن سهام في المستشفيات وبعض أقسام الشرطة، وبالفعل ذهبنا إلى بعض الأماكن دون أن نحصل على أي نتيجة، فتوجهت إلى منطقة سكنى الدكتور كريم دون أن أخبر هيام بوجهتي، ولكني وقبل الوصول إلى المنطقة بدقائق، أخبرتها بأنني أعرف طبيبًا عسكريًّا ربما يساعدنا في

بحثنا عن سهام، وأن اسمه دكتور كريم، ولكني لا أعرف عنوان بيته بالضبط، فطلبتُ منها أن تسأل عن بيته.

حين ركنتُ سيارتي عند باب أحد المتاجر، ترجلتْ هيام من السيارة ودخلتِ المتجر ثم خرجت بعد قليل لتخبرني بأن عامل المتجر أخبرها بأن هناك اثنين يحملان الاسم نفسه؛ الأول: دكتور في التاريخ يسكن خلف المتجر تمامًا، والثاني: طبيب يسكن في الشارع المقابل للمتجر، البيت الرابع إلى اليمين. شكرتها وطلبتُ منها عدم إخبار أي أحد بالأمر حتى الدكتور حمزة؛ نظرًا لحساسية موقع الدكتور كريم الوظيفي. توجهتُ إلى الشارع المقابل للمتجر، وحين مروري أمام البيت الرابع قرأت قطعة زرقاء مكتوب عليها: «منزل الدكتور عبد الكريم اللبان».

دخلتْ هيام في نوبة بكاء وهي تتذكر أختها، وقالت ودموعها ترطّب كلماتها المرتجفة، بأنها تكاد تفقد الأمل برجوع أختها سالمة إلى بيتها؛ نظرًا لتزايد حالات الاختطاف والقتل خصوصًا بين النساء.

❋ ❋ ❋

سقف أحلامي يكاد يلامس السماء، ولكن سقف فرحي واطئ جدًّا، لدرجة يكاد فيها أن يكتم أنفاسي؛ لذا أجدني هاربًا إلى عالم آخر، عالم القراءة.

❋ ❋ ❋

156

صحيح أني اعتدت على قراءة أكثر من جريدة في اليوم، إلا أنني صرت مدمنًا على قراءة زاوية «خرج ولم يعد»، خصوصًا بعد أن ازداد عدد الضحايا الذين سلّمتهم بدم بارد إلى مستشفى «التفصيخ». في أحد المساءات، اصطحبت رجلاً شابًّا في الثلاثينيات من عمره مع ابنه الذي كان في سن العاشرة، وأوصلتهم إلى داخل المستشفى كما في كل مرة، وهناك قابلت الدكتور كريم. مددت يدي لأصافحه، لكنه سحبني وعانقني، وفي لحظة العناق، شممتُ رائحة الموت، رائحة ثقيلة وكأنها تعود إلى كتلة شحم حيواني متعفّنة، حينها تأكدت من كرهي لذلك الدكتور الذي يقضي لياليه متسليًا بتقطيع اللحم البشري دون أن يرمش له جفن.

في لحظة، فكَّرت في إنقاذ الصبي من مشرط الجزار. رحت أبحث عن حيلة أنقذه فيها وحده، فقد رأيت نفسي فيه. كنتُ في عمره حين دخلت السجن يتيماً قاتلاً، ولكن للحظة عدلت عن قراري، فإن أنقذته ربما سيكون مثلي يتيماً ثم قاتلاً، ثم سجينًا، ثم محترفًا للقتل، وربما ينتهي جثة هامدة ملقاة على رصيفٍ ما.

تركت الرجل الشاب وابنه بيد من لا يرحم، وخرجت من المستشفى بسيارتي، منطلقًا إلى بيت الدكتور كريم. وكما في المرات السابقة، رحت أتفحص البيت جيدًا، وأدرس مداخله ومخارجه، ولكن، وفي لحظة جسارة وغضب، عزمت على دخول البيت لأتفحصه من الداخل، أو عسى أن أتمّ مهمة السرقة دون مشاكل.

ركنت سيارتي على بُعد ثلاثة شوارع وعدت ماشيًا صوب البيت، تشجعت كثيرًا حين لم أشاهد أي إنارة منبعثة من داخله. تسلَّقتُ بحركة سريعة متجاوزًا السور، لأكون داخل حديقة المنزل، وبسرعة كبيرة استلقيت على بطني ورحت زاحفًا كالوزغة مستعينًا بمرفقي، لأصل إلى الباب الوحيد المطل على الحديقة. سرقتُ بعض النظرات متفحصًا الداخل من خلال زجاج الباب بحذر تام. حاولت فتح الباب لكنه كان موصدًا، أخرجت سكيني الصغير، وحشرتها بين الزجاج والمعدن علني أفلح بكسر الزجاجة دون إصدار صوت. وبالفعل، نجحت ببغيتي، ولكن كسر الزجاجة أحدث صوتًا خفيفًا خشيت أن يكون قد أثار انتباه من في البيت، فانزويتُ مداريًا نفسي في الزاوية القريبة. انتظرت بضع دقائق، لم أسمع خلالها أي صوت لأي حركة. «ربما يكون البيت خاليًا من البشر»، قلت لنفسي.

دسست يدي من الفتحة التي تركها لي الزجاج المكسور باحثًا عن القفل الداخلي، فعثرت عليه ونجحت في فتح الباب.

تبين لي أن الباب يفضي إلى ممر يفصل بين الصالة والمطبخ، ولكن وما إن خطوت خطوات قليلة إلى الداخل حتى أُنير المكان لأشاهد أمامي امرأة ترتدي ملابس نوم فاتحة اللون، أرادت أن تصرخ، لكني احتضنتها طابقًا كفّي على فمها، وبسرعة، ودون تفكير واضح، حززت عنقها عميقًا.

158

سقطتِ المرأة على الأرض وهي تنتفض كنعجة. سارعتُ إلى إطفاء الضوء وعدتُ إلى المرأة، واضعًا قدمي اليسرى على صدرها وضاغطًا عليه بشدة؛ كي أحدّ من حركة جسدها المنتفض حتى سكنتْ وتحولتْ إلى جثة هامدة.

تركتُ الجثة ورحت بحركة سريعة أجول في أرجاء البيت باحثًا عن الأشياء الثمينة التي جئت من أجلها، كنت أبحث عن غرفة النوم وخزانة الملابس، ولكني لم أجدها، فاعتليت السلم ووجدت غرفتين؛ الأولى حيث اليمين، كانت مشرعة الباب، والثانية حيث اليسار كانت مقفلة. دخلت الغرفة التي على اليمين بحذر، وبعد تفحصها، تأكدت من أنها غرفة الزوجية، وأن الغرفة الثانية الموصدة الباب قد تكون للبنتين. فتشت خزانة الملابس ووجدت ما أريده. نزلتُ السلَّم بسرعة، وعند مروري بالجثة الملقاة على الأرض، وقع نظري على يدها. لاحظت إسوارة ذهبية انتزعتها بسرعة، وتحوّلت إلى اليد الثانية لأنتزع ساعتها اليدوية وخاتمًا ذهبيًّا.

خرجتُ من البيت مسرعًا، وحريصًا على عدم إصدار أي صوت، وبالطريقة نفسها، اعتليت السور وقفزت إلى الشارع متوجهًا صوب سيارتي.

توجهت صوب بيت الندائي، وما إن وصلته حتى دخلت مسرعًا، دون أن أرى الأستاذ عدنان. صعدت إلى غرفتي، وخلعت عني ملابسي، بعد أن أخفيت ما سرقته جيدًا. نزلت إلى الأسفل

159

متأبطًا قميصًا وبنطالًا نظيفين. دخلت الحمام واغتسلت سريعًا، ولكن بشكل جيد، ثم ارتديت ملابسي لأخرج متوجهًا إلى سيارتي. لم أرَ الأستاذ عدنان حينها، ربما كان نائماً أو خارج البيت، فقد كان باب غرفته موصدًا.

❋ ❋ ❋

كان خبر مقتل زوجة الدكتور كريم صادمًا للدكتور حمزة؛ مما اضطره إلى غلق عيادته في اليوم التالي.

هاتفني على التلفون الخاص بالبناية وأخبرني بأن العيادة يجب أن تُغلق بوجه المراجعين ذلك اليوم، وربما اليوم الذي يليه، وذلك لظرف خاص، ولم يزد عن ذلك، ولم يقل الحقيقة التي كنت أنا من يقف وراءها.

تُرى هل سيجد الدكتور كريم في مقتل زوجته، وتحولها إلى جثة هامدة فرصة في بيع أعضائها إلى مستشفى «التفصيخ»؟

هل فاتني أن أنتزع قلبها وكليتيها، أو ربما عينيها، أو حالبيها، لأضعها في كيس بلاستيكي سأجده حتماً في المطبخ، وأقدّمه هدية طازجة للدكتور الجزار، حين أعلِّقهُ على باب داره؛ ليكون أول من يستقبله فجرًا.

هاتفتُ هيام وأخبرتها بقرار الدكتور في غلق العيادة لظروف

خاصـة، فاقترحـتْ أن نغتنـم الفرصـة في البحـث عـن سـهام علّنـا نعثـر علـى خيـط أمـل. لم أوافقهـا متحججًـا بطبيعـة عمـلي الـذي يتطلـب منـي البقـاء في البنايـة حتـى مغـادرة آخـر شـخص فيهـا، وأن الوقـت سـيكون ملـكًا لي عنـد الخامسـة مسـاءً.. اقتنعـتْ بذريعتـي معربـة عـن اشـتياقها لي ثـم ودّعتنـي.

بعـد مـضي أقـل مـن سـاعة عـلى مهاتفتـي لهـا، وجدتُهـا ماثلـة أمامـي مبتسـمة وفي يدهـا اليـسرى كيسـان بلاسـتيكيان، خمّنـت بأنهـا تسـوقتْ بعـض الخضـار لتعـد لنـا وجبـة شـهية كعادتهـا. قالـت بأنهـا ترغـب في الصعـود إلى غرفتـي. صعـدتُ معهـا وفتحـتُ لهـا بـاب الغرفـة، ومـا إن دخلنـا حتـى احتضنتنـي وراحـت تُقبّلنـي وكأنهـا لم تـرني منـذ زمـن. حملتهـا إلى السريـر بعـد أن أقفلـت بـاب الغرفـة، ثـم بادلتهـا الحـب بشـغف حتـى شـعرتُ بنـيران شـهوتها وهـي تُطلـق صرختهـا البهيجـة. تركتهـا مسـتلقية عـلى السريـر، وهبطـتُ إلى الأسـفل متابعًـا عمـلي.

أعـدتْ هيـام وجبـة فاخـرة كـما توقّعـت، كان الطعـام لذيـذًا. سـألتني أثنـاء تناولنـا الطعـام عـن سـبب إغـلاق العيـادة، فأخبرتهـا بعـدم معرفتـي.

راحـت تتحـدث لي شـاكيةً الدكتـور حمـزة الـذي لم يعـد يهتـم بهـا منـذ اختفـاء سـهام، وأنـه لم يـزر بيتهـم كـما كان متعـودًا حـين كانـت سـهام بينهـم، ثـم انفجـرتْ بالبـكاء، وصـارتْ تتحـدث عـن حـال البـلاد، وكيـف صـار النـاس يبيعـون أثـاث بيوتهـم كـي يوفـروا لقمـة العيـش.. حاولـتُ تهدئتهـا، ولكنهـا واصلـت البـكاء بمـرارة، شـارحةً بشـكل

مشـوش تخنقـه العـبرات، أن بعـض العوائـل التـي باعـت جـل أثـاث بيوتهـم، حتـى الأغطيـة والأفرشـة، تحولـوا إلى بيـع الأبـواب والشـبابيك في سـوق الخـردة: «هـل تتصـور حجـم الكارثـة يـا مرهـون؟» قالـت ذلـك، ثـم اسـتمرت باكيـة بمـرارة مؤلمـة جـدًّا.

كنـتُ أعـرفُ أنهـا تبكـي حالهـا وحـال أختهـا الكـبرى التـي قتلهـا والدهـا ثـم قتـل نفسـه، وهـي تبكـي أختهـا سـهام أيضًـا، وبالتـالي فإنهـا تبكـي مأسـاتها، ووجعهـا، وحيرتهـا، وكأنهـا مدركـة تمامًـا بـأن مأسـاتها تتمثـل بمأسـاة البلـد بأكملـه.

اقترحـتُ عليهـا، بعـد أن هـدأت ثورتهـا، أن أصطحبهـا بسـيارتي بعـد السـاعة الخامسـة إلى بيـت صديقـي عدنـان، فوافقـت، ومـا إن حلَّـتِ السـاعة وأغلقـتُ البوابـة حتـى انطلقنـا صـوب بيـت أسـتاذي وصديقـي.

نظـر عدنـان صـوب هيـام مبتسـماً، ثـم قـال لهـا بأنهـا تشـبه إلى حـد كبـير «جـورج سـاند»! ابتسـمت وقالـت بتعجـب: «جـورج؟!.. أليـس هـذا اسـم رجـل؟!»

ضحـك الأسـتاذ عدنـان ونظـر إليّ مشـيرًا ومذكّـرًا بدهشـتي حـين أخـبرني بذلـك الاسـم أول مـرة، فقلـتُ شـارحًا لهيـام بـأن الاسـم يعـود إلى قاصّـة وروائيـة فرنسـية اسـمها الحقيقـي «أمانتـين»، ولكنهـا كانـت تكتـب وتنـشر تحـت اسـم مسـتعار.

جلسـنا تتوسـطنا ماكينـة الخياطـة، وراح عدنـان يقـص عـلى هيـام قصـة «جـورج أو أمانتـين»، ولم يُظهـر أي بخـل بمغازلتهـا، حـين قـال بأنهـا تمتلـك العينـين الناعسـتين ذاتهـا، واكتنـاز الشـفة السـفلى تمامًـا

مثل «جورج ساند»، ثم راح يتحدث عما كانت تعانيه «أمانتين» في زمن صعب عاشته، رغم أنها كانت تنتمي إلى عائلة أرستقراطية، ولكنها فضَّلت الاعتماد على نفسها لتعمل وتعيل طفليها بعد طلاقها، وكيف حولت قساوة حياتها إلى نجاح أدبي وثقافي، ولكنه —كالعادة حين يتحدث عن شيء جميل، سرعان ما يقارنه بقساوة وكارثية حياة الإنسان وقساوتها في بلدنا— صار يتحدث عن حتمية الوصول إلى ما وصل إليه البلد من وضع كارثي دمر كل شيء داخل الإنسان وخارجه، وكانت هيام تصغي بتوقد ذهني كبير.. كان يبرر فكرته حول ما وصل إليه البلد من خراب، بصعود رجل مجرم منذ الصغر، رجل متخلِّف لا يحترم أي مبدأ أو فكرة أو معتقد، إلى رأس السلطة؛ لذا فإن كل شيء مباح عنده، وأوله حياة الإنسان وكرامته.

ثم صبَّ جام غضبه على الشعب متهماً إياه بأنه هو من صنع الديكتاتور، ومنحه السلطة المطلقة نتيجة خنوعه وسكوته بدافع الحفاظ على حياته الشخصية، ناسيًا بأن حياته الشخصية تسبح في أقذر بركة آسنة في العالم.

صارت هيام أكثر جرأة، ويبدو أنها أُعجِبتْ بعدنان وسعة وتركيز المعلومة في حديثه، فتشجعتْ لإبداء رأيها بما سمعت، وصار الحديث متبادلًا بينهما بمتعة جميلة، وكنت مصغيًا إلى الطرفين دون أن أبدي رأيًا أو أتدخل، رغم أنهما كانا ينظران صوبي بين حين وآخر.

تركتُ هيام تصغي إلى الأستاذ عدنان الذي كان معجبًا بها،

163

وبصراحة كنت أنا أيضًا معجبًا بها، لما طرحته من أفكار ورؤى حول وضع البلد، كانت تمتلك تحليلات واقعية عميقة.. ثم صعدت إلى غرفتي شوقًا إلى غنيمتي من ليلة أمس، تفحصتها، وكنت أظن بأنها ستمكنني من شراء البيت المعروض للبيع، ولكني صُدمت حين وجدتها أقل من نصف المبلغ المطلوب بكثير، ثم أقنعت نفسي بأنني ربما أكون على غير معرفة بثمن المصوغات الذهبية التي وجدتها مع حزمة الأوراق النقدية في خزانة زوجة الدكتور كريم، فأخذت قطعتين منها دسستهما في جيبي، ثم أخذت كمية من الأوراق النقدية لم أتبين مقدارها، زممتها في كفي اليمنى وهبطت السلم متوجهًا إلى هيام وعدنان اللذين وجدتهما غارقين في النقاش والتحليل.

لم أعد أحتمل الانتظار، فقد خطرتْ فكرة في رأسي. طلبتُ من هيام أن تستعد كي أوصلها إلى بيتها بدلًا من العودة بوقت متأخر، فالظروف في الشارع لا يمكن تخمينها.

ودعتْ هيام الأستاذ عدنان بحميمية عالية، ثم ودعته أنا معانقًا، وأثناء ذلك دسستُ رزمة الأوراق النقدية في جيب بنطاله، وأخبرته هامسًا في أذنه أن يُلحِقَ المبلغ الجديد إلى المبلغ خاصتي الذي بحوزته. ابتسم لي واعدًا إياي بأنه سيفعل.

في طريق العودة، وضعت القطعتين الذهبيتين في يد هيام طالبًا منها أن تعرضهما على صائغ تعرفه وتثق به كي يقدِّر ثمنهما، وأخبرتها بأن القطعتين تعودان إلى أمي التي عثرتُ عليها مؤخرًا،

فهـي بحاجـة إلى بعـض المـال. وضعـتْ القطعتـين في حقيبتهـا ثـم راحـتْ تقـصُّ عـلي بعـض القصـص عـن أنـاس تعرفهـم وكيـف كانـوا يكابدون الجـوع والعـوز، وكأنهـا تريـد الاسـتمرار بـما كانـت تتحـدث فيـه مـع عدنـان، حتـى وصلـتْ في قصصهـا إلى امـرأة اضطـرت إلى بيـع اثنـين مـن أبنائهـا الخمسـة كـي تؤمِّـن لقمـة عيـش الثلاثـة، في تلـك اللحظـة رنَّـتْ في ذهنـي فكـرة أن تكـون أمـي قـد باعـت أختـي إلى عائلـة غريبـة، فدخلـتُ في نوبـة حـزن وتعكَّـرَ مزاجـي بشـكل كرهـت فيـه نفـسي.

قـررت وبـإصرار مـرٍّ عـلى تكملـة مبلـغ شراء البيـت؛ عسـى أن تعـود أمـي إليـه يومًـا مـا.

❊ ❊ ❊

«نحـن الشـعب «المتنعّـم» بظلـم وقسـوة الديكتاتـور، ديكتاتوريـون أيضًـا! نمتلـك ديكتاتوريـة الاسـتهلاك. مسـتهلكون لـكل شيء، حتـى الظلـم والقسـوة والإهانـة. صرنـا خـبراء اسـتهلاك، لا نعـرف للإنتـاج سـبيلًا، نحـن نمتلـك ديكتاتوريـة التلـذّذ بمـرارة الإهانـة. نحـن ديكتاتوريـون أيضًـا لأننـا مـا زلنـا متمسـكين حتـى النَّفـس الأخـير بـضرورة موتنـا المُهـان، بعـد أن نكـون قـد عشـنا ضرورة بؤسـنا المُـذِل، وفقرنـا، ومهانتنـا؛ وبالتـالي استسـلامنا التـام، تمامًـا كـما يتمسـك الديكتاتـور بكرسـيه ويناضـل مـن أجلـه، صرنـا نتمسـك بالـذل والقهـر والظلـم، ونناضـل مـن أجـل ألّا نفقـده. أنـا أرفـض هـذا النـوع مـن الديكتاتوريـة، ليـس لأننـي مجنـون، بـل لأننـي أمتلـك حريتـي، أو أعتقـد بأننـي أمتلكهـا..

يجب أن أغادر الأرض ليس كعبد ممزق ومجلود، بل كملك ينهض عن المائدة وهو ليس بحاجة لشيء..».

❋ ❋ ❋

علَّمني الندائي حين كنت في سجن الأحداث أهمية الثقافة، وكيف السبيل إليها لتكون سلاحًا ومبعث احترام في الوقت نفسه، كما علَّمني أصول الفلسفة، وكيفية فهمها والعمل بها، وعلَّمني الدكتور كريم والنقيب ضياء كيف أكون نذلًا، كاتبًا للتقارير، وقاتلًا مأجورًا، وكان مانع قبل ذلك قد علمني بقسوته وإهاناته المتكررة أن أثأر لكرامتي وأحافظ عليها.. كما علَّمني حاج نزيه أهمية الصمت والكتمان، وعلَّمني الدكتور حمزة أهمية التأني في اتخاذ القرار، وأيضًا في تنفيذ أي مخطط، حتى وإن كان حقيرًا بدوافع غير إنسانية، وعلَّمتني هيام الحب والهيام ومعنى النشوة.. لكنَّ الحياة القاسية التي عشتها علَّمتني بأنني مجرد كائن حقير عليه أن يقضي دورة حياته مجبرًا، شاء أم أبى، وعلَّمتني أيضًا ألّا أسعى لأكون شخصًا ذا قيمة في المستقبل، بل أعيش لحظتي كشخص ذي قيمة عظيمة. الإنسان يعيش المستقبل دائماً، كل لحظة أعيشها هي المستقبل.. كما علَّمتني أمي أن لا قيمة لأي شيء، وأن أُهمِل كل الأشياء التي تُفضي إلى تحجيم مساحة حريتي، وتجعلني ذليلًا لها متنازلًا عن كرامتي. أمي التي تخلَّتْ عن ولدها الوحيد وهو طفل صغير لم يبلغ السابعة بعدُ. أمي علَّمتني القسوة.

ذلـك التناقـض قـادني إلى قـراءة واقـع الحيـاة المـرّ الـذي كنت أعيشـه، والـذي يعيشـه الملايـين مـن أبنـاء تلـك البقعـة التـي تسـمى «وطـن»، تلـك الكلمـة التـي رحـتُ أبحـث جاهـدًا عـن معنًـى لهـا، وأول مـكان بحثـت فيـه كان تلافيـف عقـل الأسـتاذ عدنـان الـذي شرح لي المعنـى وهـو يبتسـم بوجـع:

«الوطـن يـا صديقـي بالنسـبة لي، هـو جـل مـا عشـته مـن أماكـن وأشـخاص وذكريـات ومواقـف، والحقيقـة أن كل مـا عشـته يمكننـي اختصـاره بكلمـة «قـذارة»، فالوطـن بالنسـبة لي «قـذارة» مـا عشـته..».

أطلـقَ ضحكـة خجولـة لا ينقصهـا الحـزن وكأنـه يُعلـن عـما تلمّسـه مـن ألم في كلمتــه الأخـيرة. أراد الاسـتفاضة في شرح فكرتــه، ولكنــه سرعـان مـا صمـت حـين رأى وميـض الدمـوع في عينـي، وقـد فهـم منهـا تعاطفًـا كبـيرًا منـي تجاهـه، ثـم سـألني إن كانـت دموعـي تلـك تعنـي بأننـي أرى كلمـة الوطـن كـما يـراه هـو، فقلـت:

«الشرفـاء مضطهـدون دائـماً، وأنـت أحدهـم.. أمـا بالنسـبة لصـورة الوطـن يـا أسـتاذي..».

«صديقي.. رجاءً». قالها بودٍّ كبير، فأكملت فَرِحًا:

«الوطـن هـو حريتـي، ففـي أي لحظـة أمتلـك فيهـا الحريـة أشـعر بـأن لي وطنًـا كبـيرًا وعظيـماً، ولكنـه يكمـن في الداخـل، هنـا، في روحـي وليـس خارجهـا. وطنـي يكمـن داخـل روحـي، أتلمسـه فقـط حـين أمتلـك حريتـي، وعـدا ذلـك فـإن كل الأشـياء لا تعنـي لي شـيئًا، كل شيء خـارج نطـاق روحـي أجـده مجـرد خـراب..».

ثم نظرتُ إلى وجهه وتلمست آثار الشقاء فيه للمرة الألف، وقلت مبتسماً، وثمة إشارة في داخلي تحذّرني، من أن عبارتي القادمة ستستفزه:

«وبعبارة أدق، وطني أنا.. إذا متُّ ظمآنًا فلا نزل القطرُ». ابتسم الأستاذ عدنان مرة أخرى وقال بصوت منخفض كأنه يحدث نفسه:

«إنَّ نفسكَ هي العالم كله».

فقلت على الفور:

«نعم، هذا صحيح، وهذه الفكرة التي أؤمن بها منذ زمن، ترسَّخت بشكل أعمق حين قرأت هيرمان هيسة».

«أنتَ أناني إذن، أيها الشاب الكبير جسماً وعقلاً..». قالها الأستاذ عدنان مبتسماً وبهدوء تام، ولم ألحظ أي علامة للاستفزاز على ملامحه، فقلت نافيًا:

«لا أبدًا.. الفرق كبير بين الأنانية، ومحاربة العبودية داخل الروح خوفًا من ترسُّخِها..».

«أرى أن جان جاك روسو قد نال منكَ أيها الفتى الشقي..».

❊ ❊ ❊

بعد أن سرقت منزل الدكتور كريم، وقتلت زوجته الجميلة،

سرقـتُ أيضًـا أربعـة منـازل دون أن أقتـل أحـدًا.. ولكنـي قتلـت رجـلًا مقعـدًا دون قصـد منـي، حـدث ذلـك حـين دخلـت أحـد بيـوت الأثرياء بغـرض السرقـة، وحـين صرت داخـل البيـت، شـاهدت رجـلًا كهـلًا يجلـس عـلى كـرسي متحـرك. كان منكّـس الـرأس وكأنـه نائـمٌ بوضـع الجلـوس، ولكـن مـا إن تحركـت حتى رفـع الرجـل رأسـه، ومـا إن شـاهدني حتـى فغـر فمـه واتسـعت عينـاه بشـكل مخيـف، وكنـت أظنـه سـيصيح عـلى مـن في الـدار، لكنـه ظـل فاغـرًا فمـه دون أي حركـة، ودن أن ترمـش عينـاه المفتوحتـان عـلى اتسـاعهما. بقيـت واقفًـا أمامـه دون حـراك لثـوانٍ، وحـين تأكـدت مـن تجمّـد جسـده وعزوفـه عـن الحركـة، اقتربـتُ منـه، تلمسـته، ثـم مسـكت ذراعـه وهززتهـا، فسـقط عـلى الأرض جثـة هامـدة.

لاحظـت أن كـف يـده اليـسرى ماسـكة بـشيء متصـل بسلسـة فضيـة، سـحبت السلسـلة لتنزلـق مـن بـين أصابعـه سـاعة دائريـة قديمـة يسـتخدمها الرجـل كسـاعة جيـب. دسسـتُ السـاعة في جيبـي وخرجـتُ مسرعًـا مـن البيـت دون التفكـير بمواصلـة البحـث عـما أريـد سرقتـه.

أودعـت سـاعة الرجـل الكهـل كيـس الضحايـا، ورحـت أتأمـل بعـض مـا التقطتـه أصابعـي مـن داخـل الكيـس، ولكنـي وفي لحظـة التأمـل، تذكَّـرتُ أمـي التـي بـدأت ملامحهـا تفقـد وضوحهـا في ذاكـرتي، ثـم تذكـرت الضابـط الـذي عمـد إلى مغازلتهـا لحظـة اسـتلام جثـة أبي، فقـررت البحـث عـن عنـوان بيتـه وسرقتـه، وإن اقتضـت الـضرورة لقتلـه فسـأفعل.

169

استعنت بـ«علي» الشرطي أو المفوض علي كي يدلّني على بيته.. اتصلتُ به وأعطيته الاسم.. وبعد أيام هاتفني على هاتف البناية ودعاني إلى بيته على أكلة سمك فاخرة معلنًا اشتياقه للقائي، ولم ينسَ أن يشرح لي جهده الكبير وعناءه في الحصول على العنوان وبعض المعلومات التي تخص ذلك الضابط.

لم يكن بيت العم علي ببعيد. ركنتُ سيارتي عند بداية الشارع حيث وجدت العم علي بانتظاري. تبادلنا التحايا ومشينا داخلين الزقاق الذي يحتضن بيته الصغير. كان بيتًا شعبيًّا في منطقة شعبية تضج بأصوات الباعة المفترشين بضائعهم على الأرصفة، والصبية الذين تجمعوا على شكل مجموعات تميزهم ألعابهم المختلفة، وتوحدهم موسيقى أو زقزقة الأصوات الطفولية.

حين تجاوزنا باب الدار، بعد أن شرح لي العم علي أهمية السكن في المناطق الشعبية، كونها توفِّر الأمان للعائلة من السرقات والاعتداء؛ نظرًا للتعاضد والألفة التي تجتمع عليها العوائل، ومعرفة بعضهم لبعض، نادى مضيّفي بصوت عالٍ معلنًا عن وصوله وضيفه؛ لتستعد العائلة إلى شيء ما.

ثلاث خطوات فقط، كانت كفيلة لنصل باب الحجرة المخصصة للضيوف التي وجدتها مرتبة بشكلٍ مبالغ فيه، وخالية من أي شخص. جلسنا على الأرائك متقابلين، وما هي إلا دقائق حتى توافدَ أعضاء الأسرة للسلام على الضيف. عرفتُ أن للعم علي ستة أطفال: بنتين وأربعة أولاد، كانوا في

غايـة التهذيـب، ونظافـة ملابسـهم وأجسـادهم كانـت لافتـة للنظـر. سـألت «همـام» إن كان يتذكـرني، وذكَّرتـهُ بأنـني موظـف العيـادة التـي جـاء إليهـا مـع والـده ووالدتـه، ابتسـم لي خجـلاً وقـال بأنـه يتذكـرني جيـدًا.

غـادر الجميـع الغرفـة بعـد أن اشـتغل الأولاد بمـدّ سُـفرة الطعـام عـلى الأرض وألقـوا عليهـا نظـرة الرضـا والتشـهي، وبقيـتُ أنـا والعـم عـلي وحدنـا نجلس بشـكل متقابـل عـلى طـرفي السُّـفرة العامـرة بسـمكتين كبيرتـين مشـويتين، وإلى جانبهـما السـلطة والخضـار وأرغفـة الخبـز السـاخن. وحـين باشرنـا بـالأكل، كلٌّ مـن سـمكته، حسـب اقـتراح العـم عـلي، الـذي طلـب مني القضـاء عـلى السـمكة التـي أمامـي وألّا أبقـي منهـا شـيئًا، سـألني:

«لمـاذا تسـأل عـن الضابـط زهـير؟» أربكنـي سـؤاله المفاجـئ، ولكنـي ودون تفكـير عميـق قلـت:

«لـه في رقبتـي ديـن وامتنـان كبـيران، فهـو الـذي سـاعدنا في إتمـام معاملـة خـروج جثـة والـدي مـن المستشـفى، وسـلمها لنـا، أنـا وأمـي؛ لهـذا أشـعر أن مـن واجبـي تقديـم الشـكر والامتنـان لـه..».

«يبـدو أنـكَ قـد تأخـرت؛ فالضابـط زهـير قُتِـلَ مـن قبـل المتنفضـين إبّـان الثـورة الشـعبية التـي انتهـت بسـلامة الرئيـس.. أنـا آسـف لإخبـاركَ بخـبر قـد يُثـير حزنـكَ، ولكنهـا الحقيقـة التـي عثـرتُ عليهـا بعـد جهـدٍ عظيـم..».

شـعرتُ بارتيـاح كبـير حـين سـماعي الخـبر، وقلـت في نفـسي إن

الشعب قد وفَّرَ عليَّ مشقة القتل، ثم سألته عن سبب مقتله، فقال:

«يبدو أنه كان غير محبوبٍ، وله خصومات كثيرة مع أشخاص؛ لذا حين اندلعت الثورة صار كل صاحب ثأر يبحث جاهدًا عن خصمه ليقتصَّ منه، وقد ذهبَ جراء ذلك الآلاف من الناس، خصوصًا من كانوا مقرَّبين أو مخلصين للسلطة..».

استرخيتُ وبدأتُ أتناول طعامي بشهية عظيمة، حتى إنني كدتُ أقضي على السمكة بالفعل لولا انتباهي لها، حين أيقظني العم علي من سرحاني وأنا أتصور زهير يتلوى على التراب وجسده مُثقَّب بالرصاص، حين قال:

«أعرف أنكَ في تلك الفترة كنت في سجن الأحداث، ولم تخرج منه إلا بعد سنتين أو أكثر، وكانت الثورة قد خمدت بفعل قسوة ردة الفعل التي أبداها الرئيس وجيشه ومناصروه، واستقرت الأمور لصالحه مرة أخرى..».

في أثناء حديثه عن الضابط زهير، كنت أفكر بأن أعطي العم علي اسم أمي وأختي كي يبحث لي عنهما، ولكنني تلكأت حين دخل ابنه الأكبر حاملاً صينية الشاي، ثم تراجعت عن فكرتي مفضلاً وقتًا آخر.

جلستُ خلف مقود سيارتي، بعد أن ودعت العم علي الذي أصرَّ على مرافقتي حتى باب السيارة، ثم انطلقت صوب مكان عملي وأنا أردد عبارة: «الشعب يثأر لليتامى؛ لأنه جزء منهم..»، ولا أدري

كيف خطرتْ بذهني تلك العبارة التي بَقيتُ أرددها حتى أوقفتني سيطرة عسكرية، طلَب مني أحد أفرادها أوراقي الشخصية وأوراق السيارة الرسمية.

طال انتظاري وأنا جالس خلف المقود بانتظار العسكري الذي أخذ أوراقي واتجه صوب الضابط الجالس بكرشه الكبير على كرسي تحت مظلة مؤقتة تشبه مظلات المطاعم الراقية.

عاد العسكري إليَّ، وبقيتْ أوراقي بيد الضابط يتفحصها الواحدة تلو الأخرى. طلب العسكري مني أن أترجَّل من السيارة، فالضابط يطلبني، وشدَّدَ على أن أترك مفتاح السيارة داخلها. فعلتُ ما أمرني به، وما إن صرت أمام الضابط حتى سألني:

«كم عمرك.. أقصد أنت مواليد أي عام بالضبط؟»

ارتبكت قليلًا، ولكني أجبت بصلابة متظاهرًا باللامبالاة:

«مثل ما هو موجود بالأوراق.. سيدي».

انتبه لي الضابط بشكل لافت وقال سائلًا:

«تقول سيدي.. هل أنت عسكري؟!»

«لا.. أنا حارس بناية كما هو موجود في الهوية».

«هل السيارة مسجلة باسمك أم باسم شخص آخر؟ فلا أجد الأوراق الخاصة بملكية السيارة من بين الأوراق التي بحوزتك، هل تمتلك الأوراق الخاصة بملكية السيارة؟»

الحقيقة أربكني سؤاله، وانكماشة القرف التي رسمها متعمدًا على وجهه. كنت محتارًا جدًّا، فلم أفكر يومًا بالسؤال عن المالك

الحقيقـي للسـيارة، ولم أحصـل عـلى أي ورقـة تشـير إلى ملكيتهـا. خطرت لي فكـرة إخبـار الضابـط باسـم الدكتـور حمـزة، وأن السـيارة تعـود لـه، وفعلـت.

لم يقتنـع الضابـط بـما قلتـه، وأخـبرني صراحـة بأنـه يشـك فيـما أقولـه، بـل ويعتقـد بـأن السـيارة مسروقـة.

بـان الارتبـاك عـلى ملامحـي، وقـد تلمّسـه الضابـط بوضـوح، وذلـك مـا دعـاه إلى إصـدار أمـره إلى العسـكري بأخـذي إلى سـيارة الحجـز والتحفّـظ عـلى السـيارة حتـى يحـين التحقـق مـن مالكهـا الأصـلي.

أُودِعـتُ التوقيـف بأحـد المراكـز التابعـة للشرطـة، وكان هنـاك عـدد كبـير مـن الرجـال والشـباب الموقوفـين أيضًـا عـلى ذمـة الشـك.

اسـتمر توقيفـي ثلاثـة أيـام لم يسـألني فيهـا أحـد عـن أي شيء، حتـى ظننـت أنهـم نسـوني، وكنـت طـوال الأيـام الثلاثـة أفكـر بطريقـة لإيصـال الخـبر إلى الدكتـور حمـزة أو العـم عـلي، ولكـن دون جـدوى.

في اليـوم الرابـع نـوديَ عـليَّ مـن خلـف بـاب السـجن، فتوجهـت نحـو البـاب لأجـد أمامـي شرطيًّـا نحيـل الجسـد قصـير القامـة، قـال إننـي مطلـوب للمثـول أمـام ضابـط التحقيـق، وطلـب منـي شـبك أصابـع كفـيَّ ومدهمـا مجتمعـين مـن بـين قضبـان بـاب السـجن، ففعلـت.

أخـرج القيـد المعـدني مـن حزامـه وألبسـه يـديّ الملتحمتـين، ثـم فتـح بوابـة السـجن وسـحبني بعنـف وراءه.

لم يسـتمر التحقيـق سـوى عـشر دقائـق، أخـبرني الضابـط بأننـي متهــم بتزويــر أوراق رســمية، حيــث أظهــرت نتائــج البحــث والتحـري أن جميـع الأوراق التـي كانـت بحـوزتي مـزورة وليـس لهـا أصـول في الدوائـر الرسـمية، حتـى هويـة حـارس البنايـة؛ ولهـذا عـليَّ الانتظـار حتـى يتـم ترحيـلي إلى المحكمـة، وهنـاك سـيبتّ القـاضي بأمـري.

10

عـشر سـنوات سـجن، بتهمـة تزويـر أوراق رسـمية وانتحـال شـخصية حـارس بنايـة باسـم مسـتعار. ذلـك مـا نطـق بـه السـيد القـاضي الـذي شـاهدتُ العـم عـلي واقفًـا خلفـه. جـاء ذلـك بعـد أن قضيـت شـهرًا كامـلاً في التوقيـف تحولـت فيـه إلى جـرذٍ نتـن، لدرجـة أننـي تقيَّـأتُ لأكثـر مـن مـرة بسـبب رائحـة جسـدي النتنـة.

بعـد قرابـة الشـهر مـن إيداعـي السـجن، زارني العـم عـلي. كانـت مفاجـأة كبـيرة لي، أن يُعلـنَ اسـمي مـن خـلال مكـبرات الصـوت بغرض الزيـارة، وحـين مثُلـتُ أمـام ضابـط أمـن السـجن، وجـدت العـم عـلي أمامـي، احتضنتـه وقبّلتـه، ثـم جلسـنا عـلى الأريكـة مقابـل مكتـب السـيد الضابـط الـذي غـادر غرفتـه ليمنحنـا فرصـة اللقـاء بحريـة.

في تلـك المقابلـة، أخـبرني العـم عـلي بـأن الحكـم الـذي صـدر بحقـي كان مخففًـا جـدًا، فالحكـم الوحيـد الـذي كان ينتظـرني هـو الإعـدام بسـبب تخلّفـي عـن الخدمـة العسـكرية الإلزاميـة، وأخـبرني أنـه حـين عـرف بـأن أوراقـي بـين يـدي القـاضي الـذي يعمـل بإمرتـه، توجـه إلى عيـادة الدكتـور حمـزة ليخـبره بالأمـر، ولا يعـرف العـم عـلي مـا الـذي

فعَلـه الدكتـور حمـزة بخصـوص قضيتـي، ولكـن الـذي كان قـد فعلـه العـم عـلي بُغيـة مسـاعدتي، أو لنقـل إنقـاذي، هـو أنـه اسـتعطف القـاضي بـأن ينظـر في القضيـة عـلى أنهـا تزويـر أوراق رسـمية، وليسـت هروبًـا مـن الخدمـة العسـكرية، فوافـق القـاضي عـلى الفـور مبتسـماً. تلـك الموافقـة السريعـة التـي أبداهـا القـاضي جعلـتِ العـم عـلي يشـك في أن هنـاك سرًّا وراءهـا، وقـال مخمنًـا: «ربـما هنـاك شـخص آخـر قـد توسـط لـكَ؛ لـذا جـاءت موافقـة القـاضي عـلى طلبـي سريعـة ودون تعـب..».

عرفـتُ فيـما بعـدُ أن الدكتـور حمـزة والدكتـور كريـم قـد تدخـلا مـن خـلال معارفهـم وطرقهـم الخاصـة كـي يكـون الحكـم سـجنًا، وألا يصل إلى الإعـدام؛ حتـى أكـون عونًـا لهـم في تزويـد مستشـفى «التفصيـخ» بالضحايـا؛ لـذا اختفـت تهمـة التخلّـف عـن أداء الخدمـة العسـكرية مـن ملـف الدعـوة. عرفـت ذلـك، حـين زارني الدكتـور حمـزة الـذي شرح لي الأمـر بالتفصيـل.

تعلَّمـتُ في سـنوات سـجني الكثـير؛ ومـن ذلـك أننـي تعلَّمـتُ القليل مـن اللغـة الألمانيـة، عـلى يـد شـاب رائـع حُكـم عليـه بالسـجن المؤبـد بتهمـة محاولـة الهـروب مـن البلـد بصـورة غـير شرعيـة، حيـث قُبِـضَ عليـه وهـو يـروم تجـاوز الحـدود باتجـاه دولـة معاديـة، والحقيقـة أن كل الـدول التـي تحيـط ببلـدي كانـت معاديـة، حسـب وجهـة نظـر السـلطة التـي ينقصهـا البصـيرة. كان رسـامًا محترفًـا، مغرمًـا بالفـن التشـكيلي تمامًـا كشـغفه باللغـة الألمانيـة التـي درسـها في الجامعـة وحصـل عـلى شـهادة الماجسـتير فيهـا. كان حلمـه أن يعيـش في ألمانيـا، ويبـدو أنـه قـد

178

أعـدَّ نفسـه منـذ زمـن بعيـد ليحقـق هدفـه، فقـد حدثنـي عـن عمـه الذي دَرَس الطـب في ألمانيـا، والـذي كان يحدثـه عنهـا وعـن دورهـا العظيـم في رفـد البـشر عـلى هـذه الأرض بالأفـكار والثقافـة والفـن والفلسـفة.

كنـتُ أتبـادل معـه المعلومـات عـن بلـد أحلامـه، الـذي قـرأتُ عنـهُ الكثـير، وكان يحدثنـي عـن الفنانـين التشـكيليين الألمـان ودورهـم الريـادي في تاريـخ الفـن العالمـي، عـن ماكـس أرنسـت؛ رائـد الحركـة الدادائيـة ومـن ثـم السرياليـة، وعـن صاحـب الإيقونـات الشـهير «ألبريخـت دورر»، وعـن لـوكاس كرانـاخ الأب ولـوكاس كرانـاخ الابـن، ولم يوفِّـر التعبيريـة الألمانيـة وروادهـا، ولا المـدارس والحـركات الفنيـة التـي انبثقـت مـن تلـك البـلاد لتطبـع أثرهـا البليـغ في عقـول وأرواح فنـاني العـالم، وكنـتُ بمعلومـاتي البسـيطة أحدّثـه عـن الفلاسـفة والروائيـين الألمـان ممـن قـرأت لهـم، حتـى أصبحنـا صديقـين حميمـين، غالبًـا مـا نجلـس عـلى انفـراد نتحـدث عـن عـوالم مـن شـأنها أن ترتقـي بأرواحنـا بعيـدًا عـن السـجن ودسائسـه، وشـتى أنـواع الإهانـة والـذّل.. كان اسـمه «عـماد»؛ شـاب وسـيم طويـل أسـمر يمتلـك مواهـب عديـدة وأفـكار مؤثـرة بإنسـانيتها.

تعلَّمـتُ مـن عـماد الكثـير، وصـار لي مـلاذًا في كثـير مـن الأحيـان، خصوصًـا حـين كانـت ذكريـاتي المـرَّة تعتـصرني لدرجـة الانهيـار.

كان عـماد يشـكل لي الزاويـة المضيئـة آنـذاك، تلـك الزاويـة التـي ألتجـئ إليهـا حـين تحـاصرني نفـسي لتلومنـي بقسـوة، ولا تتركنـي إلا حـين أصـل درجـة الانهيـار.

بعد مضي ثلاثة شهور على إقامتي في سجني الجديد، دخلت مكتبة السجن للمرة الأولى، ووقع نظري على شخص مريض بجسدٍ معافًى، هكذا خُيِّلَ لي حين شاهدته للمرة الأولى. شعرتُ أنه مريض بالحقد وكره البشر مهما كان صنفهم أو انتماءاتهم. كان اسمه «حاكم الثقيل»، وقد حصل على لقبه ذاك حين وجده بقية السجناء صعب المعاشرة، بذيء اللسان. كان حاكم محكومًا بالسجن المؤبد بتهمة التجسس لصالح دولة أجنبية، ولا أحد يعرف كيف صار أمينًا للمكتبة، التي تضم رفوفها كتبًا لا تتعدى الروايات القديمة، بالإضافة إلى أغلب الكتب التي أصدرها حزب السلطة، والتي تحكي تاريخه «النضالي المشرِّف»، ولكن الرأي الذي اجتمع عليه أغلب السجناء في السرِّ وراء تكليف حاكم الثقيل بمسؤولية أمين المكتبة هو عمالته لصالح السلطة، فقد كان كاتب تقارير من الدرجة الممتازة؛ لذلك كانت الاستعارة من المكتبة شبه معدومة، فلا أحد يجرؤ على الاستعارة؛ لأنه يعرف مسبقًا بأن اسمه واسم الكتاب المستعار سيكون بين يدي ضابط أمن السجن بعد ثوانٍ من إتمام الاستعارة، وبما أن القراءة أو المطالعة هي تهمة بحد ذاتها، كونها تشير إلى الثقافة، فقد أحجم الجميع «تقريبًا» عن الاقتراب من غرفة المكتبة التي كانت ملاصقة لغرفة ضابط خفر السجن.

تذكرتُ السنوات التي قضيتها سجينًا في سجن الأحداث، وكيف كنت مسؤولًا عن مكتبة السجن، ورحت أقارن بيني وبين حاكم الثقيل، فقلت في قرارة نفسي: «أنا لست أفضل من حاكم، ربما أفوقه نذالة وإجرامًا..».

كان يمكن للسجين أن يقتني كتابًا أو أكثر عن طريق الزيارات، فكان بعض الأهل والأصدقاء يجلبون بعض الكتب إلى ذويهم، شريطة أن تحصل على موافقة ضابط أمن السجن، وذلك ما حدث معي بالفعل، حين زارني الأستاذ الندائي وأهداني كتابًا عن الفيلسوف الدنماركي سورن كيركغارد. تذكَّرتُ بأنه وعدني بذلك الكتاب فيما مضى. صحيح أن وقت الزيارة كان قصيرًا، إلا أننا تحدثنا كثيرًا عن العديد من الأشياء، المهمة وغير المهمة، وكانت غرفتي على سطح بيته قد أخذت حصة من حديثنا، حين وعدني بأنها ستبقى مقفلة، وأقسمَ بأنه لن يفتحها أبدًا حتى أعود وأكون أول من يزيل قفلها، ثم سألني عن المبلغ الذي يدّخره لي، فطلبتُ أن يبقى عنده حتى عودتي، ولكن يمكنه استخدام ما يحتاجه من المبلغ عند الضرورة فقط، فابتسم وقال بأنه تعوّدَ الفقر ولا يعتقد بأنه سيضطر إلى تصريف أي ورقة من أوراق المبلغ الخضراء، ثم غادرني وكانت تلك المرة الأولى والأخيرة التي أراه فيها طوال فترة سجني.

في زيارتي الثالثة لغرفة المكتبة البائسة، وبعد أن ألقيت التحية على «حاكم الثقيل»، شاهدتُ رجلاً نحيلاً أصفر الوجه يجالس «حاكم»، ولم أكن قد قابلته من قبل، وبشكل سريع أومأت له برأسي كتحية من لا يعرف بعضهم بعضًا، فأجابني بحركة مثلها، ثم رحتُ أقرأ عناوين الكتب الضجرة من طول بقائها على الرفوف والغبار الذي يغلّفها لفترة طويلة، وبأثناء ذلك سمعت حاكم وهو يخاطبني:

«يبدو أنكَ مغرم بقراءة العناوين فقط، فهذه المرة الثالثة التي تمر على عناوين الكتب دون أن تستعير كتابًا!»

فقلت له دون أن أحوِّل نظري عن الكتب:

«يبدو أنك مشتاق لكتابة تقرير إلى ضابط الأمن بخصوصي..». قلت ذلك ثم نظرتُ إليه لأشاهد ردة فعله، فوجدته قد نهضَ من كرسيه مفزوعًا، وهو يقول مرتعدًا:

- «لا أسمح لك أن تتهمني بهذه الاتهامات.. هل تعرف من أنا؟»

اقتربت منه ومسكت كتفه قائلًا:

«هل تعرف لماذا لم أستعر أي كتاب حتى الآن؟.. لأنني سألت السيد الضابط عن الكتب التي يمكنني استعارتها دون إثارة أي مشكلة، فلم يجبني حينها، وما زلت أنتظر جوابه، وحين أحصل عليه سأمنحك فرصة كتابة التقرير..».

في تلك الأثناء، هرب الرجل الذي كان جالسًا مع حاكم بعد أن صار وجهه أكثر اصفرارًا، وصرنا وحدنا، أنا وحاكم الثقيل فقط، حينها طلبتُ منه الجلوس، وأفهمته بأن هناك موضوعًا مهمًّا أريد التحدث فيه.

جلس الرجل على الفور وكأنه ينتظر صيدًا ثمينًا، وحين صرت قبالته جالسًا، قلت:

«هل تعلم بأنني قرأت أغلب هذه الكتب حين كنت حرًّا؟»

نظـر إليّ نظـرة بلهـاء وكأنـه يريـد أن يُفهمنـي بأنـه يتفرَّسـني ويفهـم مـا بدواخـلي، ثـم قـال متسـائلًا:

«ما طبيعة علاقتك بضابط أمن السجن؟»

أطلقت ضحكة مفتعلة وربَّت على كتفه، وغادرته بعد أن قلت:

«اسأله، فهو يعرف عني الكثير!»

❋ ❋ ❋

زارني الدكتـور حمـزة زيـارة قصـيرة، ولكنهـا كبـيرة ومؤثـرة بشـكل كبـير، أخـبرني خلالهـا بـأن هنـاك مهمـة عظيمـة يمكنني القيـام بهـا أثناء وجـودي في السـجن، وأن المهمـة سـتوفر لي حمايـة مـن قبـل المسـؤولين عـن السـجن، بالإضافـة إلى مبالـغ ماليـة محترمـة تكـون عونًـا لي حـين يُطلـق سراحـي. وبعـد أن نقـل لي تحيـات الدكتـور كريـم، قـال بـأن هنـاك بعـض الأشـخاص يجـب إرسـالهم إلى المستشـفى الخـاص حيـث الدكتـور كريـم، والمهمـة التـي تقـع عـلى عاتقـي هـي تجهيزهـم لذلـك الغـرض، فسـألته إن كان يحـق لي اختيـار بعـض الأشـخاص، فضحـك وقـال: «أحيانًـا».

فهمـتُ مـن مقابلـة الدكتـور حمـزة بأننـي أحظـى بتوصيـة خاصـة مـن جهـات لا أعرفهـا، وذلـك مـا لمسـته مـن معاملـة ضابـط أمـن السـجن ودكتـور السـجن أيضًـا، وحتـى حاكـم الثقيـل فيـما بعـدُ، ولكنـي كنـت غاضبًـا مـن الدكتـور حمـزة بسـبب الأوراق الرسـمية

المزورة التي سلّمني إياها وطمأنني بأن لا خطر عليَّ أبدًا، وأن بإمكاني التحرك بكل سهولة وسلاسة، وأن أنسى موضوع الخدمة العسكرية إلى الأبد. ذلك ما قلته له بصورة بسيطة وغير جارحة، بل وفيها بعض الانكسار، مشدِّدًا على إظهار ألمي وحزني على ما صرت عليه، بفعل تلك الأوراق المزوَّرة. حينها أفصح الدكتور حمزة عما بداخله، وأخبرني بأنه وقع ضحية ضابط الأمن الذي كان يستأجر الشقة في الطابق الثالث، والذي اعتمد عليه في إصدار جميع الأوراق مقابل مبالغ ليست بالقليلة، وكان الدكتور حمزة يظن مثلي بأنها أوراق رسمية ستوفر الحماية لي على المدى الطويل، وحين سألته عن الذي حدث بينه وبين الضابط حين علَم بسجني بسبب تلك الأوراق، قال حمزة بأنه لم يكترث كثيرًا، وراح يضحك وهو يقول:

«ما زال شابًّا فتيًّا، ويمكنه تحمّل السجن..».

أقسمتُ إن بقيت على قيد الحياة وخرجتُ من سجني اللعين أن أقتل ضابط الأمن عامر محسن الشاهر، الذي خدعني وخدع الدكتور حمزة أيضًا.

حين قرر الدكتور حمزة إنهاء زيارته، ودخل العقيد فاضل، ضابط أمن السجن، إلى غرفته، قال له حمزة:

«مرهون أمانة بين يديك يا صديقي، وأنا ملتزم بالاتفاق بيننا».

نظر العقيد فاضل صوبي مبتسمًا، وقال:

«أرجو ألا تتدلل علينا كثيرًا، وأن تسمع الكلام وتنفذ الأوامر

بحذافيرهـا، وإلا سأسـلخ جلـدك، والدكتـور حمـزة يسـمع مـا أقـول، وهـو موافـق عليـه مسـبقًا..»، ثـم نظَـر صـوبَ الدكتـور طالبًـا موافقتـه، فقـال حمـزة:

«أنا أعرف مرهون البطل جيدًا، وهو مثال للالتزام والأمانة..».

غـادر الدكتـور حمـزة غرفـة العقيـد بعـد أن طبـع قبلـة عـلى جبينـي، وكانـت تلـك آخـر مـرة أراه فيهـا.

❋ ❋ ❋

عرفـتُ فيـما بعـد بـأن الرجـل النحيـل أصفـر الوجـه الـذي هـرب مـن غرفـة المكتبـة أثنـاء حديثـي مـع حاكـم الثقيـل، هـو عميـل متعـاون مـع ضابـط أمـن السـجن أيضًـا، وأن اسـمه «ضرغـام»، جـاء ذلـك حـين سـألني العقيـد فاضـل عـن سـبب الخـلاف بينـي وبـين ضرغـام، فأخبرتـه بأننـي لا أعـرف أي شـخص بهـذا الاسـم، فأظهـر لي صـورة لشـخص عرفتـه عـلى الفـور، وقلـتُ لـه بأننـي لم ألتـقِ بـه إلا مـرة واحـدة في غرفـة مكتبـة السـجن، فقـال العقيـد بأنـه يعـرف مـا حـدث، فقـد نقـل لـه ضرغـام تقريـرًا بـما دار بينـي وبـين حاكـم الثقيـل. ضحكـتُ سِرًّا؛ لأننـي اكتشـفت بـأن حتـى ضابـط أمـن السـجن يعـرف لقـب حاكـم وثقلـه، ثـم طلـب العقيـد منـي أن أُحسِّـن علاقتـي بضرغـام؛ كونـه إنسـانًا بسـيطًا ومسـكينًا ومتعاونًـا بشـكل جيـد مـع إدارة السـجن. عاهدتـه عـلى ذلـك، ووعدتـه بأننـي سـأبحث

عنه حال خروجي من غرفته، فأخبرني عن العنبر الذي يقطن فيه وأماكن تواجده أثناء ساعات النهار. وبالفعل، التقيت «ضرغام» في أحد الأماكن التي دلَّني عليها العقيد.

حين شاهدني ضرغام وأنا أقترب منه، تلمّستُ خوفَه، وصارت عيناه تتراقصان يمينًا وشمالًا، ولكني بددتُ خوفه حين مسكته من ذراعه وقلت له هامسًا:

«إذا ضايقك أحد، مهما يكن مركزه أو مكانته، فما عليك إلا الإشارة لي كي أكسر رقبته..».

ابتسم لي، وتلمستُ حالة من الرضا على ملامحه، ثم دخلنا معًا إلى حانوت السجن، فاشترى بسكويتًا قدَّم نصفه لي، ربما كان متعفنًا حينها، لكننا التهمناه بمتعة.

ضرغام، الرجل الخائف على الدوام، والذي كان يعتقد أن موته إعدامًا قد بات وشيكًا، كان كثير البكاء، شديد الشكوى، وذلك ما دعاه إلى أن يكون مندسًّا مخلصًا بين السجناء، ليقدِّم أفضل ما عنده من مواهب تجسسية إلى مسؤولي السجن، بغية إرضائهم وتأخير موعد إعدامه، وكنتُ أعرف ذلك عنه، وأقرف منه، رغم أني لم أكن أقل منه حقارةً وإجرامًا. منذ ذلك الوقت صرتُ أقرب شخص إليه، وبات يثق بي، وصار يبثّ لي أمورًا ومواضيع تافهة كان يعتقد بأنها أسرار عظيمة.

لم أشعر يومًا بأن ضرغام صديق لي، بل غالبًا ما يراودني شعور بأنه أجير، كما كنت أتصوره الخنجر الذي سيُغرس في ظهري يومًا

186

مـا. كان جبانًـا، ضعيـف البنيـة، لكنـه كان نشـطًا جـدًّا، سريـع الحركـة والاختفـاء، لا يسـتقر في مـكان واحـد أكثـر مـن بضـع دقائـق. جبـان بامتيـاز، يخـاف الحـشرات ومخالـب الحيوانـات، حتـى الطيـور. يتصـور أن أي حيـوان يمتلـك مخالـب سيشـوه وجهـه ويصبـح ذا عاهـة مسـتديمة تثـير ضحـك وتهامـس الآخريـن، لكنـه كان كاتـب تقاريـر محترفًـا جـدًّا، لدرجـة أنـه وبعـد قرابـة السـنتين مـن وجـودي في السـجن، كتـب تقريـرًا عنّـي قدمـه إلى العقيـد فاضـل، كان حريًّـا أن يوصلنـي إلى حبـل المشـنقة، عندهـا أقسـمتُ عـلى قتلـه. اتهمنـي في تقريـره بالتعاطـف مـع أخطـر حـزب عرفـه تاريـخ البـلاد، وأننـي أخبّـئ أخبـاره ومـا كان يفعلـه أعضـاء ذلـك الحـزب مـن السـجناء عـن ضابـط أمـن السـجن، وكان يـؤوِّل ذلـك في تقاريـره إلى أن والـدي كان أحـد أعضـاء الحـزب؛ ممـا جعلنـي متعاطفًـا معهـم.

لا أدري مـن أيـن جـاء بتلـك المعلومـة، وحـين كاشـفني ضابـط أمـن السـجن بـها وصَلـه عـن طريـق التقريـر، ضحكـتُ كثـيرًا رغـم خـوفي، وأخبرتـه بـأن والـدي كان مجـرد سـارق بيـوت بائـس، ولم يعـرف القـراءة والكتابـة، وقـد قُتِـلَ أثنـاء محاولتـه سرقـة أحـد المنـازل العائـدة إلى أحـد الأغنيـاء، وكان عمـري حينهـا لا يتجـاوز السـبع سـنوات. عنـد ذاك، تأسّـف السـيد الضابـط لمـا وقَـع ضرغـام فيـه، وطلَـب منـي مسـامحته، ففعلـت، ولكـن روحـي كانـت تغـلي متحرِّقـة لقتلـه، حتـى إننـي وبعـد مـضي أقـل مـن عـام عـلى محادثتـي مـع ضابـط أمـن السـجن الـذي أعطـاني حينهـا زجاجـة المخـدِّر مـع ورقـة تحتـوي عـلى اسـمين مـن السـجناء كمرشـحين لإرسـالهم إلى

مستشـفى الدكتـور كريـم، اقترحـتُ عليـه «ضرغـام» كصيـد سـهل يمكننـي تخديـره وإرسـاله إلى مستشـفى «التفصيـخ»، ولكـن السـيد العقيـد نهـرني، بـل وعنفنـي بشـدة، وقـال لي، صحيـح أن القطـة تـأكل أبناءهـا أحيانًـا، إذا عرَفـتْ بعـض العـوق أو علامـات المـوت مرتسـمة عليهـم، ولكننـا لسـنا بقطـط؛ لـذا وجـب عـليَّ إبعـاد تلـك الفكـرة عـن رأسي. وعدتـه بذلـك وفي قـرارة روحـي وافقتـه عـلى أننـا لسـنا بقطـط، لكننـا ذئـاب متوحشـة تتمتـع بمنظـر الـدم، ورعشـة الوشـاية، وانخطـاف لـون الوجـه عنـد التهديـد، ويُمتُعنـا كثـيرًا ذلـك الرعـب المرتسـم عـلى ملامـح وجسـد الضحيـة.

منـذ أن أتـت فجـرًا مجموعـة جديـدة مـن السـجناء إلى سـجننا، وكان عددهـم يقـترب مـن مائتـي سـجين ومعتقـل مختلفـي الأعـمار، وجلّهـم مـن سـكّان شـمال البـلاد، زاد اختنـاق العنابـر بالأجسـاد المتراصـة، وأصبحـت رائحـة عفونـة الأجسـاد أسـمك ممـا قبـل، لدرجـة أوصلتنـي إلى قناعـة بـأن مـن الممكـن الإمسـاك بتلـك الرائحـة لشـدة ثقلهـا وسـمكها، والغريـب هـو ازديـاد حـالات الإغـماء بـين السـجناء بشـكل لافـت، وكنـتُ أعـرف بأنهـا نتيجـة المخـدِّر، ولكـن المدهـش هـو تأكـدي مـن أننـي لم أكـن الوحيـد الـذي يقـوم بعمليـة التخديـر، نظـرًا لتعـدد أقسـام السـجن الـذي يعـد أكـبر وأشـهر سـجن في البلـد.

حـين انتبـه ضرغـام إلى حـالات الإغـماء المتزايـدة وسرعـة إرسـال المغمـى عليهـم إلى المستشـفيات، قـال لي بدهشـة واضحـة وكأنـه اكتشـف

188

شيئًا خطرًا: «أعتقد أن من بين سجناء الوجبة الجديدة مَن يحمل على ثيابه وجسده بقايا إشعاع نووي أو كيمياوي؛ مما يتسبب في حالة إغماء بعض السجناء..»، ثم أضاف مستغربًا: «ولكن العجيب يا أخي، أن ما من أحد أُغمي عليه ونُقل للمستشفى وعاد إلينا مرة أخرى! فهل تعرف السبب؟» قلت له متهكماً وضحكة محبوسة بداخلي، بأن نظريته الصحيحة جدًّا، والتي لا تقبل الجدل والشك، هي من تقف خلف عدم عودتهم، فهناك يكتشفون وجود أثر الغازات الكيمياوية، ويتم حجرهم في سجن خاص بعيد عن سجننا. وافقني على الفور وكأنه يريد الاحتفاظ بها اكتشفه كحقيقة دامغة، ثم أثنى على ذكائي وقدرتي الهائلة على التحليل.

أتمتع جدًّا، حين أقلِّب أغراض ضحاياي بعد أن أرسلهم إلى مستشفى «التفصيخ»، فقد جرَتِ العادة أن تكون أغراض السجين الغائب في عهدتي حتى يعود، وما من سجين غاب بفعل المخدِّر وعاد.

كنتُ أفتش أغراض السجين قطعة قطعة، ورغم أن أغراض السجناء غالبًا ما تتشابه، لكني كنت أبحث عن المختلف، أوراق صغيرة، رسائل، هدايا صنعها السجين بنفسه ليهديها إلى أهله إن تمكنوا من زيارته. وكنت لا أنسى الاحتفاظ بقطعة معدنية من حاجيات «الضحية» أضيفها إلى «كيس الضحايا»: ساعة، خاتم، سلسلة، أو حتى ملعقة، أو صحن معدني صغير.

كنت أقرأ بعض الرسائل، وما دوَّنوه من ذكريات وخواطر أو قصائد عمدوا إلى إخفائها بشكل متقن، وكنت أعد تقريرًا شاملًا

بكل ذلك وأسلّمه شفاهية إلى السيد العقيد، الذي يبدأ بالكتابة حالما أبدأ بسرد تقريري، وحين الانتهاء يطلب مني التوقيع على التقرير.

❋ ❋ ❋

جسدي أكلته حموضة الذكريات، وكلّما انبثقتْ ذكرى ازداد الجسد هزالًا، فقد صارت الذكريات بحموضتها أسيدَ، أسمع أزيز احتراق اللحم حين مرور الذكرى بين طياته..

❋ ❋ ❋

منحني الكتاب الذي أهداني إيّاه الأستاذ عدنان في زيارته اليتيمة قبل ما يقرب من ثلاث سنوات فرصة هائلة في الثبات، وتحويل عالم السجن إلى عالم آخر يُمكنني رسمه وتخيله؛ وبالتالي العيش داخله وكأنه حقيقة. جاء هذا حين قرأت: «لم يكن المنزل يُقدِّم لكيركغارد وهو صبي ألوانًا من اللهو والتسلية، ولم يخرج إلا نادرًا؛ لهذا تعوّد منذ فترة مبكرة أن ينشغل بنفسه وبأفكاره الخاصة. ولقد كان والده رجلًا متجهماً قاسيًا، لكنه كان يخفي تحت مظهره الجاف العابس، خيالًا متوهجًا لم يخمده تقدّم السن. وعندما كان كيركغارد يطلب من والده السماح له بالخروج من المنزل، كان والده عادةً ما يرفض، ولكنه كان بين الحين والآخر، وعلى سبيل التعويض،

يتناول يد الطفل الصغير ويسير معه داخل الغرفة جيئة وذهابًا. كان ذلك يبدو في البداية بديلًا هزيلًا للخروج، لكنه، مثل مظهر الوالد الجاف، كان يخفي تحته شيئًا مختلفًا أتم الاختلاف، وكان الأب يترك لولده تحديد المكان الذي سيذهبان إليه بخيالهما، هكذا يخرجان من باب المنزل إلى القلعة المجاورة، أو يذهبان إلى الشاطئ، أو يسيران في الشارع أينما يشاء الصبي الصغير، فالأب مستعد لكل شيء. وخلال تجوالهما المتخيل ذاك، يصف الأب جميع ما يشاهدانه: يُحيِّيان المارة، يتجنبان العربات، يستمعان إلى الضوضاء الصاخبة، فيخفف الأب صوته قائلًا: «فطائر هذه المرأة مغرية أكثر من أي وقت مضى..»، كان الأب يصف أقل التفاصيل وأصغرها بدقة متناهية ووضوح، حتى ليصبح كل شيء واضحًا أمام الصبي وضوح النهار! لدرجة أن كيركغارد الصبي كان يشعر بالإرهاق والتعب بعد نصف ساعة من بداية هذه النزهة المتخيَّلة كما لو كان قد قضى يومًا بأكمله خارج المنزل. وسرعان ما تعلّم الصبي من والده كيف يمارس قدرته السحرية في الوصف، ليتحول الوصف إلى حوار بينهما أثناء السير، فإذا مرّا بأماكن يعرفانها جيدًا يراقب كلٌّ منهما الآخر بدقة حتى يتأكد من أنه لم يغفل في وصفه شيئًا.. حتى بات الصبي يمتلك قدرة هائلة على التخيُّل تمكِّنه من خلق أي شيء وأي حالة، فلقد صارت فكرة التخيِّل التي درَّبهُ عليها والده تشعره بأن العالم يُخلق من جديد، أو ينبثق من العدم مرة أخرى.

ذلك ما قرأته وما اعتمدته في مقاومتي لوحشة السجن وانقطاعي عن العالم الخارجي، فكنت أتجول في غرفة السجن، كثعلب داخل

قفص في حديقة الحيوان، متقمصًا ثعلب والد الفيلسوف لأرى العالم الذي أحب. كنتُ أختار الشخصيات التي أحب مقابلتها. عند ذاك، أناقشها، أعنفها، وأحيانًا أقتلها، وفي مرة استحضرتْ مخيلتي صورة أمي، قابلتها مصادفةً في سوقٍ مزدحم لا أعرف أين يكون، ورحت أحدّثها وأعاتبها لتركي طفلًا صغيرًا بيد وحش اسمه مانع، الغريب أني رأيت أمي تبكي، وتستمر في بكائها، ولم تقل كلمة واحدة، وأنا فقط من كان يتحدث، حتى سئمتُ المشهد. صحوتُ من تخيّلي فزعًا على إثر صوت أحد السجانين وهو ينادي عليَّ ليخبرني بأن ضابط أمن السجن يطلبني.

وفي نوبة أخرى، من نوبات التخيِّل، قابلت «هيام» في سوق المكتبات، هكذا صوَّر لي خيالي، ورحت أغازلها، حتى دخلنا مطعم الكبة الشهيرة، وجعلتها ملتصقة بي، فزدت من التصاقي بها، حتى ارتعش جسدي وأنا أدور داخل غرفة السجن دون أن أستخدم يدي! كانت متعتي هائلة!

كيركغارد الذي كان يشعر أن جسده ليس إلا مرضًا بغير علاج، وما هو إلا «آلة تعذيب مستمرة» قد علَّمني كيف أحوِّل عالم السجن الموحش والقاسي إلى عالم متخيّل أحبه وأتعايش معه. تعلَّمتُ منهُ كيف أحيط نفسي بمجموعة من الشخصيات التي يخترعها خيالي، أكسوها لحماً وعظامًا، وأنفخ فيها نسمة الحياة لأتحاور معها، أتنزه معها، بل وحتى أتخاصم معها.

خرجتُ من العنبر على إثر مناداة السجَّان الذي أيقظني من عالم التخيُّل الساحر؛ ليخبرني بضرورة الامتثال أمام العقيد فاضل ضابط أمن السجن، وحالما صرتُ قبالة السيد العقيد سألني سؤالًا مختصرًا جدًّا، لكن بدني اهتزَّ له، وصارت ساقاي ترتعشان لدرجة أنني جلستُ على الأرض منهارًا. فزع العقيد فاضل جرّاء حالتي تلك، وحاول إيقافي على قدميَّ، ليطلب مني الجلوس على الكرسي القريب من مكتبه. حدث ذلك حين قال لي متسائلًا: «هل تعرف السجين عماد خلف؟» وكان السؤال سبب انهياري؛ لأنني كنتُ أعرف دوافع ذاك النوع من الأسئلة، وأعرف أنها بداية الشروع بعملية إرسال صاحب الاسم إلى «التفصيخ».

عاد العقيد فاضل إلى كرسيه، بعد أن تأكَّدَ من جلوسي واسترخاء ساقيَّ، ليطلب لي من الشرطي الذي يقف باستمرار عند باب غرفته كأسًا من الماء وقدح شاي.

سألني إن كنت بخير، فأجبته بالإيجاب، حينها راح يستفسر إن كنت أشكو من مرض أو جوع أو عطش. طمأنته، مشدِّدًا على أنني بخير، وما حدَث ربما يكون بسبب قلَّة النوم والإرهاق.

دخل الشرطي ووضع أمامي كأسي الماء والشاي، وحين خرج ابتسم العقيد فاضل، وقال وهو يداعب قنينة المخدِّر بين أصابعه:

«اسمع يا مرهون، خذ عبوة المخدِّر هذه، وبعد ساعتين من الآن يكون «عماد خلف» قد غاب عن وعيه.. مفهوم؟»

لا أعـرف كيـف هطَلـتْ دموعـي، ولا أدري لمـاذا شـعرتُ -ولأول مـرة- بـأن أمـي تتعـرض للاغتصـاب والقتـل، وعـلى إثـر تلـك الصـورة المرعبـة ازداد بكائـي ونحيبـي، فـصرخ بي العقيـد فاضـل: «مـا بـك؟.. لمـاذا تبكـي بـكل هـذه اللوعـة والمـرارة؟» فقلـت لـه دون وعـي منـي بأننـي مريـض، وأننـي أشـعر بحمَّـى تجتـاح بـدني. انتفـض العقيـد بشـكل هسـتيري، خـرج مـن بـين طاولـة مكتبـه والكـرسي واقـترب منـي. حاولـت الوقـوف، ولكنـه سـارع إلى مسـك فـروة رأسي وأعـادني إلى الكـرسي، وقـال بلهجـة تهديـد واضـح:

«لسـتَ مريضًـا يـا مرهـون، ولكنـك تريـد التهـرب مـن إتمـام المهمـة، أعـرف أن «عـماد» صديقـك المقـرَّب، وأعـرف طبيعـة السـاعات التـي تقضيانهـا معًـا وأنتـما تتحدثـان عـن الفـن والفلسـفة..»، ثـم رفـع رأسي ليكـون وجهـي قبالـة وجهـه مسـتعينًا بخصـلات شـعري التـي بقبضتـه وقـال: «أمامـك خيـاران لا ثالـث لهـما، إمـا أن تنفِّـذ المهمـة، وإمـا أن تكـون مُعلّقًـا عنـد الفجـر بحبـل إحـدى المشـانق، فـماذا تقـول؟»..

مـددت يـدي لأتسـلم منـه عبـوة المخـدِّر وأغـادر الغرفـة دون أن تعلـن دموعـي توقـف هطولهـا.

حـين جلسـتُ قبالـة عـماد عـلى أرضيـة العنـبر وأنـا أسـقيه الشـاي المخـدِّر، طلبـتُ منـه أن يُحدّثنـي عـن عائلتـه، مشـدِّدًا عـلى ضرورة ذكـر عنـوان البيـت وأسـماء أفـراد عائلتـه، وقـد أخبرتُـه بـأنَّ مـن الممكـن إطـلاق سراحـي قريبًـا، وذاك مـا أخـبرني بـه ضابـط أمـن السـجن الـذي كنـتُ عنـده منـذ قليـل. راح عـماد يحدثنـي عـن كل شيء، وكنـت أسـتعين

بذاكـرتي التـي لم تخنّـي يومًـا لأختـزن كل معلومـة يقولهـا، حتـى صرت في كلِّ مـرة يريـد ارتشـاف القليـل مـن الشـاي أطلـب منـه التـأني حتـى يكمـل كلامـه، وكنـت حريصًـا عـلى ألا يـرى دموعـي، كنـت أنـزف الدمـوع داخـل روحـي بغـزارة.

حـين غـاب عـماد الجميـل عـن الوعـي، اقتربـتُ مـن بوابـة العنـبر، وصرخـتُ بصـوتٍ مكتـومٍ مـزّق داخـلي: «أيهـا الـكلاب، لقـد سـقط عـماد معلنًـا مـوت الضمائـر، أيهـا الـكلاب، لقـد غـاب الفـن وغابـت الثقافـة عـن الوعـي..».

195

١١

أخبـار مرعبـة، صـارت تَرِدُنـا تِباعًـا، وأحيانًـا بشـكل كثيـف، بعـد أن سـاءت معاملتنـا في السـجن بشـكل غـير مسـبوق، خصوصًـا مـن ناحيـة الأكل والـشرب والخدمـات، حتـى بتنـا نعيـش رعبًـا حقيقيًّـا.

تـواردت أخبـار شـبه مؤكـدة تفيـد بـأن الدولـة العظمـى سـتحتل بلدنـا، وتزيـل الديكتاتـور، لتسـتبدله بنظـام ديمقراطـي، وذلـك مـا تلمسـناه في مـزاج السـجانين والضبّـاط السـيئ، ومعاملتهـم غـير المنضبطـة بقانـون. وبـدأت أعـداد السـجناء تتناقـص صبيحـة كل يـوم، وذلـك مـا أثـار الرعـب والهلـع في أرواح السـجناء؛ حيـث اعتدنـا سـماع العديـد مـن الأسـماء وهـي تُـذاع عـن طريـق مكـبرات الصـوت، طالبـين مـن أصحابهـا التجمـع في سـاحة كـرة القـدم، وحـين يكتمـل العـدد المطلـوب، وقبـل وجبـة الإفطـار، يتـم سـوق السـجناء المجتمعـين في السـاحة إلى مـكان خـارج السـجن. وبعـد مـضي قرابـة النصـف سـاعة، كنـا نسـمع أصـوات الرصـاص الكثيـف، وصيحـات بشريـة متباينـة بـين مسـتغيثة وأخـرى آمـرة، وكان أغلـب الذيـن تـم أخذهـم، مـن السـجناء السياسـيين.. اسـتمر الحـال لعـدة أيـام حتـى صحونـا فجـرًا عـلى

أصـوات قذائـف وانفجـارات بعيـدة، ثـم رشـقات رصـاص متقطعـة نسـمعها بـين فـترة وأخـرى، تكـون بعيـدة مـرة، ومـرة أخـرى قريبـة مـن موقـع السـجن.

بعـد مـضي ثلاثـة أيـام عـلى بقائنـا داخـل العنابـر دون الخـروج منهـا، وغيـاب السـجانين، مـع حضـور مكثَّـف لأصـوات الرصـاص والانفجـارات، وفي سـاعة متأخـرة مـن الليـل وقـد أخـذ منـا الجـوع مأخـذه، وصـار السـجناء يتبولـون ويقضـون حاجتهـم داخل العنـبر، بعد أن امتـلأت الصفائـح المعدنيـة المخصصـة لذلـك، والتـي كنـا في السـابق نفرّغهـا كلـما فُتحـتْ بوابـات العنابـر، سـمعنا صـوت أحـد السـجانين وهـو يأمرنـا بالتراجـع عـن البـاب لدرجـة الالتصـاق بالجـدران، وأنـه مـن غـير المسـموح لأحـد الخـروج مـن العنابـر حتـى تصـدر الأوامـر لنـا بذلـك، وأن مـن يجـرؤ عـلى الاقـتراب مـن بـاب العنـبر، سـيطلق عليـه الرصـاص.. أطعنـا الأوامـر ورجعنـا إلى الخلـف رغـم سـماعنا أصـوات المزاليـج والأقفـال وهـي تُـزال، وتأكدنـا مـن أن الأبـواب باتـت غـير مقفلـة، ولكنهـا غـير مشرعـة، وليـس مسـموحًا لنـا بالخـروج.. وبعـد أن هـدأت الأصـوات ولم نعـد نسـمع أي حركـة خلـف الأبـواب، تملكني شـعور بـأن السـجّان الـذي أزال الأقفـال عـن الأبـواب قـد اختفـى أو هـرب. اقتربـتُ مـن بـاب العنـبر، وحاولـتُ بحـذرٍ شـديد سـحبه ظنًّـا منـي بأنـه غـير موصـد، بـل كنـت شـبه متأكـد مـن ذلـك، ورغـم أن بعـض السـجناء نهـروني عـن الاقـتراب مـن البـاب، ومحاولـة فتحـه، إلا أننـي كنـت مـصرًّا عـلى ذلـك، وبالفعـل، فـما إن سـحبت البـاب حتـى اقـترب منـي مطيعًـا. بسرعـة انزويـت جانبًـا بانتظـار أي ردة فعـل،

وما إن طال انتظارنا لفترة غير قصيرة حتى خرجتُ إلى الممر، فلم أشاهد أي شخص خارجه. ناديت على رفاقي السجناء طالبًا منهم الخروج، ولكنهم ترددوا. توجهتُ إلى العنبر المجاور ووجدت بابه دون قفل أيضًا، دفعته إلى الداخل فانفتح بسهولة. ناديت على السجناء فخرجوا، وهكذا حتى خرج جميع من في العنابر الأخرى دون أن نلحظ أي أثر للسجانين أو الضبّاط أو موظفي السجن، ورحنا نتجول في أروقة السجن فوجدناه خاويًا. عرفنا بعد ذلك أن ممتلكات السجن وسجلاته قد تمت سرقتها من قبل الضبّاط والموظفين، وما تبقى سرقه بعض السجناء عند خروجهم تحت غطاء الفوضى. كانت جميع الأبواب غير مقفلة حتى بوابة السجن الرئيسية، فتأكد لنا إمكانية الخروج. عاد العديد منا إلى العنابر ليحملوا حاجياتهم ويهربوا صوب قلب العاصمة، وكنت أحدهم، عدتُ إلى فراشي وحاجياتي فجمعتها في كيس كبير، حملته على ظهري وخرجتُ من بوابة السجن أنوء بحملي وكأنني أحمل على ظهري كل ضحاياي، بهمومهم وأحلامهم..

كان الوقت فجرًا، ولم أكن أعرف أين أنا، ولا إلى أين يؤدي الشارع الأسفلتي الذي كنتُ أسير عليه.

قطعتُ مسافة كبيرة وسط فضاء موحش صاخب بنباح الكلاب، وكان هناك عدد لا بأس به من البشر الفارين من سجنهم والذين يشبهونني، فهم متعبون مثلي، ويحملون أكياس خيباتهم على ظهورهم، كنا نتشابه في مد خطواتنا التي بدأت سريعة ونحن

نخرج من السجن، فقد كان كل منا يتوقع سماع الصوت الآمر الذي يعيدنا إلى السجن، لكن الخطوات السريعة سرعان ما تباطأت نتيجة التعب.

بدأت الشمس ترتفع لتنير الدروب المغبرّة، حين وصلتُ أطراف حي سكني. هناك سألت أول شخص قابلته عن دكان أو مخبز، فأرشدني إلى شباك صغير، يعود إلى أحد البيوت، جعل صاحبه من إحدى الغرف دكانًا صغيرًا، جاعلاً من شباك الغرفة فتحة الاتصال بينه وبين الزبائن. ألقيت التحية الصباحية على الرجل وقلت له بأنني بحاجة إلى شيء أفطر به. فهِم مطلبي، وبعد قليل ناولني رغيفًا ساخنًا مطويًّا على قطع من الجبن، ثم ناولني كأس شاي ساخن. جلستُ عند الجدار بعد أن أعطيته المبلغ الذي طلبه، وتناولت فطوري، وفي تلك الأثناء فكَّرتُ بالكيس وثقله، وذلك العناء الذي سيسببه لي وأنا أقطع مسافة لا أعرف متى تنتهي مشيًا على الأقدام. سألت الرجل إن كان بالإمكان إيداع الكيس عنده كأمانة حتى أعثر على أهلي وأعود لأخذه. وافق الرجل وتمنى لي السلامة، فالوضع كان خطيرًا جدًّا، وأن كل شيء متوقع حدوثه.

عند الظهيرة وصلتُ قلب العاصمة، هناك شاهدتُ العديد من الناس يتراكضون باتجاهات مختلفة. البعض منهم يحمل أشياء، والبعض الآخر يدخل مسرعًا المحال والدوائر الرسمية ليخرج حاملاً شيئًا ما. عربات تدفع باليد، وأخرى تجرها الحمير، سيارات حمل صغيرة، كلها في حركة دائمة تتناول أي شيء يقع تحت يديها.

200

وهناك من تقاتلوا على غرض معين. فكرت حينها بالدخول مع الداخلين إلى المؤسسة الرسمية التي أقف جوارها، لأغتنم ما قد يفيدني، ولكنني عدلت عن تنفيذ الفكرة، بل استهجنتها، فأنا لست واحدًا من الرعاع أو غوغائيًّا.. أنا اللص السابق والقاتل المأجور، أبتْ نفسي أن أكونَ أحدهم، لدرجة أنني كنت مذهولًا لرؤية ذلك المشهد المخزي. توغلت إلى قلب العاصمة، لأقف على مشهدٍ مذهلٍ، حين شاهدت رجلًا يحمل صورة كبيرة للديكتاتور وقد خلع إحدى نعليه وصار يضرب الصورة بنعاله وهو يصيح: «هل تعرفون هذا؟.. هل تعرفون ماذا فعل هذا؟.. لقد دمر البلاد، قتل أبناءنا.. دمرنا.. دمر البلاد..». لحسن حظه أو حظي، كانت نعاله جلدية، وليست بلاستيكية، فلم أشعر لحظتها بالقرف، بل شعرت بالمتعة وأنا أتلمس ذهول الرجل وتشفيه بالديكتاتور. اقتربتُ منه وقبّلتُ جبينه، ثم قلت له: «إنكَ تحمل أشرف نعال رأيتها في حياتي، وتأكد من أن نعالك هذه ستدخل التاريخ، فنحن نعيش لحظة تاريخية مهمة في تاريخ البلاد..». صمتُّ قليلًا ثم قلتُ والرجل المذهول ينظر إليَّ: «إنها لحظة تاريخية خُطَّتْ بنعال..».

* * *

وجدتُ بيت الندائي خاويًا، فلا أحد هناك، ويبدو أن البيت قد تُرِكَ منذُ فترةٍ ليست بالقصيرة. صعدتُ إلى غرفتي حيث السطح، وكنتُ لا أمتلك المفتاح الخاص بالقفل المعلق على بابها، كونه قد

ضاع مني مع أشياء أخرى لحظة القبض عليَّ من قبل السيطرة العسكرية وإيداعي التوقيف. والحقيقة، حين وجدت الباب مقفلاً، قلتُ إن عدنان قد وفى بعهده، خصوصًا عندما كسرت القفل ووجدت كل شيء كما تركته.

افترشتُ الأرض ونمت. لا أدري كم استغرق نومي، ولكن الذي أعرفه هو أنني استيقظت على صوت إطلاقات نارية كثيفة، قريبة جدًّا؛ مما أثار نباح الكلاب ليستمر طويلاً.. كان الوقت ليلاً، أو ربما قريبًا من لحظات الفجر.

عدتُ غارقًا في النوم، حتى أيقظني الجوع. نزلتُ إلى باحة الدار باحثًا عن أي شيء أسدّ فيه رمقي، ولكن الغبار الكثيف كان في استقبالي. تيقنت حينها بأنني في بيت مهجور منذ زمن.

دخلت الحمام، ووجدت بقايا صابونة متحجرة، وضعتها داخل طاسة معدنية أعرفها جيدًا، وأنقعتها بقليل من الماء. خلَعت ملابسي وتحممت بمياه تاريخية لا أعرف زمن مكوثها في برميل الحمام البلاستيكي.. كانت حنفية الماء التي فتحتها إلى أقصاها تخرُّ خيطًا رفيعًا من ماءٍ مصفر اللون يقترب من لون وجه ضرغام صديقي اللدود.

ارتديتُ ملابسي وخرجتُ باحثًا عن شيء آكله، وحال خروجي من البيت قابلت رجلاً كان جارًا لنا أعرفه، ولكن عن بعد. سألته عن الأستاذ عدنان الندائي، فأخبرني بأنه ترك البيت منذ أن تزوج،

فقد أخذته زوجته إلى بيتها كونها تنتمي إلى عائلة تفتقر إلى وجود رجل يحميها في زمن نذل. أفرحني الخبر. أخيرًا وجَد معلمي وصديقي من يهتم به ويرعاه، ثم أخبرني الرجل أيضًا، بأن الندائي يأتي بين حين وآخر ليطمئن على بيته ويتفقّده، ويتأكد من أنه خالٍ من أي عائلة مشرَّدة قد تحتل البيت عنوة، ثم نصحني بألا أقطن وحدي في البيت المهجور؛ لأنني سأصبح عرضة لمطامع السرّاق، وعليَّ أن أجد مكانًا يكون فيه أكثر من شخص لنحمي بعضنا بعضًا عند تعرُّضنا لهجوم غوغائي، كما يحدث مرارًا وتكرارًا في أغلب مناطق العاصمة التي باتت منتهكة بغياب السلطة.

سألته إن كان يعرف عنوان الندائي الجديد، فنفى وقال بأنه لا يحتاج معرفة عنوانه بشيء. طلبتُ من الرجل مساعدتي في إيجاد قفل لباب الدار بدلًا من الذي كسرته. توجّه الرجل صوب داره، ليعود بعد دقائق حاملًا بيده قفلًا، شبك به السلسلة التي اعتادت على سجن الباب ربما لسنوات، هكذا خُيّلَ لي، فتلك كانت فكرتي عن الأقفال، السجن وليس شيئًا آخر. سلَّمني نسخة من المفتاح واحتفظ بالنسخة الأخرى.

وجدتُ رجلًا يفترش رصيف أحد الأزقة، يبيع سندويتشات البيض والطماطم والباذنجان المقلي. جلستُ إلى جانبه وطلبتُ منه إطعامي.. صرتُ أتناول السندويتش تلو الآخر. لاحظت أن ثمة انزعاجًا بدا واضحًا على ملامح الرجل. كان متخوفًا مني، فقد فكَّرَ بأنني ربما لا أمتلك المال، فطلب مني دفع ثمن الساندويتشات

الثلاثـة التـي أكلتهـا، ليعطينـي الرابـع، ابتسـمتُ لـه وأعطيتـهُ المبلـغ، فأطمـأنَّ لي بعـد أن لاحـظ رزمـة النقـود التـي أخرجتهـا مـن جيبـي. ابتسـم هـو الآخـر وقـال إن الزمـن «ابـن كلـب» جعلنـا نشـك بأطيـب النـاس، فقلـت لـه مضيفًـا أو مصححًـا: «بـل هـو أكثـر مـن ذلـك، فلـو كان ينتمـي إلى فصيلـة الـكلاب لتلمسـنا بـه بعـض وفـاء..». ضحـكَ الرجـل وراح يهـزّ رأسـه متأسـفًا.

سـألته إن كان يعـرف نُـزلًا يمكننـي اسـتئجار غرفـة فيـه، فصـاح مناديًـا عـلى شـاب اسـمه «غسـان»، الـذي سـأعرف فيهـا بعـد أن أغلـب مـن يعرفونـه يطلقـون عليـه «غسـان الخُنْثـى». حـين اقـترب غسـان، طلـب منـه الرجـل أن يوصلني إلى أم عامـر التـي تؤجـر غـرف بيتهـا إلى الغربـاء، أو العـزّاب كـما أوضـح مصححًـا عبارتـه. عرضـتُ عـلى غسـان تنـاول بعـض مـن الساندويتشـات عـلى حسـابي فرفـض متحججًـا بالشـبع، فاحترمتـه لنفسـه الأبيّـة.

اصطحبنـي غسـان لأقابـل أم عامـر التـي وجدتهـا سـليطة اللسـان بقلـب يكتنـز طيبـة لم ألمسـها عنـد أحـد غيرهـا مـن قبـل، وأول مـا وقـع نظرهـا عـليَّ قالـت: «مـا شـاء الله! شـباب وجمـال وطـول ورشـاقة! هـل تعلـم بأنـك جميـل جـدًّا يـا ابـن الكلـب..؟!» أطلقـتُ ضحكـة مجاملـة بوجههـا، وكانـت فاتحـة ودٍّ بيننـا. أخبرهـا غسـان برغبتـي في اسـتئجار غرفـة. قالـت وهـي لا تـزال تتمعَّـن في تفاصيـل جسـدي ووجهـي، بأننـي محظـوظ كونهـا تمتلـك غرفـة خاليـة غادرهـا سـاكنها الريفـي صبـاح اليـوم. اصطحبتنـي ثـم صعـدتْ أمامـي بـكل ثقلهـا وغنجهـا

إلى الطابق العلوي لتريني الغرفة، وما إن دخلنا وألقيتُ نظرة على الغرفة المتهالكة حتى وافقتُ على الفور، معلنًا بأنني سأدفع لها أجرة شهر كامل. كانت الغرفة أفضل بكثير من عنبر السجن؛ لذلك وجدتها مناسبة لي جدًّا.

أخبرتني أم عامر وبغمزة من عينها، بأن من يسكن في الغرفة التي على اليسار والأخرى التي على اليمين، فتاتان طيبتا القلب خلَقهما الله لتكونا في خدمة الطيبين من الرجال الشرفاء، ففهمت المغزى، وسلَّمتها أجرة الشهر. أخذت المبلغ وهي تنظر إليَّ، ثم دَسَّتْهُ بين ثدييها المكتنزين دون أن تعده.

أصابني الرعب وأنا أضطجع على سرير غرفتي الجديدة كي أختبره، فقد تذكَّرت بأن غرفتي في بيت الندائي غير مقفلة. نهضتُ مفزوعًا وخرجت متوجهًا إلى البيت. اشتريت وأنا في الطريق قفلًا جديدًا، وما إن وصلت إلى هناك حتى ثبَّتُّ القفل على باب الغرفة.

حال مغادرتي بيت الندائي، صرتُ أفكِّر بطريقة تمكّنني من العثور على أستاذ عدنان، فبالإضافة إلى شوقي ورغبتي الكبيرة في رؤيته، لأحكي له سنوات سجني الثلاث التي مرَّت وكأنها عشر سنوات من التعذيب والإذلال، فهو يمتلك أيضًا مبلغًا من المال كنتُ قد أودعتُه عنده، ومن المؤكد بأنني سأحتاجه، فمن يدري ما تخبِّئه لنا الأيام القادمة، والتي لا يمكن أن تكون أفضل مما نحن فيه من تعاسة وضبابية؟

لأسباب عديدة، فكرتُ في الذهاب إلى بيت هيام، كان شوقي لها السبب الأهم، والسبب الآخر يكمن في معرفتها السابقة بعدنان؛ لذا ربما كانت تعرف شيئًا عنه يُمكّنني من العثور عليه، ولكني أجَّلت تنفيذ الفكرة، بعد أن قررت زيارة عيادة الدكتور حمزة، علّني أجده ليُعينني في الحصول على عملٍ ما، أو ربما أعود إلى حراسة البناية والعناية بمرآب السيارات الخاص بها، فقد اشتقت إلى قيادة السيارات، أو ربما أتمكن من السكن في غرفتي السابقة.

حين وصلتُ البناية لم أتعرَّف على أي شخص قابلته، كما لم أجد اليافطة الخاصة بعيادة الدكتور حمزة، وحين سألت الرجل حارس البناية الذي أخذ وظيفتي في وقت لا أعلمه، أخبرني بأن الدكتور قد سافر إلى أوروبا منذ سنتين. شكرته وعدت خائبًا.

❋ ❋ ❋

في اليوم التالي استأجرت سيارة تاكسي، وذهبت إلى الرجل صاحب الدكان الصغير الذي أودعت عنده كيس السجن. وجدتُ باب الدكان الذي كان شباكًا في السابق مقفلاً. طرقتُ باب البيت، وبعد ثوانٍ معدودات خرج لي صبي جميل تَلَمستُ فيه صورتي وأنا في عمره، سألته عن صاحب الدكان فأخبرني بأن جده يرقد مريضًا في الدار. طلبتُ منه إخبار جده بأمري، وأنني أتيت بسيارة تاكسي لا تزال متوقفة بانتظاري حتى أسترد كيسي. دخل الصبي ثم عاد سريعًا ليخبرني بأن جده يريد رؤيتي. دخلتُ وراء الصبي حتى وصلت غرفة

صغيرة مفروشة بسجاد عتيق. شاهدت الرجل مضطجعًا على ظهره وسط الغرفة وتحته أفرشة بسيطة. ألقيتُ عليه التحية، ثم جلستُ إلى جواره مواسيًا له، طالبًا من العلي القدير أن يُشفيه بأسرع وقت. لعَن الرجل آلام المفاصل، ولعن أيضًا الحكومة الزائلة والاحتلال اللذين بسببهما غاب الدواء من المستشفيات والصيدليات، وصار يباع على الأرصفة بأثمان باهظة، ثم نادى على فتاة اسمها «فاتن» طالبًا منها إعداد الشاي. أخبرت الرجل بأن لا وقت لدي، وأن سائق التاكسي ينتظرني، فطلب مني صرف السائق؛ لأنه يريد محادثتي بموضوع مهم. خرجتُ للسائق وأعطيته أجرته وثمن الانتظار وعدتُ إلى الرجل جالسًا قبالته، بعد أن وجدته وقد اعتدل جالسًا على فراشه، عندها صار الرجل شاكيًا باكيًا لاعنًا الزمن والديكتاتور الذي أخذ ثلاثة من أبنائه، اثنين أكلتهما الحروب، والثالث، وهو الأصغر، ضاع في السجون ولم يجد له أثرًا. أخبرني أنه في آخر زيارة للسجن لم يجد ولده «هاشم» هناك، حيث أخبروه بأن ولده قد نُقِلَ إلى سجن آخر لا أحد يعرفه، حتى إن الضابط المسؤول عن السجن قال بأنه لا يعرف إلى أي سجن تم نقل ولده، ومنذ تلك اللحظة اختفى هاشم وضاعت أخباره، ثم نظر في عينيَّ نظرة منكسرة وسألني إن كنت أعرفه أو قابلته في السجن، فسألته:

«كيف عرفت بأنني كنت سجينًا؟»

فقال:

«الكيس قال لي ذلك، فهو يخص السجون وأنا أعرفه جيدًا..».

ثـم قـال ليطمئنني: «اطمئـن، لم أفتـح الكيـس لأطلـع عـلى محتوياتـه، ولكنـي أعـرف ذلـك النـوع مـن الأكيـاس جيـدًا..».

فقلـت لـه بأنني لا أعـرف شـخصًا بهـذا الاسـم، وطلبـتُ منـه معتمـدًا عـلى ذاكـرتي التـي لم تخنـي يومًـا، أن يذكـر لي اسـمه الكامـل كـي أبحـث عنـه، فلـدي معـارف كثر يعملـون في القضـاء ومصلحـة السـجون، فذكـر لي الاسـم وردده عـلى مسـامعي ثـلاث مـرات.

في تلـك الأثنـاء دخلـت شـابة ثلاثينيـة تحمـل صينيـة الشـاي، كانـت جميلـة، وبقـوام رشـيق، مكتنـزة النهديـن، واسـعة العينـين بحلكتهـا، وعـلى الفـور قـال الرجـل:

«هـذه فاتـن، زوجـة هاشـم الـذي لم يـدُم زواجـه أكثـر مـن شـهرين حتـى أكلـه السـجن. بنـت حـلال أصيلـة، لم تتركنـي ولا للحظـة رغـم إصرار أهلهـا عـلى عودتهـا والعيـش بينهـم بعـد أن اختفـت أخبـار زوجهـا، ولكنهـا أبـتْ لتبقـى إلى جانبـي. هـي بنتـي التـي لم أنجـب، فلـم يرزقنـي الله ببنـت. ثلاثـة أولاد فقـط أكلهـم الديكتاتـور..».

سألته والفضول يعتريني: «وهل الصبي ابنها؟»

أجابـت الفتـاة بابتسـامة سـاحرة ارتسـمت عـلى وجههـا: «لا، إنـه ابـن صـلاح -رحمـه الله- الـذي قُتِـلَ في الحـرب.. أنـا ليس لي أطفـال..».

قاطعهـا الرجـل مكمـلاً بقيـة الحكايـة: «هـذا الصبـي لم يـرَ والـده، هـو يتيـم، ابـن العزيـز صـلاح، وحـين صـار عمـره سـنتين رمتْـهُ أمـه علينـا وغادرتنـا إلى أهلهـا، ولم نرهـا منـذ ذلـك الحـين..»، ثـم تنهـد

قليلاً وقال: «الحمد لله الذي عوّضني به وبهذه المرأة الصالحة عن أولادي..».

سألتُ الحاج عبد الله، الذي عرفتُ اسمه حين ردد على مسامعي الاسم الكامل لولده هاشم، عن سبب دخول ولده السجن، فأخبرني بأن تهمة قد أُلصِقَتْ به. كان في المقهى حين دخلها رجل مقرَّب من السلطة، وما إن صار قريبًا من أحد الأشخاص الجالسين حتى أخرج مسدسه وأفرغ رصاصتين في رأس الرجل وغادر المكان، وعلى إثر ذلك حاول هاشم الشهم مساعدة القتيل، فهمَّ إليه ولم يدرك إصابته البليغة حينها. تلطَّخت يداه وملابسه بدماء القتيل أثناء محاولته مع صديقين له حمْلَ القتيل حيث الشارع العام ليستقلوا سيارة ويوصلوه إلى المستشفى. وهناك كانت الشرطة حاضرةً لأخذ إفادة الشهود، ولكن وبعد مضي شهرين، جاءت الشرطة وقبضتْ على هاشم بتهمة قتل الرجل. تصوَّر بأن أوراق الجريمة كلها تغيّرت، حتى الشهود! وألبسوا التهمة إلى ولدي ليبعدوا الرجل المقرَّب من السلطة عن جريمته..».

قلتُ مع نفسي: «إذن فقد تم بيع هاشم إلى إحدى مستشفيات «التفصيخ»، أو إلى الرجل المقرَّب من السلطة؛ ليخفي ملف جريمته من سجلات القضاء إلى الأبد..!»

أتت فاتن بالكيس خاصتي. شكرتها، ودسست مبلغًا من المال بجيب الحاج عبد الله، فرفض بشدة، ولكني أصررتُ على ذلك، وذكَّرته بأنه اتفاق أبرمناه بيننا، ثم أضفت بأنه إذا يريدني

أن أزوره ثانيــة علَّنــي أســمع أي خــبر عــن ولــده، فليقبــل بذلــك المبلــغ البســيط. شــكرني ودعــا لي بالتوفيــق، وأن يبعــد الله عنــي أولاد الحــرام.

❋ ❋ ❋

أودعــتُ الكيــس غرفتــي، وخرجــتُ عازمًــا زيــارة بيــت حــاج نزيــه، علَّنــي أجــد «هيــام» هنــاك، ربــما كانــت تعــرف أي شيء عــن الأســتاذ عدنــان، ومــا إن هبطــت السُّــلَّم حتــى ســمعت صوتًــا أنثويًّــا ينادينــي باســمي. لم يكــن صــوت أم عامــر. التفــتُّ إلى الــوراء ورفعــتُ نظــري عاليًــا، لأشــاهد امــرأة في منتصــف الثلاثينيــات تقــف أعــلى السـلَّم، ابتســمتْ وهــي تســألني إن كنــت أنــا مرهــون أم أنهــا متوهمــة. ومــا إن وافقتهــا حدســها حتــى هبطــتْ درجــات السُّــلَّم لتقــف إلى جانبــي وتحتضننــي بقــوة، وهــي تــردد امتنانهــا لي لموقــف لم تنســه أبــدًا. حــين ابتعــدتْ بجســدها عنــي، نظــرتُ في وجههــا وتذكرتهــا جيــدًا، لكنــي رغــم ذلــك ســألتها عــن مصــدر معرفتهــا بي، منســاقًا وراء عــادتي وأسـلوبي الــذي أتبعــه دائــماً في مثــل تلــك المواقــف، حيــث أجعــل مــن الشــخص المقابــل متوســلاً وهــو يحــاول إيقــاظ ذاكــرتي. أخبرتنــي بأنهــا «كوثــر» التــي كانــت عشــيقة ضابــط الأمــن عامــر الشــاهر.

أتذكرهــا جيــدًا، وكيــف كانــت تشــع حيويــة وجمــالًا. لقــد تغــيّرت ملامحهــا كثــيرًا، حيــث غــزا الشــحوب وجههــا لدرجــة جعلتهــا تبــدو أكــبر مــن عمرهــا بكثــير.

تذكـرتُ تلـك الليلـة التـي قابلـتُ فيهـا كوثـر حـين كنـتُ أعمـلَ حارسًـا. سـمعت عنـد السـاعة الثانيـة ليـلاً جلبـة في الطابـق الثالـث، هرعـتُ إلى هنـاك لأجـد فتـاة في بدايـة العشرينيـات مـن عمرهـا عاريـة تمامًـا، متكـورة جنب بـاب شـقة عامـر الشـاهر، وكان البـاب موصـدًا. كانـت الفتـاة تنتحـب وتئـن وكأنهـا ذئبـة جريحـة تشـارف عـلى المـوت. خلعـتُ سـترتي وغطيتهـا، ثـم اصطحبتهـا إلى غرفتـي. طرحتهـا عـلى السريـر، وغطيتهـا بدثـاري. كانـت آثـار الكدمـات منتشرة على جسـدها، ممـا يشـير إلى أنهـا قـد تعرضـت إلى ضرب بشـع وبقسـوة مفرطـة. حاولـتُ مسـح بعـض الدمـاء التـي سـالت بشـكل بسـيط مـن بعـض أجـزاء جسـدها، خصوصًـا وجههـا، مسـتخدمًا القطـن الطبـي وبعـض المطهـرات التـي عرفتهـا مـن خـلال عمـلي في عيـادة الدكتـور حمـزة، ثـم طلبـتُ منهـا محاولـة الخلـود إلى النـوم حتـى الصبـاح، وبالفعـل نامـت الفتـاة بعمـق ولسـاعات طـوال، ولكنهـا كانـت تطلـق أنينًـا موجعًـا بـين الحـين والآخـر.

في نهـار اليـوم التـالي، خـرَج ضابـط الأمـن عامـر الشـاهر مـن شـقته، ليقابلنـي عنـد بوابـة البنايـة. رمَـى بوجهـي كيسًـا بلاسـتيكيًا، ثـم مـدَّ لي يـده طالبًـا مفتـاح سـيارته، وبعـد أن تسـلم المفتـاح وخطـا خطوتـين ليخـرج مـن البوابـة، التفـتَ إليَّ وقـال آمـرًا:

«هـذه الزبالـة التـي اسـمها «كوثـر» ممنوع عليهـا الدخـول إلى هـذه البناية مـرة أخـرى، وإن أتـتْ وسـألتْ عنـي، فاعطهـا هـذا الكيـس، وأخبرهـا بقـراري..».

أشرتُ لـه بـرأسي علامـة عـلى الطاعـة دون أن أنبس بكلمـة، وحـين تأكـدتُ مـن خروجـه بسـيارته مـن المـرآب، حملـت الكيـس وصعـدت إلى غرفتـي. كانـت السـاعة قـد تجـاوزت الثانيـة بعـد الظهـر، وكوثـر لا تـزال نائمـة. حاولـتُ إصـدار بعـض الأصـوات الخفيفـة لأتأكـد مـن احتفاظهـا بالوعـي، فتحركـتْ بجسـدها قليـلًا، لكـن سـلطان نومهـا أبـى مفارقتهـا.

فتحـتُ الكيـس البلاسـتيكي لأرى محتوياتـه. كانـت أربـع قطـع ملابـس، داخليـة وخارجيـة، وحـذاءً، ومبلغًـا صغـيرًا مـن المـال، وعلبـة سـجائر، وقدّاحـة. أعـدتُ الأشـياء إلى الكيـس، ثـم خرجـت مـن الغرفـة لأجلـب للفتـاة مـا تأكلـه، وحـين عـدتُ وجدتهـا جالسـة تنتحـب. احتضنتهـا مخففًـا عليهـا أوجاعهـا، ثـم طلبـتُ منهـا أن تغسـل وجههـا، بعـد أن ترتـدي ملابسـها، لأنني أحضـرت لهـا مـا تأكلـه، ثـم هَممـتُ لإعـداد الشـاي.

احتضنتنـي وقبلتنـي؛ لأنـني سـعيت إلى جلـب ملابسـها مـن الوحـش الـكاسر، عـلى حـد تعبيرهـا، ولم أخبرهـا بـأن «عامـر» هـو الـذي رمـى بوجهـي كيـس ملابسـها. راحـت كوثـر حينهـا تقـصّ عـليَّ الحـدث وهـي تطلـق أناتهـا بـين حـين وآخـر، متوجعـةً مـن عطـب فكيهـا. قالـت بأنهـا كانـت عشـيقته لفـترة عـشرة أشـهر، وذلـك كنـت أعرفـه لأنهـا كانـت تـأتي إلى شـقته كل ليلـة خميـس تقريبًـا، باسـتثناء بعـض الليـالي. وأخبرتنـي بأنهـا قـد حمَلـت منـه، فطلَـب منهـا إسـقاط الجنـين. حاولـتْ بـكلِّ الطـرق ثنيـه عـن قـراره، ولكنهـا لم تفلـح. بعـد

212

ذلـك أخذهـا إلى طبيـب يعرفـه وأجـرى لهـا عمليـة الإجهـاض. بعـد مـرور أسـبوع عـلى إجـراء العمليـة، وتأكَّـد الشـاهر مـن نجاحهـا، اصطحبهـا إلى شـقته، وحـاول قتلهـا ضربًـا بعـد أن عرّاهـا مـن جميـع ملابسـها. كان سـكرانَ جـدًّا، وحـين أخـذه التعب مـن جـراء الـضرب، سـحَلها مـن شـعرها ليرميهـا خـارج الشـقة ويوصـد البـاب، لأكـون أنـا منقذهـا وسـاترها، وصاحـب الفضـل الـذي لـن تنسـاه أبـدًا. ذلـك مـا قالتـه وهـي تمضـغ الأكل بصعوبـة جـراء تـورم وجههـا وتخلخـل فكيهـا.

طلبـتُ منهـا البقـاء في الغرفـة حتـى تُشـفى، فوافقـت، ومـرة أخـرى راحـت تحتضنني شـاكرة.

أربعـة أيـام مكثـتْ فيهـا كوثـر بغرفتـي ولم تبارحهـا. كانـت تمنحنـي الحـبّ، وكنـتُ أمنحهـا العطـف والـدفء، خرجـتْ في اليـوم الرابـع شـبه معافـاة ولم أرهـا بعـد ذلـك، إلا ونحـن نحتضـن بعضنـا بعضًـا واقفـين عـلى درجـات السـلَّم. تأسـفتُ لخفـوت جـذوة الشـباب داخـل روحهـا، وعرفـتُ بأنهـا منـذ سـنوات، ومنـذ أن هربـتْ مـن أهلهـا بفعـل انتشـار فضيحتهـا، وهـي تسـكن إحـدى غـرف بيـت أم عامـر، لتسـتقبل الرجـال تباعًـا، مؤمِّنـةً بذلـك لقمـة عيشـها. طلبـتُ منهـا أن تؤجـل حديثهـا حتـى المسـاء، واعـدًا إياهـا بأمسـية تمنحنـا فرصـة أكـبر للتحـدث طويـلًا. ودّعتهـا، وخرجـتُ إلى الشـارع طلبًـا لسـيارة أجـرة توصلنـي إلى بيـت هيـام.

❀ ❀ ❀

213

طرقتُ الباب، وانتظرتُ قليلًا، ليمثل أمامي وبشكل غير متوقع، أستاذي عدنان الندائي. وقفَ ساهمًا محدقًا إلى وجهي، مسيطرًا عليه سكون تام. كان يقف ساكنًا كعود بخور، وأحاسيسه تتبخر أمامي كخيط دخان زكي الرائحة باحتراقٍ لذيذ، ويبدو أنني كنت كذلك، فقد مضتْ عدة ثوانٍ وأنا أقف أمامه متسمرًا، حتى دفعتني شحنة شجاعة لأقترب منه محتضنًا. احتضنني وسمعتُ نشيجه، حتى خرجت الكلمات من بين شفتيه متعثرة ترطبها الدموع: «كنت أعرف بأنني سألتقيك يومًا ما، وكم كنت خائفًا من لحظة اللقاء! أرجو أن تسامحني أيها الأخ والصديق الحبيب..!» ابتعدتُ بوجهي عن وجهه كي أراه جيدًا، ثم ابتسمتُ له سائلًا: «هل تزوجتَ هيام؟»

هز رأسه مؤكدًا ما توقعته، فاحتضنته مرة أخرى وقلتُ هامسًا في أذنه: «مبارك لكَ ولها، إنه أسعد خبر أسمعه منذ خروجي من السجن..!»

دخل عدنان فرحًا رغم ارتباكه الواضح من شدة المفاجأة، مناديًا على هيام: «هيام، احزري من الذي يزورنا الآن؟»

جاء صوت هيام التي اشتقتُ إليها كثيرًا، والتي صارت محرّمة عليَّ منذ دقائق. سمعتُ صوتها الموسيقي منبثقًا من داخل إحدى الغرف وهي تسأل بلهفة وتلعثم واضح: «هل جاءت سهام؟.. هل عادت إلينا أخيرًا؟..» حين سمعتُ كلماتها شعرتُ بسيوف الذُّلّ تنهشني، وحين وقفتْ عند باب الغرفة ناظرةً صوبي، راحت توزع

نظراتها المذهولة بيني وبين زوجها وكأنها تسألنا نحن الاثنين عن حركتها القادمة، وماذا عليها فعله؟ اقتربتُ منها وطبعتُ قبلة على رأسها وكأنني أعتذر لها كوني ارتكبت جريمة أوصلت شقيقتها إلى مستشفى المتاجرة بالأعضاء البشرية.. باركتُ لها زواجها، وقلتُ بأنها أصبحت أختًا لي منذ تلك اللحظة. احتضنتني باكية، ثم قالت كلمة لم أفهم القصد من ورائها: «أفضالك علينا لا يمكن ردها! أنت من أنقذنا من الموت جوعًا..!» وعبارات أخرى كانت غريبة على مسامعي.

حين جلسنا في الصالة، وقد تغيرتْ هيئة البيت بألوانه وأثاثه بشكل لافت بالمقارنة بما كان عليه من قبل، فكل شيء جديد ونظيف، وطلاء الجدران يظهر وكأنه قد طُلي يوم أمس. كانت هناك لمسة رفاهية في البيت. سألت عن «وئام» فأخبروني بأنها تزوجت ولها ولد، وهي الآن حامل للمرة الثانية، وتسكن مع زوجها في إحدى المحافظات، ثم راح عدنان يسألني عن أحوالي، وكيف قضيت سنوات السجن، ومتى خرجت، وأسئلة كثيرة كنت أجيب عليها باقتضاب. كانت هيام تسمع بعينيها المغرورقتين بالدموع، وكنت أتحدث مجيبًا على أسئلة عدنان، مبتسماً ناظرًا إليها بعطف كبير، ثم سألتهما عن قصة زواجهما، فأجاب عدنان موضحًا إن القصة بدأت بعد سفر الدكتور حمزة خارج البلاد، وبقاء هيام دون عمل، فقررنا الزواج لأعيش معها بعد زواج أختها الصغرى، وأكون رجل البيت والمسؤول عنها.

بهَتَ الندائي وارتجفتْ شفتاه، حين سألته عن السبب الذي يقف وراء عدم زيارته لي طوال سنوات السجن، باستثناء الزيارة اليتيمة التي أهداني فيها الكتاب عن الفيلسوف الدنماركي، وقبل أن يجيب نهضتْ هيام مرتبكةً، وخرجتْ من الصالة متحججة بإعداد الشاي، قال عدنان وبشكلٍ صريحٍ: «كنا خائفين منكَ، كنا نخشى غضَبكَ علينا حين تعرف بزواجنا؛ لأننا كنا نشعر بخيانتنا لكَ؛ نظرًا لعمق العلاقة التي كانت تربطكَ بهيام..».

أطلقتُ ضحكة عميقة وكانت صادقة جدًّا، وقلتُ صادقًا أيضًا: «وما عمق العلاقة التي تربطني بكَ؟ ألا تعتقد بأنها أكبر، بل وأعظم في عمقها من أي علاقة أخرى؟.. لو فكرتَ بذلك لكنتَ واقعيًّا أكثر.. يا إلهي، كم كنت سأكون سعيدًا لو زرتني في السجن وأخبرتني بهذا الخبر الرائع! كنت ستخفف عني وحشة السجن وقساوته..» ثم استدركت متذكِّرًا شيئًا مهمًّا، وقلت سائلًا:

«لقد سمعت بعض الكلمات من هيام لم أدرك معناها، فهل لك أن توضّح لي ما كانت تقصده حين قالت بأنني صاحب فضل عليكما، ولولاي لهلكتما من الجوع؟»

ابتسم عدنان وأشار بقوله إلى المال الذي تركتهُ معه، كان مبلغًا محترمًا، وظل محتفظًا به حتى بعد زواجه من هيام، ولكن حين عرفت هيام بالمبلغ أصرتْ على تشغيله واستثماره، وكان عدنان يرفض الفكرة خوفًا من الخسارة وخيانة الأمانة، حتى رضخ وعمل مشروعًا تجاريًّا مستخدمًا جزءًا لا بأس به من المبلغ كرأس

216

مـال للمـشروع، وخـلال سـنتين نجـح المـشروع بشـكل لافـت، واسـتردّ المبلـغ الأصـلي، وصـارَ يتاجـر بالأربـاح، وهـو يحتفـظ لي بقسـم مـن الأربـاح التـي أسـتحقها عـلى حـدِّ قولـه، كونـه يحسـبني شريـكًا لـه.

شـكرتُه وأثنيـت عـلى الفكـرة، وعـلى ذكاء هيـام وحرصهـا عـلى بيتهـا ومسـتقبل زوجهـا، ثـم قلـت ذلـك مـرة ثانيـة حـين حـضرتْ هيـام مبتسـمةً، حاملـة طبـق الفواكـه، ويبـدو أنهـا كانـت تتنصّـت طـوال الوقـت عـلى أحاديثنـا حتـى اطمـأن قلبهـا وتبـدد خوفهـا.

بعـد أن تحدثنـا كثـيرًا، وفرغنـا مـن شرب الشـاي للمـرة الثانيـة، وقبـل إعـلاني انتهـاء الزيـارة، طلبـتُ مـن عدنـان ورقـة وقلـماً، فلبَّـتْ هيـام طلبـي، ورحـتُ أدون عليهـا اسـم العـم عـلي وعنـوان بيتـه، ثـم طلبـتُ منـه راجيًـا زيـارة الشـخص صاحـب الاسـم، عسـى أن يجـده في مسـكنه الـذي أعـرف، وأن يبلغـه تحيـاتي ورغبتـي في زيارتـه؛ لأن لـه دينًـا كبـيرًا في رقبتـي.

لقـد كنـت متوجسًـا مـن شيء لا أعرفـه حـين فكَّـرت بالذهـاب إلى بيـت العـم عـلي؛ لـذا طلبـت مـن الندائـي إسـدائي تلـك الخدمـة.

قبـل أن أخـرج وضـع الأسـتاذ عدنـان أمامي حيـث الطاولـة الصغيرة كيسًـا بلاسـتيكيًّا أسـود اللـون ملفوفًـا عـلى شيء لم أتبينـه، وقـال بأنـه جـزء مـن مسـتحقاتي، وحـين سـألته عـن محتـوى الكيـس، أخـبرني بأنـه جـزء مـن الأربـاح، وليـس لـه علاقـة بالمبلـغ الأصـلي الـذي أودعتـه عنـده قبـل دخـولي السـجن، ثـم أشـارت هيـام إلى أنهـا قـد أضافـت

إلى المبلغ الأصلي ثمن القطعتين الذهبيتين اللتين أعطيتهما لها قبل دخولي السجن.. رددتُ الكيس إليه طالبًا الاحتفاظ به إلى أن تحين حاجتي إليه، ففعل.

أصرَّ الندائي على أن يوصلني بسيارته إلى حيث أريد. وبالفعل أوصلني بعد أن ودّعت هيام الجميلة إلى بيت أم عامر دون أن يترجل من سيارته، وذلك نزولًا عند رغبتي.

❋ ❋ ❋

كنت متشوقًا للقاء كوثر، فهي الخارطة التي ستدلني على بيت عامر الشاهر أو أي معلومة تدلني عليه، وما إن تجاوزتُ بوابة البيت حتى وجدتها بصحبة أم عامر وكأنهنَّ ينتظرن وصولي.

دخلنا نحن الثلاثة غرفة أم عامر. جلستُ وكوثر متقابلين، كانت شهية رغم شحوبها، وكانت نظراتها تشعرني بأنني فارسها تلك الليلة. كنتُ أسمع صهيل شهوتها متلذذًا، رغم أن صهيل أم عامر كان الأعلى نداءً.

سكبتْ أم عامر ثلاث كؤوس ويسكي وقدّمتها لنا ماسكة القدح الثالث بأصابع كفها اليسرى، ونادت بصحتنا بمناسبة اللقاء الجميل، ويبدو أن كوثر قد حدثتها عن تفاصيل لقائنا الأول. أفرغتُ كأسي دفعة واحدة، وارتشفتْ كوثر، وكذلك أم عامر، قليلًا من كأسيهما، كعادة النساء المتأنّيات في الشرب.

كنت متشوقًا إلى الاختلاء بكوثر، وقفتُ شاكرًا أم عامر على دعوتها السريعة، مُفصحًا عن رغبتي في اصطحاب كوثر إلى غرفتي، فأشارت أم عامر إلى كوثر بموافقتها. وضعتُ ساعدي الأيسر على كتف كوثر وصعدنا السلَّم بعد أن ودعنا أم عامر متمنين لها ليلة سعيدة، فقالت بتذمر واضح: «ليلة بدون رجل يطقطق عظامي، ليلة زبالة بكل المقاييس».. ضحكنا لكلماتها وارتقينا السلم.

راحت كوثر تحدثني عن بداية علاقتها بعامر الشاهر حين جلسنا متقابلين تتوسطنا طاولة صغيرة عامرة بقنية ويسكي وقدحين، وصحن من المكسرات أصرَّت أم عامر أن نأخذه معنا، وعرفتُ أنها قد وقعت تحت سيطرته حين كانت في سنتها الأخيرة من دراسة الأدب الألماني في الجامعة. كان هو ضابط أمن الجامعة، وكانت كوثر واحدة من الطالبات المشكوك بولائهنَّ للسلطة، كونها تنتمي إلى عائلة معارضة لسلطة الديكتاتور وحزبه، وجراء المقابلات المتعددة بينها وبين ضابط الأمن، استغلتْ كوثر أنوثتها وما تمتلكه من سيطرة أنثوية على رجلٍ «متخلِّف» كي تخرج من دهليز الاتهامات. حدث اللقاء الأول بينها وبين عامر الشاهر في شقة الطابق الثالث من العمارة التي كنت أحرسها. نالت كوثر على إثرها بعضًا مما خططتْ له، حيث قام الشاهر بتمزيق ملفها عند الأمن العام مقابل افتضاضه غشاء بكارتها، وصارت عشيقته المفضلة، حتى إنه، في بعض الأوقات التي تكون فيها زوجته في زيارة لأهلها، كان يصطحب كوثر إلى بيته ليقضي معها -وعلى

فـراش الزوجيـة– ليلتـه. وهنـا حاولـتُ اسـتغلال الموقـف كـي تدلَّنـي عـلى عنـوان بيـت الشـاهر، فأمْلَـت عـليَّ العنـوان بتلقائيـة وبـراءة.

اسـتمرت العلاقـة بينهـما، حتـى تخرجـتْ كوثـر في الجامعـة، وكان الشـاهر قـد وعدهـا بتأمـين وظيفـة لهـا، ربـما تكـون ضمـن السـلك الدبلومـاسي، ففـي تلـك الفـترة أصبحـت الوظائـف صعبـة المنـال، حيـث انتـشرت البطالـة بـين خريجـي الجامعـات بسـبب الحصـار المفـروض عـلى البلـد، ولكـن، وبعـد فـترة قصـيرة مـن تخرجهـا مـن الجامعـة، حـدَث مـا يؤسـف لـه، حـين أخبرتـه بحمْلهـا. جـنَّ جنـون الشـاهر وصـار يتوعدهـا بالقتـل إن لم تُجـرِ عمليـة الإجهـاض، وحصَـل عـلى مـراده بعـد أيـام قليلـة، ثـم قـام بضربهـا وطردهـا مـن شـقته بعـد أن تأكـد مـن خلـوّ رحمهـا مـن الجنـين.

أخـذتُ رأسـها إلى صـدري وطلبـتُ منهـا الكـف عـن الـكلام المـرّ، بـل طلبـت منهـا نسـيان مـا حـدث، وأن تبـدأ حيـاة جديـدة. ضحكـتْ بتهكّـم وهـي تقـول:

«أي حياة جديدة والبلد برمته ينزلق إلى الهاوية بأقصى سرعته؟»

حاولـتُ تغيـير مزاجهـا نحـو المـرح، ورحـتُ أطلـق بعـض الكلـمات باللغـة الألمانيـة التـي تعلَّمتُهـا في السـجن، قلـتُ لهـا:

«ich liebe dich

Du bist meine Liebe

Ich sehne mich nach dir

أنا أحبكِ،

أنتِ حبيبتي،

أنا مشتاق إليكِ».

تفاجـأتْ. شـهقتْ واتسـعت عيناهـا، ووضعـت أصابـع كفّهـا اليمنى عـلى فمهـا، وكأننـي قلـتُ شـيئًا مذهـلاً، فسـألتني عـن مصـدر تعلمـي لتلـك الكلـمات، فأخبرتهـا كاذبًـا بأنهـا واحـدة مـن فضائـل الخدمـة العسـكرية المريـرة. ضحكـتْ وأخبرتنـي بأننـي أنطـق الكلـمات بسلاسـة ودون أخطـاء، فضحكـتُ مفتخـرًا بقولهـا وقلـتُ بأنهـا مجـرد كلـمات أو جمـل قصـيرة، فسـألتني بالألمانيـة:

«هل حقًّا تحبني؟»

أجبتها:

«أحبكِ لأنكِ تشبهينني، في المأساة ومرارة الحياة!»

ضاجعتهـا بشـغف وكأني أشـكرها عـلى صنيعهـا؛ كونهـا أهـدَتْ إليَّ عنـوان بيـت الرجـل الـذي أقسـمت عـلى قتلـه.

خرجـتْ كوثـر مـن غرفتـي واعـدة بأنهـا سـتعلّمني اللغـة الألمانيـة، وأنهـا سـتعطيني دروسًـا بشـكل يومـي، وأضافـتْ مشـدِّدة: «ولكـن انتبـه، ليـس مجانًـا!».

اسـتلقيتُ عـلى سريـري طلبًـا للنـوم، ورحـتُ أسـتحضر الكلـمات والجمـل الألمانيـة التـي تعلمتهـا في السـجن، ولكـن سرعـان مـا قفـزتْ صـورة فاتـن إلى مخيلتـي. تجسـدتْ أمامـي امـرأة شـهية.. فاتـن التـي

رأيتها لمرة واحدة فقط، منذ ساعات مضت عند بيت الرجل العجوز الذي أودعت عنده كيس السجن.

بدا الأمر لي غريبًا بعض الشيء، ورحت أتساءل عن سبب استحضار مخيلتي لتلك المرأة بالذات؟ وصرت أستعيد مشهد لقائي بها، بكل دقائقه، فوجدتُ فاتن امرأة ذكية، لمّاحة، جميلة، شهية، وكانت كلماتها تفصح عن قارئ جيد. كانت تتحدث بلغة نظيفة تقترب من الفصحى، لغة لا يتكلمها إلا من عرف القراءة وشغف بالأدب. بقيتُ أحلّل شخصيتها، حتى غفوت.

222

12

صحوتُ مبكرًا كعادتي، وقررتُ الذهاب إلى غرفتي في بيت الندائي، لأودع كيس السجن هناك، وأُلحق رموز وأشياء القتلى إلى أغراض من سبقوهم قبل دخولي السجن للمرة الثانية، وهناك جلستُ على الأرض وأفرغتُ الكيسين، ورحت أتذكر الأشخاص بدلالة أشيائهم، بدءًا من مفاتيح مانع، ونعاله البلاستيكية، وحقيبة نقوده التي لم تعد ذات قيمة تُذكر، وصولًا إلى «فازة» الضابط حاتم، ثم إسوارة وخاتم زوجة الدكتور كريم، وساعة الرجل العجوز الذي مات خوفًا، ومن ثم مصاغ سهام الجميلة، وانتهاءً برمزِ آخر ضحية خدَّرتها وبعثتها إلى مستشفى «التفصيخ».

كان هناك كيس ثالث كنت أجمع فيه حاجيات الضحايا ممن لا أعرف لهم اسمًا أو عنوانًا. كان عددهم يقترب من الثلاثين، ثلاثين روحًا بشرية صدَّرتها إلى «التفصيخ»، ومن ثم الموت، خلال السنوات الخمس التي قضيتها حارسًا للبناية وخادمًا للدكتور حمزة. كانت عملية مسلّية جدًّا وأنا أتذكر وجوه الضحايا. تذكرتُ سهام الجميلة التي قتلتها دون دراية مني حين سلَّمتها إلى مشرط الدكتور كريم.

223

شـددتُ الأكيـاس الثلاثـة بعـد أن أعـدتُ رمـوز الضحايـا داخلهـا، ودسسـتها تحـت السرير، ثـم خرجـتُ تحـت تأثـير جـوع مؤثـر. في تلـكَ اللحظـة، تذكَّـرتُ الرجـل الـذي منحنـي الطعـام دون مقابـل حـين خرجـتُ مـن سـجن الأحـداث وأنـا ابـن السادسـة عـشرة، عندهـا قـررتُ زيارتـه وتنـاول وجبـة الـرز مـع الفاصوليـا مـن بـين يديـه، مـع رغبـة عارمـة كانـت تتلبسـني في معرفـة مـا إذا كان سـيتذكرني الرجـل أم لا. لم أجـد الرجـل في مكانـه السـابق، وحـين سـألتُ عنـه، أخـبروني بأنـه تحـوَّلَ إلى بدايـة الشـارع المجـاور حيـث محـلات بيـع الألبسـة المسـتعملة.

وجدتـهُ هنـاك واقفًـا أمـام عربتـه التـي يتشـكَّل سـطحها مـن ثقبـين كبيريـن يرتكـز داخلهـما قِـدرا الـرز وحسـاء الفاصوليـا. كان الرجـل منشـغلاً بطلبـات الزبائـن، والظاهـر أنـه لم يكـن معتـادًا عـلى النظـر في وجـوه زبائنـه، كان يعرفهـم عـن طريـق أصواتهـم. طلبـتُ منـه طبـق الوجبـة السـاخنة بعـد أن ناولتـه ثمنهـا، ولكـن، لا أدري لمـاذا نظـر بوجهـي ثـم ابتسـم لي وكأننـي أحـد زبائنـه الدائمـين، ربـما كان صـوتي غريبًـا عـلى مسـامعه. تناولـتُ الطبـق ورحـتُ ألتهـم منـه ببـطء شـديد، وبـين لقمـة وأخـرى كنـتُ أختلـس النظـر صـوب الرجـل.. كان هـو الآخـر ينظـر إليَّ بـين لحظـة وأخـرى، وحـين التقـت نظراتنـا، سـألني: «عمـي! أعتقـد بأننـي أعرفـكَ.. أليـس كذلـك؟» فقلـتُ لـه مبتسـماً: «نعـم عمـي، أنـتَ تعرفنـي، فأنـت صاحـب فضـل عـليَّ، وفضلـكَ دَيـنٌ برقبتـي ولـن أنسـاه مـا حييـت..»، ثـم اسـتدركتُ خائفًـا مـن الإسـهاب وسـيطرة العواطـف عـلى روحـي التـي أحبَّـت ذلـك الرجـل فقلـت: «ولكـن، دعنـا نتحـدث في وقـتٍ آخـر؛ لأننـي أعتقـد بـأن الوقـت

224

غير مناسب الآن». هزَّ الرجل رأسه موافقًا. ناولته صحني الفارغ وودعته بحميمية صادقة.

قررتُ الذهاب إلى شارع المكتبات بعد تناول وجبة طعامي وحديثي مع الرجل الطيب صاحب العربة.

وجدتُ شارع المكتبات مزدحمًا كعادته، ورحت أبحث عن قاموس «عربي- ألماني»؛ لأنني قررت إتقان اللغة الألمانية لسبب لا أعرفه، ربما شوقًا لصديقي عماد السجين الذي غدرت به، والذي علَّمني أسس اللغة الألمانية على مدى عامين. اشتريت قاموسين: الأول قديم، ولكنه يحتوي على جمل كاملة يمكن حفظها، والثاني حديث أكبر حجماً، ثم اشتريت بعض الروايات، وثلاثة كتب في الفلسفة، أردت مناقشة أفكارها مع الأستاذ عدنان في اللقاء القادم، ورحت أتحسس المبلغ المتبقي في جيبي، فوجدته لا يزال محترمًا ويكفي لأكثر من شهر حسب معرفتي الجديدة بحال القدرة الشرائية التي صارت عليها البلد، وهنا تذكَّرتُ أن لي مبلغًا من المال لدى الدكتور واثق، طبيب السجن، فقد كان الاتفاق بيني وبين الدكتور حمزة وبحضور الدكتور واثق، بأنني سأتقاضى مبلغًا محددًا من المال عن كل ضحية أبعثها مخدَّرة إلى مستشفى «التفصيخ»، وأن المبلغ يُسَلَّم إلى الدكتور واثق ليحتفظ به ويدّخره لي حتى أخرج من السجن. صحيح أني حصلت على جزء من ذلك المبلغ قبل شهر من خروجي الفوضوي من السجن، والذي ما زال قسم منه في جيبي، لكنه قد لا يكفي إلا لفترة قصيرة قد تتجاوز الشهر لا أكثر.

استأجرتُ سيارة تاكسي وتوجهتُ إلى العنوان الذي أحفظه، والذي أملاه عليَّ الدكتور واثق في حينها، وكانت دلالة البيت سهلة جدًّا؛ إذ إن بوابة البيت تقابل تمامًا ثانوية الخنساء للبنات. وبالفعل، وصلت الدار بسهولة، وطرقتُ الباب لمعرفتي بأن التيّار الكهربائي قد غاب عن المشهد اليومي في بلدي المحتل، وأن من العبث الضغط على الزر الخاص بالجرس.

تفاجأتُ حين خرجتْ لي صبية سمراء حالكة السواد بجدائل طويلة وكأنها خرجتْ من كهف أفريقي، تصورتها سترقص لي رقصة «صيد الطيور» الأفريقية، سألتني عن طلبي، فقلت لها متسائلًا إن كان الدكتور واثق موجودًا، فأخبرتني بأن الدكتور لا يستقبل المراجعين في بيته، وهو الآن نائم. طلبتُ منها أن تخبره بأن شخصًا يدعى مرهون عيسى الصاحب يريد مقابلته. دخلت صافقة درفة الباب بوجهي، وبعد مضي أكثر من خمس دقائق، خرج الدكتور واثق مرتديًا بيجامة صفراء اللون بخطوط بيضاء رفيعة، مُرحِّبًا بي، ودعاني للدخول مفصحًا بأنه كان يتوقع زيارتي بأي لحظة.

كان بيته جميلًا، وكانت الصالة مزينة بصور لأشخاص أغلبهم يرتدون «صدريّة» الأطباء البيضاء، حتى النساء، وراح يسمّي لي شخوصها بأسمائهم ونسبهم له، فعرفتُ بأن جده ووالده ووالدته كانوا أطباء أيضًا.

حين انتهينا من تناول وجبة الغداء، وجاءتْ الصبية حالكة السواد بقدحي شاي، سألني الدكتور واثق: «هل أتيت طلبًا للمبلغ الذي

بذمتي لك؟» فقلتُ خجلاً: «ليس تمامًا، ولكني أحببت أن أطمئن عليك بعد الأحداث التي مرت بها العاصمة، وكذلك حاجتي للمبلغ». ابتسمَ وقال: «أعرف أنكَ وفيٌّ وسافل في الوقت نفسه.. مثلي تمامًا». أطلقتُ ضحكة عارمة وأشرتُ بأنه إنسان نبيل، وأنني أحترمه جدًّا لأنه يتمسك بمبدأ لا يمكن للمرء إلا احترامه، فقال:

«وكذاب ومنافق ولئيم أيضًا.. إنكَ تفصح عن دواخلك ببساطة ودون أن تقول الكثير».

في تلكَ اللحظة شعرتُ بأن الدكتور «واثق» من الممكن أن يكون صديقًا لي، وقد صرتُ أميل إلى تلك الفكرة، خصوصًا وقد ضحكنا طويلاً وصرنا نتفكّه بالكلمات والعبارات التي تشي بجرائمنا ونذالة سلوكنا حين كنا داخل السجن، ثم قال الدكتور واثق:

«كل ما لكَ من أموال عندي سأضعه بين يديكَ حالاً..».

نادى على «قمر»، فعرفتُ أنه اسم الصبية حالكة السواد حين امتثلتْ أمامه طائعة، ليطلبَ منها إحضار شيء ما.

خرجتْ الصبية وعادتْ بعد دقائق معدودات، وسلمته صندوقًا صغيرًا. فتح الدكتور واثق الصندوق ووضع أمامي رزمة من الأوراق الخضراء. تفاجأت، فلم أكن أعرف بأن دفع مستشفى «التفصيخ» كان بالعملة الأجنبية، فما تسلَّمته سابقًا من الدكتور واثق وأنا في السجن كان بالعملة المحليَّة. قال واثق بأن المبلغ لي، وأنه غير منقوص، ويمكنني عدهُ، ولكن عليَّ أولاً أن أتذكَّر عدد الضحايا لأتأكد من صحة المبلغ. ضحكنا كثيرًا جرّاء تلك المزحة الخبيثة.

سـألت الدكتـور واثـق عـن زوج فاتـن، بعـد أن ذكـرت لـه الاسـم بالكامـل. راح يعتـصر ذاكرتـه مـرددًا بأنـه قـد يكـون سـمع بالاسـم مـن قبـل، ولكنـه في لحظـة اسـتلَّ ورقـة مـن الـدرج القريـب منـه وكتـب عليهـا الاسـم، وقـال واعـدًا إيـاي بأنـه سـيبحث عـن صاحبـه، ويخبرني بنتيجـة بحثـه في وقـت لاحـق.

ودعتـهُ عنـد بـاب الـدار واعـدًا إيـاه بزيـارة قريبـة، قـد طلبهـا مني لأنـه يريـدني بأمـر مهـم جـدًّا، وشـدَّدَ عـلى أن الأمـر غـير مسـتعجل.

الحقيقـة، لم أزر الدكتـور «واثـق» إلا بعـد مـضي وقـت طويـل، وتمامًـا بعـد أيـام مـن اشـتغالي مـع السـيد الوكيـل «الوزيـر»، حـين فكـرت بحاجتـي إلى اسـتخراج شـهادات الوفـاة لضحايـاي دون أخـذ بصـمات أو مـرور الجثـة عـلى شـعبة الفحـص الجنائـي، فاقترحـت اسـمه عـلى السـيد «الوزيـر»، فوافـق عـلى الفـور وعينـه مديـرًا لواحـد مـن أكـبر مستشـفيات العاصمـة.

❋ ❋ ❋

اشـتريت الهاتـف النقّـال الـذي دخـل البلـد حديثًـا، وتلـك كانـت واحـدة مـن خـيرات الاحتـلال الـذي راح يعيـث خرابًـا في أرواح أبنـاء جلـدتي. اشـتريت واحـدًا وخزنـت فيـه العديـد مـن الأرقـام التـي أحفظهـا عـن ظهـر قلـب، بعـد ضبـط لغتـه عـلى اللغـة الألمانيـة؛ طمعًـا في تعلـم المزيـد مـن اللغـة، بالإضافـة إلى شيء مـن السريّـة التـي تسـتهويني دائـماً.

فكَّرتُ بشراء سيارة صغيرة لتسهِّل عليَّ حركتي، ولكني أجلت الموضوع كون السيارات صارت مطمعًا للصوص الذين غادرهم الخوف تمامًا، بمغادرة السلطة إلى غير رجعة، وصاروا ينصبون سيطرات وهمية يختارون من خلالها السيارة التي يريدون الاستحواذ عليها، يُنزلون سائقها بالقوة ويطلقون عليه الرصاص ثم يهربون بغنيمتهم، وما أكثر سائقي التاكسيات الذين راحوا ضحية ذلك! لذا صارت حركة الناس نهارًا فقط، فالليل صار عنوان موت، وصارت الشوارع تحت سطوة حلكته مسرحًا للكلاب السائبة واللصوص منذ مغيب الشمس حتى طلوعها، وصارت الجثث الملقاة على الأرصفة والطرقات وعلى أكوام المزابل عنوان المدينة ورمزها.

من عادتي الاستيقاظ عند السادسة صباحًا، وأول ما أفعله هو التلصص على فضاء العاصمة من خلال إزاحة ستارة النافذة سنتيمترات قليلة. كنت أخشى أن يهاجمني فضاء العاصمة أو تهاجمني وحشتها. وحين أفكّر بسبب خشيتي أزداد حزنًا، فلا توجد عاصمة موحشة على الأرض مثل عاصمة بلدي.

أنظر إلى الشارع، وأتفحص الرصيف الممتد والرعب يأكلني؛ خشية أن أرى جثة هنا وأخرى هناك.

صباح بلدي نديّ بالجثث ورائحة الدم الساخن، ذاك ما صنعتْهُ أيادي العصابات الجدد التي حكمت البلد بعد زوال الديكتاتور.

229

عصابات أنهكت البلاد وعاشت فيه خرابًا، وكأن ثأرًا مبيَّتًا بينهم وبين البلد، حتى بات الإنسان مشغولًا باللاشيء.. ينتظر شيئًا ما لا يعرفه، ينتظر اللاشيء، متمنيًا أن ينقذه من وضعه المزري.

ازداد عدد الأقفال على أبواب البيوت، وهناك من اقتنى كلب حراسة أو أكثر، وانتشر السلاح بشكل مخيف، فمن الصعب التفكير بخلو أي بيت أو محل تجاري أو سيارة من قطعة سلاح، وصارت السرقات وجرائم القتل والنهب والسلب تجري نهارًا، حيث لا وجود لسلطة رادعة، فعصابة السلطة خائفة أيضًا.

في أحد الصباحات، كان لي موعد مع الندائي في شارع المكتبات، وكنتُ في شوقٍ للقائه، لأحاديثه وتحليلاته ومعرفته العميقة بوضع البلد. استأجرتُ سيارة تاكسي وتوجهت إلى هناك. وجدته حيث المقهى، مكان موعدنا. بقينا هناك نتحدث في كل شيء، حتى سألته عن وضع بيته القديم وما الذي يفكِّر بخصوصه، فهناك احتمال أن تحتله إحدى العوائل السائبة، بعد أن أصبحت ظاهرة احتلال البيوت والأماكن المهجورة ظاهرة مجتمعية انتشرت كالوباء. فقد احتلت العديد من العوائل المدارسَ والمؤسسات الحكومية والأراضي والمنازل الخالية، فأخبرني بأنه عيَّنَ جاره حارسًا للبيت، وهو يدفع له مرتبًا شهريًّا بسيطًا، وحين أخبرته بأنه لم يعترضني حين أتيت إلى البيت بعد خروجي من السجن، قال بأنه أوصى الرجل الحارس بالسماح لي إن عدت؛ كوني شريكًا في البيت، ثم حدّثني عن هيام وهوسها بغياب أختها، وكأنها أمّ لها، تشعر بأنها ستعود في أي

لحظـة. حاولـتُ أن أغـيرِّ الموضـوع الـذي دائـماً مـا يؤلمنـي ويشـعرني بالعـار، فسـألته عـن مفهـوم «الهمجـي النبيـل»، ابتسـم لي وقـال:

«الإنسـان، بفطرتـه، ليـس الهمجـي النبيـل الـذي يصـوره روسـو.. ولا المنحـرف الفاسـد الـذي يصـوره المعبـد، بـل إنـه العنيـف عندمـا يُضطهـد.. والحليـم عندمـا يكـون حـرًّا».

وراح يسـتفيض بالـشرح والتفصيـل والتحليـل وكأنـه كان يشـكو عطشًـا للحديـث، ولم يتوقـف حتـى حـان وقـت الغـداء، لنغـادر المقهـى وندخـل المطعـم الشـهير، وهنـاك، وأثنـاء تناولنـا الطعـام، اقـترب منـه رجـل في بدايـة الخمسـينيات، ومـا إن وقـع نظـر الأسـتاذ عدنـان عليـه حتـى فـزَّ واقفًـا ومُرحّبًـا بـه، ثم طبع أربع قبـلات بالتنـاوب عـلى خدَّيه، ثـم قدَّمـهُ لي مُعرِّفًـا بـه، وقدَّمنـي إليـه. كان اسـمه «عبـد الله»، وكانـت الابتسـامة لا تفـارق شـفتيه. طلـب عدنـان منـه الجلـوس والانضـمام إلى طاولتنـا الصغـيرة، لبَّـى عبـد الله طلـب صديقـه القديـم، كـما سـأعرف لاحقًـا، ولكنـه اشـترط علينـا مازحًـا أن يكـون هـو مـن يدفـع الحسـاب. أثـار شرطـه ضحكنـا. ومـا إن جلسَ حتـى نظـر صـوبي وسـألني:

«يبـدو أن اسـم مرهـون، لـه قصـة في حياتـك، فهـو اسـم غـير شـائع في بلدنـا؟»

تلمسـتُ مـن سـؤاله أنـه يريـد فتـح حديـث بيننـا ليزيـل عقبـة اللقـاء الأول، فقلـت لـه مبتسـماً:

«هـل تعـرف بأنني ولفـترة طويلـة لم أفكـر بالـسر وراء اسـمي، حتـى اكتشـفت منـذ بضـع سـنوات بأنني بالفعـل مرهـون بـشيء أبغضـه..».

231

علت ضحكاتنا وقال الأستاذ عبد الله: «يمكنني تخمين ما ترمي إليه»، ثم أضاف وهو ينظر إلى أصابع يديه: «من المحزن أن يكره المرء بلده، ولكن قد نمنح الحق لمن يحمل ذلك الشعور نظرًا لكارثية ما يمر به البلد، وما يكابده المواطن، بلدنا اليوم يعيش بداية ما، لا أعتقد أنها البداية المثالية، لكنها بداية أولى، ربما تتراكم، وربما ستوضع في مدارات التأجيل، وربما أيضًا سيكتنفها -وكما نرى الآن في الواقع- قدر كبير من الغموض، قدر غير قليل من الفوضى، حالة تشبه العدم الذي تتفاعل فيه الأشياء باتجاهات عبثية». كان الأستاذ عبد الله قد رفع رأسه ناظرًا إليَّ بعد أن نطق الكلمتين الأوليين من حديثه، وظل ناظرًا صوبي حتى أكمل حديثه، فقلت له مشيرًا إلى الفجيعة التي تخلفها حالة التكاره والتباغض التي يحاول زرعها، أو زرعها بالفعل، بعض السياسيين بين أبناء البلد، حتى نكاد نفقد هويتنا، فقال وهو يمسك كفي اليسرى ليزيد من تركيزي في الاستماع:

«كل من لا يتمكن من خلع جلده، ولو بشكل مؤقت، من أجل أن يرى الآخر، من أجل أن يقترب من الآخر الذي هو غريم له في الفكر، ومناقض له في التفكير، كل من لا يقدر أن يخرج من نفسه ليقابل الآخر في منتصف الطريق، لا أعتقد أنه سيتمكن في يوم من الأيام من أن يتكلم عن الهوية.. الهوية هي القدرة على الخروج من الذات.. هي القدرة على الاقتراب من الآخر».

«هناك محاولات تشويه مدروسة يمارسها البعض ممن ابتُلِيَ بهم

232

البلد مؤخرًا، محاولات لا أرى فيها إلا مزيدًا من الدماء». قال الأستاذ عدنان.

فأجابه الأستاذ عبدالله:

«إن مجرد رصدك لهذه الحالات والحديث عنها يعد نقطة إيجابية يا صديقي..».

استمر الحديث طويلًا بين عدنان وصديقه، وكنتُ أنظر للرجل بإعجاب لم أتبين سره حينها.

❋ ❋ ❋

حين غادرنا الأستاذ عبد الله، بعد أن انتقلنا من المطعم إلى المقهى، أخبرني عدنان ونحن نحتسي الشاي بأنه عثر على صاحب العنوان الذي كتبته له، وأخبرني أيضًا بأن الأمر لم يكن سهلًا أبدًا، فقد غيَّرَ الرجل عنوانه وانتقل إلى منطقة أخرى، ثم قال:

«يبدو أن النقيب علي شخصية مهمة، حيث صعُب عليَّ مقابلته إلا بعد أن كتبتُ في ورقة اسمكَ وأعطيتها إلى حارس البيت الذي كان شرطيًّا برتبة عريف..».

ساورتني الشكوك من أن عدنان قد قابل شخصًا آخر، ففي آخر مرة قابلتُ فيها العم علي كان برتبة مفوض، فكيف صار نقيبًا؟ ثم سألته إن كان قد قابله بالفعل، وإن كان قد عرفني من الاسم، فأجاب عدنان بالإيجاب، وأخرج قصاصة ورق من جيبه،

تبينتُ حين صارت بين أصابعي أنه كارت شخصي يحمل اسم العم علي الكامل مسبوقًا بكلمة «النقيب» بالخط الديواني، وثلاثة أرقام هواتف، لاحظت أن أحد الأرقام قد خُطَّ تحته خط أزرق اللون، فسألت عن أهمية الخط، أخبرني بأن النقيب قد خطه تحت الرقم بقلمه ليدلني على الرقم الأهم، والذي يمكنني الاتصال به بسهولة.

لم يكن خبر حصول العم علي على رتبة نقيب بالخبر الصادم، فكل شيء ممكن في بلد قلقٍ تتقاذفه الصراعات، بل على العكس، كان الخبر مفرحًا بالنسبة لي، فقد صار لي سند يمكن اللجوء إليه عند الحاجة، ولكن الغريب هو انتقاله إلى منطقة راقية، وأن هناك حرسًا على باب بيته، مما يشير إلى أنه يشغل منصبًا حساسًا.

استبدَّ بي الفضول، وقررت مهاتفته عند العودة إلى غرفتي.

وبالفعل، اتصلتُ به مساءً، وتلمستُ فرحته حين سمع صوتي. طلب مني زيارته في صباح اليوم التالي حيث مكان عمله، وأن اسمي سيكون عند موظف الاستعلامات، ثم حدد لي الساعة الحادية عشرة قبل الظهر موعدًا للزيارة. كتبتُ العنوان على آخر ورقة في الكتاب الذي كنت أقرؤه. عدتُ إلى كتابي أنظر في سطوره وأفكر بعيدًا، أحاول معرفة الطريقة أو السبب الذي جعَل العم علي يقفز من رتبة مفوض إلى رتبة نقيب مسؤول عن أمن بناية إحدى الوزارات.

❋ ❋ ❋

234

بعد انتظار لم يدم طويلاً في غرفة استعلامات الوزارة، اصطحبني شخص عسكري إلى غرفة النقيب علي، وما إن فتح الشرطي الباب وشاهدني العم علي حتى هبّ واقفًا مُنسلًّا من بين الكرسي وطاولة المكتب، مقتربًا مني ليحتضنني وهو يردد كلمات الترحيب التي ختمها بـ: «كنتُ أتمنى رؤيتكَ منذ زمن..».

جلستُ أمامه حيث الكرسيين المتقابلين أمام المكتب، وراح يحدِّق إليَّ وهو يسألني الأسئلة التقليدية، وأنا أجيب بتقليدية أكبر، حتى دخل الساعي وهو يحمل صينية الشاي -كانت عامرة ببراد شاي وسكّر وقدحين وقنينتي ماء معدني- وضعها على الطاولة الصغيرة بيني وبين العم علي، ثم غادر بعد أن سأل إن كانت هناك أوامر أخرى، فأذِن له السيد النقيب بالانصراف.

ما إن أغلق الساعي باب الغرفة وراءهُ حتى سألني العم علي مبتسماً، متفحصًا ملامحي بتمعُّن:

«هل قتلت أحدًا بعد قَتلِكَ لمانع؟» صدمني سؤاله، ولكن احتفاظه بابتسامته وهو ينظر صوبي أشعرني بأنه يعرف عني الكثير، تلعثمتُ قليلاً، ولكني تظاهرت بالتماسك. رجعتُ بظهري إلى الوراء حتى لامَس قماش الكرسي، ثم وضعتُ ساقًا على ساق، وشرعتُ بالكلام، حينها قال العم علي وكأنه لم يكن منتظرًا ردي على سؤاله:

«تأكد يا مرهون بأنني أعرف عنكَ الكثير، بل أكثر مما تتوقع؛ لذا أعيد عليكَ السؤال: هل قتلت أحدًا، بعد قَتلِكَ لمانع؟»

أجبته ودون تردد:

«نعم».

أطلق ضحكة صادقة رأيت من خلالها ومما قرأته في عينيه فرحًا يتقافز أمامي، ثم سألني سؤالًا آخر أشعرني بأن صيغة الحوار قد تحوّلتْ إلى أجواء وعوالم التحقيقات:

«كم عدد الذين قتلتهم؟»

«لا أدري تحديدًا».

«هل قمت بسرقة بيوت أو محال تجارية؟»

«نعم».

«كم عددها؟»

«لا أدري.. كثير!»

بقي العم علي محتفظًا بابتسامته، التي ترتفع أحيانًا حد الضحك، وتلمستُ بأن إجاباتي على أسئلته تشعره بالنشوة والانشراح، وفي لحظة تغيرتْ فيها ملامحهُ صوب الجدّية وهو يسألني:

«إذا طُلِبَ منكَ قتلي، وصاحب الطلب سيدفع لكَ المال الذي تحددهُ أنتَ، فهل تفعل؟»

«نعم..».

ضحكة عارمة يطلقها العم علي، ثم يعود شيئًا فشيئًا إلى ابتسامته وهو يتلذذ بدراسة ملامح وجهي. الحقيقة لم أتلمَّس ذلك الدهاء ومَلَكَة التحقيق عنده من قبل. ثم قال بمرح واضح:

«صراحتكَ جميلة ومهمة، ومرعبة في الوقت نفسه».

حينها شعرتُ بأنني بحاجة إلى قول ما تعتمله دواخلي تجاه الرجل الذي أحترمه وأحبه، فقلت بجدّية واضحة:

«أرجوك يا عم علي اسمعني، وأعرفُ أن الذي سأقوله ربما لا تصدقه.. هناك فرصتان للقاتل المأجور حين يكون تحت ضغوط أمر مصيري؛ أما أن ينفِّذ ما طُلبَ منه ويقتل صاحب الاسم المراد قتله، وإما أن يقتل صاحب الطلب، ولا خيار ثالثًا بينهما؛ لأنه إن لم يفعل فسيقتله صاحب الطلب حتى وإن أظهر له موافقته على إلغاء الطلب تحت أي ذريعة.. وأرجو أن تكون على ثقة تامة من أنه إنْ طلَب مني أي شخص، ومهما تكن منزلته، قتلك؛ فسأقتله دون تردد».

«أنا متأكد من مشاعركَ نحوي، ومتأكد أيضًا بأنكَ لن تخذلني في أي أمر أطلبه منكَ..».

قال العم علي ذلك وهو يقدِّم لي ظرفَ رسالةٍ مغلقًا، قال بأنها المهمة الأولى لي، التي ستكون فاتحة التعاون بيننا، وشدَّد على أن أقرأ الورقة الموجودة داخل الظرف حين أكون في مسكني ووحدي.

خرجتُ من المكتب يرافقني شخص بملابس مدنيّةٍ، أصرَّ العم علي على أن يوصلني حيث أريد. صحيح أني رفضت في البداية، ولكن إصراره جعلني أشعر بأن الرجل الذي سيرافقني قد أنيطت به مهمة تجسّسيّة تخصني، فقررت بداخلي أن أدلَّ الشخص المرافق على مكان سكني حيث غرفتي في بيت أم عامر، ومنذ تلك اللحظة صرتُ أشعر بأن شخصًا ما يراقبني على الدوام.

* * *

خارج نطاق حياتي، تسير حياة الناس بالصورة التي رُسمتْ لها: جوع وعوز، قتل يومي، مستشفيات قذرة، ذبابها أضعاف عدد المرضى، ورغيف الخبز صار الشاغل الأوحد لأبناء بلدي.

عوائل تفترش الأرصفة متخذةً من علب الكرتون أثاثًا وفراشًا لها، وعوائل أخرى أكثر «رفاهيةً» احتلت المدارس والدوائر الحكومية والبيوت الحزبية، فما من زاوية كانت مهجورة في السابق إلا وتجد عائلة أو أكثر وقد احتلتها.

«الاحتلال عنوان المرحلة»

حتى بيتنا القديم الذي تمنيت شراءهُ قد تم احتلاله من قبل خمس عوائل، وكثيرًا ما أسأل نفسي، من أين خرجت تلك العوائل؟ هل أتت من السماء مع هطول المطر الذي فاضت به شوارع وأزقة العاصمة، أم أنهم من سكان الصحراء، قرروا أخيرًا العيش في العاصمة؟

الدم المسفوك على أسفلت الشوارع والأرصفة وعلى تلال المزابل صار ينافس إنتاج البترول في كميته. الأطفال السائبة في الشوارع تستجدي المارة صاروا ينافسون الكلاب السائبة في حضورهم اليومي وسط الشوارع وبراميل القمامة.

«إنها بالفعل، لحظة تاريخية رُسِمت بنعال». نعال ذلك الرجل المسكين الذي لا أحد يعرف مصيره، رغم أنه حظِيَ بشهرة توازي شهرة الديكتاتور المخلوع حكماً ورقبةً.

* * *

238

غـادرتْ كوثـر غرفتـي، بعـد أن منحتنـي الحـب، وبعـض الكلـمات والجمـل الجديـدة في اللغـة الألمانيـة، التـي دوّنتهـا عـلى ورقـة صغـيرة دسسـتها في جيبـي بغـرض قراءتهـا كلّـما سـنحت لي الفرصـة، كـما تعـودت منـذ زمـن بعيـد، وتحديـدًا منـذ الـدرس الأول الـذي أعطـاني إيـاه عـماد الجميـل، زميـل السـجن.

أفـردتُ جسـدي عـلى السريـر بعـد وجبـة عشـاء فاخـرة أعدتْهـا لي أم عامـر، ونصـف قنيـة ويسـكي. تناولـتُ الظـرف الـذي سـلَّمني إيـاه العـم عـلي وفتحتـه، وأول مـا وقـع بـين يـدي، عـشر أوراق نقديـة خـضراء مـن العملـة الأجنبيـة، ثـم قصاصـة ورق مـدون عليهـا اسـم، لم أتبينـه في البدايـة، كان غريبًـا، وظننـتُ بأنني لم أسـمع بـه مـن قبـل، ولكـن المهـم هـو تلـك العبـارة التـي تحتويهـا الورقـة، والتـي كُتِبَـتْ تحـت الاسـم: «اقتـل الرجـل بـأسرع وقـت ممكـن.. أمامـك ثلاثـة أيـام فقـط». أرعبتنـي العبـارة، وبـتُّ أفكـر بالاسـم مليًّـا، حتـى اهتديـت إلى طريقـة دلّتنـي عليـه حـين رحـت أتذكَّـر الأشـخاص المقربـين مـن العـم عـلي، فتذكَّـرت القـاضي الـذي حكَـم عـليَّ بعـشر سـنوات سـجن. هـو صاحـب الاسـم! ولكـن كيـف أسـتدِلّ عـلى عنوانـه؟ ولمـاذا يريـد العـم عـلي التخلّـص منـه بسرعـة، عـلى الرغـم مـن أنـه صاحـب فضـل كبـير عليـه، وهـو أيضًـا صاحـب فضـل عـليَّ شـخصيًّا حـين طلـب منـه العـم عـلي التغـاضي عـن تهمـة التخلّـف عـن أداء الخدمـة العسـكرية؟ في تلـك اللحظـة قـررتُ قلـب الورقـة علنـي أجـد عـلى ظهرهـا شـيئًا، وبالفعـل وجـدت عنـوان الرجـل مدونًـا عليهـا.

قـرأت مـا هـو مـدون عـلى الورقـة في الجهتـين أكثـر مـن مـرة حتـى تيقنـت مـن حفـظ كل كلمـة فيهـا. قرَّبـتُ الورقـة مـن لهيـب الشـمعة وأحرقتهـا بالكامـل، ثـم أخـذتُ رمادهـا بـين راحتـي ودعكتـه حتـى اسـودَّت راحتـيَّ.

نمـتُ سـعيدًا، حالمًـا بصبـاح مـشرق ويـوم جميـل أردُّ فيـه للعـم عـلي بعضًـا مـن أفضالـه.

في صبـاح اليـوم التـالي، هاتفـتُ العـم عـلي، وأخبرتـه بموافقتـي عـلى تنفيـذ المهمـة بوقـت أقصر ممـا حـدده لي، ولكنـي أخبرتـه بأننـي بحاجـة إلى سـيارة شـخصية وسـلاح.

لم تمـض عـلى مكالمتـي معـه أكثـر مـن سـاعتين حتـى وصلـتْ سـيارة إلى المـكان الـذي كنـت موجـودًا فيـه. ترجّـل السـائق وأخـذ لي تحيـة عسـكرية قائـلًا: «احترامـي سـيادة النقيـب..». أذهلنـي الرجـل بعبارتـه، ممـا دفعنـي إلى إطـلاق ضحكـة عارمـة، ولكنـه بقـي مُتسـمِّرًا أمامـي، وحـين عـدت إلى جدّيتـي قـدَّمَ لي مفاتيـح السـيارة، ثـم أخـبرني بـأن مـا طلبتـه موجـود في درج السـيارة، ثـم أخـذ تحيـة أخـرى وانـصرف دون أن يلتفـت إلى الـوراء.

وقفـتُ مذهـولًا مـن ذلـك المشـهد المسرحـي وكأننـي في حلـم أو نصـف كابـوس، كيـف يحـدث ذلـك، وبتلـك السرعـة؟

دخلـتُ السـيارة، وأدرت المحـرك، ثـم مـددت يـدي اليمنـى فاتحًـا الـدرج لأجـد كيسًـا ورقيًّـا بنـيَّ اللـون، سـحبته وبـاشرت بفتحـهِ، كان ثقيـلًا، فتبينـتُ سـبب ثقلـه. كان في داخلـه مسـدس رشـاش بديـع

240

المنظر، رغم وجود رأس كاتم على فوهته، لدرجة أغراني بتجريبه وإطلاق بعض رصاصات في الهواء، ولكني عدلتُ عن فكرتي المجنونة تلك ووضعته بين جلد ظهري وحزام بنطالي، ثم تفحصتُ الظرف جيدًا، فوجدت داخله هوية شخصية مُلصقًا عليها صورتي الشخصية، وقرأت اسمي الصريح والكامل، ولكن تسبقه كلمة «النقيب»، والهوية صادرة من وزارة الداخلية وعليها توقيع الوزير. حينها عرفت ما رمى إليه السائق.

هاتفتُ العم علي، وسألته عن جديّة الهوية التي صارت بحوزتي، وقلتُ له متفكهًا: «كيف لي أن أكون بالرتبة العسكرية نفسها التي تحملها حضرتك؟ أنتَ نقيب وأنا كذلك، فكيف يحدث هذا؟» أجابني بأنه سيكون لواءً في الشرطة بعد يوم واحد، وقد صدر الأمر بالفعل. ضحكنا كثيرًا على الهاتف، وكنتُ أحسبها مزحة!

أزلتُ لوحتَي أرقام السيارة وانطلقت صوب العنوان الذي تنتظرني فيه ضحيتي التي لا تدري شيئًا عما ينتظرها.

كانت المهمة سهلة جدًّا، فحين وصلت منزل السيد القاضي، الذي سأعرفُ فيما بعدُ، بأنه أصبح دون عمل أو أي مدخول مالي، منذ أربع سنوات، وأنه يشكو العوز والفاقة، لدرجة أنه باع مصاغ زوجته قطعة إثر قطعة من أجل تأمين لقمة العيش، ولو لم يكن البيت الذي يسكنه ملكًا له لالتحق بأفواج العوائل التي تفترش الأرصفة وتتخذها مسكنًا لهم.

عند وصولي العنوان، شاهدتُ رجلًا عجوزًا يجلس أمام باب

الـدار يقـرأ جريـدة، وقـد اتخـذ مـن كـرسي بلاسـتيكي مجلسًـا لـه، ثـم شـاهدتُ عـكازًا مركونًـا إلى جانبـه حيـث سياج الـدار. أوقفـتُ سـيارتي أمامـه، ولاحـت لي يافطـة صغـيرة مصنوعة مـن السـيراميك كُتـب عليها: «هـذا مـن فضـل ربي»، وكانـت الدلالـة التـي دوَّنهـا لي العـم عـلي في نهايـة العنـوان. جهـزت المسـدس الرشـاش ووضعتـه عـلى حالـة الرمـي. فتحـت بـاب السـيارة الأيمـن بعـد أن قفـزت إلى الكـرسي المجـاور، ثـم مـددت رأسي ناظـرًا صـوب وجـه الرجـل الـذي انتبـه لتوقـف السـيارة وراح ينظـر إليَّ. صحيـح أن ملامحـه قـد تغـيرت كثـيرًا، حيـث كان أكثـر نضـارة وإشراقًـا حـين وقفـت أمامـه ليصـبَّ في مسـامعي قـرار الحكـم. سـألته إن كان هـو السـيد القـاضي، فقـال بأنـه هـو الشـخص المطلـوب، حينهـا قلـت لـه بأننـي أحمـل رسـالة خاصـة لـه، قـال: «أهـلاً وسـهلاً بـك، تفضـل..» حينهـا وقـع نظـري عـلى نعالـه الجلديـة، كان الرجـل يطـوي سـاقًا عـلى سـاق، أغـراني منظـر النعـال «المحـترم»، فلـم تكـن بلاسـتيكية، بـل جلديـة تـزدان بحلقتـين نحاسـيتين.

بخطـوة واحـدة اقتربـتُ مـن الرجـل. أطلقـتُ عليـه سـبع رصاصـات كانـت واحـدة كافيـة لقتلـه، وبسرعـة فائقـة تناولـت فـردتي نعالـه، ونظارتـه الملطَّخـة بالدمـاء، وعـكازه أيضًـا، ثـم انطلقـت بسـيارتي صـوب الـوزارة لأزفّ البـشرى إلى العـم عـلي، سـالكًا بعـض الشـوارع الفرعيـة، لأتأكـد مـن عـدم ملاحقتـي مـن قبـل أي شـخص. كنـت خـلال الوقـت، أفكِّـر بعظمـة المسـدس الكاتـم وأهميتـه التـي تمنـح القاتـل الاسـترخاء والكثـير مـن الوقـت للهـرب دون أن يشـعر بـه أحـد، فـلا صـوت رصـاص يفزعـه أو يفـزع الضحيـة.

242

الكاتم سلاح أكثر إنسانية من غيره.

أوقفتني سيطرة للجيش. طلَب أحد أفرادها هويتي، وحين سلَّمته الهوية أخذ التحية العسكرية مبتسماً وهو يقول:

«تفضل سيدي، رافقتك السلامة».

حين وصلت مبنى الوزارة أخبرتُ موظف الاستعلامات بضرورة الاتصال بالسيد النقيب وإخبارهُ بأنني هنا وبانتظار مقابلته، ثم أعطيته لوحتي أرقام السيارة وطلبت منه أن يكلِّفَ أحد المستخدمين بتركيبها.

حين دخلت مكتبه، وصلني شحوب وجه العم علي قبل أن تصلني ملامحه التي أعرفها، حتى كدت لا أعرفه، كانت شفتاه مصفرَّتين ناشفتين. وقفَ متكئًا على حافة المنضدة مستعينًا بيديه، إلا أنَّ ارتجاف بدنه كان واضحًا. سألني بكلمات متحشرجة: «هل نفَّذتَ العملية؟» أجبته بزهو: «نعم، كانت سهلة جدًّا وبدون مشاكل»، ونظرتُ في عينيه فشاهدتُ دمعتين محبوستين. «هل تألم كثيرًا؟» سألني. وفي تلك الأثناء، سقطتْ دمعة شعرتُ بهول حجمها وهي تستقر متسعةً على ورقة صفراء أمامه. فقلت: «لا.. رحَل الرجل وهو لا يدري ما الذي يحدث.. الرأس كان هدفي..». عانقني، وسمعتُ نشيجه، وبعد ثوان قال بكلمات مختنقة: «كان لي بمثابة الأب، لقد ناضلتُ كثيرًا من أجل بقائه حيًّا، ولكن الأمر لم يكن بيدي..» ابتعدتُ عنه قليلاً وقد هالني ما سمعت، ثم سألته إن لم يكن هو من أمر بقتل السيد القاضي، فمن هو صاحب

الفكـرة؟ ومَـن الـذي أصـدَر الأمـر بقتلـه؟ رفـع رأسـه صـوبي وهـو يكفكـف دموعـه وقـال:

«نصـف مؤسسـات الدولـة يترأسـها سـجناء سـابقون، دخلـوا السـجن بسـبب جرائـم ينـدى لهـا الجبـين، وكان القـاضي -رحمـه الله- عـلى درايـة بجرائمهـم، وهـو مـن أطلـق عليهـم الأحـكام..».

فهمـتُ ضرورة مـوت الرجـل، وسـبب الحصـار والإقامـة الجبريـة التـي فُرضـتْ عليـه.

وضعـتُ مفتـاح السـيارة عـلى مكتبـه وشـكرته لأنـه أعـارني إياهـا، فقـال بـأن السـيارة سـتكون تحـت تـصرفي، شـكرتهُ رافضًـا اسـتلامها كونهـا تهمـة واضحـة قـد تعرّضنـي للقتـل، ثـم طلبـتُ منـه السـماح لي بالاحتفـاظ بالمسـدس الرشـاش، فوافـق عـلى الفـور مبتسـماً، وقـدَّم لي ظرفًـا ورقيًّـا قـال بأنـه بقيـة أتعـاب المهمـة التـي نفّذتهـا.

أصرَّ العـم عـلي عـلى مقابلتـه بعـد أسـبوعين لأمـر ضروري جـدًّا، فقلـت مازحًـا: «أتمنـى أن يكـون القتـل بعيـدًا عـن موضـوع المقابلـة..». ضحـك بحـزن وقـال مطمئِنًـا لي بـأن الموضـوع أكـبر مـن ذلـك. نظـرتُ في عينيـه مندهشًـا: «هـل تعنـي أن كارثـة تنتظـرني؟» أطلـق ضحكـة أخـرى يشـوبها بعـض الانفعـال، وودعنـي طالبًـا مـن سـائقه الشـخصي توصيـلي إلى حيـث أريـد.

عرفـتُ أيضًـا بعـد فـترة مـن الزمـن وأنـا أبحـث عـن الـسرِّ وراء تكليفـي بقتـل السـيد القـاضي، بأنـه كان الشـاهد الأكـبر عـلى جرائـم وفضائـح العديـد مـن رجـالات الدولـة الجـدد وسماسرتهم، الذيـن

فتحـوا كـبرى الـشركات والمنابـر الإعلاميـة وحتـى الدينيـة بأمـوال أسيادهم المسروقـة مـن الشـعب علنًـا، حتـى حاكـم الثقيـل، الـذي كان مـن أنشـط كتَّـاب التقاريـر وأمـين مكتبـة السـجن، صـار مـن رجـال الأعـمال «المرموقـين»، وأنـه صـار يتحـدث بأرقـام خياليـة مـن الأرصـدة والعقـارات، وعرفـت أيضًـا أن نصـف رجـال الحكومـة كانـوا كتّـاب تقاريـر ومندسـين في صفـوف الأحـزاب المعارضـة لنظـام الديكتاتـور، والنصـف الآخـر كانـوا قتلـة أو لصوصًـا أو مزوّريـن، ارتبطـوا خـلال السـجن بالنصـف الأول، وتكونـت بينهـم رابطـة صداقـة متينـة، وأن قسـماً كبـيرًا مـن الفريقـين قـد حُكِـمَ عليهـم مـن قِبـل القـاضي الـذي انتهـى مُضرّجًـا بدمـه أمـام بيتـه.

❋ ❋ ❋

في صباح اليـوم التـالي، جلَـب غسَّـان الصحـف كعادتـه كل صبـاح. يضـع الصحـف أمامـي أولًا، ثـم طبقـي البيـض والفلافـل أو الباقـلاء المسـلوقة، وأحيانًـا القشـدة والعسـل، ليخـرج ويعـود ثانيـة حامـلاً الشـاي السـاخن بعدتـه الكاملـة. كان يختـار لي الفطـور كل صبـاح، حسـب ذوقـه وعـلى مزاجـه. شـكرتهُ ودفعـتُ لـه ضعـف مـا أدفعـهُ كالعـادة، ورحـت أتصفّـح الصحـف قبـل تنـاول فطـوري، باحثًـا عـن خـبر يحكـي قصـة جريمـة قتـل ارتُكبـتْ بالأمـس، فلـم أجـد لهـا أثـرًا.

قبـل أن أضـع اللقمـة الأولى في فمـي، دخلـتْ كوثـر تغنـي أغنيـة ماجنـة وهـي تضحـك: «صبـاح الخـير حبيبـي»، طلبـتُ منهـا مشـاركتي

245

فطوري، فجلستْ على الأرض مثل كل مرة تستيقظ فيها باكرًا، غير متعبة من عمل أمس.

سألتها عن الأغنية ومن يكون مطربها، فأخبرتني بأنها لمطرب مشهور دخل السجن بسببها لأكثر من عشر مرات في فترة حكم الديكتاتور. كان لا يغني تلك الأغنية في حفلاته إلا حين يكون ثملاً، فتأتي الشرطة وتعتقله تحت قهقهات الجميع بمن فيهم الشرطة والمطرب الثمل.

كلَّمتها باللغة الألمانية ونحن نأكل، سألتها عن ليلتها الأخيرة ومعاملة أم عامر لها، صحَّحَتْ لي مفردتين، وأجابتني بأن لا منغصات، وأن الزبائن قد أكلهم حظر التجوال المفروض من قبل عصابات القتل والتسليب، ثم قالت لي جملة بانكسار تلمستُ صدقه: «مرهون، أنا بحاجة إلى مبلغ صغير، أريد شراء معطف.. ممكن؟» ضحكتُ، ومددت يدي إلى المظروف الورقي، سحبتُ منه ورقة خضراء أعطيتها لها قائلاً: «اصرفي الورقة واشتري بها كل ما تحتاجينه وما لا تحتاجينه الآن، ولا تنسي أن تشتري هدية لأم عامر». قبَّلتني وبكتْ، ثم وعدتني بأنها ستبيت معي الليلة القادمة لتجعل مني أسعد رجل في عالم ملوّث برائحة الموت والبارود. ضحكت لجملتها، ورفضتُ عرضها موضحًا بأنني أرفض المقايضة، بل أبحث عن الحب.

ضحكتْ وقالتْ تمازحني: «ولكنك تحب كل النساء! ولهذا فشرط الحب متوفر».

246

«النساء عالمي الذي أعيش من أجله، عالمي الجميل الذي أحمي به نفسي من عالم الموت والدمار الذي يغلِّف حياتنا».

ابتسمتْ وقالت: «أيها الفيلسوف، سأمنحكَ الحب في أجمل ليلة تعيشها في حياتك التي لا أعرف عنها شيئًا، غير هوسكَ بالكتب والفلسفة.. أيها الشرير الغامض.. أحبك». أجبتها بضحكة عميقة صادقة، وكدتُ أشرق بلقمتي.

قررتُ زيارة هيام وعدنان بعد أن أكملتُ فطوري وخرجتْ كوثر حاملة الأطباق، بعد أن رتّبتْ لي غرفتي. هاتفتُ أستاذي وأخبرته برغبتي في زيارته، رحّبَ بالفكرة وقال بأنه ينتظرني في المقهى المجاورة لبيته. وبالفعل وجدتهُ هناك يجلس وحيدًا مرتديًا ملابس أنيقة تُظهِر ترفه وقوة شخصيته. لقد تغير عدنان كثيرًا، نحو الأحسن بكل تأكيد، ولكن مسحة الحزن أبتْ أن تفارق عينيه وملامحه.

حين جلستُ واستلمتُ الشاي من القهوجي، طلبتُ من أستاذي أن يحدثني عن جان جاك روسو. ابتسم ورجع بظهره إلى الوراء، ثم أطلق ضحكة صامتة وهو ينظر صوب السقف، وبسرعة غيرَّ نظره ليتجه صوب وجهي قائلًا: «هل تريد اختبار اهتماماتي التي عرفتها عني سابقًا أيها التلميذ النجيب؟» لم أنبس بكلمة واحدة وبقيتُ صامتًا وكأنني أنتظر منه المزيد، فقال: «هل تريد أن تقارن بين اهتمامات فترة الفقر والعوز وفترة الغنى والاسترخاء، أيها الثعلب؟» أطلقتُ ضحكة وقلت: «لا، ليس

247

تمامًا، ولكني وجدت الشبه كبيرًا بيني وبينه. شخصيته متضاربة تحمل الفردوس والجحيم بين خلايا جسدها، ذلكَ ما تلمسته وأنا أقرأ الاعترافات».

«كيف يكون الشبه بينكَ وبينه كبيرًا، وأنتَ ولدت وكبرت في العاصمة ولم تخرج منها حتى الساعة، بينما طاف روسو بلدان وعواصم كثيرة، وتزوج وأصدر العديد من الكتب؟»

قاطعته بأدب واحترام كما تعودت:

«عذرًا، لم أقصد هذا، بل قصدت تفكيره وطريقة حياته، فهو يرى أن لا شيء يظهر الحقيقة إلا الحرية، وأن لا شيء يفضي إلى الحرية كما يفضي إليها التحرر والصدق الأصيل، وهذا ما أنا مؤمن به، منذ أن عرفت الطريق إلى القراءة على يديكَ، فحين كنتُ أقرأ الاعترافات، وجدتُ نفسي وكأنها هي التي تتحدث في الكثير من المواقع والمواقف..».

«نعم، أعرف توقكَ للحرية وعملكَ الدؤوب على نيلها بأكمل وجه، وقد تكون شبيهًا بروسو من ناحية إتقان الحذر، وتوظيف الخوف، ومكابدة ضروب الاضطهاد، ثم توظيف الوحشة والشعور بالاغتراب إلى عالم ساحر تعيشه مطمئنًا. الآن فهمت ما كنتَ ترمي إليه..».

قطع حديثنا دويّ انفجار مهول، وقع في بداية الشارع العام الذي يبعد عنا قرابة المائتي متر. هزَّ الانفجار أرض المقهى فتناثر الزبائن

هلعين، مبعثرين بعض الكراسي والطاولات في طريق فرارهم وهم يرددون طلباتهم الفورية من الله بالحفظ والسلامة والستر، فهو الستار الحافظ.

سحبني عدنان بقوة، بعد أن طوَّق ساعدي، على الرغم من أنه أضأل جسدًا وأقل نشاطًا مني، وخرجَ بي من المقهى مسرعًا متوجهًا صوب بيته وهو يقول لاهثًا: «علينا أن نكون في البيت بأسرع وقت، فهيام ستعتقد بأنني قد تحوَّلت إلى أشلاء معلَّقة بأغصان الشجرة الوحيدة المنتصبة أمام المقهى، وأجزاء أخرى من جسدي على أسلاك الكهرباء، ثم علينا الابتعاد عن المكان؛ لأنه سيعج برجال الشرطة بعد قليل، بغرض التحقيق في الحادث، وربما يتم التحقيق معنا كشهود عيان، وحينها لا نعلم ماذا سيحل بنا»، فقلت له ضاحكًا: «لقد أعجبتني صورة تعلّق الأشلاء على أغصان الشجرة وأسلاك الكهرباء، تُرى هل يمكن توظيفها كمقطع لقصيدة جديدة؟»

«لا وقت للمزاح.. أسرع!» ضحكتُ عاليًا وأنا أحث خطاي.

وجدنا هيام واقفة أمام باب الدار دامعة العينين، وما إن رأتنا حتى احتضنتْ عدنان وهي تحمد الله على سلامته، ثم نظرتْ إليَّ مرحبة معبِّرة عن اشتياقها، وأخبرتني بأنها عملتْ لي وجبة غداء خاصة جدًّا ستفاجئني بها، فقلت مازحًا: «أستطيع تخمين نوع الطبخة ببساطة، فأنا أشم رائحة الفلافل

الساخنة». نظرتْ صوبي نظرة معاتبة وهي تبتسم، وقالتْ: «هل تظن أن الفلافل تليق بشخص مثلك، أو بيت مثل بيتنا؟» ثم نظرتْ صوب زوجها وقالتْ ممازحة: «تصور يا عدنان، هذا الشاب الوسيم بطوله الفارع وضخامته وعضلاته المفتولة يعيش على الفلافل فقط؟.. أعتقد أن عليك أن تخبره بأن الفلافل تقصِّر القامة، فهو يتأثر بكلامك دائماً». دخلنا ضاحكين بسبب المزحة اللعينة التي أطلقتها هيام.

* * *

لم أنسَ، كما في كل مرة أزور فيها الندائي، أن أسأله عن آخر ما كتبه، وكان عادة ما يناولني وريقات تحتوي على قصيدة أو أكثر. كنتُ أحتفظ بها بعد أن أقرأها، وأحيانًا أحفظها عن ظهر قلب، إن أعجبتني، ولكنه في تلك المرة ناولني نصف ورقة تحتوي على قصيدة قصيرة، وحين نظرتُ في عينيه قال: «الرفاهية لا تنتج شعرًا يا صديقي».

13

أسبوعان قضيتهما بين شارع المكتبات والقراءة، ودروس كوثر في «الجسد والمتعة» وفي اللغة الألمانية، وبين تفكيري العميق بمستقبلي في بلدٍ لا مستقبل له.

قابلتُ العديد من الأشخاص ممن أعرفهم ولا أعرفهم، جبتُ المطاعم والمقاهي وتحدثتُ مع بعض الأدباء في شارع المكتبات، وعرفت منهم بعض عناوين الكتب المهمة التي صارت تدخل البلد بسهولة منذ فترة ليست بالبعيدة، وعرفت أيضًا بعض الأماكن الخاصة التي تقام بها بعض الأمسيات الثقافية والفنية، وحضرت أمسيتين لم أتلمس بهما غير التهريج والادعاء عنوانًا لهما. كنت أشعر أحيانًا أن مرض الأمية ينتشر بين أوساط المثقفين، فقد شعرت بأن الكثير لا يملكون عمقًا ثقافيًّا، بل قشور ثقافة يحسبونها واهمين بأنها الثقافة الحقة.

كنت، وفي بعض الأحيان ألعب مع غسان، وأحيانًا مع أم عامر، لعبة طاولة النرد، التي كانت لعبتنا المفضلة أيام السجن، وكنت دائماً أفوز على غسان لأنني كنت أتمتع بمنظر أذنيه حين تكتسيان

لـون الـدم، وكنـت غالبًـا مـا أخـسر جـولاتي مـع أم عامـر، لأنني كنـتُ أتمتـع بكلماتهـا الماجنـة وهـي تصـف تفوقهـا عـلى شـوارب الرجـال الأقويـاء.

زرتُ غرفتـي في بيـت الندائـي القديـم ثـلاث مـرات، كنـت أطمئـن عـلى أشـيائي هنـاك، وأتصفّـح كتبـي القديمـة، وأحيانًـا أعيـد قـراءة بعـض الفصـول اختبـارًا للذاكـرة وتنشـيطها، وفي أحيـان أخـرى، أعيـد قـراءة قصائـد الأسـتاذ عدنـان التـي حفظتهـا في ملـف خـاص بهـا، ولكنـي -ولمـرة واحـدة فقـط- خـلال تلـك الزيـارات فتحـتُ أحـد أكيـاس الضحايـا، متلمسًـا مـا بداخلـه قطعـة قطعـة، مسـتذكرًا أصحابهـا وطريقـة ترحيلهـم إلى العـالم الآخـر، كانـت متعتـي كبـيرة.

❋ ❋ ❋

استـيقظتُ مبكـرًا كعـادتي، حلقـتُ ذقنـي الـذي لم أمنحـه يومًـا فرصة النمـو عـلى حسـاب نضـارة وجهـي، ثـم تحمَّمـتُ، وخرجـتُ مسـتقلًّا سـيارة تاكـسي صـوب بنايـة الـوزارة، فقـد حـان موعـدي مـع العـم عـلي، وفي الطريـق شـاهدت شـجارًا بـين أفـراد عائلـة تسـكن الرصيـف ودوريـة للشرطـة تريـد ترحيلهـم عـن المـكان، كونهـم يشـكّلون منظـرًا بائسًـا لا يليـق بسـمعة العاصمـة. كانـت سـيارة الشرطـة تقطـع طريـق السـيارات بشـكل أرعـن، غـير مكترثـة بحركـة سـير المركبـات، حيـث تسـببت بتوقـف طابـور طويـل مـن السـيارات، كان مـن ضمنهـا سـيارة التاكـسي التـي أقبـع بداخلهـا، ممـا أتـاح لي مشـاهدة المشـهد بالكامـل،

252

حينها تذكرت أمي وأختي، وتصورت أنَّ حالهما ربما لا يكون أفضل من حال تلك العائلة المتكونة من امرأة وثلاثة أطفال ورجل مقعد. كانت المرأة شرسة جدًّا، صارت تنهال بالضرب على صدور أفراد الدورية، والرجل المقعد يصرخ: «الله أكبر». كلمتان لا غير يرددهما الرجل، والمرأة الذئبة تقاتل من أجل الاحتفاظ بمكانها.

نتيجة لتجمهر المارة الذين كان أغلبهم متعاطفًا مع العائلة المشردة، صابّين لعناتهم وغضبهم على الحكومة ورجال الدورية، انتهى المشهد بإطلاق عيارات نارية في الهواء وسقوط المرأة على الأرض مغشيًّا عليها، ومغادرة رجال الشرطة منتفخي الأوداج وكأنهم خارجون من معركة «الشرف» والحفاظ على «هيبة الوطن». استقلوا سيارتهم وانطلقوا فاتحين الطريق أمامنا، لينطلق السائق صوب الوزارة وهو يردد: «ضاعت الغيرة، ومات الشرف! وصارت الدنيا ملكًا للسرسرية!»

دخلَ الساعي الخاص بمكتب العم علي وهو يحمل بيده صينية يتوسطها فنجانا قهوة تفوح منهما رائحة مغرية. وكنتُ قبل ذلك، وتحديدًا حين دخلت المكتب وشاهدتُ رتبة اللواء على كتفي العم علي، لم أكن مصدقًا، رغم أني ابتسمت فرحًا، وباركت له الترقية «الصاروخية» التي يستحقها «بامتياز». طلب مني الجلوس مشيرًا إلى الكرسي، ولم ينسَ أن ينبه إلى تخصصي في المجاملات وإبداء المديح، وقال بأنَّ الرتبة أتتْ إليه ولم يسعَ إليها.

حاولتُ تخمين ما رمى إليه بكلامه، من أنه لم يسعَ للحصول

على الرتبة العسكرية، ذاهبًا بتفكيري صوب بعض الأشخاص الذي صاروا في مراكز مهمة بالسلطة، والذين من المحتمل أن يكونوا قد قرروا مكافأة العم علي على خدمات سابقة كان يُسديها لهم. وبالفعل، فقد عرفتُ فيما بعد، سرَّ ارتقائه إلى مناصب أكبر مما يستحق بكثير، كان ذلك بسبب تلاعبه بأوراق القاضي الذي كان يعمل بإمرته، فقد كان يدس بعض الأوراق المزورة في ملفات القضايا، أو يسرق بعض الأوراق المهمة والأدلة من الملفات بشكل مدروس، بعد أن يقبض أموالًا كبيرة، وأن ثلاثة من القتلة والسُّرّاق ممن ساعدهم العم علي قد احتلّوا مراكز مهمة في الدولة، وعرفانًا منهم بما قدّمه لهم العم علي منحوه بركاتهم، وصاروا يغدقون عليه المناصب والرتب العسكرية. كل ذلك عرفته على لسان العم علي بعد سنة من لقائنا المصيري.

شربنا القهوة ونحن نتبادل أحاديث عامة، وحين وجدتُ الفرصة سانحة لي سألته:

«سيادة اللواء، هل تعرف ضابط أمن سابقًا اسمه عامر محسن الشاهر؟»

ابتسم وهو يضيّق من فتحتي عينيه ناظرًا إليّ وكأنه يطرح عليَّ سؤال دهشته، ثم رجع بظهره ليلامس طراوة كرسيه وقال متسائلًا: «هل تعرفه؟» فقلت له إنني أعرفه حين كان مستأجرًا لشقة في البناية التي كنت أحرسها قبل دخولي السجن للمرة الثانية، فقال:

254

«الرجل يعمل الآن ضمن السلك الدبلوماسي خارج البلد، ولا يمكنه العودة إلى البلد كون يديه ملطخة بدماء الكثير من الضحايا..».

هالني ما سمعت، وتأسفت لأنه صار صعب المنال، ولكني سألت مندهشًا:

«أليست هذه مفارقة سيادة اللواء؟.. كيف يتم تعيين شخص مجرم في أرفع المناصب التي تمثل البلد في الخارج؟»

أطلق الرجل ضحكة مستخفة وقال بما يشبه الأحجية: «أشباهه الذي يمتلكون مناصب عليا داخل البلد منحوه تلك الوظيفة حتى يضمنوا سلامته ويعيش بسلام».

سادت حالة صمت بيننا، وفي لحظة تغيَّرتْ فيها ملامح العم علي صوب الجديّة، قال:

«هناك أمر مهم جدًّا أريد مناقشته معكَ، وأنتَ تعرف مقدار الحب الذي أُكنُّه لكَ». هززت رأسي موافقًا، فأضاف: «سيأتي بعد دقائق شخص يأخذك إلى سيادة وكيل وزير الداخلية، وأنتَ تعرف بأنه الوزير الفعلي لوزارة الداخلية، رغم عدم التصريح بهذا رسميًّا. عليكَ الاستماع إلى سيادة الوكيل، فالفرصة أمامكَ يا ابني، إن رفضتَ ما سيعرضه عليك، فاعلم بأنكَ ستكون مُحارَبًا من قبل السلطة، وإن قبلتَ فستفتح بوجهكَ بوابات المستقبل الذي تحلم به..». قلت والخوف يتملكني:

«وما طبيعة المهمة التي تنتظرني؟»

«مهمة بسيطة بالنسبة لكَ، ولا تخرج عن نطاق ما تعودتَ عليه وأتقنته».

وافقتُ على الفكرة، فقد كان كلام العم علي لا يحتاج إلى ذكاء خارق كي يُفهَم، إنه يشير إلى مهنة القتل، وأهم ما فكرت فيه هو أنني حين أكون قاتلاً مأجورًا لدى الدولة سأحظى بحماية عظيمة تبعدني عن يد القانون وسلطة المحاكم.

ضغط السيد اللواء على زر الجرس، فدخل شخص أعرفه. وقَف بوضع الاستعداد وكان يرتدي ملابس مدنية، ثم قال بطاعة واضحة: «بأمرك سيدي». وقبل أن ينطق العم علي بكلمة، وكنتُ أتفحص الشخص الماثل أمامنا وقوفًا، قلت: «هل تعرفني أيها الصديق؟» فقال على الفور: «طبعًا، وهل لأحد يعيش مع مرهون الصاحب لسنوات في السجن وينساه؟» فقلت: «أنت ضرغام إذن». عانقني بعد أن أخذ الإذن من السيد اللواء.

جلستُ وبقي ضرغام واقفًا، حينها أمره العم علي باصطحابي إلى مكتب السيد الوكيل.

تقدَّمَ أمامي وهممنا بالخروج مُودّعين العم علي، وفي منتصف المسافة بين باب المكتب وطاولة المكتب الأنيقة، وقفتُ وطلبتُ من ضرغام الانتظار خارجًا، ففعل، وحين اقتربتُ من العم علي الذي كان مبتسماً، قال دون أن يسألني عن الأمر الذي أعادني: «بهذه

الحركـة التـي أعجبتنـي جـدًّا، سـتكون المسـيطر عـلى ضرغـام إلى الأبـد، لقـد امتثـل لأمـرك دون تـردد». شـكرته وأعلنـت عـن عـدم تقصّـدي ذلـك، ولكننـي سـألته عـن الطريقـة التـي وصـل بهـا ضرغـام إلى مكتبـه، وطبيعـة عملـه، فأخـبرني بـأن ضرغـام لا يعمـل تحـت إمرتـه، بـل تحـت إمـرة السـيد الوكيـل مبـاشرة.

شكرته مرة أخرى وخرجت من مكتبه مودعًا.

مـا هـي إلا ثـلاث خطـوات، خطوناهـا مبتعديـن عـن مكتـب العـم عـلي، حتـى توقـف ضرغـام طالبًـا منـي الدخـول معـهُ إلى قاعـة مجـاورة، وحـين سـألته عـن أهميتهـا، قـال موضحًـا بـأن وقـت الصـلاة قـد أذن، ومـا القاعـة إلا مسـجد اسـتُحدث داخـل بنايـة الـوزارة. رفضـتُ الدخـول معـهُ، وطلَبـتُ منـه الذهـاب لأداء الصـلاة، عسـى أن يغفـر الله لـه بعـض ذنوبـه. هـزَّ رأسـه متأسـفًا وغـابَ في جـوف القاعـة. جلسـتُ عـلى أحـد الكـراسي المتراصـة في الممـر المحـاذي، مُفكِّـرًا بجـدوى صـلاة ذلـك الجـرذ الـذي اسـمه ضرغـام.

كنـت أعـرف أن العبـادة عندنـا، وعـلى مختلـف اتجاهاتهـا، هـي عبـادات طقوسـية، يتمتـع فيهـا المتعبّـد بالطقـس الاحتفـالي، بالمـكان، بالأشـخاص، حتـى يجـد متعـة كبـيرة في التظاهـر بأنـه يتعبـد.. هـي إذن عبـادات خاليـة مـن تأثيرهـا الروحـي، لا تعـرف كيـف تتغلغـل إلى داخـل الإنسـان، إلى روحـه كـي تهذبهـا. تبقـى طقوسًـا آنيـة لا تلامـس إلا القشـور، وسرعـان مـا تـزول مـع أول قطـرات مطـر المصلحـة الشـخصية.

في طريقنـا إلى مكتـب السـيد الوكيـل سـألت ضرغـام عـن عنوانـه الوظيفـي، فقـال إنـه أحـد مستشـاري السـيد الوكيـل. هـززتُ رأسي وقلـتُ متمتـماً دون أن يفهـم مرافقـي كلمـة واحـدة: «يبـدو أنني سـأقابل كل مـن عرفتهـم أثنـاء سـنوات السـجن.. تـرى هـل تشـكَّلت الحكومـة داخـل السـجن قبـل سـقوط الديكتاتـور؟».

258

14

بعـد خروجـي مـن مكتـب السـيد «الوزيـر» بثلاثـة أيـام، صـارت بنايـة السـيد جـواد الشَّـكَري ملـكًا صرفًـا لي. صحيـح أن «الوزيـر» وكالةً قـد أخـذ مني تنـازلًا غـير موثَّـق عـن البنايـة، لكنـه كان إجـراءً شـكليًّا.

فكَّـرتُ طويـلًا بتأمينهـا وحمايتهـا، وألّا تكـون أبـدًا محـط أنظـار النـاس، وألا تُعـرَف عـلى أنهـا تابعـة إلى مؤسسـة حكوميـة، فلـم أجـد أمامـي إلا العاهـرات، كأفضـل حـامٍ ومموه لهـا. طلبـت مـن أم عامـر وبصحبـة عاهراتهـا أن تحتـل الطابـق الأول مـن البنايـة كـما كانـت تتمنـى، لتكـون تمامًـا فـوق المحـال التجاريـة المغلقـة مـا عـدا دكان سـعيد الحـلاق. لم تُصـدِّقْ حينهـا، وراحـت تنهـال عـليَّ بالأسـئلة التـي لم أُجـب عـلى أي منهـا، وشـدَّدَتُ عـلى أن تكـون إحـدى شـقق الطابـق الثـاني خاصـة بغسـان، وأن تكـون الشـقة المقابلـة لهـا خاصـة بكوثـر، ويكـون لأم عامـر حريـة التـصرف في الشـقق الأربـع الخاصـة بالطابـق الأول.

خصصـتُ الطابـق الأخـير مقـرًّا للمؤسسـة، أمـا الطابـق الثالـث الـذي سـيبقى مهجـورًا «شـكلًا فقـط»، فقـد اتخذتـه مخزنًـا ومكانًـا سرّيًّـا لاجتماعـات ولقـاءات خاصـة، بالإضافـة إلى غرفتـي الشـخصية،

وغرفة أخرى أطلقتُ عليها «غرفة السيطرة» لمراقبة كافة زوايا البناية من الداخل والخارج، ثم ثلاث غرف فُتحتْ على بعضها لتكون الأرشيف الخاص بالمؤسسة. فعلتُ كل ذلك حين استحدثتُ سلّمًا نازلًا من إحدى غرف الطابق الرابع، حيث تمت إزالة نصف أرضيتها لتنفتح على الغرفة التي تحتها، ومن ثم بناء سلَّم أنيق بينهما. كل ذلك كان بعلم السيد «الوزير» الذي لم يرفض أي اقتراح، بل على العكس كان يبدي إعجابه بكل ما أقترحه، وكان يردد دائماً: «إنه مكانكَ وأنتَ حر فيه، ولكن، جميل أن تحرص على إخباري».

سلَّمتُ مفاتيح الشقق الأربع إلى أم عامر، وحين سألتني عن ثمن الأجرة الشهرية، أخبرتها بأننا سنناقش الأمر في وقت لاحق، ولكني طلبتُ منها أن تعيد ترميم بيتها، وأن تجعله نزلًا للفتيات المشَّردات، وأن تحرص على ألا تُؤجِّر أي غرفة إلى رجل أعزب دون موافقتي. نظرتْ صوبي بعين متفحصة، ثم ابتسمت بغضب طفيف وقالت: «هل تفكر في قطع رزقي ورزق البنات؟» نفيت ذلك، وأخبرتها بأمر آخر قائلًا:

«من المهم أن تعرفي بأن من ضمن الشروط عدم دخول أي زبون إلى البناية الجديدة، ويمكنكِ استضافة الزبائن في بيتك القديم، لأنني أعرف أن مدة بقائهم هناك لا تتعدى الساعة الواحدة. أريد من الطابق الأول في البناية الجديدة أن يكون طاهرًا..»، ثم أطلقتُ ضحكة وأضفت: «طاهرًا مباركًا بوجودكِ ووجود الجميلات

فقط..»، ثم ذكّرتَها بأنها لم تخسر شيئًا حتى هذه اللحظة، فبيتها كما هو ولا يزال ملكًا لها، ويمكنها رفض طلبي والتخلّي عن فكرة الانتقال للمكان الجديد.

اقتربتْ مني وطبعتْ قبلة على خدي، ثم اعتذرتْ شارحةً بأنها لم تقصد إثارة غضبي.

قبلتُها أنا أيضًا وذكّرتها بمعزّتها ومكانتها عندي، وطلبتُ منها أن تبعث لي كوثر لأمر مهم. «ثوان وتكون عندك، حبيبي أنتَ». قالت ذلك، ثم صرختْ بأعلى صوتها منادية على كوثر، انزعجتُ من صراخها، فحشرتُ أربع كلمات قذرة في أُذنيها، وعلى إثر كلماتي القذرة، أطلقتْ ضحكة ماجنة وهي تغادرني.

كانت كوثر بأجمل حلتها، ويبدو أنها قد أخذت حمامها قبل دقائق، وذلك ما جعلها تتأخر عني قرابة الربع ساعة. كانت وكأنها تدخل غرفة الزوجية، ترتدي ملابس نوم خضراء بلون العشب المنتعش بالندى الصباحي، قميص نوم قصيرًا شفّافًا وفوقه روب من القماش واللون نفسيهما. طلَبتُ منها الجلوس أمامي وليس إلى جانبي، وتلك عادتي حين أريد التحدث مع شخص في موضوع مهم. النظر إلى العينين، ودراسة الإشارات الجسدية الخاصة بالمقابل تهمني جدًّا. شممتُ عطرها الرخيص حين اقتربتْ وهي تهم بالجلوس حيث الكرسي الذي أمامي. الحقيقة، كنتُ قد فكّرتُ بتعيين سكرتيرة لي في المؤسسة التي سأُديرها، والتي اتفقت بشأنها مع السيد «الوزير»، فكّرتُ بكوثر كونها تجيد اللغة

الألمانية والإنجليزية بالإضافة إلى العربية، ولكن حين جلستْ قبالتي وتصورتُ عدد الرجال الذين تقافزوا على جسدها، شعرت بأن تفكيري لم يكن صائبًا. بقيتُ ناظرًا صوبها بصمت، وكانت تنظر إليَّ مبتسمة، في تلك اللحظة استحضرتْ ذاكرتي صورة فاتن، المرأة الشابة الأرملة التي قابلتها في بيت الرجل الكهل الذي أودعت عنده كيس السجن. ابتسمتُ وكأني قد عثرت على ضالتي، فقلت:

«هل تعرفين بأنني قد عثرت على عامر الشاهر؟»

اتسعت عيناها معلنة أقصى درجات الدهشة، وقبل أن تتفوه بكلمة، قلت: «إنه خارج البلد، ولا أظن بأنه سيعود يومًا ما..». قطعتُ حديثي حين شاهدتُ انهيار دموع المرأة بغزارة، وسألتها عن سبب البكاء، فقالت بأن الدموع تنهمر بشكل لا إرادي حين تتذكر أو تسمع اسم ذلك الرجل المجرم. احتضنتها واعدًا إياها بعدم ذكر اسمه مرة أخرى، ثم مسحت دموعها براحتيَّ، وقلتُ لها بعد أن أشرت إلى أنني أحمل لها خبرًا سارًّا:

«كوثر العزيزة، اسمعيني جيدًا! من اليوم ستتركين عملكِ مع أم عامر، وسيكون لك عمل محترم يدرّ عليكِ مدخولًا ماديًّا جيدًا..». أرادتْ أن تقول شيئًا فطلبتُ منها عدم المقاطعة، وأضفت: «سوف أمنحكِ شقة محترمة، تكون سكنًا لكِ ومكانًا للعمل؛ لذا أعتقد أن من المهم أن نؤسس أنا وأنتِ مكتبًا للترجمة، ترجمة الوثائق والأخبار والمقالات من الألمانية والإنجليزية إلى العربية وبالعكس، وستكونين مديرة المكتب والموظفة الوحيدة فيه، وسوف

262

أؤمِّـن لـكِ المستلزمات كافـة». شرحـتُ لها طبيعـة العمـل ومـا عليهـا القيـام بـه، وكنـتُ أنظـر إلى عينيهـا المغرورقتـين بالدمـوع، وفمهـا الـذي ظـل محتفظًـا بابتسـامة الدهشـة، وحـين صَمَـتُّ، قامـتْ مـن مكانهـا واحتضنتنـي، وراحـت تُقبّلنـي، واسـتطاعتْ بحركـة شـقيّة أن تفـرد جسـدي عـلى السريـر لتسـتقر فوقـه.

وافقـتْ كوثـر عـلى كل مـا طلبتـهُ منهـا، وأعطيتهـا مفتـاح الشـقة طالبًـا منهـا نقـل أغراضهـا الضروريـة فقـط مـن غرفتهـا إلى شـقتها الجديـدة، فقالـت وهـي تهـم بالخـروج: «أجمـل مديـر مكتـب ترجمـة في العـالم، وأنـا طـوع أمـركَ أيهـا الشـاب الوسـيم مفتـول العضـلات..». قلـتُ لهـا وكأننـي تذكـرت شـيئًا مهـمًّا: «مكتـب الكوثـر للترجمـة، هـل يعجبـك الاسـم؟»

لم تكـن دهشـة غسـان أقـل تأثـرًا مـن دهشـة كوثـر حـين أخبرتـهُ بـما قـرّرت بخصوصـه. أخبرتـه بأننـي قـررت منحـه شـقة خاصـة بـه، شريطـة أن يكـون تابعـي والموظـف الخـاص بخدمتـي.. أخبرتـه بأنـه سـيكون موظفًـا حكوميًـا، وأكـون أنـا رئيسـه في العمـل، شريطـة أن يـترك العمـل مـع أم عامـر، ولكـن دون أن يتخـلى عنهـا تمامًـا.

بعثـتُ برسـالة مشـفرة إلى السـيد «الوزيـر» مسـتخدمًا روايـة «حفلـة التيـس»، أقـترحُ عليـه غسـان ليكـون السـاعي الخـاص بينـه وبينـي، وبعـد خمـس دقائـق وصلتنـي رسـالة عاديـة تخبرني بـضرورة الحضـور إلى الـوزارة غـدًا عنـد العـاشرة صباحًـا مصطحبًـا الموظـف الجديـد الـذي أقترحـه.

263

أعطيتُ مفتاح الشقة إلى غسان، وطلبتُ منه أن يعدّها مسكنًا له، وأن يترك غرفة من غرفتيها فارغة تمامًا لغرض سأخبره به غدًا بعد عودتنا من الوزارة.

رقصَ غسان كثيرًا، ومازحني أكثر، وفي لحظةٍ أبديتُ بها جديّة وصرامة واضحة، غادرني وهو يردد أغنية تعبوية حفظها عن ظهر قلب منذ فترة الديكتاتور، فنهرته.

عند الساعة العاشرة تمامًا، كنت وغسان في مكتب السيد «الوزير» نشرب القهوة، كان السيد «الوزير» ينظر صوب غسان متفحصًا حركاته الأنثوية ويضحك وكأنه يشاهد مشهدًا كوميديًّا. ضغط على زر كهربائي فدخل ضابط برتبة ملازم أول، طلب منهُ أن يأخذ غسان معه وأن يجري معه اللازم، ومنذ تلك اللحظة التي غاب فيها غسان لم ألتقِ به إلا في ساعة متأخرة من الليل، في شقته الجديدة، حين فتحتُ بابها بالمفتاح الإضافي الذي كان بحوزتي، فقد كنت متفقًا مع الجميع على الاحتفاظ بنسخة مفتاح لكل شقة.

سألني السيد «الوزير» عن غسان، وكيف تعرفتُ عليه، وما هي الصفات الجيدة وغير الجيدة فيه، فأخبرته بكل ما أعرف عنه مشدِّدًا على وفائه المطلق نحوي، وكذلك موهبة الكتمان التي يتمتع بها، وذكرتُ له صفة واحدة أعتبرها مشينة، هي ميوعته، وميله إلى عشق الذكور بدلًا من الإناث، ليفاجأني سيادة «الوزير» قائلًا: «أنتَ على خطأ، فهذه هي الصفة الأهم..». ضحكتُ وضحكَ هو الآخر، ولم أكن مدركًا لما يرمي إليه من وراء ملاحظته تلك.

264

خرجتُ من مكتب «الوزير» وكالةً، وقد قررتُ زيارة فاتن. أشرتُ إلى سيارة تاكسي، شدَّني الانتباه إليها. كانت سيارة حديثة ومتينة، ومن الغريب أن تكون سيارة أجرة. أخبرتُ السائق بالعنوان الذي أروم الوصول إليه، ثم أخبرته عن دهشتي بأن تكون سيارته الفارهة والحديثة سيارة أجرة، فأخبرني بأن الفاقة التي نزلت عليه فجأة كالصاعقة كانت السبب وراء تحوّل السيارة إلى تاكسي، ثم أخبرني أن السيارة معروضة للبيع. على الفور قررت شراءها؛ فقد كنت بحاجة ماسة إلى سيارة، ولكنني كنت أفكر بطريقة تبعدني عن المشاكل وطمع العصابات، فلم أجد أفضل منها، خصوصًا وأنها لا تشبه سيارات الدولة التي سبق وأن عُرِضتْ عليَّ.

حين أوصلني إلى بيت فاتن، اتفقتُ معه على صبيحة اليوم التالي لنقل ملكية السيارة إليَّ، ووعدتهُ بأن المبلغ سيكون جاهزًا عدًّا ونقدًا، وبالعملة الأجنبية.

طرقتُ الباب، وبعد برهة خرج إليَّ الصبي الذي ذكّرني بصِباي حين رأيته للمرة الأولى، عندما كنت أروم استعادة كيس السجن. كان قد كَبُرَ قليلًا، ويبدو أنه تذكّرني على الفور، وأول ما قاله لي:

«عمو، جدي مات!»

أخذتني الدهشة وبقيت صامتًا ثواني، ولكني استدركتُ الأمر وسألته إن كان هناك أحد في البيت يمكنني الحديث إليه.

دخل مسرعًا، وبعدها سمعتُ صوتًا نسائيًّا أعرفه جيدًا ينادي طالبًا مني التفضل بالدخول.

دخلتُ برفقة الصبي حيث صالة البيت. هناك، وجدت فاتن بكامل جمالها، رغم تلفّعها بالسواد. واسيتها طالبًا الرحمة والمغفرة للحاج عبد الله. ومن أجل تبرير زيارتي لها، قلت: «لي أصدقاء يشغلون مراكز مهمة في الدولة، وكنتُ قد طلبتُ منهم سابقًا أن يجدوا وظيفة لفتاة تخصني، وقبل أيام أخبروني بأن الوظيفة جاهزة، ويمكن للفتاة أن تباشر عملها بعد غد»، ثم نظرتُ في عينيها المتسائلتين مليًّا وأضفت: «وما سببُ زيارتي لكم إلا لأخبركِ بأنكِ أنتِ الفتاة التي حصلت لها على الوظيفة، فما رأيكِ؟»

انفرجت أساريرها وابتسمت وكأنها تريد احتضاني، ولكنها صمتتْ للحظة، ثم طلبتْ مني البقاء لأشاركها والصبي وجبة الغداء. وافقتُ مسرورًا وطلبتُ كأس ماء. نظرتْ فاتن صوب الصبي، فراح مهرولًا إلى الداخل ليأتي لي بعد أقل من دقيقة بدورق ماء وكأس. قدَّمَ لي كأسًا مليئة بالماء، تسلمته من يده وشكرته، وقبل أن أشرب سألته: «ما اسمك؟» قال: «نشوان»، فقلت دون أن أفكر كثيرًا: «نشوان يطلّ على الساحة.. كجليل تنتظر المشية». وأثناء شربي للماء، سمعت فاتن تقول: «شباك وفيقة في القرية».. ذُهِلتُ وأنا أُبعد الكأس عن شفتيَّ. نظرتُ صوبها ووجدتها مبتسمة، قلت لها متسائلًا: «هل تعرفين القصيدة؟» قالت: «بل وأحفظها عن ظهر قلب». بقيتُ مندهشًا ناظرًا صوبها بصمتٍ أحببت لو أطيل زمنه، فقالت: «أعشق هذه القصيدة التي كتبها السياب عام 1962 وهو في مرحلة مرضه الأخيرة حين كان يرقد في المستشفى الأميري بالكويت».

أدخلـتْ كلماتهـا الأخـيرة الطمأنينـة إلى روحـي، وصرتُ أكثـر تمسـكًا بهـا، بـل شـكرت نفـسي وعقـلي لأنهـما أرشـداني إليهـا في اللحظـة الأخـيرة، قبـل مفاتحـة كوثـر بموضـوع السـكرتارية.

حـين كنـا نتنـاول طعامنـا أنـا وفاتـن ونشـوان الجميـل، حدثتهـا عـن طبيعـة عملهـا الجديـد، مشـدِّدًا عـلى ضرورة الصمـت والسريـة، فهـما عنـوان الوظيفـة التـي تتميـز بمركزهـا الحسـاس جـدًّا. كانـت متفهمـة وموافقـة عـلى كل مـا أقـول وكأنهـا تريـدني دائـم البقـاء إلى جانبهـا، ذلـك مـا تلمسـته مـن خـلال قـراءة إشـارات عينيهـا ومـا كان مرتسـماً عـلى ملامحهـا. اتفقـتُ معهـا عـلى صبيحـة بعـد الغـد لأصطحبهـا وأوصلهـا إلى مـكان عملهـا الجديـد. راحـتْ تُحـدِّث الصبـي بـضرورة الالتـزام بالتعليـمات الخاصـة بالبيـت في فـترة غيابهـا؛ لأنهـا سـتعمل وتوفـر لـه مـا يحتاجـه. نظـر نشـوان نحـوي وقـال: «عمـو، أريـد دراجـة هوائيـة»، فقلـتُ لـه وأنـا أداعـب خصـلات شـعره إن القـرار بيـد فاتـن، فهـي التـي تقـرر، ومـع ذلـك سـأحاول إقناعهـا بتلبيـة طلبـكَ.

قبـل أن أغـادر البيـت وضعـتُ مظروفًـا يحتـوي عـلى قليـل مـن المال، مشـيرًا إلى أنـه هديـة الوظيفـة الجديدة.

❊ ❊ ❊

في الليـل، قابلـت غسـان حـين فتحـتُ بـاب شـقته بالمفتـاح الـذي بحـوزتي، وجدتـهُ ممـددًا عـلى الأرض مفترشًـا بطانيـة، وإلى جانبهـا قنينـة مـن الـشراب المحـلي وكأس وصحـن سَـلَطة. حـاولَ النهـوض

ولكني تلمّست سكره. طلبتُ منهُ البقاء كما هو، ثم سألته عمّا جرى في بناية الوزارة، فأخرج بطاقة من جيب قميصه ومدها صوبي، تناولتها وتبيَّنَ لي أنها هوية باسم «غسان شوكت عبد النور»، صادرة برتبة ملازم أول في الشرطة تابع لوزارة الداخلية. نظرتُ في عينيه متسائلًا دون أن أقول كلمة، فقال: «هل عرفت الآن لماذا أردتُ الوقوف لكَ حال دخولك؟ ولكنك أمرتني بالبقاء كما أنا وامتثلت لأوامركَ.. كنتُ أريد احتضانكَ وتقبيلكَ؛ لأنكَ أوصلتني إلى مكانة لم أكن أحلم بها، أو حتى أجرؤ على التفكير بها».

أفردتُ له ذراعيَّ، ففهم الإشارة ووقف ثم اتجه صوبي وعانقني، وراح يبكي بتنهد شعرت بعمق صدقه.

❃ ❃ ❃

في اليوم التالي، وبعد أن أتممنا عقد شراء السيارة، وأصبحتْ ملكًا لي، ودفعتُ المبلغ المطلوب لصاحبها الذي أوصلني إلى بيت فاتن في الأمس. سألتهُ إن كان يعرف محلًّا قريبًا لبيع الدراجات الهوائية. ابتسم وكأنه يشير إلى عدم معرفتي بالمدينة وكأنني غريب لا أعرف أماكنها جيدًا، وتأكد حدسي حين سألني إن كنت غريبًا عن العاصمة، أو قادمًا إلى البلد بعد سنوات عشتها في الخارج، أجبته نافيًا، ولكني طلبتُ منه أن يدلّني على ما سألته عنه. وتلمَّس الرجل جديتي وعدم

رغبتي في البوح بأي معلومة تتعلق بخصوصياتي، فطلب مني أن يكون إلى جانبي داخل السيارة ليدلني على محل قريب، وبالفعل وصلنا محلًّا متخصصًا ببيع الدراجات، حينها شكرته وغادرني مبتسماً، متمنيًا لي التوفيق والسلامة، ولم ينس أن يبارك لي للمرة الألف بسيارتي الجديدة.

اشتريتُ دراجة بعد أن سألت عما يناسب صبيًّا بعمر نشوان، وعن أحدث الدراجات لديه. وضعتُ الدراجة في الجزء الخلفي من السيارة وانطلقت حالمًا بتلمس الفرح على وجه نشوان، وإشارات الرضا التي كنت أتمنى رؤيتها على مُحيّا فاتن الجميلة.

لا أدري لماذا كنت أشعر بأن الصبي يشبهني، ربما لأنه دون أب وأم، أو ربما هناك شيء آخر لم أتوصل إليه بعد.

صار يرقص مرفرفًا كعصفور وهو يتسلم دراجته الجديدة، وكانت فاتن تقابله بدموع تتلألأ كأشعة شمس وسط نهر رقراق. احتضنني بسرعة، ثم عاد لدراجته. لفَّ بها لفة سريعة، ليرتمي بأحضان فاتن بعد دقيقة، ثم عاد إلى دراجته، يلف بها، وظل على حاله ذاك يتوزع بفرحه بين أحضاني وأحضان دراجته ودفء أحضان زوجة عمه التي لم يعرف أمًّا له غيرها، حتى أوقفَ الدراجة بمهارة عالية والتفت إلى فاتن يسألها: «هل تسمحين للدراجة أن تنام معي هذه الليلة؟» أطلقنا ضحكات عميقة، واستمر ضحكنا طويلاً.

❋ ❋ ❋

269

في اليـوم التـالي، كنـتُ أتنـاول فطـوري مـع فاتـن، حـين غادرنـا نشـوان بدراجتـه الجديـدة متوجهًـا صـوب مدرسـته، بعـد أن أهدانـا عـدة قبـلات.

كنـتُ راغبًـا في البقـاء جالسًـا أمـام عينـي فاتـن لأطـول فـترة ممكنـة. كنـتُ مسـحورًا بعينيهـا الصامتتـين ككتـاب، كنـت أقـرأ فيـه أجمـل مـا كتبـه الله، ويبـدو أنهـا كانـت تشـاطرني الرغبـة في البقـاء، لكننـا انتبهنـا إلى ضرورة مغـادرة البيـت، وأن أمامنـا قرابـة النصـف سـاعة لنكـون في مـكان عملهـا الجديـد. طلَبـتْ فاتـن التـي كانـت بكامـل أناقتهـا وزهوهـا، مـن الجـيران الملاصقـين لدارهـا أن يعتنـوا بالصبـي إن احتـاج شـيئًا بعـد عودتـه مـن المدرسـة، وقـد أخبَرَتْهـم بـضرورة خروجهـا بسـبب حصولهـا عـلى الوظيفـة الجديـدة.

في طريقنـا إلى المؤسسـة «مؤسسـتي»، تبلـورت الفكـرة التـي بـدأت تـدور بـرأسي وأنـا أنظـر صـوب نشـوان وهـو ينثر فرحـه الـذي انتشر حتـى طـوى أرجـاء البيـت كلـه. كنـتُ أفكِّـر بفتـاة تهتـم بـه أثنـاء غيـاب فاتـن عـن البيـت، وحـين اهتـدى تفكـيري إلى فتـاة تعمل ضمـن مجموعة فتيـات أم عامـر. أخـبرتُ فاتـن بفكـرتي. التفتـتْ صـوبي وكأنَّ مـا قلتُـه قـد اسـتفزّها، وسـألتني بجدية لم أفهـم دافعهـا في حينهـا: «لمـاذا أنـتَ مهتـمٌّ بنـا إلى هـذه الدرجـة؟» ابتسـمتُ وقلـت: «لأن نشـوان يشـبهني، بـل هـو أنـا، هكـذا رأيتـه.. هـل لديـكِ مانـع؟»

«لم أفهم!» قالت فاتن، فقلت: «ستفهمين لاحقًا».

«أعتقـد أن نشـوان ليـس بحاجـة إلى مربيـة أو مديـرة منـزل

تهتم بـه..». نظـرتُ صوبهـا مرعوبًـا، فقـد تلمسـتُ في نبرتهـا صـدًّا قاسـيًا لفكـرتي، سـألتها عـن قصدهـا، فابتسـمت بصمـت لثـوانٍ ثـم قالـت:

«لمـاذا انتفضـتَ بهـذه السرعـة وهـذا القـدر مـن الحساسـية المفرطـة، مـا الـذي دار في خلـدكَ؟.. أعتقـد أنـكَ قـد نسـيت أن عـلى نشـوان الذهـاب إلى المدرسـة صباحًـا، والعـودة إلى البيـت بعـد الظهـر؛ لـذا فإنـه لا يحتـاج إلى مَـن يهتـم بـه، ثـم إنـه كبـير العقـل، كامـل الرجولـة، عـلى الرغـم مـن صغـر سـنه..!» وضعـتُ يـدي عـلى رأسي بينـما اليـد الأخرى ممسـكة بمقـود السـيارة قائـلًا بنـوع مـن الأسـف والمـرارة:

«اعذرينـي، فالمدرسـة موضـوع غـير مبرمـج داخـل منظومـة دماغـي.. لم أفكِّـر بهـا إطلاقًـا، رغـم أنـه ومنـذ دقائـق قـد ذهـب إلى مدرسـته»، ثـم حاولـتُ تغيـير الموضـوع فقلـت: «هـل تعرفـين بـأن في اسـمكِ خطـأ وإجحافًـا؟» ضحكـتْ مندهشـة وهـي تـردد كلمتـي «خطـأ وإجحـاف» بتعجـب، وثـم اسـتفسرتْ عـن سرِّ الكلمتـين.

«فاتن، صفة للذكر وليست للأنثى، هذا هو الخطأ..».

«وماذا عن الإجحاف؟»

«الإجحـاف هـو إطـلاق صفـة ذكوريـة عـلى فتـاة رائعـة الجـمال..». قاطعتنـي بـشيء مـن الارتبـاك: «هـل أعتـبر هـذا غـزلًا؟»

«لا أبدًا، إنها حقيقة، فأنتِ رائعة الجمال بحق..».

«شـكرًا لـكَ.. ولكـن، مـاذا تقـترح، أو مـا هـو الصحيـح ليكـون اسـمًا لي حسـب رأيـك؟»

«فاتنــة.. فاتنــة، أيتهــا الفاتنــة!» صمتــتْ ولم تقــلْ كلمــة بعــد ذلــك، باســتثناء طلبهــا فتــح المذيــاع لســماع أي شيء، وكأنهــا قــررتْ الهــروب خوفًــا مــن اتســاع رقعــة الغــزل، ولكنــي وقبــل تشــغيل المذيــاع قلــت:

«مــن الآن اســمك فاتنــة، وســأســجل ذلــك في ســجلكِ الوظيفــي..» ثــم صمــتُّ قليــلًا وأضفــت: «فأنــا رئيســكِ في عملــكِ الجديــد».

❁ ❁ ❁

جُــنَّ جنــون أم عامــر وهــي تــرى فاتنــة بصحبتــي ونحــنُ نــروم دخــول بوابــة المصعــد الكهربائــي الــذي خصصتــه لخدمــة المؤسســة فقــط، فقــد طلبــتُ مــن المهنــدس المــشرف عــلى تركيبــه عمــل مفتــاح خــاص ببوابتــه، ثــم علَّقــتُ قطعــة صغــيرة مكتوبًــا عليهــا: «المصعــد عاطــل عــن الخدمــة».

بعــد أن وصلنــا الطابــق الرابــع، دخلــتُ وفاتنــة مــن البــاب المعلَّــق إلى جانبــه لوحــة نحاســية منقــوش عليهــا «الدكتــور مرهــون الصاحــب»، والتــي انتبهــت لهــا فاتنــة دون أن تقــول كلمــة، مكتفيــة بالنظــر إليَّ بإعجــاب حــذر. أخبرتهــا قبــل أن أتجــول معهــا لأُطلِعهــا عــلى أروقــة المؤسســة وأهميــة كل غرفــة أو زاويــة فيهــا، بأنــه مــكان عملهــا، متمنيًــا أن تحبــه مثــل بيتهــا. هــزَّت رأســها موافقــة برضًــا واضــح، ثــم طلبــتُ منهــا تنظيــف المــكان وإعــداده حتــى يحــين موعــد اســتلام الأثــاث الــذي طلبتــه مــن شركــة متخصصــة ســتصل بعــد ثــلاث ســاعات.

نزلتُ السلالم دون استخدام المصعد الكهربائي حيث شقة أم عامر، سحبتها من يدها كخروف مُعدٍّ للذبح، ودخلت معها غرفتها التي بتُّ أعرفها منذ مساء أمس. أجلستها قبالتي وقلتُ لها حازمًا: «هناك حدود يجب الالتزام بها، أنا وحياتي الشخصية وعملي وما أهتمُّ به يعد خطوطًا حمراء غير مسموح لكِ بالاقتراب منها، فحدود علاقتي بكِ هو ما أطلبه منكِ فقط، وإن تجاوزتِ تلك الحدود سأعيدكِ إلى بيتك القديم، هل ما أقوله مفهوم؟» أجابت بهزة من رأسها والدموع تنهمر من عينيها. تركتها سابحة بدموعها متظاهرًا بالخروج، ولكنها سرعان ما التفتتْ نحوي وهي تعلن عن اعتذارها. عدتُ إليها، ومسحتُ على رأسها ثم قبّلتُ جبينها، ولم أنسَ أن أهمسَ بأذنها كلمات كنتُ أعرف أنها ستثير شهوتها وتطلق كلماتها البذيئة.

جلستُ قبالتها مرة أخرى وقلت متسائلًا بجدية: «ما رأيكِ بـ«ليلى»؟» فقالت: «صغيرة وجميلة، وأمينة، وقليلة الكلام.. هل تريدها الليلة؟» أخبرتها بأنني لا أريدها لنفسي، ولكن أفكر بإيجاد عمل شريف لها». جحظتْ عيناها وهي تنظر لي بعصبية واضحة، ولكني لم أمنحها فرصة التعليق على كلامي، وسألتها إن كانت تجد في ليلى صفة الإخلاص والالتزام بالتعليمات.

لطمت أم عامر على صدرها وهي تقول:

«هل تريد أن تأخذها مني وأنا التي ناضلت أكثر من ساسة البلد الجدد من أجل الاستحواذ عليها؟»

أطلقتُ ضحكة استمرت طويلاً، كانت أم عامر خلالها تنظر إليَّ مبتسمة حتى سألتني عما يضحكني، فقلتُ إشارتكِ إلى أنكِ ناضلتِ أكثر مما ناضَل ساسة البلد الجدد قد صدَمتني لعمقها وتلامسها الوثيق مع الواقع.. ملعونة، من أين لك هذا الحس السياسي؟»

«حتى الطفل في بطن أمه يعرف أنه سيخرج ويعيش في بلد تحكمه زمرة من اللصوص والمزورين والقتلة». قالت ذلك وهي تجاري ضحكاتي بضحكاتٍ أعمق بعد أن نبَّهتها إلى عمق ما قالته، ثم أضافت:

«لذا كثرتْ عمليات الولادات القيصرية؛ لأن الأطفال لا يريدون الخروج..». ضحكنا كثيرًا، فقد انفتحت قريحة «المناضلة» أم عامر، قريحة داعرة بامتياز.

كان موضوع ليلى قد استحدثتهُ مخيلتي، حين كنت أشاهد دموع أم عامر منهمرة بغزارة، وقد نجحت في تغيير الموضوع صوب الضحك والهزل. كانت ليلى جميلة بحق، وكانت تحمل كل الصفات التي ذكرتها أم عامر.

حال خروجي من شقة أم عامر، صعدتُ إلى الطابق الثاني حيث شقة غسان، كان العامل مشغولاً بتثبيت يافطة «مكتب الكوثر للترجمة» إلى جانب الباب.

طرقتُ الباب الذي سرعان ما انفتح ليظهر لي غسان عاريًا إلا من لباس داخلي قصير. نهَرتهُ مشددًا على ضرورة ارتداء ملابسه

الكاملة أثناء النهار، فهي ساعات عمل حتى وإن كان في بيته، عليه أن يكون مستعدًّا لأي أمر..

اعتذر ودخل غرفته. ارتدى ملابسه على عجالة وظهر أمامي منتظرًا أوامري.

أعطيته المفتاح الثاني الخاص بسيارتي، وأخبرته بضرورة توصيل موظفتي الجديدة إلى بيتها عند الساعة الثالثة بعد الظهر كي يستدلّ على عنوانها؛ لأنها ستكون مهمته اليومية التي تقتضي إيصال الموظفة إلى المؤسسة صباحًا، ومن ثم إعادتها إلى بيتها عند انتهاء ساعات العمل، ثم سألته إن كان الأمر واضحًا بالنسبة له، رغم أني لا أشك في نباهته وذكائه، بل كنت معجبًا بهما.

الملعون، أخذ لي تحية عسكرية لا تخلو من حركات أنثوية وهو يقول: «أمرك دكتور.. كل أوامرك مطاعة».

15

خمسة أشهر كانت كافية لاستكمال كل الأمور المتعلقة بالمؤسسة، ومنذ أن احتضن الجدار لوحة خشبية مثبتًا عليها مستطيل نحاسي منقوش عليه بالخط الديواني: «الدكتور مرهون الصاحب» جنب باب إحدى شقق الطابق الرابع، صار الجميع يناديني بالدكتور.

تم تثبيت لوحة أخرى أكبر من اللوحة التي تحمل اسمي، على الباب المقابل منقوش عليها «المؤسسة العامة للثقافة والنشر»، وكانت الشقق الأربع قد فُتحتْ على بعضها من الداخل، حيث تمت إزالة أجزاء من الجدران الداخلية الفاصلة واستحداث أبواب جديدة لذلك الغرض، كما تمت إزالة البابين الخارجيين للشقتين الأخريين، وتم إغلاقهما تمامًا بأدوات البناء ليستويا مع الجدار، فصار الطابق الرابع يحتوي على بابين متقابلين فقط، الأول يشير إلى وجود «المؤسسة العامة للثقافة والنشر» بدلالة القطعة المثبتة إلى جانب الباب، والثاني يخص شقة الدكتور «مرهون الصاحب» الوهمية.

277

الطابـق الثالـث الـذي سـدتْ جميـع الأبـواب الرئيسـية لشـققه وباتـت مجـرد جـدران، لا يمكـن الدخـول إليـه إلا مـن خـلال إحـدى غـرف الطابـق الرابـع. كان مخصصًـا لعمـل فاتنـة، كونـه المكان الأهـم الـذي يمثـل العصـب الرئيـس لعمـل المؤسسـة والهـدف مـن وراء تأسيسـها، فهـو الأرشيف الـذي صـار يضـم المئات مـن الوثائـق. ملفـات مرصوصـة كُتـبَ عليهـا أسـماء أشـخاص أو تواريـخ وعناويـن لصفقـات، أرشـيف يحتـوي عـلى كل شيء، حتـى جلسـات البرلمـان واجتماعـات مجلس الـوزراء، ولقـاءات خاصـة بـين المسـؤولين.

أغلـب مـا كانـت تحتويـه الملفـات سـيديهات أو أشرطـة فيديـو، وكذلـك صـور لمناسـبات ولقـاءات مختلفـة تضـم أهـم رمـوز السـلطة الجديـدة، أمـا بقيـة الملفـات، فقـد كان أغلبهـا ملفـات شـخصية تتضمـن كل المعلومـات عـن أصحابهـا، أعمارهـم، عناوينهـم، خرائـط تحركاتهـم اليوميـة، وتحصيلهـم الـدراسي، بالإضافـة إلى سـيرة ذاتيـة شـاملة، خصوصًـا السـيرة القـذرة.. العـشرات منهـا، تحتـوي عـلى أدلـة فاضحـة وخطـيرة تخـص بعـض رجـال الدولـة الجـدد، وكذلـك بعـض رجـال السـلطة السـابقة ممـن يتبـوَّؤن مناصـب مهمـة في تشـكيلة الحكومـة الجديـدة. أدلـة جُمعـتْ بجهـودٍ مضنيـة، وبطـرق مختلفـة، بعضهـا لا يخلـو مـن الخـداع والتوريـط.

غرفـة أخـرى ضمـن الطابـق الثالـث كانـت مخزنًـا للأسـلحة والمسدسـات الكاتمـة، وبخاخـات سـامة، وقنـاني تحتـوي عـلى مـادة مخـدِّرة، وأخـرى عـلى شـكل قواريـر عطـر تسـتخدم للتخديـر أيضًـا،

بالإضافة إلى عدد غير قليل من رزم الأوراق المالية الخضراء. غرفتان خصصتا تحت اسم «قسم السيطرة»، تحتويان على أجهزة إلكترونية أغلبها متخصص بالاتصالات

وشبكة الإنترنت، بالإضافة إلى أجهزة المراقبة التي تعمل على مراقبة ومتابعة كل حركة تحدث داخل وخارج محيط المؤسسة.

كل ملفات الأرشيف التي تضم الآلاف من الأسماء والقضايا، كنت قد قرأتها وأعرف كل ورقة فيها، بدافع السيطرة على زمام الأمور، وتجنّب حدوث أي خطأ، وهناك دافع آخر كان يشغل تفكيري على الدوام هو البحث عن أمي وأختي «وداد»، التي يجب أن تكون في بداية العشرينيات من عمرها، ولا أدري.. لماذا كنت أتصور بأنني سأعثر عليهما ضمن أحد الملفات؟

كانت الملفات والأضابير والمعلومات الورقية أو العينية تصلني بشكل مستمر عن طريق غسان، الساعي الوحيد بين مؤسستنا والوزارة، أحياناً تصلني صور وسيديهات مسجل عليها أفلام فاضحة، وحوارات مسجلة، وصور لوثائق، يتم تنظيمها وأرشفتها بشكل متقن ولا يحتمل الخطأ، وكل ذلك التنظيم وتلك الدقة في فن الأرشفة والتبويب كان من صميم عمل فاتنة، صاحبة العقل المتقد، والذكاء الاستثنائي، فهي من قام بتنظيم أخطر أرشيف في عمر الدولة الجديدة رغم قصره، وعلى مدى خمسة أشهر، وعلاوة على ذلك كانت تضع أمامي كل يوم ملخصات لما يصل إلينا، كانت مذهلة في عملها، صامتة على الدوام، وغالبًا ما كان صمتها وحركة

عينيهـا السـاحرتين تثـيران فيَّ رغبـة في تقبيلهـا وضمهـا إلى صـدري. كنـتُ أقـرأ في كل مـرة قصيـدة رائعـة التكويـن والمعنـى في عينيهـا اللتـين كانتـا تتكلـمان بعذوبـة صامتـة.

حرصـتُ عـلى اقتنـاء لوحـات فنيـة، وزعتهـا عـلى جـدران الطابـق الرابـع، لوحـات بحثـتُ عنهـا دون عنـاء، حيـث اكتشـفت أن مـا أبحـث عنـه كان رائجًـا في سـوق الفـن، فقـد كنـت أبحـث عـن لوحـات توظـف الحـروف داخـل فكـرة اللوحـة. كنـت أحـب اللوحـات التـي تحمـل حـرف النـون، خصوصًـا تلـك التـي يكـون فيهـا الحـرف مسـيطرًا عـلى جماليـة العمـل.. حـرف النـون يشـبه ثـدي المـرأة، ولكـن بصـورة فنيـة لا ينقصهـا الجـمال.. الحـرف داخـل اللوحـة غالبًـا مـا يثـيرني. والحقيقـة كنـت أحـب اللوحـات المشـبَّعة بالـروح الغنائيـة الفولكلوريـة، ولا تسـتهويني اللوحـات التجريديـة، خصوصًـا تلـك التـي يغلـب عليهـا اللـون الأحمـر المتداخـل بالأصفـر؛ لأنـني كنـت غالبًـا مـا أرى ضحايـاي داخلهـا، فأهـرب مـن ضحكاتهـم واسـتهزائهم بي.

صـورة عالقـة في ذهنـي منـذ زمـن بعيـد، وتحديـدًا منـذ أن شـغفت بالقـراءة وتلمسـت عالمهـا السـاحر الـذي اتخـذت منـه مـلاذًا لحمايـة روحـي وهـي تعيـش وسـط بيئـة موبـوءة بـكل أنـواع التفسـخ، إنهـا صـورة السـياسي الشريـف، أو المواطـن النزيـه المطـارد مـن قبـل السـلطة، والـذي غالبًـا مـا يختـار بيـوت الدعـارة مـلاذًا آمنًـا لـه؛ لـذا، ورغـم امتلاكـي غرفـة كبـيرة ومريحـة جهزتهـا فاتنـة بـكل مـا هـو جديـد وأنيـق لتكـون غرفـة نـوم مثاليـة، فإننـي كنـتُ أفضـل أحيانًـا المبيـت في شـقة

أم عامر إن كانت هناك فتاة تعجبني، أو في شقة غسان حين أشتاق لشرب بعض الكؤوس من الخمر المصنوع محلّيًّا، وأحيانًا أقضي ليلتي في «شركة الكوثر للترجمة» لأتلقّى دروسي في اللغة الألمانية، ودروسًا أخرى في لغة الجسد والشهوة.

في ليلة كنت أكتشف فيها معالم جسد كوثر للمرة الألف، والذي صار أكثر نضارة وشهوانية بسبب بحبوحة الرخاء الذي نعمتْ به نتيجة استقرارها النفسي وعشقها لعملها في مجال الترجمة، حيث صارت طلبات الترجمة تنهال عليها من مختلف الاتجاهات الحكومية التي كنتُ أقف وراء توريدها للمكتب، وأيضًا الجهات غير الحكومية التي كانت تأتي للمكتب من أشخاص ووكالات مختلفة، تجارية كانت أم إعلامية، أو حتى من قبل طلبة الجامعة لمرحلة البكالوريوس. رنَّ هاتفي الجوال. نظرتُ إلى ساعته فوجدتها العاشرة ليلًا، وكنت على مشارف الانتهاء من كأسي الأولى. نظرتُ صوب الرقم المتصل لأعرف أنها مكالمة من السيد «الوزير»، ضغطت على زر القبول لأسمع صوته وهو يطلب مني أن أستقبله عند باب البناية بعد نصف ساعة، لأمر مهم، وأنه يريد أن يستطلع ويتفقد المؤسسة وأقسامها، وما أصبحت عليه بعد العمل الدؤوب طوال الخمسة أشهر، ثم شدَّد قبل أن ينهي مكالمته على أهمية ألا يراه أحد من سكان البناية.

حين وصل السيد «الوزير»، كان بصحبته ثلاثة رجال، كنت في استقبالهم عند باب البناية بعد أن جهَّزت المصعد وفتحت بابه قبل وصوله بدقائق. وعند وصولنا الطابق الرابع، دخل السيد «الوزير»

281

برفقة شخص قصير القامة، أصلع الرأس، حالك السمرة، ملتح. وقد شذَّب لحيته القصيرة بصورة مبالغ فيها، بينما بقي الرجلان الآخران في باحة الطابق، حيث بداية السلَّم، وكأن مهمتهم تتلخص برصد أي حركة تحدث قرب المكان.

حين صرنا داخل المؤسسة، قدَّم لي السيد «الوزير» الرجل الذي معه بأنه «رضوان» الذي سيكون يدي اليمنى.

أخذتني الدهشة، فمثل ذلك الأمر يجب أن يتم الاتفاق عليه مسبقًا. تَلَمَّسَ السيد «الوزير» دهشتي وقال مبتسمًا: «اللواء علي هو من رشّح «رضوان» ليكون مساعدكَ الأول». شَعرتُ ببعض الارتياح وصافحتُ «رضوان» مرحبًا به رغم شعوري بالقرف وأنا أنظر في وجهه الذي يوحي بالوضاعة، فمن يراه لا يمكن أن يفكِّر بمهنة أخرى ينسبها إليه غير «ميكانيكي سيارات فاشل».

مدَّ لي يده مصافحًا، وقال: «احترامي دكتور، أتمنى أن أنال رضاك ورضا السيد الوكيل». ربَّتَ السيد «الوزير» وكالةً على كتف رضوان قائلًا: «ثقتنا بكَ وبولائكَ لنا عالية جدًّا، ولا يشوبها أي شك..»، ثم ابتعد عنه قليلًا طالبًا مني أن أصطحب رضوان إلى مكان عمله الجديد، وأنه سيقوم أثناء ذلك بتفحص أماكن وأقسام المؤسسة.

ما إن دخلت ورضوان غرفته، وطلبتُ منه تفحّصها جيدًا وتسجيل بعض الملاحظات والنواقص إن وجدتْ، مشددًا على عدم مغادرته غرفة مكتبه الجديد حتى أعود إليه، حتى توجَّهتُ نازلًا إلى الطابق الثالث حيث الأرشيف لألتحق بالسيد «الوزير».

وجدتُـه مبتسـماً ينظـر صـوب الملفـات ويـداه في جيبـي بنطالـه، سـألته عـن رأيـه في وضعيـة المـكان، فقـال مندهشًـا: «هـل مـن المعقـول أن تقـوم امـرأة واحـدة بهـذا العمـل الجبّـار وبهـذه الدقـة؟ إنهـا بالفعـل كنـز يـا مرهـون!».

«نعـم.. كنـز صامـت». قلـتُ ذلـك وكنـت أنتظـر تعليـق السـيد «الوزيـر» الـذي نظـر إليَّ بطـرف عينيـه، كاشـفًا حولهـا أمـام ابتسـامتي، ثـم وضـع يـده اليسـرى عـلى الصنـدوق الـذي يحتـوي عـلى رزم العملـة الأجنبيـة وقـال: «هـذه الأمـوال مخصصـة لحـالات الطـوارئ فقـط، تـصرَّف بهـا كلـما وجـدتَ ضرورة لذلـك، ولكـن عليـك إبلاغـي أولًا كـي أعـرف المقـدار المتبقـي حتـى أعوضـه.. هـل وضحـت الفكـرة؟» هـززت رأسي موافقًـا، رغـم أننـي شـعرت بأنـه أراد الإشـارة بعـدم اسـتخدام تلـكَ الأمـوال بتاتًـا؛ لأنهـا أموالـه الخاصـة.

سـألني عـن رضـوان طالبًـا رأيـي بصراحـة، فقلـت مشـيرًا إلى ضرورة التجربـة والاختبـار أولًا، وإن وجدنـاه غـير ذي فائـدة يصبـح التخلـص منـه أمـرًا حتميًـا.

هـزَّ رأسـه موافقًـا واتجـه صـوب السـلَّم الداخـلي المـؤدي إلى الطابـق الرابـع وهـو يقـول: «سـوف تحبـه يـا مرهـون، أنـا متأكـد مـن ذلـك»، ثـم التفـتَ إليَّ وهـو في منتصـف السـلَّم وقـال: «اصرف للموظفـة مكافـأة مجزيـة عـلى عملهـا الجبّـار هـذا».

16

لم أكـن يومًـا ذا شـأن، أعـترف بهـذا، فـإذا اسـتثنيت وقـت القـراءة الـذي غالبًـا مـا أكـون فيـه محـاورًا لشـخوص الروايـات وأفـكار الفلاسـفة، وإذا اسـتثنيت أيضًـا وقـت النزهـة، وكنـت أقضيـه مصطحبًـا روحـي داخـل غرفتـي عـلى طريقـة سـورن كيركغـارد ووالـده. عنـد ذاك، لا أجـد في شـخصيتي سـوى صـورة لأجـير، أو سـجين، أو شـخص مهـان يحـاول إثبـات وجـوده، أو الدفـاع عـن وجـوده عـن طريـق الـدم المسـفوك، حتـى حـين امتلكـت المـال وصرت عـلى رأس المؤسسـة، لم يغـادرني ذلـك الشـعور المرّ بالظلـم والإهانـة، فالمؤسسـة التـي أصبحـتُ المسـؤول الوحيـد عنهـا لا ترتبـط «رسـميًّا» بـأي وزارة، وغـير مسـجلة رسـميًّا في أي سـجل تابـع للدولـة، وليـس لعملهـا وأهـداف تأسيسـها أي علاقـة باسـمها. ورغـم هـذا، يتقـاضى المنتسـبون إليهـا راتبًـا شـهريًّا محترمًـا مـن خزينـة الدولـة، فبالإضافـة إلى غسـان وفاتنـة، هنـاك أربعـة رجـال يعملـون تحـت أمـرتي، ثلاثـة منهـم لا أراهـم إلا لُمامًـا، وخصوصًـا حـين يكـون لدينـا مهمـة صعبـة. أمـا الشـخص الرابـع فهـو «رضـوان» الـذي أعتمـد عليـه. أُصـدر لـه الأوامـر ليقـوم بـدوره محـركًا الثلاثـة

الآخرين لينفذوا المهمات.. الأربعة يحملون رتبة نقيب شرطة، وقد جُهزوا بهويات رسمية يحملونها معهم على الدوام، وذلك ما يبرر وجود الأسلحة في سياراتهم الحديثة، إذا حدث وتعرضوا للتفتيش من قبل نقاط السيطرة.

بعد زيارة السيد «الوزير» بثلاثة أيام سلَّمني غسان مظروفًا صغيرًا، فتحته ووجدت داخله ورقة صغيرة تحتوي على أربعة أسطر من الأرقام، أخذتها وهبطت بها إلى الطابق الثالث حيث توجد هناك رواية «حفلة التيس». سحَبتها وبدأت بحلّ الشيفرة، وما إن انتهيت منها حتى ذُهلت. السيد «الوزير» وفي أول أمر يصدره لي يريد اغتيال نائب في البرلمان!

جلستُ حيث مكتب فاتنة طالبًا منها كأسًا من الويسكي. نظرتْ صوبي متسائلة دون أن تنطق بكلمة وكأنها تقول إن الوقت غير مناسب؛ لأنني لم أعتد على شرب الكحول نهارًا. أكدتُ لها طلبي مع رغبتي في إضافة ثلاثة مكعبات من الثلج إلى الكأس، فذهبتْ لتلبية طلبي وبقيتُ أفكِّر بصعوبة المهمة، ثم جال بخاطري سؤال لم تتضمن الرسالة إجابة عليه: «ما هو الوقت المحدد لتنفيذ العملية؟» فعملية مثل هذه تتطلب المزيد من الوقت قد يصل إلى الشهر تقريبًا.

وضعتْ فاتنة الكأس أمامي، ودخلتْ إحدى الغرف، ارتشفت منها قليلاً وأنا أنظر صوب الورقة متصورًا وجه النائب وهو يضحك، فالمرات القليلة التي رأيته فيها على شاشة التلفاز كان

يضحـك أو يبتسـم وهـو يتكلـم؛ لهـذا علقـتْ صورتـه الضاحكـة في ذهنـي.

مـا إن أنهيـت كأسي حتـى صعـدتُ إلى الطابـق الرابـع متوجهًـا صوب غرفـة رضـوان. وقفـتُ أمامـه، فوقـف هـو الآخـر احترامًـا، تـاركًا الملـف الـذي بـين يديـه. نظـرتُ في عينيـه وقلـتُ لـه دون أن يرمـش لي جفـن: «يجب مراقبـة صاحـب هـذا الاسـم لمدة ثلاثـة أيـام، وعـلى مـدار السـاعة. أريـد تقريـرًا كامـلاً بـكل تحركاتـه». مـددت صوبـه ورقـة صغـيرة محصـورة بـين السـبابة والوسـطى مـن يـدي اليمنـى، كنـت قـد كتبـتُ عليهـا اسـم النائـب منـذ دقائـق. لم أرفـع نظـري عـن رضـوان، كنـتُ حريصًـا عـلى دراسـة ردَّة فعلـه. نظـر في الورقـة ثـم سـحب قداحتـه وأحرقهـا دون النظـر إليَّ، وحـين تأكـد مـن تفحمهـا بالكامـل، رفـع رأسـه لينظـر صـوبي، ثـم قـال: «أنـت تأمـر دكتـور.. بعـد ثلاثـة أيـام، وفي هـذا التوقيـت نفسـه، سـيكون أمامـك تقريـر كامـل بتحـركات الهـدف».

غادرتـه وكلمـة «الهـدف» تـرنّ في أذني، مـن أيـن أتـى رضـوان بتلـك الكلمـة؟ ومتـى تعلّمهـا؟ هـل تشـير إلى أنـه قـد اشـتغل سـابقًا كقاتـل مأجـور؟ تأكـدتُ مـن ذلـك حـين راجعـت ملامحـه وهـو يقـرأ الاسـم، حيـث لم تظهـر عليـه أي ردة فعـل، أو حتـى ابتسـامة، وكأنـه لم يقـرأ الاسـم، فـكان ذلـك لصالحـه، وكانـت نقطـة البدايـة لينـال ثقتـي. رغـم أن العـم عـلي قـال لي جملـة واحـدة حـين سـألته عـن السـبب وراء ترشـيح رضـوان للعمـل ضمـن طاقـم مؤسسـتي: «ثـقْ بهـذا الرجـل،

حتـى نلتقـي قريبًـا ونتحـدث طويـلًا»، ولكنـي لم أقـدر عـلى الانتظـار لأهميـة الموضـوع، طلبـتُ مـن العـم عـلي أو اللـواء عـلي موعـدًا في اليـوم التـالي، وحـين قابلتـه عرفـت كل شيء «تقريبًـا» عـن رضـوان.

ازدادت ثقتـي برضـوان حـين أصبـح في مكتبـي بعـد ثلاثـة أيـام وفي الموعـد الـذي حـدده حـين استلامه الورقـة التـي تحمـل اسـم النائـب. جلـس أمامـي وطلـب فنجـان قهـوة مـن يـد فاتنـة، فأمـرت لـه بذلـك، حينهـا أوضـح لي بـأن مـن الصعـب جـدًّا اغتيـال الهـدف.

«ولكنـي لم أشر إلى نيـة اغتيالـه، أنـا طلبـت المراقبـة فقـط!» قلـت ذلـك وأنـا أتفحـص ردة فعلـه.

«هـذا صحيـح، ولكنـي أعـرف عملنـا جيـدًا، وعـلى العمـوم أرجـو المعـذرة إن كنـت قـد أخطـأت..» ثـم قـدَّم لي ملفًـا يحتـوي عـلى أربـع أوراق لا غـير، تضـم شرحًـا مفصـلًا لتحـركات النائـب، لكننـي عـدت فسـألته بعـد أن اطلعـت عـلى الأوراق:

«مـاذا تقصـد مـن وراء إشـارتك بصعوبـة اغتيـال الهـدف؟» اسـتقام بجلسـته رغـم قـصره الواضـح، ثـم أوضـح بدقـة متناهيـة:

«الهـدف محـاط بالعديـد مـن الحـرّاس، ومـن خـلال مراقبـة طبيعـة تحركاتـه، وجدنـا صعوبـة في تحديـد نقطـة قاتلـة، نظـرًا لكثـرة المحيطـين بـه، ثـم إنـه قليـل الحركـة والنـزول إلى الشـارع..».

قاطعته مستفهمًا عما يقترحه، فقال بشكل مقتضب:

«سيارة مفخخة». حينها طلبتُ منه المزيد من التوضيح، قال:

«يمكننا تحديد السيارة التي يستقلها النائب من بين جميع السيارات المتشابهة التي يضمها موكبه، وهذا ناتج عن دقة المراقبة للأماكن التي يخرج منها أو يدخل إليها؛ لذا أجد أن سيارة مفخخة نركنها على جانب الطريق الذي يسلكه النائب ستفي بالغرض».

أوضحتُ له بأننا لا نملك مثل تلك الإمكانية في الوقت الراهن؛ لذا علينا استحداث زمرة متخصصة بالتفخيخ.

عند تلك النقطة، التمعتْ في ذهني فكرة، وجدتها مهمة جدًّا، وعلى إثرها طلبتُ من رضوان أن يعود لغرفته في استراحة لا أعرف كم سيطول أمدها، ولكن المهم، عليه ألّا يغادر غرفته حتى أطلبه.

وحالما غادرني رضوان، اتصلت بالسيد «الوزير» وتحدثتُ له شارحًا فكرتي وأهميتها. وافق سيادته على الفكرة دون تردد وهو يقهقه منتشيًا.

ما إن أغلقت الهاتف حتى رنَّ من جديد، كان الدكتور واثق على الطرف الآخر. كانت مكالمته مفاجِئةً لي. عرفت بعد الترحيب والعتب على عدم زيارتي له، أن سبب اتصاله يكمن في خصوص «هاشم عبد الله»، الذي طلبتُ من الدكتور واثق البحث عنه. شعرت وأنا أسمع الاسم بهبوط سريع أسفل قفصي الصدري، وأن أنفاسي صارت تشكو قلقها.. «هل تم العثور على زوج فاتنة؟ هل سأفقدها قريبًا؟» ردَّدْتُ السؤال مع نفسي أكثر من مرة وأنا أستمع للدكتور واثق. وحين سألته عن نتيجة البحث، قال بأن الشاب قد تم بيعه إلى مستشفى خاص لحساب رجل مقرَّب من

289

السلطة حين كان الديكتاتور على رأسها، ثم ختم مكالمته بجملة غريبة: «الله يرحمه. البقاء في حياتك يا صديقي..». جلستُ ساهمًا، غارقًا بتفكير لم أتلمس فيه بقعة ضوء، ثم سألت نفسي: «هل أخبر فاتنة بما وصلني عن زوجها؟» ولم أجد جوابًا لسؤالي حتى شاهدت فاتنة أمامي وهي تحمل ملفًا، أرادت أن تقدمه لي. حينها طلبتُ منها الجلوس، وما إن فعلت حتى سألتها بكل برود: «هل ما زلتِ تتأملين ظهور زوجك؟» ارتبكت الجميلة قليلاً ثم قالت مبتسمة: «لقد أصبح ضربًا من ضروب المستحيل»، ثم سألتني إن كنت قد سمعت شيئًا عنه، فنفيت وبررت سبب سؤالي بحرصي على راحتها وشعورها بالأمان من أجل دقّة العمل وإتقانه. غادرتني وهي في شكٍّ سرعان ما تبخّر في لجّة العمل.

استدعيتُ رضوان لنستأنف اجتماعنا، وطلبتُ من فاتنة التي حان موعد انتهاء عملها، والتي ينتظرها غسان، بكل تأكيد، عند بوابة البناية كي يوصلها لبيتها، أن تعدَّ لنا قهوة تكفينا لساعات، ففعلت وودعتنا بكل جمالها المبتسم على الدوام.

كان دورق القهوة الكبير يتوسطنا أنا ورضوان حين بدأت بسرد فكرتي التي حَصَلتْ على موافقة «الوزير». سكبَ رضوان القهوة في فنجانين قدَّمَ أحدهما لي، وبدأ يرتشف من الفنجان الثاني الذي بين أصابعه، حينها قلت:

«علينا أن نشتري جميع ورشات التفخيخ في العاصمة. أعرف أن الموضوع صعب عند بعض الورشات، ولكن علينا أن نناضل من

أجل هذا..». كان رضوان منتبهًا جدًّا لما أقول، ولكن دون أن تتغير ملامحه، وكنت أنظر إليه بتمعنٍ مضاعف وأنا مستمر بحديثي: «بحيث لا عبوة ولا سيارة تنفجر دون أن نعرف مكانها وهدفها قبل خروجها من ورشة التفخيخ بوقت كافٍ؛ لذا يجب أن تتفاوض مع أصحاب تلك الورشات، وخصوصًا المسؤول المباشر عنها، الذي يكون عادة هو من يصدِّر الأوامر ويحدد مكان التفجير، وأن نغريهم بالمال، وعلينا أن نوافق على أي مبلغ يحددونه، وبالأخص ورشات التفخيخ التي تعمل بالضد منا. علينا أن نوضح لهم بأننا لن نقف في طريقهم أبدًا إذا حصل التعاون بيننا، وأنهم سيعملون بحرية تامة وينفذون مخططاتهم بكل سلاسة، والذي نريده منهم فقط، إخبارنا بمكان ووقت تنفيذ العملية، وكذلك الهدف من العملية. ومن المهم أن نوضح لهم، بأن التعاون بيننا سيدرّ عليهم أموالًا طائلة. أما الورشات التي ستكون ملكًا لنا ونحنُ من يحركها، تخطيطًا وتنفيذًا، فالأمر يجب أن يكون مُسيطَرًا عليه بالدقة المتناهية..».

ابتسم رضوان منتشيًا، وأوضح بأن الأمر بسيط جدًّا، وأنه بالفعل فكَّرَ بالأمر، ولكن ليس بتلك الصورة المحكمة، وأشار إلى أنه يعرف أكثر من مجموعة متخصصة بهذا النوع من الأعمال، وشدَّد على أنه سيباشر في تنفيذ ما أمرته به خلال أسبوع واحد.

أعلنتُ سروري بما سمعت، وطلبتُ منه المباشرة، وأن يضع أمامي أسماء المجاميع، وأماكن ورشات التفخيخ، وأسماء كل العاملين فيها.

قبـل أن أنهـي اللقـاء، قلـت: «باسـتثناء ورشـات التفخيـخ التابعـة للتنظيـم «الكبـير» كونهـا تقـع خـارج حـدود العاصمـة، فـإن أي ورشـة تفخيـخ داخـل العاصمـة ترفـض التعـاون معنـا سـنعمل عـلى تفجيرهـا وقتـل مـن فيهـا. يمكنـكَ التلميـح لهـم بذلـك».

وقف رضوان مودعًا بعد أن أنهى آخر فنجان القهوة.

❋ ❋ ❋

بعـد خمسـة أيـام غـاب فيهـا رضـوان عـن المؤسسـة، لكنـه كان يتصـل بي كثـيرًا ليضعنـي أمـام كل مـا هـو جديـد، حصلـت منـه عـلى ملـف كبـير يحتـوي عـلى معلومـات مهمـة حـول ورش التفخيـخ التـي صـارت تعمـل بإمرتنـا، مـع المعلومـات المطلوبـة كافـة، وأخـبرني بـأن السـيارة التـي مـن شـأنها إرسـال السـيد النائـب لملاقـاة وجـه ربـه جاهـزة وبانتظـار الأوامـر. وحـين سـألته عـن مـكان تنفيـذ العمليـة، أخـبرني بـأن هنـاك مكانًـا واحـدًا يمكنـه أن يكـون المـكان الأمثـل للتنفيـذ دون أخطـاء، ولكنـه دائـماً مـا يكـون مكتظًّـا بالنـاس. «لنريحهـم مـن هـذه الحيـاة الشـاقة!» قلـت ذلـك وأنـا أعلـن أسـفي عـلى مـن سـيذهب ضحيـة دون سـبب. في تلـك الأثنـاء، سـلَّمني رضـوان صـورة فوتوغرافيـة بحجـم الورقـة للمـكان الـذي خُصـص لتنفيـذ العمليـة. وضعـت الصـورة عـلى الطاولـة دون أن أتمعَّـن بهـا جيـدًا، ثـم حددنـا نهـار الغـد موعـدًا للتنفيـذ، بعـد أن تـم الاتصـال بالسـيد الوزيـر وأخذنـا الموافقـة.

292

قبـل تنفيـذ عمليـة اغتيـال السـيد النائـب بثـلاث سـاعات، كنـتُ في مكتـب السـيد «الوزيـر» أشرح لـه آخـر الاتفاقـات التـي جـرت بيننـا وبـين ورش التفخيـخ، وبعـد أن أنهيـت كلامـي، ابتسـم «الوزيـر» ودعَـك راحتيـه مـسرورًا وقـال:

«هـذا يبعـث الاطمئنـان؛ لأننـا سـنكون عـلى علـم بـأي عمليـة.. عظيـم.. قـد اشـترينا سـلامتنا وسـلامة مـن معنـا مـن أي خطـر محتمـل.. أحييـك، أيهـا البطـل، لقـد قمـتَ بعمـل جبـار».

«ولكن هناك ورشتين فقط، رفضتا التعاون معنا، فما رأيك؟»

«أريد سماع رأيكَ أولًا».

«تفجـير المـكان وقتـل مـن فيـه.. لا حـل آخـر أمامنـا». قلـت ذلـك لأسـمع موافقـة السـيد «الوزيـر» التـي منحنـي إياهـا على الفـور، بل وأشـاد بالفكـرة وابتسـامة عريضـة مرسـومة عـلى وجهـه. حينهـا قلـت مبتهجًـا:

«أبـارك لـكَ سـيادة «الوزيـر»، فبعـد أن نتخلـص قريبًـا من الورشـتين العدوتـين، تصبـح كل ورشـات التفخيـخ في العاصمـة تأتمـر بإمرتـك..»، ثـم اسـتدركت: «باسـتثناء وِرَش وخلايـا التنظيـم «الكبـير» المحـرَّم علينـا الاحتـكاك بـه، أو حتـى التفكير بذلـك..».

أطلـق «الوزيـر» ضحكـة منتـصرة وكأنـه قـد تأكـد مـن امتلاكـه العالم بـأسره، ثـم قـال موضحًـا: «التعـاون كبـير بيننـا وبـين التنظيـم «الكبـير»، فـلا تقلـق، صحيـح أن عملياتهـم كبـيرة وضحاياهـا كثـر، ولكنهـا تبقـى بعيدة عنــا..».

في تلك الأثناء، وبعد أن أكمل السيد «الوزير» كلامه، قدمتُ له الصورة الفوتوغرافية الخاصة بالمكان الذي سيتم فيه اغتيال النائب، نظر إلى الصورة ثم أعادها إليَّ وهو ينظر في ساعته ليعلن بأن هناك ساعة ونصفًا فقط لزمن التنفيذ. نظرتُ في الصورة وأنا أبتسم وأردد كلمات مطمئنة للسيد الوزير بأن كل شيء محسوب وبالدقة العالية.. ولكن، وبشكل مفاجئ اهتزَّ بدني وشعرتُ بأن هناك كارثة ستقع، فقد تذكرت الرجل صاحب العربة الذي قدَّم لي صحن الرز مع الفاصوليا مجانًا حين خرجتُ من سجن الأحداث. إنهُ هناك، أستطيع أن أرى عربته ظاهرة في الصورة.

وقفتُ منتفضًا وأنا أطلب من السيد «الوزير» أن يزودني بمفرزة من الشرطة، وعلى الفور، لأمر يتعلق بتنفيذ العملية، وأن لا وقت للنقاش، كوني سأشرح له الأمر بعد إتمام العملية.

صحيح أني قرأت بعض علامات الارتباك في ملامحه، لكنه رفع سماعة الهاتف وطلب خمسة أفراد من حمايته ليرافقوني حيث أريد، موضحًا خطورة الموقف وأهميته.

شكرته وخرجت مسرعًا صوب مرآب الوزارة، لأجد الرجال الخمسة في استعداد تام.

توزعنا على سيارتين، وانطلقنا صوب المكان. وفي الطريق شرحت لهم الأمر، موضحًا أن علينا اعتقال رجل متنكر تحت غطاء مهنة شعبية، ولكنه خطير جدًّا، ولم أنسَ طمأنتهم بأن الرجل لا يحمل سلاحًا، وأن عليهم سحبه بكل احترام ومودة.

294

قبـل نصـف سـاعة مـن تنفيـذ العمليـة، كنـتُ والرجـل صاحـب العربـة نجلس داخـل سـيارتي المتوقفـة في مـرآب وزارة الداخليـة، والتـي تركتهـا عنـد ذهـابي ورجـال المفـرزة لإلقـاء القبـض عليـه. كنت أردد كلـمات الأسـف والاعتـذار عـلى مسـامعه، موضحًـا بـأن هنـاك خطـأ قـد حـدث. كان الرجـل خائفًـا، ولكـن كلـماتي أعـادت إليـه بعـض هدوئـه، خصوصًـا بعـد أن دسسـتُ في جيبـه مبلغًـا مـن المـال، أبـى أن يأخـذه لـولا إصراري.

نظـرتُ في سـاعتي وانطلقـت صـوب مـكان تنفيـذ العمليـة، موضحًـا للرجـل بأننـي سـأعيده إلى مـكان عملـه. صـار الرجـل يحدثنـي عـن انعـدام الأمـان، وهيمنـة مـرض الشـك والريبـة بـين أبنـاء المجتمـع، حتـى تـسرَّبَ المـرض إلى داخـل الأسرة الواحـدة. كنـت أوافقـه الـرأي بكلـمات مقتضبـة أدسُّـها بـين لحظـة وأخـرى بـين كلماتـه، حتـى شـعرتُ باسـترخائه، حـين طلَـب منـي سـيجارة، كونـه تـرك علبـة السـجائر خاصتـه داخـل العربـة. أخبرتـه بأننـي لا أدخـن؛ لأننـي أعتـبر التدخـين نوعًـا مـن العبوديـة، ثـم أضفـت: «الحريـة أيهـا الرجـل الطيـب، أثمـن جوهـرة في حيـاة الإنسـان!» نظـر الرجـل صـوبي مندهشًـا، ثـم أطلـق ضحكـة مكتومـة، شـعرت بعمقهـا، وكأنهـا تحفـر داخـل روحـي، ثـم قـال والدهشـة لا تـزال تـأسره: «هـل تبحـث عـن الحريـة في بلـد الحـروب والقتـل والضحـك عـلى العقـول؟.. إلى أي عـالم تنتمـي أيهـا الشـاب الحـالم؟» ابتسـمت لـه ودواخـلي وعقـلي قـد منحـاه كل الحـق بـما سـأل عنـه، ثـم قلـت: «إلى عالمـي الخـاص أيهـا العـم، فأنـا ولـدت مـن رحـم عالمـي الخـاص، وسـأعود إليـه يومًـا مـا لأسـتقر هنـاك إلى الأبـد».

295

«أنتَ بالفعل تعيش عالمًا خاصًّا، أرجو منكَ أن تبـــ...».

هــزَّ انفجــار عنيــف الأرض مــن تحتنــا، وكادت ســيارتي تطــير كعصفــور مفــزوع لــولا أنهــا كانــت تســير ببطــء محســوب. تمسَّــكَ الرجل بكرســيه وهــو يطلــب مــن رب العبــاد الســتر والســلامة، وكنــتُ قــد كبَحــت فرامــل الســيارة لأتوقــف إلى جانــب الشــارع متمســكًا بالمقــود، ومــا هــي إلا ثــوانٍ حتــى غطــى الغبــار ورائحــة البــارود كل زاويــة مــن ســماء وأرض المــكان.

طلــب الرجــل الفــرار بــأسرع وقــت، وهَــمَّ بالنــزول مــن الســيارة، ولكنــي طمأنتــه بــأن الانفجــار قــد حــدث، وأن الخطــر قــد زال، وبعــد دقيقتــين أو أكثــر، حــين أصبحــت الرؤيــا ممكنــة نســبيًّا انطلقــتُ بســيارتي صــوب مــكان الانفجــار. كان الشــارع المــؤدي خاليًــا، فقــد اختفــى كل كائــن يمتلــك روحًــا بلمــح البــصر، وكنــت أريــد اســتغلال الوقــت كــي أدرس النتائــج قبــل مجــيء رجــال الشرطــة أو رجــال الإســعاف، ومــا إن وقفــت عــلى مقربــة مــن مــكان الانفجــار حتــى خــرج الرجــل مــن ســيارتي متوجهًــا بسرعــة مرتجفــة صــوب مــكان عربتــه، وكانــت تلــك آخــر مــرة أراه فيهــا.

كانــت الحــرارة لا تطــاق حــين صرت وســط مــكان الحــدث، وكنــتُ أســمع صرخــات البعــض وهــي تطلــب منــي الابتعــاد. كان معــدن الســيارات الثــلاث المحترقــة لا يــزال ســاخنًا. توجهــتُ إلى ســيارة النائــب الــذي وجدتــه متفحــماً بمعيــة مــن كان برفقتــه داخــل الســيارة. كان كل شيء فيهــا متناثــرًا، محترقًــا، ولا يــزال ســاخنًا، ولكنــي اســتطعت أن ألتقط

296

قطعة معدنية بحجم كف اليد لم أتبين طبيعتها، ومجموعة مفاتيح محترقة، ومسدسًا رشاشًا كان هو الآخر ساخنًا ومشوهًا. جمعت كل تلك الأشياء ونقلتها إلى سيارتي ورجعت حيث المؤسسة، فقد كان عليّ مهمة إرسال خبر الاغتيال الذي كتبته ليلة أمس إلى القناة التلفزيونية الرسمية وبقية وسائل الإعلام الأخرى، مشيدًا بنزاهة ووطنية النائب الشهيد، مشددًا على أن إحدى الجماعات الإرهابية التي لا تريد للوطن النهوض والتطور قد أعلنت مسؤوليتها عن الحادث.

أرسلت خبر الاغتيال إلى أكثر من جهة إعلامية، وهاتفت السيد «الوزير» مباركًا له إنجازات مؤسستنا، دون الإشارة إلى مصرع السيد النائب، ففهم ما أرمي إليه، وطلب مني إرسال غسان حتى ينقل إليَّ البريد، الذي سيحمل لي أمرًا مهمًّا.

❋ ❋ ❋

كانت فاتنة منشغلة بإعداد وجبة الطعام، كعادتها في مثل ذلك الوقت، وجدتها منشغلة في غرفة المطبخ حيث الطابق الثالث. عرضت عليها المساعدة إن كانت بحاجةٍ إليها. التفتتْ نحوي مبتسمة وعيناها تقولان: «متى تعلمت حرفة الطبخ أيها المشاكس؟» ثم استدارت عائدة إلى ما كانت منشغلة به، اقتربتُ منها وكأنني أسمع وجيف قلبها يناديني، صارت دقات قلبي تناغم وجيفها، وكأنني أسمع موسيقى جاز الشهوة بين آلتين

سماويتين. اقتربتُ حتى كاد صدري يلامس ظهرها، وهمست: «صمتكِ يثيرني». جفلتْ مندهشةً وهي تستدير نحوي. ابتسمتْ وأفردتْ يديها وكأنها تعرض صدرها لطفلٍ صغيرٍ اشتاقت لضمه. احتضنتُها مبحرًا برائحة جيدها الذي دفعني في وقت سابق إلى قراءة حياة موديلياني، الفنان الذي اشتهر برسم أجمل أعناق أنثوية عرفتها حركة الفن التشكيلي.

قبّلتها وأطلتُ القبلة، ولم أُبعد شفتي عن شفتيها حتى شعرت بثقل جسدها بين ذراعيَّ وكأنها دخلت في حالة إغماء. ناديت عليها فاستفاقت وراحت تلملم نفسها طالبةً مني تأجيل الأمر إلى وقتٍ آخر يكون مناسبًا.

عادت إلى عملها وصمتها، وعدت إلى مكتبي حيث الطابق الرابع متلذذًا بأنغام موسيقى الجاز التي ما زالت تصدح في روحي، محتفظًا بطعم أجمل شفتين تذوقتهما في حياتي.

❊ ❊ ❊

ثقتي برضوان جعلتني أُسلِّم له ورقة باسم أمي وأختي. طلبتُ منه أن يجد أي خيط يوصلنا لهما، وكنت قبل ذلك قد فكَّرت بأن أقدم تلك الورقة إلى السيد «الوزير» كي يستخدم نفوذه في البحث عنهما، لكنني تراجعت لسبب لم أكن أعرفه، حتى تبينت صواب ترددي، حين انتبهت إلى أن السيد «الوزير» كان مغرمًا بجمع المعلومات الشخصية عن أي شخص يقابله، أو تكون له صلة بينه

298

وبـين سـيادته، وذاك مـا جعـل أرشـيفنا في المؤسسـة عامـرًا بالملفـات. أرعبتنـي الفكـرة، لأننـي إن فعلـت ذلـك سـأكون قـد قدمـت لسـيادته عـلى طبـق مـن ذهـب أهـم نقطـة سـوداء في تاريـخ حيـاتي؛ لـذا سـلّمت الورقـة إلى رضـوان دون أن أشرح لـه الصلـة بينـي وبـين صاحبتـي الاسـمين. حـاول رضـوان أن يطـرح بعـض الأسـئلة عـليَّ ليجمـع معلومـات أكثـر عنهـما، فأخبرتـه بأننـي لا أعـرف سـوى الاسـمين فقـط. طـوى الورقـة ودسـها في جيبـه، ثـم عـاد إلى عملـه.

❋ ❋ ❋

ازدادت أوامـر الاغتيـالات، ففـي فـترة وجيـزة نَفَّـذَتْ مؤسسـتنا العديـد مـن العمليـات التـي هـزَّتْ أركان البلـد بـكل مكوناتـه، إلا الشـعبية منهـا، فقـد كنـتُ عـلى درايـة تامـة بـأن الشـعب كان يـردد: «كلاب ينهـش بعضُهـا لحـمَ بعـض، إلى جهنـم وبئـس المصـير»، حيـث تـم اغتيـال نائبـين، وأربعـة أسـاتذة جامعـات، وخمسـة ضبـاط جيـش متقاعديـن، وسـيدتين كان لهـما دور سـياسي هامـشي، ولكنـه كان مؤثـرًا عـلى صعيـد إجـراء الصفقـات والمقابـلات التلفزيونيـة، حتـى اقترحـت عـلى رضـوان أن يؤسـس ثـلاث خلايـا جديـدة يرأسـها الأشـخاص الثلاثـة الذيـن بإمرتـه، شريطـة أن أكـون عـلى علـم بأفرادهـا وعناويـن مقراتهـم، وأن يجهـزني بصـور شـخصية لهـم مـع نبـذة عـن سـيرتهم الذاتيـة، وبذلـك صرت أدير شـبكة واسـعة مـن خلايـا المـوت.

الحقيقـة التـي اكتشـفتها، خـلال تلـك الفـترة، جـاءت عـلى عكـس ما

كنت أتوقعه، فقد اتضح لي بأن تأسيس خلية اغتيالات كان أسهل من شراء علبة دواء لطفل يشكو من الربو، لقد كانت الغالبية على استعداد للانضمام إلى خلايا الموت والعمل داخلها بكل إخلاص، شريطة توفر المال. كان غياب فرص العمل يشكِّل السبب الأكبر الكامن وراء ذلك.

في الوقت الذي كنا، أنا وفاتنة نتناول فيه الشاي بعد وجبة غداء رائعة، جاءني طلب غريب من سيادة «الوزير». طلب مني ثلاث فتيات جميلات لإحياء حفلة خاصة في شقة الطابق الثاني من بناية المؤسسة، تلك الشقة التي كانت شقتين متلاصقتين، قمنا بفتح بعضهما على بعض ليُشكّلا أجمل وأوسع شقة في البناية من حيث أثاثها وتصميمها، وكان ذلك حسب توصيات السيد «الوزير»، الذي عمد إلى نصب كاميرات مراقبة مخفية في كل زوايا الشقة، لتكون غرفة السيطرة في الطابق الثالث، المراقب الفعلي لكل ما يحدث هناك عن طريقة شاشة مراقبة كبيرة.

الحقيقة، لقد أزعجني طلبه، فمهمة القتل أهون عليَّ بكثير من مهمة السمسرة، وإحياء حفلات ماجنة، ولكني، ورغم انزعاجي، نزلت حيث الطابق الأول لألتقي بالعزيزة أم عامر، طالبًا منها تجهيز أجمل ثلاث فتيات عندها لغرض سهرة خاصة يكون فرسانها رجالًا محترمين. دقتْ صدرها بكفها وهي تشير إلى سعادتها في تلبية الطلب: «طلبك عندي، وسوف أجهز فتيات لم تر مثل جمالهن بحياتك». وبالفعل، أوفتْ أم عامر بوعدها.

بعد بدء السهرة بساعة، حضر السيد «الوزير» إلى البناية بشكل سري، حيث كنت باستقباله عند البوابة الرئيسية.

صعدنا حيث الطابق الرابع، ثم نزلنا معًا إلى الطابق الثالث وتوجهنا إلى غرفة «السيطرة». كانت تلك المرة الأولى التي نستخدم فيها غرفة السيطرة لمتابعة جلسة أو أمر تجسسي. صرنا نتابع السهرة على الشاشة الكبيرة، وبعد مضي بضع دقائق، شاهدت الرجل «الحاج»، مسؤول السيد «الوزير» المباشر، وهو يتعرَّى أمام ليلى التي تعرَّت تمامًا. اضطجع على السرير وطلب من ليلى الارتماء على صدره، ففعلت، وراحت تجول بشفتيها على جسده وهو يتأوه، ولكن، وحين أراد تقبيلها، انتفضت الفتاة رافضة التقبيل، حينها استُفز السيد المبجل، وطلبَ تفسيرًا لما بدر من الفتاة، فقالت بأنها ترفض التقبيل، وأخبرته بأنه يمكن عمل أي شيء معها ولكن دون تقبيل. نظرتُ إلى السيد «الوزير» الذي كما يبدو قد نسيني تمامًا، وجدته متشفّيًا متلذذًا بما يرى. كان مبتسماً وعيناه على اتساعهما. كنت أنظر له وأسمع الحوار الغاضب الذي يحدث في إحدى غرف الطابق الثاني.

كان حوارًا ساخنًا، مما دفعني إلى متابعة المشهد.

أصرَّ «الحاج» وهو عارٍ تمامًا على معرفة السبب الذي يقف وراء امتناع الفتاة عن التقبيل، فقالت بأنها لا تحب تقبيل الرجل الملتحي، فاستشاط الرجل غضبًا، سحبها من يدها بقوة وطرحها على السرير، ثم ارتمى فوقها وولجها. كانت يداه مطبقتين على

عنق الفتاة وهو يعلو وينخفض على جسدها، وكانت ساقا الفتاة تضربان الفراش بشكل هستيري.

أمسكَ السيد «الوزير» بركبتي اليمنى حيث كنتُ جالسًا بقربه، وراح يعتصرها وكأنه يعتصر روحه، أو يراقب نشوة النصر التي ستتحقق قريبًا، وكنت مشمئزًّا وأنا أشاهد خلفية «الحاج»، كان منظرًا مقرفًا بحق.

استمر «الحاج» برهزه على جسد الفتاة وهو يلجها، وقد فعل الكحول فعلته، ليطيل الزمن. وبعد فترة هدأت حركة ساقي ليلى، وهدأ جسدها تمامًا بينما ظل الرجل منشغلًا بانتظار الذروة التي حصل عليها وجسده متفصد عرقًا.

ارتمى على جسد الفتاة متهالكًا وهو يئنُّ ويزفر كثور جريح، ثم رفع رأسه وراح يُقبّل الفتاة، ولكنها لم تحرك ساكنًا، فقام عنها وحاول تحريكها، ولكنها تحوّلت إلى جثة هامدة. وحين اكتشف «الحاج» همود جسد ليلى، انتفض واقفًا وارتدى ملابسه على عجل، وخرج من الغرفة.

وقف السيد «الوزير» منتصرًا. ضغط على زر إخراج السي دي من جهاز التسجيل وطلب مني نسْخَه إلى ثلاث نسخ، موضحًا أن نسخة تكون ضمن الأرشيف، والنسختين الأُخريين سيأخذهما معه.

خرج السيد «الوزير» من المؤسسة وهو يحمل بيده

سبب بقائه في السلطة حتى هذه اللحظة، وإن اختلفت تسميات مناصبه فيما بعد.

قبل خروجه من المصعد الكهربائي سألته: «سيادة الوزير، بماذا تأمرنا بشأن جثة ليلى؟» التفت إليَّ متسائلًا: «هل كان اسمها ليلى؟»

«ولا يزال سيدي!» ابتسم ابتسامة عريضة تصل حد الضحك، وأوضح بأن رجاله سيأتون غدًا صباحًا لأخذ الجثة وإيداعها مستشفى العاصمة العام، لتكون ضمن الجثث مجهولة الهوية.

في تلكَ اللحظة، رنّتْ فكرة في ذهني، فقلت على الفور: «سيادة الوزير، علينا تعيين طبيب من جانبنا ليكون مديرًا للمستشفى، يمكننا الحصول من خلاله على شهادات الوفاة، وللأسباب التي نختارها نحن، فما رأيك سيادتك؟» ربَّتَ على كتفي وطلب مني اصطحاب الطبيب الذي أقترحه غدًا بعد الظهر.

الحقيقة، لقد كان الدكتور واثق حاضرًا في ذاكرتي منذ عملية اغتيال السيد النائب الأولى، خصوصًا بعد أن حدثت مشكلة كبيرة بيننا وبين مدير مستشفى العاصمة حول سبب الوفاة الذي ثبَّتهُ في شهادة وفاة إحدى الناشطات السياسيات، فقد كتب «اغتيال بمسدس كاتم»، وكنا قد طلبنا منه أن يكون السبب إطلاق نار عشوائيًّا. كنا لا نريد إشاعة الرعب بين الناس بسبب المسدسات الكاتمة التي تعددت ضحاياها.

في صباح اليوم التالي، وبعد أن تمت عملية نقل جثة الفتاة من شقة الطابق الثاني من قبل أربعة رجال، أظهروا دقة عالية في

السريّة والتكتم. هاتفت الدكتور واثق طالبًا منه الحضور عند بوابة الـوزارة؛ حيث سأكون باستقباله الساعة الثانية ظهـرًا، أراد معاتبتي لأنني لم أزرهُ منذ وقت طويـل، وكانـت آخر زيـارة لي حين كنت في بيته لاستلام المبلغ الخاص بزهق الأرواح التي أرسلتها لمستشفى «التفصيخ»، ذلك المستشفى الذي أصبح مقرًّا لأكبر الأحزاب التي سيطرت على الحكم بعد زوال الديكتاتور، وهروب جميع طاقمه إلى بلـدان أوروبيـة، بمـن فيهـم الدكتـور كريـم.

لم أمنح الدكتور واثق فرصة العتب واللوم، وأخبرته بأننا سنتحدث طويلاً بعد أن تتم مقابلة السيد «الوزير».

ربع ساعة فقط كانت مدة اللقاء الذي جرى بين السيد «الوزير» والدكتور واثق، وبحضوري أيضًا، حرر فيها «الوزير» أمر تعيين الدكتور واثق مديرًا عامًّا لمستشفى العاصمة، طالبًا منه الذهاب إلى وزارة الصحة لتتم المصادقة على أمر التعيين من قبل السيد وزير الصحة شخصيًّا، والذي سيكون باستقباله هناك، وذلك حسب المكالمة التلفونية التي أجراها على مسامعنا أثناء اللقاء مع وزير الصحة.

حين خرجنا من مكتب السيد «الوزير»، نظر إليَّ الدكتور واثق مبتسماً، وقال: «حتى في الأحلام، لم أكن لأجرؤ على التصور بأنكَ يا مرهون ستكون صاحب اليد الطولى التي تنقلني هذه النقلة المهمة! أنتَ بالفعل إنسان استثنائي..!»

كان الدكتور واثق أقصر مني بعشرة سنتيمترات تقريبًا، حينها

أغـراني قـصره أو ربـما دفعنـي مـا سـمعته منـه إلى فـرض سـيطرتي عليـه أكثـر. وضعـتُ سـاعدي الأيمـن عـلى كتفـه، وكنـتُ أنظـر إلى صلعتـه التـي بانـت أمامـي نظيفـة لامعـة، وقلـت:

«قـد أوافقـك الـرأي بأننـي اسـتثنائي، لأننـي ابـن هـذا البلـد، وبـما أن البلـد يعيـش حالـة اسـتثنائية، فأنـا متضامـن معـه عـلى الـدوام، ولا أرى في الاسـتثناء حالـة شـاذة، بـل إن الاسـتثناء صـار عنـوان البلـد الأبـرز!» أطلـق ضحكـة عارمـة وقـالَ ناظـرًا إليَّ بتحبّـب اسـتطعت تلمّسـه: «اسـتثنائي، بفلسـفته. سـوف تعيـش طويـلًا يـا مرهـون، وتذكَّـر دائـماً بأنـك حالـة اسـتثنائية..!»

* * *

عـاد غسـان مـن الـوزارة يحمـل معـه البريـد. وضعـه عـلى مكتبـي، ثـم أخـبرني بـأن مـا تسـوَّقه مـن خضـار ولحـم ورز قـد وضعـه في مكتـب رضـوان الـذي لم يجـده هنـاك. أخـذ التحيـة الخنثـى كعادتـه، وغـادر المكتـب بعـد أن سـمحتُ لـه بذلـك.

فتحـتُ كيـس البريـد بعـد أن طلَبـت مـن فاتنـة فنجـان قهـوة عـن طريـق الهاتـف الداخـلي، وأول مـا لفـتَ انتباهـي كيـس ورقـي يشـبه ظـرف الرسـائل الرسـمية منتفـخ إلى أقصـاه، فتحتـه ووجـدت داخلـه أربـع رزم مـن أوراق العملـة الأجنبيـة الخـضراء، وعـلى إحـدى الـرزم، وبواسـطة شريـط مطاطـي، كانـت ورقـة صغـيرة محشـورة مكتـوب عليها وبخـط اليـد: «مكافـأة إلى جميـع العاملـين بالمؤسسـة ودون اسـتثناء».

سحبتُ عشر أوراق من الرزمة الأولى ووضعتها أمامي، وحال دخول فاتنة بفنجان القهوة، سلمتها الأوراق العشر موضحًا بأنها مكافأة، فسألتْ «من أجل ماذا؟» قلت: «لجهودك في العمل». جلستْ على الكرسي إلى جانب المكتب، وقالت مبتسمة مع التواءة بسيطة من جيدها الذي يذكرني دائماً بنساء موديلياني: «هذه خامس مكافأة استلمها منكَ دون معرفة السبب!» فقلت لها بأن المكافآت تأتي أحيانًا لأسباب نحن نعرفها، وهذا هو المهم، والمهم أنها إشارة واضحة لرضانا عما تقومين به، فهل هذا كاف؟» هزّت رأسها موافقة، ونهضت تروم الخروج، فقلت مشاكسًا: «هل تتعطفين على يتيم بقبلة؟» توقفت ثم استدارت نحوي فاردة ذراعيها وكأنها تستقبلني. قمتُ من على الكرسي وتوجّهت نحوها، احتضنتُها، وقبّلتها. والحقيقة هي التي قبّلتني، أخذتْ شفتي بلهفة عارمة وأطالتْ زمن التقبيل...

أخرجني رنين الهاتف من عالمي الساحر. لَملَمتْ فاتنة نفسها وخرجتْ، بعد أن أخبرتها بضرورة الذهاب إلى مكتب رضوان لأخذ أكياس التسوق اليومي.

كانت أم عامر على الطرف الآخر تسأل عن ليلى، ولماذا لم تعد مع رفيقتيها إلى البيت حتى الساعة، طلبتُ منها أن تنتظرني دقائق قليلة لأكون عندها، ثم قلت لها مطمئنًا بأن الفتاة بخير.

سحبتُ من إحدى الرزم عشرين ورقة من العملة الأجنبية،

وتوجهت صوب الطابق الأول. كنت متشوقًا لسماع ما لم أسمعه في تلك الليلة من الفتاتين اللتين كانتا برفقة ليلى، وكيف انتهت الأمسية؟

كانت أم عامر تفترش الأرض كعادتها، حاولتْ الوقوف حين دخولي، ولكنني طلبت منها البقاء على ما هي عليه، ولحسن حظي كانت إحدى الفتاتين حاضرة في الغرفة، وكانت منشغلة بهاتفها النقّال، ربما كانت ترسل رسالة نصيّة لشخص ما، وأول ما سألتني عنه أم عامر رغبتي في كأس من الويسكي، فطلبت فنجان قهوة، مشيرًا إلى معرفتها بأنني لا أشرب أثناء ساعات النهار.

قامت الفتاة متوجهة حيث المطبخ لتعد لي قهوتي، استغلتْ أم عامر الفرصة وسألتني: «دكتور، أين ليلى؟ لماذا لم تعد مع رفيقاتها حتى الساعة؟» أطلقتُ ضحكة مفتعلة بوجهها ودسستُ في يدها الأوراق النقدية قائلًا:

«ليلى الآن عند الحكومة..». لطمتْ أم عامر صدرها وشرعت تولول، ولكني لم أمنحها الفرصة، حيث واصلت كلامي: «لقد أعجب بها أحد المسؤولين الكبار فأخذها معه، لتكون محظية له.. عليكِ أن تفرحي، فليلى ستكون عونًا لكِ عند الحكومة».

نظرتْ صوب الأوراق النقدية وحاولتْ أن تعدها، ولكنها رفعت رأسها نحوي قائلة: «الذي يمتلك علاقة وطيدة مع الدكتور مرهون عليه أن يتأكد بأن الحكومة بأكملها صارت بين يديه». طبعتُ قبلة على جبينها مبديًا إعجابي بطيبتها ونقاء روحها، طالبًا

منهـا أن تجمـع كل حاجيـات ليـلى وترزمهـا في رزمـة واحـدة وتُسـلّمها إلى غسـان؛ كـي يوصلهـا لهـا، فهـي مـن طلبـتْ ذلـك. وفي تلـك الأثنـاء، دخلـت الفتـاة بفنجـان القهـوة. اسـتلمتهُ منهـا شـاكرًا وطلبـتُ منهـا الجلـوس وإخبـاري بـكل مـا حـدث في الليلـة السـابقة، قالـت بـأن الأجـواء كانـت أكثـر مـن رائعـة، وأن الرجـال كانـوا مهذبـين جـدًّا رغـم أنهـم شربـوا كثـيرًا وأكلـوا أكثـر، وحـين أبـدى الرجـل الكبـير «الحـاج» إعجابـه بليـلى، طلـب منهـا الجلـوس إلى جانبـه، وراح يحكـي لهـا همسًـا وهـي تضحـك، حتـى سـحبها مـن يدهـا ودخـل بهـا الغرفـة، بعـد أن شرب عـدة كـؤوس مـن الويسـكي، حـين ذاك صـار الرجـلان اللـذان كانـا معنـا أكثـر صخبًـا وتهريجًـا، لدرجـة أن أحدهمـا طلـب مني التعـرّي أمامـه، ففعلـت، وفعلـتْ زميلتـي الـشيء نفسـه، فصـارا يراقصاننـا عـلى أنغـام موسـيقى صاخبـة ونحـنُ عـراة، الحقيقـة كنـا فرحـين جـدًّا، ولا نـدري كـم فـات مـن الوقـت ونحـن عـلى ذلـك الوضـع، حتـى خـرج «الحـاج» بكامـل أناقتـه باسـتثناء بعـض الشـعيرات المنتصبـات، التـي يبـدو أنـه نـسي أن يرجعهـا إلى جهـة اليمـين ليغطـي صلعتـه. طلـب منـا مغـادرة المـكان، وطلـب مـن أحـد الرجلـين أن يوصلنـا إلى حيـث نريـد، فأخبرنـاه بأننـا نسـكن في الطابـق الأرضي مـن البنايـة، وليـس مـن الـضروري مرافقتنـا. غادرناهـم بعـد أن سـلَّمَنا أحـد الرجلـين مظروفًـا يحتـوي عـلى مبلـغ محـترم سـلّمناه إلى الخالـة أم عامـر حـال وصولنـا، وذلـك كل مـا حصـل ليلتهـا، كانـت ليلـة جميلـة لم نفقـد بهـا كرامتنـا، وليتهـا تتكـرر كل يـوم».

«وهـذه آخـر مـرة تتحدثـين فيهـا عـن هـذا الموضـوع، حياتـك وحيـاة

زميلتك وحياة أم عامر وكل من في هذا البيت سيكون ثمن البوح بما حدث ليلة أمس، وتأكدي بأنها لن تكون المرة الأخيرة، فإن اطمأنّ لكم السيد ورجاله، فستَعشنَ النعيم، والموت في عكس ذلك طبعًا!» قلتها بحزم شديد وإصرار بغية إخافتهنَّ.

إذن، عرف «الحاج» كيف يفلت من فعلته أمام الفتاتين ومرافقيه، ولكن كيف له أن يتملص من دليل السيد «الوزير» بالصوت والصورة؟» قلت ذلك في داخلي بعد أن أنهيت فنجان قهوتي، وكنت بشوق عارم لنهدَي فاتنة.

كانت فاتنة في أجمل رغبتها، متوقدة الشهوة وكأنها أعدّتْ أحاسيسها وروحها للقائي. كانت تنتظرني في مكتبي، وجدتها واقفة تحتضن ملفًا أحمر اللون. كانت وجنتاها متوردتين، وعيناها تخبراني بطول انتظار. اقتربتُ منها ناظرًا في عينيها، وما إن صارت المسافة تُحسب بإيقاع دقات قلبها، حتى سقط الملف الأحمر أرضًا، وأسبلت الجميلة يديها وكأنها على وشك الدخول في غيبوبة، احتضنتُها ملتقماً شفتيها، فأطلقت أنَّة صوَّبْتها داخل روحي، متخذة من فتحة فمي مدخلاً لها، وما أن شرعتُ بفك أزرار قميصها حتى طلبتْ مني النزول حيث الطابق الثالث.

هناك، في غرفتي الخاصة، حيث يحتل كيس الضحايا الجدد زاوية مهمة من الغرفة، ارتمتْ فاتنة عارية تمامًا على سريري، فتحتْ أبواب فردوسها، وعيناها تتوسلان الولوج، لكن شغفي العارم بالثديين زاد من أنينها، صارت تستغيث بي لإشباع شهوتها، تئنُّ

وكأنهـا لبـوة جريحـة. حينهـا، تَلمَّسـتُ روحهـا، تلمَّسـتُ ألم سـنوات مـن الحرمـان، ووحشـة الفـراش الحـالم بأنفـاس الحبيـب.

بكـتْ فاتنـة كثيـرًا. بكـتْ حرمانهـا وقسـاوة حياتهـا، بكـتْ زوجهـا الغائـب ووحشـتها، بكـتْ كثيـرًا ولم أشـأ إيقافهـا. لقـد كانـت تـداوي جروحهـا ببلسـم الدمـوع، كنـتُ أحتضنُهـا وأطلـب منهـا المزيـد مـن الدمـوع، حتـى صرتُ ألعـق بلسـاني دموعهـا، وأبتلـع رحيـق مأسـاة دامـت لسـنين.

❋ ❋ ❋

قبـل مغـادرة فاتنـة لمـكان عملهـا بنصـف سـاعة، وصـل غسـان وبيـده حقيبـة جلديـة، قـال بـأن أم عامـر قـد كلفتـه بتوصيلهـا إليَّ، وشـدَّدتْ عـلى أن أخـبركَ بأنهـا تحتـوي عـلى كل مـا لليـلى مـن أغـراض في غرفتهـا. شـكرته، وأخبرتـه بأننـي سـأوصل فاتنـة إلى بيتهـا.

غـادرني غسـان مبتسـماً، وكانـت فاتنـة في الطابـق الثالـث تسـتعد للمغـادرة. رفعـتُ سـماعة الهاتـف وأخبرتهـا بأننـي سـوف أوصلهـا إلى البيـت بـدلًا مـن غسـان لأننـي اشـتقت إلى نشـوان.

فتحـتُ الحقيبـة، ووجدتهـا تحتـوي عـلى ملابـس وبعـض الحـلي المزيفـة وزوجـين مـن الأحذيـة، وعـدة قطـع مـن الملابـس الداخليـة، ولكـن وأثنـاء تقليـب الأغـراض، وجـدتُ صـورة شـخصية بحجـم كـف اليـد لشـاب وسـيم يقـترب عُمـره مـن عمـر ليـلى، قلبـت الصـورة

ووجدت بعض كلمات هناك: «انتظريني، فأنا في طريقي لعبور البحر، هناك سأبني لكِ بيتًا جميلاً لنعيش تحت سقفه بكل حبنا.. حبيبكِ خضير». أحزنتني الصورة، إنها أمل موءود آخر يضاف إلى جبل الآمال الموءودة في بلد لا شيء يميزه سوى الموت.. لقد طال الموت كل الأرواح، حتى روح الأمنية والذكرى وزقزقة العصافير.

أخذتُ من الحقيبة كل ما هو معدني، لأضيفه إلى كيس الضحايا الرابع الذي يقبع في إحدى زوايا غرفتي حيث الطابق الثالث، ثم أعدت بقية الأغراض إليها، وأغلقتها ثم ركنتها جانبًا. وحين صعدتْ فاتنة ودخلت غرفة مكتبي، كانت متوردة الوجنتين، وكان شعاع عينيها يمنح الناظر سعادة هائلة، كان جمالها استثنائيًّا لدرجة اجتاحتني فيها رغبة امتصاص رحيقها مرة أخرى، لكنها توسلتني بتأجيل الأمر إلى الغد؛ لأن ترتيب شكلها وهندامها مرة أخرى سيأخذ الكثير من الوقت، وأنها بذلك ستتأخر عن الصبي الذي ينتظرها.

ابتعدتُ عنها مكتفيًا بقبلة ساخنة، ثم أشرت لها صوب الحقيبة، طالبًا منها أن تأخذها وتوزع الأغراض التي تحتويها على فقراء منطقتها. وافقت على ذلك، وكعادتها لم تسأل عن أي شيء بخصوص الحقيبة، واكتفتْ بحملها حتى وضعتْها داخل صندوق السيارة.

كان نشوان يفترش باب الدار، واضعًا كتابه ودفتره الذي كان يخط فيه بعض الكلمات على الأرض الكونكريتية، وما إن شاهد

السيارة قادمة حتى وقف مستقبلًا بفرح غامر، ولكن المفاجأة التي زادت من فرحه، كانت حين رآني أنزل من سيارتي. ارتمى بأحضاني وراح يقبلني وهو يعلن اشتياقه لي. أخذته إلى صدري، وتلمست نضوجه وقوة روحه، ولا أدري لماذا شعرت حينها بالفخر وأنا أصطحبه إلى داخل الدار، ربما لأنني شاهدته وهو يقرأ أو يكتب واجباته المدرسية، التي لم أذق حلاوة ممارستها من قبل إلا وأنا في أقذر مكان وأقساه إهانةً. كنتُ بالفعل فخورًا به.

17

كان لي موعـد مـع صاحـب دار النـشر الـذي اتفقـت معـه عـلى طبـع ديـوان «الوطـن السـندباد»، الـذي يضـم مجموعـة القصائـد التـي حفظتهـا في سـجن الأحـداث عـلى لسـان الأسـتاذ عدنـان، بالإضافـة إلى قصائـد مكتوبـة عـلى الـورق كنـت قـد أخذتهـا منـه في أوقـات مختلفـة. تـم جمـع القصائـد في ملـف أنيـق، كانـت فاتنـة قـد أعدتـه بعـد أن كتبـت القصائـد مسـتعينة بجهـاز الكومبيوتـر، حتـى اكتمـل الديـوان، دون أن يعـرف النداـئـي عنـه شـيئًا. وكنـت قـد اتفقـت مـع فنـان تشـكيلي رائـع، اسـمه «عطـا»، التقيتـه في شـارع المكتبـات، وعرفـت أنـه عائـد لوطنـه بعـد قرابـة الربـع قـرن مـن المنفـى والغربـة، عـلى أن يمنـح الديـوان إحـدى لوحاتـه، والحقيقـة لم يبخـل صديقـي الفنـان، فقـد أهـداني لوحـة تجريديـة تعبيريـة رائعـة، رغـم أنـه قـد عـرف عـدم ميـلي إلى التجريـد، وصـار غالبًـا مـا يضحـك وهـو ينظـر إليَّ، وحـين أسـأله عـن سـبب ضحكـه، يقـول: «كيـف لا تسـتهويك الأعـمال التجريديـة وأنـتَ مغـرم بالشِّـعر والفلسـفة، أليـس الشـعر تجريـدًا أيضًـا؟» وكنـت أقابلـه بضحكـة أخـرى وأنـا أردد عـلى مسـامعه: «القصائـد لا تحتـوي عـلى اللـون الأحمـر والأصفـر بشـكل ملمـوس، وهـي بالتـالي لا تذكّـرني بالـدم ولـون الصديـد».

313

أحببت ذلك الفنان، وشعرت بأنه يشبهني؛ لأنه كان سجينًا أيضًا في زمن الديكتاتور، وقد ذكرني بصديقي الفنان «عماد» زميل السجن، والذي ناضلت كثيرًا من أجل ألا يكون تحت مبضع الدكتور كريم، ولكنني كنت ضعيفًا ذليلًا لا حول لي ولا قوة.

التقيتُ صديقي «عطا الفنان» في شارع المكتبات وأنا في طريقي إلى دار النشر، وقد كنتُ قد ركنت سيارتي على بعد ثلاثة شوارع، لحرصي على عدم معرفة أي شخص في شارع المكتبات بأنني أمتلك سيارة. كنت أبتغي الثقافة لا التظاهر.

وضعتُ يدي بيد عطا الفنان الذي كان يكبرني بأكثر من عشر سنوات، ودخلنا دار النشر ضاحكين، فقد حكى لي كعادته آخر نكتة سمعها، كانت تهزأ من أحد رجال الحكومة الذي كان أجيرًا في مخبز وصار نائبًا ورئيسًا للجنة البرلمان القانونية.

استقبلنا صاحب الدار مرحبًا، ثم طلب لنا الشاي، ليعرض علينا بعد ذلك صورة الغلاف. كان متناسقًا أنيقًا، ولكن صديقي الفنان اعترض على ظهور ألوان لوحته بشكل باهت، وطلب تصحيح الألوان. ابتسم له صاحب الدار وقال: «يبدو أنكَ أيها الفنان المبدع قد عشت سنوات عديدة في أوروبا؛ لذا أمنحكَ الحق، ولكننا هنا نعيش بأقل قدر من الحياة، نحن لا نمتلك أجهزة متطورة، وأحدث جهاز للطباعة موجود في هذا البلد يعود إلى ما قبل عشرين سنة على أقل تقدير؛ لهذا أرجو منكَ أن تمنحنا العذر..». أطرق عطا برأسه ناظرًا صوب الأرض متأملًا نقش

بلاطات الموزاييك ولم يقل كلمة واحدة. كنتُ أنظر صوبه وأتلمَّس انكساره، حتى وجهتُ له سؤالًا عبثيًّا لا أروم من ورائه أي إجابة سوى إخراجه من الحالة التي كان عليها. رفع رأسه مبتسماً وكأنه شعر بما رميتُ إليه من وراء سؤالي، وقال: «لا عليك، لقد تعودت على هذا منذ زمن طويل..»، ثم قام مودعًا، وخرج من الدار بعد أن أخبرني بأنه سيكون في المقهى، حيث يمكننا اللقاء هناك، بعد أن أنتهي من لقائي مع صاحب الدار.

أسبوع واحد، ويكون ديوان الشاعر عدنان الندائي بين يديه، إنها المفاجأة التي أردت تقديمها له، شكرًا وعرفانًا على كل ما قدّمه لي، فهو أستاذي ومعلمي الأول والوحيد. ومنذ تلك اللحظة بدأت أعد للقائي به كي أقدم له ديوانه الشعري «الوطن السندباد»، الذي اخترت له العنوان كفكرة مهيمنة على أغلب قصائد الديوان، وذلك ما خرجت به من خلال دراستي للقصائد، ولم تكن هناك قصيدة تشير في عنوانها إلى عنوان الديوان.

حين دخلت المقهى، وصلتني حزمة ضحكات، كانت ضحكة عطا هي الأعلى والأوضح، اتجهت صوبه بعد أن دلتني ضحكاته على مكانه. جلستُ بقربه مشيرًا إلى صبي المقهى كي يجلب لي شايًا.

لم يسألني عن لقائي بصاحب دار النشر، ولكنه حاول أن يطمئنني على أنه ليس مستاءً لما ظهرت عليه لوحته ببهتان ألوانها على غلاف الديوان، وقال: «يجب ألا أنسى بأنني هنا، في بلد الخيبات..». قبّلته واقترحتُ عليه مكانًا مناسبًا لتناول وجبة الغداء. نظر في وجهي

مبتسماً، وقال: «أوافق على أن تدعوني لوجبة غداء، شريطة أن تقوم أنتَ بدفع الفاتورة..». أطلقتُ ضحكة صادقة، ومسحتُ بكفي على رأسه الحليق بالموسى قائلاً: «هذا الرأس المبدع دائماً ما أثار دهشتي، حتى حين يصنع النكتة ويطلقها».

جلسنا في الطابق الثاني من المطعم الذي اشتهر بتقديم أجود أنواع الكباب في العاصمة، والحقيقة أن عطا من اختار الجلوس في الطابق الثاني، وحين سألته عن السبب في تفضيله الجلوس في الطابق الثاني، قال: «مرهون! أنا خائف..!» وحين سألته عن سبب خوفه قال بأنه مستهدف من جهة حكومية متنفذة. حينها فتحتُ له ذهني وسلّمته مسامعي وكل حواسي، وصَمَتُّ مستمعًا إليه.

عرفتُ منه أنه كان سجينًا في أقسى سجون البلد وأقذرها سمعة، في الوقت الذي كنت أنا سجينًا في سجن الأحداث، وقد حُكِمَ عليه بالسجن المؤبد لأنه حاول الهرب من البلد بطريقة غير شرعية، وراح يحدثني عن ظروف السجن التي كنتُ أعرفها جيدًا، وكنت حريصًا على ألا أشير إليه بأنني كنت سجينًا أيضًا، ثم وصل في حديثه إلى النقطة الأهم، حيث كشف لي عن شخص كان معهم في السجن، اسمه «حلمي»، وكان كاتب تقارير من الطراز الأول، وقد أدت تقاريره إلى إعدام العديد من الشباب الذين يعرفهم «عطا الفنان» بأسمائهم. وفي فترة غاب بها حلمي عن السجن، أشيع بين السجناء بأنه قد أُعدمَ، ولم يُخفِ عطا تفاصيل تلك الفرحة وذاك الاحتفال الذي أقامه السجناء داخل الزنزانة ابتهاجًا بالخبر، ثم

صدر قرار العفو العام عن السجناء، وخرج عطا من السجن، في الوقت الذي خرجتُ أنا فيه من سجن الأحداث، وبعد فترة قصيرة سافر عطا إلى بلد مجاور ظل يرسم هناك ويبيع لوحاته لأربع سنوات، حتى تمكَّن من جمع مبلغ من المال ساعده في السفر إلى دولة أوروبية، ليحصل على حق اللجوء السياسي.

بعد سقوط الديكتاتور بسنتين، وحين تشكلتْ حكومة البلد الجديدة، كان عطا يشاهد التلفاز مستمعًا للأخبار، وفي لحظة شاهد رجلاً يرتدي بدلة أنيقة وربطة عنق يتحدث عن أهمية التجربة الديمقراطية التي يمر بها البلد. وقف عطا منتفضًا، فقد عرف المتحدث. لقد كان حلمي، كاتب التقارير الذي بعث بالعديد من الشبان إلى الإعدام، إنه يحتل وظيفة السكرتير الأول لرئيس مجلس النواب. منذ تلك اللحظة، قرر عطا تقديم شكوى رسمية إلى الحكومة الجديدة ليسوق فيها حلمي إلى المحاكم ويأخذ جزاءه العادل، وقال: «أقسمتُ بشرفي أن أثأر لتلك الأرواح الجميلة الحالمة التي أُزهقتْ بسبب تقارير حلمي السافل..». وبالفعل عاد عطا إلى البلد وقدَّم الشكوى بشكل رسمي، ومنذ تلك الساعة وحركة الاتصال به لا تهدأ، الكثير من الشخصيات المؤيدة لحلمي والمتصارعة معه قد حاولت الاتصال بعطا من أجل مصالحها. هناك من هدده بالقتل إن لم يسحب الدعوى، وهناك من شجعه على الاستمرار بها عارضًا عليه دفع كل التكاليف وتأمين حماية له.

ثـم صمـتَ عطـا قليـلاً، وقـال وهـو يمضـغ لقمتـه بهـدوء: «المشـكلة، هـي أننـي بـتُّ الشـاهد الوحيـد عـلى جرائـم حلمـي، فهنـاك شـاهد آخـر كان معـي في السـجن، وهـو الآن يعيـش في أمريـكا، ولكنـه فضَّـل الصمـت كونـه تلقـى تهديـدًا صارمًـا. تملّكـه الخـوف وقـرر الصمـت حتـى النهايـة، وبقيـت أنـا أصـارع هـذا الغـول».

❋ ❋ ❋

ودعـتُ صديقـي الفنـان طالبًـا منـه الانتبـاه لنفسـه جيـدًا، وأن يحـرص عـلى عـدم الـكلام بقضيتـه المهمـة إلا أمـام أشـخاص يثـق بهـم، وعـدتُ إلى المؤسسـة مسرعًـا لأننـي أعـرف أن هنـاك بريـدًا مهـماً قـد وصلنـي مـن الـوزارة، ومـا إن دخلـت غرفـة مكتبـي حتـى طلبـت مـن فاتنـة فنجـان قهـوة كبـيرًا. لقـد كنـتُ حزينًـا، فـما زالـت آثـار قصـة صديقـي الفنـان تنهـش روحـي. كنـتُ عـلى يقـين بـأن عـددًا لا يسـتهان بـه مـن رجـال الحكومـة الجـدد هـم مـن أصحـاب السـوابق، ذلـك اليقـين الـذي بـدأتْ خيوطـه تنسـج كيانهـا في عقـلي منـذ أن نفـذتُ مهمـة اغتيـال السـيد القـاضي المسـكين، لتـأتي قصـة صديقـي عطـا وتضـع اللمسـات الأخـيرة لإتمـام نسـيج اليقـين المـرّ.

«مـاذا لـو عـرف صديقـي الفنـان، بأننـي لسـت أقـلَّ إجرامًـا مـن حلمـي؟» سـؤال صـار يجـول داخـلي بضجيـج مزعـج.

شرعتُ بفتح مظروف البريد القادم من الوزارة. كان أغلب ما يحتويه مواد تخص الأرشيف، معلومات ووثائق على فاتنة أن تورّدها وتفرزها لتضعها في الأماكن المحددة لها، وهناك ورقة صغيرة مكتوب عليها: «هناك برنامج تلفزيوني لطيف جدًّا تبثه قناة «الحقيقة» بين الساعة الثانية والثالثة من بعد الظهر، أرجو أن تشاهده بشكل مستمر وتعطينا رأيكَ فيه».

كانت الساعة تقترب من الثالثة، أي يمكن مشاهدة الدقائق الأخيرة من البرنامج؛ لذا طلبت من فاتنة العاشقة لموسيقى الكلاسيك أن توقف بثّ الموسيقى الهادئة المنتشرة بطبقة صوت واطئة في أرجاء المؤسسة كافة عن طريق مكبرات صوت وُزّعت على بعض الزوايا، وأن تبث الحياة في جهاز التلفاز لمشاهدة قناة «الحقيقة»، وما إن نفَّذتْ ما طلبته منها حتى شاهدتُ رجلاً منفعلاً راح يكيل الاتهامات بغضب واضح على رجال الحكومة دون تسمية أحد منهم. طلبتُ من فاتنة رفع الصوت قليلاً. كان مقدِّم البرنامج يتلقى مكالمات هاتفية من بعض المواطنين الغاضبين على سوء إدارة الدولة، وكان يدعو بين لحظة وأخرى الجماهير إلى الخروج بتظاهرات ضد السلطة من أجل تحسين الخدمات. من الواضح أن البرنامج يهتم بنقل هموم المواطن، وكانت أغلبها شكاوى لا ينقصها الصدق والمرارة، ولكن صوت مقدِّم البرنامج وكلماته القاسية التي تصل حدّ السبّ والشتم أحيانًا كان مزعجًا جدًّا، لدرجة أن إلهة الصمت في المؤسسة وقفتْ أمامي شاكية:

«دكتور، الله يخليك، يكاد رأسي ينفجر من صوت هذا الرجل..».

نظرتُ إلى عينيها الساحرتين وقلت:

«ألم يحن وقت ذهابكِ إلى البيت؟.. أين غسان؟»

«ينتظرني عند باب البناية، ولكني بانتظار الإذن منك للمغادرة».

وقفتُ واقتربت منها لأطبع قبلة ساخنة على شفتيها، ثم قلت:

«دعيني مع هذا الصوت المزعج، واذهبي أنتِ ولا تدعي نشوان الجميل ينتظر أكثر..».

بعد مضي دقيقة واحدة على انتهاء البرنامج، رنَّ هاتفي، وكان سيادة «الوزير» على الطرف الآخر: «هل شاهدت البرنامج؟ هل تعرف الرجل مقدم البرنامج؟ ما رأيك بما كان يقوله للناس؟»

«سيادة «الوزير»، أرجو أن تمنحني فرصة حتى ظهر الغد لأجيبك على كل الأسئلة..».

فوافق على الفور، ثم سألني سؤالًا صادمًا: «كيف كان لقاؤكَ بصديقكَ عطا الفنان؟» استفزني السؤال، وشعرت أن «الوزير» يستخفّ بي، فقلت متسائلًا بشيء من الانزعاج: «هل يعني هذا بأن حضرتك تشير إلى أنني مراقب من قبلكم؟»

أطلق ضحكة مفتعلة ونفى فكرة المراقبة، ولكنه أوضح بأن سلامتي تهمه جدًّا، ومن الطبيعي وجود شخص لا أعرفه يكون عونًا لي حال حدوث أي شيء ينبئ بخطر.

«سيادة «الوزير»، هل كنتُ أنا المراقب من قبلكم أم المسكين عطا؟».

سألته، وعلى ما يبدو أن صوتي كان يشي بمستوى الانزعاج الذي كنت عليه، فأجاب سيادته: «عزيزي مرهون، ما رأيك بأن نلتقي غدًا عند الثانية بعد الظهر؟ سأخصص ساعة كاملة للقائنا، فهناك الكثير من الأمور يجب مناقشتها». وافقته ثم ودَّعتَهُ منزعجًا.

❋ ❋ ❋

هاتفتُ الأستاذ عدنان، علَّني أجد عنده أي معلومة عن «شاكر الشامي»، مقدِّم البرنامج في قناة الحقيقة، وما إن سمع صوتي حتى صاح فرحًا: «أين أنتَ يا رجل؟.. أيها التلميذ العاق، عليك الحضور بعد أقل من ساعتين، عندنا ضيف يريد أن يراك..». ودّعته دون أن أسأله عن شاكر الشامي، واعدًا إياه بأن أكون عنده في الوقت المحدد، وكعادتي لم أشغل بالي كثيرًا بمن قد يكون الضيف الذي يريد رؤيتي، لأنني سأراه وأتعرف عليه حال دخولي إلى بيت عدنان.

كنتُ حريصًا على الظهور أمام هيام بأفضل حالاتي؛ لذا دخلت الحمام وتحمّمت، رغم أنني معتاد على التحمم كل صباح. ارتديت أفضل ملابسي وخرجتُ قاصدًا الطابق الثاني حيث «مكتب الكوثر للترجمة».

استقبلتني كوثر بفيض من المحبة، معبرة عن اشتياقها. سألتها بالألمانية عن ظروف العمل وتعاملات الزبائن، فأجابتني بالألمانية أيضًا وهي محتفظة بابتسامتها، بأن كل شيء على ما يرام، ولكن تعاملها مع طلبة البكالوريوس صار يتعبها، خصوصًا بعد أن تلمستْ لدى أغلبهم ضعفًا كبيرًا في مستوى اللغة. أخبرتها أن الحل بسيط، فما عليها إلا مضاعفة الأجور، وبذلك يكون التعب مجديًا. أضحكتها فكرتي، وأشارت إلى أسفها لتدني مستوى التعليم في البلد، وقالتْ بمرارة: «لقد أجبروا الناس، والشباب على وجه الخصوص، على استبدال الكتاب بالمسبحة، والجريدة بخاتم فضي في البنصر، وكسوا الوجوه الفتيّة بلحًى قاتمة لتضيع الابتسامة، حتى صار الشاب يؤمن بما يسمع، ويكره كل سبيل يدعوه إلى أن يقرأ»، فقلت لها متسائلًا: «أيحزنكِ تدني مستوى التعليم إلى هذه الدرجة؟ هل يمكنكِ الإشارة إلى زاوية واحدة من زوايا هذا البلد «العظيم» لم يتدنَّ مستواها؟» ضحكتْ واقتربتْ مني لتحتضنني، وطبعتْ قبلة على رقبتي ثم همستْ: «متى تكون عندي؟ لقد فاض بي الشوق..!» وعدتُها بأنني سأكون عندها حين يحلّ الليل. قبَّلتها وودعتها على أمل اللقاء قريبًا.

كانت مفاجأة جميلة تنتظرني في بيت عدنان، فما إن دخلت الصالة حتى شاهدتُ الأستاذ عبد الله واقفًا يستقبلني بسمرته وابتسامته المعهودة، وصوته الهادئ الدافئ: «أهلًا عزيزي مرهون..». أردت مصافحته لكنه احتضنني، ثم سحبني من يدي لأجلس قربه، وذلك يعني أنه اختار لي المكان الذي عليَّ الجلوس

فيه؛ لذا شعرت بأن هناك موضوعًا يشغله، ويريد مناقشته معي أو السؤال عنه، وما إن غاب عدنان ليجلب شيئًا ما، حتى تأكد حدسي، حين قال لي: «هناك تحضيرات جادة لانطلاق تظاهرات شعبية هدفها المطالبة بتحسين الخدمات، هل سمعت بها؟» شعرت أن الفرصة صارت مواتية للسؤال عن شاكر الشامي، فقلت له بأنني قد عرفت، كوني قد شاهدت منذ قليل برنامجًا على قناة الحقيقة يطالب بتحشيد الجماهير وحثهم للخروج في تظاهرة، ثم قلت مستفسرًا: «أعتقد أن اسم مقدم البرنامج هو شاكر الشامي، هل تعرفه؟» ابتسم وهز رأسه: «نعم.. نعم.. ولكن ما رأيك بالفكرة؟» شعرت أنه ابتسم لأنه تلمس غرضًا ما في سؤالي قد يبعده عن الموضوع الذي أراد التحدث فيه، فقلت:

«أعتقد أن من حق الشعب أن يتظاهر، بل ويعتصم في الشوارع والساحات، فما بات يعانيه يفوق الوصف في قسوته وغرائبيته في آن واحد، ولكن يا أستاذ، هل تعتقد أن التظاهر سيجني ثماره، إذا كان من يتظاهرون ضدهم قد ودّعوا قطرة الحياء منذ زمن بعيد، فهم لا يكترثون ما داموا يمتلكون المال وسلاح الجيش والشرطة..».

كنت أتحدث وأنظر متفحصًا ملامح الأستاذ عبد الله، الذي لم يتخلَّ عن ابتسامته، وما إن سمع رأيي حتى قال:

«إذا كانت الخطوة الأولى صحيحة، فمن المؤكد ستجني ثمارها..».

ابتسمت له وقلت صادقًا: «صحيح أنني أعرفكَ منذ فترة قريبة، ولكني لم أعهدكَ متناولًا للشعارات!» شعرت بأني قد أثرته في كلامي، ولكن هيهات أن ألاحظ عليه أي إثارة. بقي محتفظًا بهدوئه وقال وهو يشبك أصابع كفيه ناظرًا صوب زاوية بعيدة:

«إن لم تكن هناك فائدة مرجوة من التظاهر، فإن هناك خطورة عظيمة من وراء عدم التظاهر. تصور، يا صديقي، أن عمر المطالبة بفصل الدين عن الدولة يمتد لأكثر من خمسة قرون، وجميع الدول المتقدمة قد وصلت إلى ما هي عليه الآن نتيجة تبنّيها لأفكار الفلاسفة والتنويريين الذي طالبوا بفصل السلطات..».
اعتدل عبدالله في جلسته وصار ينظر إليَّ متحدثًا: «المطالبة بفصل الدين عن الدولة، أو في الحقيقة تحجيم دور المعبد في هيمنته على سياسة البلدان يمتد عمره إلى قرابة الستة قرون، ومن يحكموننا الآن يريدون العودة بنا إلى ما قبل ذلك، يريدون بنا العودة إلى الوراء، إلى زمنٍ لم يسمع أو يقرأ أو يؤمن فيه البشر بعدُ، بما طالب به الفرنسي جون كالفن، ومن قبله الألماني مارتن لوثر، وصولًا إلى الحلاج وابن عربي والرومي وشارل مونتيسكيو وابن رشد، وكل الفلاسفة والشعراء والمفكرين الذي ناضلوا من أجل نشر الأفكار التنويرية..».

عند ذاك، تذكرتُ مقولة مونتيسكيو، فقاطعته قائلًا:

«أفضل ما يفعله الفاشلون أن يصنعوا من أنفسهم رجال دين».

وما إن سمع عبد الله المقولة حتى قال:

«نعم، هـذا مـا تلمّسـه مونتيسـكيو وآمـن بـه، ليصوغـه بعـد ذلـك بمقولتـه الشـهيرة تلـك.. فهـل تجـد، يـا صديقـي، في محـاولات عصابـة الحكومـة العـودة بالبلـد إلى أكثـر مـن سـتة قـرون، ليسرقـوا ويقتلـوا باسـم الوهـم، خطـوة إلى الأمـام، أو أنهـا لا تسـتحق الوقـوف ضدهـا بمظاهـرة مسـتنكرة؟».

«لم أقصـد هـذا قـط، لكنـي أردت الإشـارة إلى أن مـن يجلـس عـلى سـدة الحكـم لا يمتلـك حاسـة السـمع، وكان قبـل ذلـك قـد رمـى وطنيتـه وكرامتـه في مقالـب القمامـة الخاصـة في البلـد الـذي أتـى منـه..».

دخـل عدنـان مقاطعًـا وهـو يعلـن حلـول موعـد تنـاول العشـاء، وتبعتـه هيـام داخلـة إلى الصالـة بسـحرها وغنائيـة عينيهـا، دخلـت مبتسـمة معتـذرة لي كونهـا تأخـرت بعـض الشيء في الترحيـب بي. مـدت لي كفهـا الملائكيـة مصافحـة ومرحبـة، قالـت: «هـل تعـرف يـا مرهـون بـأن الأسـتاذ عبـد الله صـار جارنـا؟» وحيـن سـألتها ناظـرًا صـوب عبـد الله عـن صحـة الأمـر، قـال عبـد الله موضحًـا: «نعـم، فقـد اشـتريت دارًا صغـيرة عـلى بعـد شـارعين مـن هنـا..». باركـتُ لـه وتمنيـتُ لـه كل الخـير، ثـم مازحتـه قائـلًا: «يبـدو أن وزارة الثقافـة بـدأت تدفـع رواتـب مجزيـة لموظفيهـا!» ضحـك وقـال نافيًـا: «لا، يـا صديقـي، إنهـا مدخـرات العمـل في المنفـى الـذي امتـد لأكثـر مـن ربـع قـرن».

كان عدنـان منشـغلًا بترتيـب الأطبـاق عـلى طاولـة الطعـام، وراحـت هيـام تسـاعده حتـى طلبـا منـا التقـرب إلى الطاولـة وتنـاول طعامنـا.

كنتُ أجلس إلى جانب الأستاذ عبد الله، وكان عدنان وهيام يجلسان قبالتنا، ويبدو أن عدنان قد لاحظ احتفاظي بابتسامة لفترة ليست بالقصيرة، فسألني بطريقة مشاكسة عن السر وراء تلك الابتسامة، قلت له بأنه سؤال قديم طالما بحثت عن الإجابة عنه، ولا أدري إن كان الوقت مناسبًا لطرحه. حينها طلب مني الثلاثة أن أطرح سؤالي فقلت: «حين كنتُ صغيرًا، ولم يمض على معرفتي بالأستاذ الندائي سوى أيام معدودات، وقفتُ أمامه وطلبتُ منه أن يجعلني مثقفًا لا متعلماً فقط. وفي لحظة، قال لي بعد أن أطلق ضحكة ما زالت مرتسمة داخل روحي بصورتها المحببة: «أنتَ تبحث عن الاحترام من خلال الثقافة، وهذا يذكّرني بشريحة كبيرة من مجتمعنا كانت تعاني التهميش والازدراء من قبل المجتمع، فطلبوا الثقافة ليتخلصوا من عقدتهم تلك.. من حقّك أن تسعى إلى الثقافة، وسوف أسعى لمساعدتك، ولكن إياك والادّعاء والكذب في مجال الثقافة، وتذكَّر بأنكَ ستكون مسخًا حين تمارس هاتين الخصلتين الذميمتين!» ومنذ ذلك الوقت، تعتريني رغبة عارمة في أن أعرف طبيعة تلك الشريحة، وأي طلب كانوا يريدونه ليتخلصوا من عقدهم». سمعت ضحكات عبد الله والندائي في وقت واحد، ورحت أوزع نظراتي بينهما، حتى قال عدنان وهو ينظر صوب عبد الله: «لا أستطيع إجابتك على السؤال بحضور الأستاذ عبد الله، ربما يزعل مني..». تعالت ضحكات عبد الله وقال موجهًا كلامه إلى عدنان: «إذن، دعني أجيبه بدلًا عنكَ، ويمكنكَ التصحيح إن أخطأت..». أشار له عدنان بالموافقة فقال:

«في زمنٍ ليس بالبعيد تاريخيًّا، كان هناك -ولا يزال بكل تأكيد- حزب سياسي يتسم بالثقافة وسعة الاطّلاع، والقدرة على التحليل والإقناع، وكان الناس ينظرون إلى كل شخص منتمٍ إلى ذلك الحزب باحترام كبير، ويعدونه مثقفًا، وبالتالي جديرًا بالاحترام.. تلك الظاهرة دفعت بالكثير من الشبان الذين يعانون من مشكلات اجتماعية ونفسية، علاوة على الشعور بالتهميش، إلى الانتساب لذلك الحزب، وبالتالي حصلوا في انتسابهم آنذاك على دافع نفسي ظنوا من خلاله أنهم قد تخلّصوا مما كانوا يعانون منه اجتماعيًّا..». حاول الأستاذ عدنان التدخل في الحديث فقال مقاطعًا: «أما التحذير من الادعاء والكذب في مجال الثقافة، فقد كان بسبب ما تعرض له الحزب من خراب حقيقي، جاء على أيدي أغلب أولئك الشبان الذي دخلوا الحزب لا عن قناعة أو إيمان بأفكاره، بل من أجل مصلحة شخصية، حيث صاروا الرصاص الحقيقي في يد سلطة الديكتاتور أثناء محاولته الشرسة لقتل الحزب. وحتى اللحظة، ما زال الحزب يعاني من نزف جراحه التي لا أظنها ستندمل يومًا ما. كل ذلك لأنهم لم يكونوا مثقفين، بل أدعياء ثقافة، كانوا كذابين بصورة سافرة، ويمكنني أن أشير إلى أحدهم، وأنتَ تعرفه، هو الآن وزير لوزارة مهمة، وقد حصل على المنصب كونه ينتمي إلى حزب ديني، بعد أن تركَ حزب مرحلة الشباب لينتمي إلى حزب الديكتاتور، وحين سقط الديكتاتور انتمى إلى الحزب الديني الذي يشارك في حكم البلد بمراكز مهمة..».

حاولت أن أدير الحديث نحو ما كنت أنتظره، فقلت متصنّعًا التلقائية:

«هل كان شاكر الشامي عضوًا في ذلك الحزب الذي يمتاز أعضاؤه بالثقافة؟»

«لا، ولكنه يدعي هذا...». أجاب عبد الله، وأضاف سائلًا: «ولكن لماذا تسأل عن هذا الشخص بالذات؟»

«لأن إحساسًا تملكني وأنا أشاهده على شاشة التلفاز بأن ما يقوله ويطالب به لم يكن خارجًا من أعماقه، وأن ثمة أمرًا شخصيًّا وراء حماسته المفرطة.. ولا أدري لماذا استحضرته ذاكرتي وأنا أستمع إليكما وأنتما تفصِّلان الظروف، وما كان يبحث عنه الشباب الذين قرروا الانتماء إلى حزب الثقافة بغية التخلص من عقدهم».

قلت ذلك ليجيبني أستاذي:

«قد يكون إحساسكَ صائبًا، ولكن إن أردت معرفة المزيد، فعليك بصديقك «عطا الفنان».. هو يعرفه جيدًا».

كان «سماور» الشاي منتصبًا على حافة طاولة الطعام اليسرى، إلى جانب هيام المتألقة دائمًا، والتي تعلَّمتْ صنع الشاي على طريقتي منذ سنوات خلت، منذ كانت تصعد إلى غرفتي حيث سطح البناية التي كنت أحرسها قبل دخولي السجن للمرة الثانية.

ناولتني كأس الشاي، وما إن رشفت منها رشفة حتى تأكد لي بأنها ما زالت تتقن صنعه على الطريقة نفسها.

عدتُ إلى المؤسسة، متفحصًا لها، وكان كل شيء كما تركته، حتى الموسيقى الكلاسيك الهادئة بصوتها الواطئة التي تركتها لتكسر

328

وحشة المكان. أطفأت الجهاز، وأغلقت الأبواب، ثم نزلت إلى الطابق الثاني لأفي بوعدي لكوثر.

ما إن فتحتُ باب مكتب الكوثر للترجمة حتى غزتني رائحة مُسْكِرة. «رائحة الشبق الأنثوي، عالم مليء بالأجنحة». ردَّدتُ مترنّما بكلماتي. كانت كوثر قد أعدّتْ أفضل ما بوسعها، شمعتين منتصبتين على سطح الطاولة، تتوسطهما وردة حمراء تقف داخل كأس طويلة كعاشق ثمل.

كانت كوثر في المطبخ تعد شيئًا، سمعتُ صوتها مرحبًا: «أهلاً بكَ في بيتكَ حبيبي». دلَّني صوتها على إكليل اللهفة الذي يتوّج روحها الشفافة، فانساقت روحي متبعة شذى الإكليل حتى دخلت المطبخ وطبعت قبلة على شفتي «كوثرتي» التي أطالت زمنها، حتى كاد جسدها يسيل من بين ذراعي كخيط ماء رقراق.

جلستُ مستمتعًا بموسيقى العزف المنفرد لآلة العود، المنبعث من جهاز السي دي، بينما كوثر منشغلة وهي تتحرك بخفة ورشاقة المها بين المطبخ والصالة. توزعت الصحون على الطاولة بتنسيق لا ينقصه الذوق الرفيع، وما إن جلستْ إلى جانبي وناولتني كأس الويسكي، وكانت الكأس الأخرى بين أصابع كفها، حتى رفعتْ كأسها: «لنشرب كأسنا الأولى بصحة حبيبي الذي أهدتني السماء إياه.. شكرًا أيتها السماء!» ضحكتُ وأنا أرفع كأسي لها، وما إن رشفت القليل من الكأس حتى سلَّمتني شفتيها لأرتشف رحيقهما طويلاً.

بـدأت خيـوط الفجـر تعلـن عـن مهارتهـا في نسـج الصبـاح، وكانـت كوثـر مضطجعـة عـلى الأريكـة، وسـاعدها الأيمـن يسـند رأسـها وهـي تنظـر إليَّ. أغـراني بيـاض إبطهـا لأطبـع عليـه قبلـة، ففعلـتُ، ثـم وقفـتُ ناظـرًا إلى «كوثـرتي» وأطلقـتُ بعـض الكلـمات:

«أصابعكِ التي عرفتْ لهفتي

في ليلة مقمرة

تعزفُ، رغم صمتكِ،

حيرتي وضعفي

كريشة قُبَّرة

تعبث بها الريح

لكنها تظل حانية

على بيضة الشهوة

وتوقّد الذاكرة»

«صباحُكِ سُكَّر».

«الله.. الله.. أيها الشاعر، كيف رسمت هذه الصورة المذهلة؟»

«إنهـا مقطـع مـن قصيـدة، لشـاعر أحترمـه.. تصـوري أنـه كتبهـا وهـو داخـل السـجن!»

«رائـع، إنـه شـاعر اسـتطاع تحويـل ظلمـة السـجن إلى فـردوس عشـق.. رائـع!» قالـت كوثـر، وكنـت قـد وصلـت إلى البـاب ماسـكًا بأكرتـه، فقلـت مبتسـماً وأنـا أهـمّ بالخـروج:

«هل يمكن ترجمتها إلى الألمانية؟»

331

18

قبلَ أن تحل ساعة موعدي مع السيد «الوزير»، ذهبتُ إلى شارع المكتبات باحثًا هناك عن صديقي عطا الفنان، وحين لم أعثر عليه سألت عنه «مظفر السينارست»، الذي كنت أتجنبه؛ كونه انتهازيًّا بامتياز، أخبرني بأنه على موعد مع عطا الساعة الرابعة عصرًا، وأنه سيسافر عائدًا إلى منفاه بعد ثلاثة أيام. حينها طلبتُ منه أن يخبر عطا بأنني أرغب في رؤيته عند الساعة الرابعة والنصف، متمنيًا أن يكون باستطاعته انتظاري.

لم يستمر لقائي بالسيد «الوزير» طويلاً، ولكنه كان ثقيلاً حافلاً بالمفاجآت. سألني عن عطا، وإن كنت أعرف قصته مع مدير مكتب السيد رئيس مجلس النواب. أشرتُ له بمعرفتي بالأمر دون ذكر التفاصيل، فقال:

«إن أمر صديقكَ مهم جدًّا بالنسبة لنا، فهو كنز ثمين إنْ أحسنا استغلاله..». لاحظ السيد «الوزير» دهشتي، فأضاف مبتسماً: «تعرفُ بأننا لسنا على توافق مع رئيس مجلس النواب وحزبه، وكثيرًا ما ندخل معهم بخلافات وتسويات مريرة؛ لذا علينا أن نجهّز ملفًا

كاملًا، متقن الحبكة، يحتوي على كل ما يعرفه صديقك الفنان عن حلمي وماضيه..».

«سيادة الوزير، لقد عرفت قبل أقل من ساعة أن «عطا» سيسافر بعد ثلاثة أيام».

«عظيم جدًّا، عليك خلال هذه الفترة، وقبل سفر صديقك أن تكمل الملف، عليك أن تسجل بالصوت والصورة صديقك وهو يسرد لك كل حيثيات القضية التي رفعها ضد حلمي في المحكمة. وتأكد، إنْ حصلنا على ملف متماسك، نكون قد مسكنا برقبة أكثر الجهات إزعاجًا لنا.. هل اتفقنا؟»

«اتفقنا سيادة الوزير..».

ابتسم وسحب سيجارة من علبة كانت موضوعة أمامه. مجَّها بقوة بعد أن أشعلها، ثم راح ينظر إلى السقف وهو ينفث دخانها بمتعة. بقيتُ صامتًا، وكنتُ على يقين بأن هناك أمرًا آخر يقلقه، وما إن نظر صوبي حتى أطلق ضحكة خفيفة كعادته عندما يريد البدء بموضوع حساس، وقال متسائلًا: «هل عرفت شيئًا عن شاكر الشامي؟»

«نعم، بعض الأشياء البسيطة، ولكن ليست ذات قيمة.. هل الأمر مهم جدًّا أو يقتضي السرعة؟»

«لا.. ولكن أمامك عشرة أيام لتضع أمامي ملفًّا كاملًا عنه، وأنتَ تعرف جيدًا ما الذي سيحتويه الملف».

هـزت رأسي موافقًـا، وسـألته إن كان هنـاك موضـوع آخـر. اسـتقام بجلسـته، ووافـق حـدسي، حـين قـال بهـدوء تـام: «الأسـتاذ عبـد الله مستشـار وزارة الثقافـة..». اهتـزَّ بـدني، وتعـذّر عـليَّ احتـلاب ريقـي الـذي جـفَّ فجـأة. كان الثعلـب ينظـر إلى عينـيَّ متفحصًـا، ورغـم قراءتـه لدهشـتي، ظـل مسـتمرًّا بكلامـه، وكانـت الكلـمات تخـرج مـن جوفـه واحـدة تلـو الأخـرى كخـرزات مسـبحة بيـد عجـوز ضريـر يشـكو الملـل:

«الأسـتاذ عبـد الله يمتلـك مشروعًـا علمانيًّـا يشـكل خطـرًا كبـيرًا علينـا، هـو يدعـو إلى محاربـة كل الأحـزاب الدينيـة، وبنـاء دولـة مدنيـة بعيـدة عـن الديـن، والخطـورة تكمـن في أنـه قـد نجـح باسـتمالة أغلـب المثقفـين والكتـاب والصحفيـين المهمـين في البلـد..».

«سـيادة الوزيـر، كنـت قـد التقيـت بالأسـتاذ عبـد الله لمرتـين أو ثلاث، لا أذكـر تحديـدًا. وجدتـه مسـالمًا لطيفًـا، وعـلاوة عـلى ذلـك، فهـو مثقف مـن طـراز نـادر، ولا أعتقـد بأنـه يشـكل خطـرًا على أحـد..».

قاطعنـي بحـدة قائـلًا: «أعـرف هـذا، وهـذا هـو الخطـر بعينـه، فشـخص يمتلـك تلـك المواصفـات، ويحمـل بـين طيـات عقلـه مشروعًـا علمانيًّـا مـن شـأنه أن يهـدم كل مـا بنينـاه، هـو الخطـر العظيـم..». حاولـت أن أقـول شـيئًا، لكنـه أصرَّ عـلى الاسترسـال في حديثـه: «هـل تعلـم يـا مرهـون بأنـه قـد ألغـى جميـع المشـاريع التـي قدمناهـا لهـم بغـرض تنفيذهـا باسـم وزارة الثقافـة؟.. رفضهـا بـكل صلافـة كونهـا مشـاريع تخـدم مناسـبات دينيـة..».

«سيادة الوزير، أرجو أن تأمرني بما هو مطلوب مني».

صمتَ، وسحب سيجارة أخرى، أشعلها، وراح ينفث دخانها نحو السقف، وبعد عدة ثوان، قال:

«اغتياله».

***

لم يكن عطا مشغولًا بانتظاري، فقد وجدته محاطًا بمجموعة أصدقائه، وكانوا غارقين بقهقهاتهم، ولكنه حين رآني نظر في ساعته ليرفع لي إبهام يده اليمنى محرِّكًا شفتيه بكلمة «أوكي»، وبعد دقيقتين صار إلى جواري ضاحكًا. وضعتُ كفي على كتفه وهمست له معلنًا جوعي ورغبتي في مرافقته حيث المطعم، فقال: «أستطيع تناول وجبة كاملة كل ساعتين، فلا تقلق..».

ما إن جلسنا إلى إحدى طاولات المطعم حتى سألته عن حقيقة سفره، فأكد لي ذلك، وأكد أيضًا بأنه سيعود قريبًا، حيث لا يمكنه ترك قضيته دون متابعة، ثم اشتكى سوء معاملات الدوائر الرسمية، وقد أشار إلى أنه واجه العديد من المتاعب، بسبب رفضه تقديم أي كتاب تأييد صادر من قبل أحد الأحزاب الدينية المتنفذة، وقال: «إذا أردت أن تفقد كل حقوقك وإلى الأبد، فما عليك إلا أن تجلب كتاب تأييد صادرًا من أحد الأحزاب العلمانية، حتى وإن كان تاريخ الحزب النضالي يمتد لأكثر من سبعين عامًا..».

«هـذه حقيقـة يـا صديقـي، وقـد سـمعتها كثـيرًا عـلى أفـواه العديـد مـن النـاس..».

ثـم أضفـتُ برغبـة وحـب واضحـين: «صديقـي، هـل تسـمح لي بـأن أحتفـي بـك في مـكان خـاص جـدًّا، بمناسـبة سـفرك قريبًـا؟» ابتسـم ومنحنـي موافقتـه، ولكنـه سـأل عـن كيفيـة وطبيعـة المـكان الـذي سـنكون فيـه، فقلـت:

«لي صديـق يعيـش في إحـدى الـدول الأوروبيـة، وهـو يمتلـك شـقة رائعـة قريبـة مـن هنـا، وقـد جعلنـي المسـؤول عنهـا حـين سـفره، والشـقة جاهـزة وتنتظـرك بـكل أناقتهـا، وإن وافقـت، يمكننـا الذهـاب الآن لتقـضي ليلـة رائعـة هنـاك..»، ثـم غمـزت لـه قائـلًا: «مـا رأيـك بفتـاة جميلـة تشـاركنا سـهرتنا؟»

«طبعًـا موافـق، هـل تـراني حمـارًا كـي أرفـض؟» ضحكنـا، وشـكرته عـلى الموافقـة، ثـم هاتـفَ أحـد أفـراد عائلتـه ليخـبره بأنـه سـيبيتُ ليلتـه عنـد أحـد أصدقائـه، وفي تلـك الأثنـاء، ابتعـدتُ عنـه وهاتفـتُ رضـوان الـذي لم يغـادر المؤسسـة بعـدُ، طالبًـا منـه البقـاء هنـاك حتـى عـودتي، وأن يقـوم بتهيئـة الشـقة في الطابـق الثـاني، كـوني سـأصطحب ضيفًـا إلى هنـاك، ثـم أخبرتـه بـأن لدينـا عمـلًا مهـمًّا قـد يأخـذ سـاعات الليـل بأكملهـا.

حـين عـدتُ إلى الطاولـة، اتصلـت بـأم عامـر، وكنـتُ حريصًـا عـلى أن يسـمع عطـا الحديـث الـذي يـدور بينـي وبينهـا، طلبـتُ منهـا أن تجهِّـز فتـاة جميلـة، مطيعـة وكتومـة، لتكـون عنـدي مسـاءً، لسـاعتين

337

فقـط؛ فقـد كنـت أريـد الاختـلاء بصديقـي الفنـان أطـول فـترة ممكنـة. أبـدت أم عامـر اسـتعدادها لخدمتـي عـلى أكمـل وجـه، ولم تنـسَ حـشر بعـض كلماتهـا البذيئـة في أذني، وحـين أغلقـتُ الهاتـف اعـترض عطـا عـلى الفـترة المحـددة لبقـاء الفتـاة: «لمـاذا لا تبقيهـا حتـى الصبـاح؟.. في ظهـري شـعب كامـل يشـكو الحرمـان، ويناشـد الانعتـاق والحريـة..».

دخلـتُ وصديقـي الفنـان إلى شـقة الطابـق الثـاني، ومـا إن وقـع نظـره عـلى أثـاث وترتيـب الصالـة حتـى قـال مندهشًـا: «صديقـي، هـذه الشـقة مخيفـة..!» قابلتـه بضحكـة، وسـألته عـن مصـدر الخـوف الـذي تلمسـه، فأوضـح أن مَـنْ يمتلـك شـقة بتلـك المواصفـات لا يمكـن أن يكـون شـخصًا بسـيطًا مثلنـا، فإمـا أن يكـون مالكهـا مليونـيرًا، وإمـا أنـه أحـد سُرَّاق المـال العـام. طمأنتـه وشرحـت لـه كاذبًـا أن صاحبهـا مـن رجـال الأعـمال، وهـو غنـي، ويعيـش في أوروبـا منـذ ثلاثـين عامًـا. مسـح رأسـه الحليـق براحـة كفـه اليمنـى، وتوجـه نحـو الأريكـة التـي أشرتُ لـه بالجلـوس عليهـا وهـو يقـول سـائلًا: «عطشـان.. هـل لديكَ بـيرة؟».

وضعـتُ أمامـه علبتـي بـيرة وقدحًـا وبعـض المكسرات، ثـم طلبـت منـه أن يسـمح لي بالخـروج لدقيقتـين فقـط.

«إذا كان هنـاك المزيـد مـن البـيرة في الثلاجـة، يمكنـك الخـروج دون عـودة..».

ثـم أطلـق ضحكـة صاخبـة كشـفتْ عـن صفـي أسـنان ناصعـي البيـاض. خرجـتُ مسرعًـا صـوب الطابـق الرابـع، وهنـاك وجـدت رضـوان بانتظـاري. نزلنـا معًـا إلى الطابـق الثالـث حيـث غرفـة السـيطرة،

ثـم قمـتُ بتشـغيل جهـاز المراقبـة وشاشـة العـرض، وصرنـا نراقـب عطـا. كان يغنـي بصـوت منخفـض موزِّعًـا نظراتـه المبهـورة عـلى زوايـا الصالـة، ويكـرع البـيرة بـين برهـة وأخـرى.

تأكـدت مـن جاهزيـة إعـدادات المراقبـة والتسـجيل، وتركـت لرضوان إكـمال المهمـة، بعـد أن شـدَّدت عليـه موضحًـا أهميتهـا، وعـدتُ إلى صديقـي الـذي وجدتـهُ في حالـة اسـترخاء، ومـا إن صرتُ قبالتـه حتـى سـألني: «يـا أخـي، مـن أيـن تـأتي هـذه الـبرودة المنعشـة، رغـم أن جهنـم تفـرض سـيطرتها خارجًـا؟» ضحكـتُ ولم أجبـه، ورحـتُ أسـأله عـن أهميـة الاطمئنـان النفسي للمبـدع، خصوصًـا مـن يشـتغل في مجـال الفـن التشـكيلي. راح يـشرح لي سر العلاقـة بـين دواخـل الفنـان واللوحـة، وقـد أبعـد الراحـة والاطمئنـان عـن الأمـر، مركـزًا عـلى أهميـة اكتـمال الموضـوع في مخيلـة الفنـان واسـتعداده الروحـي للتنفيـذ، وقـد استشـهد بالأعـمال «المذهلـة» التـي كانـت تُنتـج داخـل السـجون، رغـم قسـاوة وكارثيـة المـكان، وهـول الظلـم والإهانـة والإذلال. عنـد وصولـه إلى تلـك النقطـة، طلبـتُ منـه أن يحدثنـي عـما كان يفعلـهُ حلمـي، وعـن الضحايـا الذيـن أعدمـوا بسـبب تقاريـره. عندهـا بـدأ يتحـدث وكأن طلبـي قـد حـرَّك الـبركان الـذي يكمـن في قـرارة روحـه منـذ سـنوات. راح يتحـدث بإسـهاب وتفصيـل مسـتذكرًا أدق التفاصيـل. كنـتُ أسـتمع إليـه، وبـين برهـة وأخـرى، كنـت أسـأله بكلـمات مقتضبـة عـن تفصيلـة، أو اسـم، أو حتـى موقـف مـا، وكان يجيبنـي بـكل إخـلاص وبدقـة متناهيـة. وفي لحظـة، صَمـتَ ونظـرَ صـوبي مبتسـماً ثـم سـألني: «متـى تـأتي الفتـاة؟» فقلـت لـه بأنهـا سـتأتي حالمـا نطلبهـا، وطلبـتُ منـه أن يكمـل حديثـة، فأكمـل.

339

تحـدث عطـا لمـدة سـاعتين، ثـم رجـع بظهـره إلى الـوراء وأسـبلَ يديـه ورجليـه، وأغمـض عينيـه وسـكن، وكأنـه قـد أزاح عـن كاهلـه حمـلاً ثقيـلاً. صرتُ أنظـر إليـه متأمـلاً، وجدتـهُ طفـلاً جميـلاً لا تنقصـه الـبراءة والنقـاء، لكـن الحيـاة قـد يتَّمتـهُ منـذ السـاعة الأولى لولادتـه ليعيـش التعاسـة والظلـم، ويقـاسي بشـاعة الآخـر.

«مـاذا دهـاك يـا مرهـون؟.. انتبـه!.. هـل صرت تتحـدث عـن نفسـك؟»

قلـت ذلـك في داخـلي بعـد أن خرجـت مـن ملكـوت خيـالي عـلى إثـر سـماعي شـخيرًا خفيفًـا كان رأس عطـا مصـدره.

تركتـهُ نائـماً، وخرجـت نـازلاً إلى الطابـق الأول حيـث أم عامـر. سـألتها عـن الفتـاة، فأشـارت إلى فتـاة كانـت تجلـس إلى جوارهـا لم تتجـاوز السـابعة عـشرة بعـدُ. كانـت جميلـة حقًّـا، بوجـه طفـولي يشـع بـراءة وحيـاء، مسـحتُ عـلى خدهـا وطلبـتُ منهـا أن تكـون مطيعـة، فهـزَّتْ رأسـها موافقـة وهـي تبتسـم.

هاتفـتُ غسـان وطلبـتُ منـه أن يجهِّـز عشـاء لأربعـة أشـخاص، وأن يسـلمه إلى العزيـزة أم عامـر.

حـين أنهيـت مكالمتـي مـع غسـان، قلـت موجهًـا كلامـي إلى أم عامـر: «حـين يـأتي غسـان بالعشـاء، وتكـون الفتـاة جاهـزة، عليهـا أن تـأتي بمفردهـا إلى الشـقة في الطابـق الثـاني ومعهـا الطعـام.. مفهـوم؟»

«أكيـد.. لا تقلـق حبيبـي..». قالـت أم عامـر، ثـم أضافـت ضاحكـة: «رغـم أني عـلى درايـة تامـة بـأن القلـق لـو رآك لهـربَ طالبًـا اللجـوء في أبعـد بلـد في العـالم..». ضحكـتُ لكلماتهـا، واقتربـتُ منهـا داسًّـا بعـض الأوراق النقديـة بـين نهديهـا. مسـكتْ كفـي وهبطـتْ برأسـها عليهـا لتطبـع قبلـة حنونـة.

مـا إن ارتقيـت السـلَّم متوجهًـا نحـو الشـقة حيـث ينـام صديقـي الفنـان، حتـى شـاهدت كوثـر وهـي تـشرع بفتـح بـاب شـقتها داخلـةً.

«أين كان الجميل في مثل هذا الوقت؟»

جفلـتْ حـين سـماعها صـوتي، ونظـرتْ إليّ مبتسـمة، ومـا إن اقتربـتُ منهـا حتـى التصقـتْ بي، وقالـت وهـي ترفـع وجههـا ناظـرة إليَّ: «بوسـني». طبعـت قبلـة سـاخنة عـلى شـفتيها، ثـم سـألتها:

«من أين أنتِ قادمة؟»

«مـن الجامعـة، لي بعـض المبالـغ بذمـة بعـض الطلبـة، جمعتهـا ورجعـت..».

«هل من مضايقات؟»

«لا، أبـدًا.. كل الأمـور تجـري حسـب مـا أريـد.. إلا أمـرًا واحـدًا..». قالـت، ثـم صمتـت منتظـرة ردي، فسـألتها عـن الأمـر الـذي تعنيـه، فقالـت:

«أنتَ.. أتمنى رؤيتك حتى لو لنصف ساعة في اليوم..».

«هـل تكرهينني إلى هـذا الحـد.. لمـاذا نصف سـاعة؟ لمـاذا لا تقـولي

عشر ساعات؟» ضحكتْ وهي تضرب صدري بقبضتها. قبَّلتها مرة أخرى ثم طلبتُ منها الدخول إلى شقتها، وبعد أن تأكدتُ من دخولها، توجهتُ نحو باب الشقة المجاورة فاتحًا بابها بهدوء تام.

وجدتُ عطا مستيقظًا يغني وكأس البيرة بين أصابعه، سألته إن كان جائعًا، فقال بأنه جائع منذ أن ولدتهُ أمه، ثم نظر صوبي وسأل: «ألا ترى بأن تكرار الفعل نفسه، وبشكل يومي لثلاث مرات في اليوم الواحد، يعد أمرًا سخيفًا، ولا يمت للإنسانية بشيء؟» صدمني سؤاله، لدرجة أنني أطلقتُ ضحكة كادت تخنقني، فقلت له: «هل تعني أن ثلاث وجبات في اليوم غير كافية؛ لذا فأنتَ تأكل ست وجبات وأحيانًا أكثر؟» ارتمى على الأريكة فاردًا ذراعيه وهو يضحك بعمق، ثم بعد أن هدأت ضحكته قال: «يا صديقي، تأكد بأن كلما ضحكتُ أكثر، أجوع أكثر.. وهنا يكمن السر!»

سألته إن كان قد قابل حلمي، بعد أن أقام دعوى ضده، فأخبرني بأن حلمي قد حاول المستحيل من أجل اللقاء به، وقد بعث العديد من الشخصيات، بمن فيهم نائب برلماني، وصحفية معروفة منذ زمن الديكتاتور، وكان عطا يرفض اللقاء خوفًا من أن يضعف أمام المغريات.. ثم راح يسرد لي كل ما تعرّض له من مضايقات ومغريات، ومَنْ هُم الأشخاص الذين عرضوا عليه كل ذلك، ثم توقف عند نقطة مهمة جدًّا، حيث أخبرني بأن هناك احتمالًا كبيرًا بأن يتم ترشيح حلمي لمنصب نائب رئيس الجمهورية في الدورة

القادمة. الحقيقة، أدهشتني المعلومة، فقد أكدها لي السيد «الوزير» أثناء لقائي به، ولكن كيف وصلت إلى عطا؟

رنَّ جرس الباب، وحين فتحته وجدتُ الفتاة أمامي مبتسمة بكامل جمالها وبراءتها، وهي تحمل أكياس الأكل. اصطحبتها حيث المطبخ، وطلبتُ منها ترتيب المائدة وإعدادها. حين عدتُ سألني عطا عن الفتاة، فقلت له: «إنها فتاتكَ أيها الفنان المبدع!» نظر صوبي مندهشًا وقال: «إنها طفلة، كم عمرها؟» قلتُ له بأنها تقترب من الثامنة عشرة، وأضفت مُربِّتًا على كتفه: «تمتع يا صديقي، إنها ليلتك..!»

جلست الفتاة إلى جانب عطا أثناء مباشرتنا تناول الطعام، وبدأتْ تلاطفه، وأرادتْ أن تطعمه بيدها، ولكنه طلب منها مبتسماً أن تدعه يأكل لقمته بنفسه، كونه لم يعتد على الدلال. ابتسمتْ الفتاة له وقالت: «أمرك حبيبي».

سألتُ الفتاة إن كانت تحب أن تشرب شيئًا، فقالت إن كأسًا من الويسكي يكفيها حتى صباح الغد. نظر عطا صوبي وقال كلمة واحدة كانت كافية لنغرق بنوبة ضحك غامرة:

«مُدمِنة!»

حين انتهينا من الطعام، وكنت قبل ذلك قد وضعت قنينة الويسكي والكؤوس وسطل الثلج الصغير على الطاولة، سكبتْ لنا الفتاة ثلاثة كؤوس رفعناها احتفاءً بصديقنا الفنان. وبعد دقائق، اعتذرتُ منهما لأن عليَّ الخروج لقضاء أمر ما، قد يأخذ

343

مني ساعة أو أكثر، واعدًا إياهما بالعودة حالما أنتهي منه. حينها سألني عطا إن كنت أمتلك بيجامة، فأخبرته بأنني سأجلبها معي حين عودتي.

خرجتُ متوجهًا إلى المؤسسة، وهناك كان رضوان يراقب الشاشة الكبيرة، متنقلاً بين كاميرا وأخرى حسب حركة صديقي الفنان. جلستُ أمام الشاشة مراقبًا بعد أن طلبتُ من رضوان أن يأخذ استراحة قصيرة، لكنه رفض وقال بأنه مستمتع بما يراقب.

صارت الفتاة تداعب عطا، تُمرر أصابعها على أذنه، ثم تنزل إلى رقبته وصولاً إلى صدره، بعد أن فكَّتْ أحد أزرار قميصه.

كان عطا يضحك بهدوء وهو ينظر إليها، ثم سألها عن اسمها وعمرها، لكنها لم تجبه، وأرادت تقبيل شفتيه، لكنه وبحركة مفاجئة ابتعد بوجهه عنها، ثم ابتسم لها وطلب منها أن تعيد تسريح شعرها إن كانت تمتلك مشطًا، وحين سألته الفتاة عن السبب، أخبرها بأنه يمتلك رغبة في رسمها. اعتدلت الفتاة في جلستها، وسألته:

«ألا أعجبك؟.. هل تراني غير جديرة بكَ؟.. ألا تريد مضاجعتي ؟ »

مدَّ كفه اليمنى صوب رأسها وراح يداعب شعرها، ثم راح كمصوِّر محترف يعدّل بعض الخصلات، ثم قال:

«أنتِ فتاة صغيرة، جميلة، وكل شيء فيكِ مثير ورائع، ولكنني، وأرجو أن تفهمي ما أقول، لا أستطيع ممارسة الحب معكِ، لأنني

إن فعلت، فسأعيش بتأنيب ضمير من ارتكب جريمة شنعاء؛ لذا أرجو أن تعفيني من هذا، ودعينا نتمتع بالرسم..».

«كما تحب، المهم أن تكون راضيًا.. هل تحب أن ترسمني عارية؟»

«لا، ليس الآن. سأرسم لكِ «بورتريه». لوجهكِ ملامح أكثر من رائعة..»، ثم أضاف بعد أن أطلق ضحكة قصيرة:

«لو كنتِ في باريس بداية القرن العشرين، لأصبحتِ إحدى فتيات بيكاسو..».

«باريس؟!»

قالت الفتاة متسائلة وقد غمَرها الزهو لكلمات جليسها، فأجابها عطا :

«نعم، باريس، ولم لا؟!..»

ثم طلبَ منها أن تسكب له كأسًا، ففعلت.

أخرج عطا من حقيبته رزمة أوراق متوسطة الحجم وضعها على فخذه اليمنى، وراح ينظر إلى الفتاة وهو يمسك بقلم الفحم، وبدأ يخطط مترنماً بموال لا ينقصه الشجن.

نظرتُ إلى رضوان وسألته عن رأيه بما شاهد، فقال بأن الرجل أكثر من نزيه وإنساني، ولكنه غريب عن مجتمعنا، فهمتُ ما قصده رضوان في كلامه، وقلتُ له: «ليس الرجل بغريب، ولكن الزمن القذر الذي نعيشه هو الغريب!» هزَّ رأسه موافقًا وعاد ليتابع شاشة المراقبة.

345

بعد أن أنهى عطا رسم الفتاة، أدار الورقة صوبها. اندهشت وهي ترى صورتها على الورقة بالأسود والأبيض، قالت:

«أنتَ فنان عظيم!» ارتمت على صدره وقبَّلته، وحين أرادت إطالة زمن القبلة أبعدها عنهُ، وطلب منها أن تسكب له.

وقفتْ الفتاة قبالة عطا، وبدأتْ تتعرَّى طالبةً منه أن يرسمها عارية. هزَّ رأسه مبتسماً واستبدل الورقة بأخرى جديدة، ثم أشار للفتاة إلى المكان الذي عليها الجلوس فيه، ففعلت.

تركتُ لرضوان إدارة المراقبة مرة أخرى ودخلت غرفتي. انتقيت بيجامة ووضعتها تحت إبطي، وخرجتُ من الغرفة ثم أقفلت بابها. أخبرت رضوان بأنني سأعود إلى صديقي الفنان وفتاته العارية، ثم ارتقيت السلَّم مودعًا له.

حين دخلتُ الشقة، وصرت داخل الصالة، لم تحرّك الفتاة ساكنًا، بل ظلّتْ متمسكة بجلستها التي اختارها عطا، الذي كان منشغلًا بالتخطيط، والذي قال دون أن ينظر إليَّ: «يبدو أن هذه الفتاة الساحرة قد كانت موديلاً للرسم لأكثر من مرة». قاطعته الفتاة قائلة: «صدقني إنها المرة الأولى التي أجلس فيها أمام فنان ليرسمني، ولكني عاشقة للرسم منذ طفولتي؛ لذا أشعر الآن بسعادة غامرة، وكأنني أنا التي أرسم..».

«لقد أتيت لك ببيجامة، أتمنى أن تكون على قياسك..». قلتُ، ووضعت البيجامة إلى جانبه حيث الأريكة، ثم أضفت متسائلًا: «صديقي، هل تعرف شاكر الشامي؟»

346

«نعـم أعرفـه..». قـال وهـو لا يـزال منشـغلًا بالتخطيـط. طلبـتُ منـه أن يحدثنـي عنـه إن كان يعرفـه جيـدًا، قـال ضاحـكًا: «سـأسرد لـك كل مـا أعـرف عنـه، ولكـن ليـس مجانًـا! والثمـن كأس ويسـكي بثلجـه.. هـل اتفقنـا؟»

❋ ❋ ❋

لم يسـتيقظ صديقـي الفنـان إلا عنـد السـاعة الثانيـة عـشرة ظهـرًا، كانـت فاتنـة قـد اسـتلمتْ مهمـة المراقبـة، ومـا إن شـاهدتْ عطـا ناهضًـا مـن السريـر حتـى أخبرتنـي بذلـك ضاحكـة، ثـم اقترحـتْ رغـم تمسـكها بضحكتهـا الهادئـة أن تعـد لـه فطـوره. شـكرتها عـلى ذلـك، وسـألتها عـن السـبب الـذي يثـير ضحكهـا. أشـارت إلى أن منظـر الرجـل مضحـك جـدًّا وهـو يرتـدي بيجامـة أكـبر مـن قياسـه بشـكل لافـت.

حملـتُ الفطـور ودخلـت الشـقة. كان عطـا جالسًـا عـلى الأريكـة يتأمـل جمـال فتاتـه، ولكـن عـلى الـورق، فقـد غـادرت الفتـاة في وقـت متأخـر مـن ليلـة أمـس بعـد أن أعلـن عطـا رغبتـه في النـوم.

وضعـتُ الصينيـة أمامـه وطلبـتُ منـه تنـاول فطـوره خـلال نصـف سـاعة؛ لأننـا عـلى موعـد مـع دار النـشر لاسـتلام ديـوان «الوطـن السـندباد»، لكنـه أخـبرني بعـدم رغبتـه في رؤيـة الديـوان، كونـه لا يريـد رؤيـة لوحتـه مشـوهة الألـوان.

طلبتُ من غسان أن يوصلنا أنا وعطا إلى مكان قريب من شارع المكتبات، وأن عليه انتظاري هناك حتى عودتي من دار النشر.

ما إن دخلنا إلى بداية شارع المكتبات حتى ودَّعني صديقي الفنان بعناق حميمي، كونه سيسافر في اليوم التالي عائدًا إلى منفاه. عانقتُه وطلبتُ منه الاتصال في أي فرصة لسماع أخباره، مشددًا على ضرورة إخباري بالوقت الذي سيعود به إلى بلده مرة أخرى.

لم يستغرق اللقاء مع دار النشر طويلاً، فقد كانت نسخ الديوان جاهزة ومرزومة داخل علبة كرتونية، حملها صبي الدار على كتفه وسار ورائي حتى أوصلها إلى السيارة حيث غسان الذي ينتظرني داخلها. شكرت الصبي مانحًا إياه مبلغًا بسيطًا جراء خدمته.

في طريقنا إلى الوزارة، طلبتُ من غسان مراقبة كوثر، أن يرصد إن كان هناك أشخاص يزورون كوثر خارج أوقات دوام مكتبها. سألني عما أفكر به، فأخبرته بإحساسي الذي يشير لي بأنها ربما تكون على علاقة مع شخص ما. حينها أخبرني غسان بأن إحساسي لا يخطئ، وأن هناك بالفعل شخصًا معينًا تكررت زياراته لكوثر، خصوصًا ساعات المساء. سألته إن كان يعرف عنه أي معلومة، فقال بأنه شخص محترم ومهذب، ويبدو أنه متعلم أو بدرجة علمية مرموقة. وحين لم يزد غسان أي معلومة أخرى، طلبتُ منه أن يسعى لمعرفة المزيد، خصوصًا اسم الرجل وعمله.

فرح داخلي صار يعتمر روحي كلما فكّرت بأن كوثر قد عثرت على من يحبها، ويمكن أن ترتبط به ليكون لها زوجًا

وحبيبًا. وجدتها صورة رائعة، إنها نقلة حقيقية صوب ممارسة الإنسان لإنسانيته، بل هو درس تطبيقي يمكنه إعلان نجاح العديد من النظريات الاجتماعية التي أشارت إلى أن الاستقرار الروحي والنفسي عند الإنسان من شأنه أن يؤدي إلى استقرار البلد بأكمله.

أخرجني رنين الهاتف من حلاوة الفكرة. كان رضوان على الجهة الأخرى ليزف لي نجاح العملية التي كلفته بها صباح اليوم، فبعد دراسة وتخطيط استمر عدة ساعات، قَرَرنا القضاء على خلية الاغتيالات التي ظهرت دون إذن منا في إحدى مناطق العاصمة. الحقيقة لم نفاوضهم أو نطلب منهم الانضمام إلى الخلايا الخمس التي نمتلكها؛ لأننا لم نكن بحاجة إلى المزيد، فما نمتلكه كان كافيًا لتغطية العاصمة بأكملها وتنفيذ جميع أوامرنا بكل دقة. هنأت رضوان وشكرته ووعدته والمجموعة التي نفذت المهمة بمكافأة مجزية، حينها أخبرني رضوان بأن مغلفًا ورقيًّا ينتظرني على مكتبي في المؤسسة، وحين سألته عن طبيعة المغلف، قال: «بخصوص القوَّادة «أم وداد» التي كلفتني بجمع معلومات عنها وعن ابنتها». اهتزَّ بدني، وشعرتُ بغمامة صفراء صارت تغلّف الفراغ المحيط بي، لدرجة أني شعرت بنوبة إغماء وشيكة.

دخلتُ مكتب السيد «الوزير» بجسدٍ مرتعشٍ. كان خبر أم وداد التي صارت قوادة قد أعادني إلى أيام الذل والإهانات حين كنت صبيًّا أقبع تحت سيطرة مانع. هل كان مانع قارئًا للغيب حين كان

349

ينعتني تهكماً بـ«ابن الشريفة جدًّا»؟ هل قرأ مستقبل والدتي وتنبأ به، أم أن والدتي كانت كذلك بالفعل ولم ألحظ عليها ذلك لصغر سني؟

جلستُ أمام السيد «الوزير» مرتبكًا شاحب الوجه، وذلك ما أخبرني به حين أفصح عن عدم ارتياحه لحالتي، وأن القلق والارتباك واضحان عليَّ. لم أجد أمامي إلا الادّعاء بالمرض، ولم أنسَ رسم ابتسامة مطمئنة له وأنا أشير إلى أنها وعكة خفيفة سرعان ما تزول.

سلّمته السيديهات الخاصة بليلة صديقي الفنان عطا، وشرحت له بالتفصيل كل ما دار، ولم أنسَ الإشارة إلى أننا نحتفظ بنسخة مماثلة في الأرشيف. شكرني على ذلك وأبدى رضاه، ثم طلب مني تكليف فاتنة بإعداد تقرير مكتوب على الورق بكل ما تحتويه السيديهات، مع ضرورة كتابة دراسة مستفيضة حول رأينا بكل ما جاء على لسان عطا، ثم قال بفرح غامر:

«يبدو أننا سنكمل ملف حلمي قريبًا، لنستثمره بالضغط على السيد رئيس مجلس النواب وحزبه في أي موضوع أو قضية تصب في مصلحتنا، أما ما يخص عطا شخصيًّا، فهذا ليس من شأننا..».

رفع سماعة الهاتف الداخلي وطلب فنجاني قهوة مع حبتي «أسبرين»، وشدَّدَ على ضرورة إرفاق الماء المعدني، وما إن أعاد السماعة إلى مكانها حتى نظر إليَّ بصمت وهو يدعك راحتيه. كنت أنظر إليه متوجسًا من شيء ما، ربما يحمل من الخطورة ما يأخذني

إلى الانهيار، فلم أعد أحتمل أي هزّة بعد سماع كلمات رضوان حول والدتي «أم وداد القوادة».

ما إن خرج الساعي من المكتب، بعد أن وضع ما طلبه السيد «الوزير» على الطاولة، حتى أشار لي سيادته بضرورة تناول حبتي «الأسبرين»، ففعلت.

أخذ رشفة من فنجانه، وقال: «اسمع يا بطل!.. لقد صدر قرار باغتيال الأستاذ عبد الله، وأمامكم أسبوع واحد للتنفيذ..».

«لماذا؟»

من قرارة الروح خرجت الكلمة، من روحي وليس فمي، ليتلقفها «الوزير» فاهمًا لَوعَتها. ضحك وأشار إلى معرفته الأكيدة بطبيعة العلاقة التي تربطني بالأستاذ عبد الله، ثم أوضح بأن وجود عبد الله في الوزارة يعد عقبة كبيرة أمام مستقبل شخص مهم يعرفه، ويعمل مع عبد الله في الوزارة نفسها، وأن ذلك الشخص قد اشترى دم عبد الله منا، وقد دفع الثمن.

«في اللقاء السابق، حين أشرت إلى ضرورة اغتياله، كنت أتصوركَ مازحًا، ولكن يبدو أن الأمر جدي هذه المرة».

«الحقيقة أن القرار قد اتُّخِذ منذ فترة ليست بالقصيرة، ولكننا كنا نتفاوض مع مَن له مصلحة في غياب عبد الله إلى الأبد، ولا أخفيك سرًّا إن قلت لكَ بأن هناك مصلحة كبيرة لنا في اغتياله، وبهذا سنضرب عصفورين بحجر..».

«تقصد عصفورين بمسدس كاتم..». قلتها بألم واضح، وكان السيد «الوزير» ينظر إليَّ مسترخيًا في جلسته وقد وضع كعادته ساعده الأيمن خلف رأسه متحسسًا بأصابعه وريد رقبته جهة اليسار، ثم قال سائلًا وكأنه يريد الابتعاد عن مناقشة أمر اغتيال الأستاذ عبد الله:

«هل لكَ أن تقيّم وضع ونفوذ مؤسستنا بشكل عام؟»

«باختصار شديد، وبغض النظر عن العمليات التي تقوم بها خلايا التنظيم «الكبير» من تفجيرات واغتيالات، والتي باتت تقلقنا كثيرًا، وتعرقل مخططاتنا أحيانًا، فإن جميع زوايا العاصمة باتت تحت سيطرتنا، فكل خلايا التفخيخ وشبكات الاغتيالات داخل العاصمة صارت تعمل تحت إمرتنا، واليوم تخلصنا من آخر شبكة لا تأتمر بأمرنا..».

«إذن، نحن السلطة العليا، وأي محاولة للتفريط بشبر واحد من مساحة سلطتنا يعد جريمة كبرى..». قال وهو يسحب سيجارة من علبة السجائر التي أمامه، ثم أضاف بهدوء تام: «أمر الأستاذ عبد الله قد انتهى، وما عليك سوى التنفيذ، أما الأمر الثاني، والذي لا يقل أهمية عن أمر عبد الله، فهو ما يخص شاكر الشامي، فبالإضافة إلى ما طلبته منكَ سابقًا، عليك أن تتقرب منه وتدرس دواخله ودوافعه، وتوافيني بتقرير مفصل عن كل ما يتعلق به..».

«سيادة «الوزير»، في القرص المدمج الخاص بعطا الفنان، هناك

الكثير من المعلومات عن الشامي، فعطا يعرفه جيدًا، وقد تحدث عنه كثيرًا..».

«عظيم.. حين تنتهي فاتنة من إفراغ المادة على الورق، سيكون لديكَ تقرير مفصل.. عظيم!»

نهض من على كرسيه واقترب مني، ثم مسك كتفي وقال: «لا أريد أن آخذ من وقتك الكثير، أتمنى سماع ما يسر من الأخبار قريبًا..»، ثم ناولني ظرفًا يحتوي على مبلغ من المال طلب مني توزيعه على أفراد الخلية التي نفذت المهمة مؤخرًا بقيادة رضوان.

353

19

على الرغم من اللهفة الحارقة التي تعتريني لقراءة التقرير الذي أعده رضوان عن «أم وداد»، فإنني لم أذهب إلى المؤسسة. هاتفتُ الأستاذ عدنان مبديًا رغبتي في زيارته، رحَّبَ الرجل بالفكرة وسألني عما أشتهيه كوجبة تعدها لي هيام. لم أحدد أي نوع، واكتفيت بالإشارة إلى أنني لا أمتلك الرغبة في تناول الطعام. ودَّعني عدنان بضحكة واضحة وهو يشير إلى حدسه الذي دلّه على تعكّر مزاجي.

أوصلتُ غسان إلى بناية المؤسسة، وتوجهت صوب بيت عدنان. كان الصندوق بنسخ الديوان الشعري لا يزال في حوض السيارة، وحال وصولي إلى هناك، حملته وتوجَّهت صوب باب الدار الذي ما إن طرقته حتى انفتح، لأشاهد هيام بابتسامتها الساحرة وألقها الأخاذ، وصارت تسكب على روحي كلمات الترحيب كماء سماوي، حتى غسلتْ روحي وخلّصتها من همومها.

«عدنان في الحمام.. دقائق ويخرج..». قالت وهي تفتح لي باب الصالة طالبة مني الدخول، ثم سألتني إن كنت راغبًا في قدح ماء

355

مـبرَّد، فشـكرتها موافقًـا. حـين عـادتْ وهـي تحمـل صينيـة عليهـا دورق مـاء وقـدح، سـألتني عـن الصنـدوق الكرتـوني الـذي حملتـه معـي، فقلـت:

«مفاجأة».

جلسـتْ قبالتـي، وشـعرت بـأن بعـض كلـمات تـكاد تخنقهـا، أرادت أن تتكلـم ولكـن دموعهـا غلبتهـا. طلبـتُ منهـا راجيًـا أن تبـوح لي بـما يحزنهـا، فقالـت بأنهـا غالبًـا مـا تـرى أختهـا سـهام في مناماتهـا، وأنهـا في كل مـرة تسـألها عـن سـبب غيابهـا وفي أي الأماكـن هـي، كانـت تسـمع منهـا جملـة واحـدة: «اسـألي مرهـون، هـو يعـرف مـكاني».. انفجـرتْ ببـكاء مـرٍّ، ورجتنـي متوسـلة أن أدلهـا عـلى مـكان أختهـا. تلعثمـتُ وكادت دمعـة تقفـز مـن عينـي لتفضـح وضاعتـي وإجرامـي، ولكـن دخـول عدنـان مرحبًـا قـد أنقـذ الموقـف، عانقنـي مرحبًـا، ثـم التفـتَ إلى هيـام مؤنبًـا: «هـل أخبرتـه بأحلامـك؟.. ألم أطلـب منـكِ عـدم البـوح لـه بـما ترينـه مـن أحـلام؟»

مـا قالتـه هيـام لم يكـن مجـرد أحـلام، بـل هـو حقيقـة أعرفهـا جيـدًا، تمامًـا كـما أعـرف لـون بـشرتي، حقيقـة أشـعر بمرارتهـا كلـما التقـت نظـراتي بنظـرات هيـام، وكلـما نظـرت إلى صـورة حـاج نزيـه المعلّقـة عـلى جـدار الصالـة، أراه ناظـرًا إليَّ مباشرة بنظـرات حـادة قاسـية، لم ألحظهـا منـه حـين كانـت رئتـاه تتسـلى بهـواء العاصمـة المثقـل برائحـة البـارود والـدم.

حاولتُ مداراة الموقف، وقلت موجهًا كلامي إلى عدنان: «ربما هناك إشارة فيما تراه هيام إلى سعة رقعة معارفي من المسؤولين، وهي بالتالي تطلب مني عدم الكف عن البحث.. ربما».

«ربما..». قال عدنان وهو يربت على كتف زوجته التي ذرفت دموعها لتتوهج وجنتاها وتصبح أكثر جمالًا، وأشد إيلامًا لروحي.

التفتتْ هيام صوب الصندوق، وأخبرتْ عدنان وهي تكفكف دموعها بأنني أخبئ له مفاجأة. نظر عدنان صوب الصندوق، ثم نظر صوبي متسائلًا دون أن يقول كلمة واحدة. ابتسمتُ له وأنا أخطو صوب الصندوق. فتحتهُ وأخرجتُ نسخة، قدّمتها إليه قائلًا: «إنها هديتي التي انتظرتُ سنوات طوالًا كي أقدمها لكَ أيها الشاعر والإنسان والمعلم». قبّلته وسلّمته النسخة التي راح يتأملها بصمت لا يخلو من الدهشة.

ظلّ عدنان واقفًا يتصفح الديوان، ويقرأ بعضًا من سطوره. طال صمته، وكنتُ وهيام ننظر إليه بترقب، وحين شعرت بطول فترة صمته، سحبتُ نسخة أخرى من الصندوق وقدمتها لهيام التي ما إن قرأت اسم زوجها عليه حتى احتضنتني دون تفكير وراحت تقبّلني كطفل.

جلسَ عدنان على الأريكة دون أن يرفع نظره عن الديوان، ثم طلب من هيام عمل القهوة، ثلاث كلمات فقط قالها ثم عاد إلى صمته وهو يبحر بديوانه. كنتُ أجلس قبالته صامتًا مبتسمًا، أنتظر أي كلمة يوجهها لي. ومع دخول هيام بالقهوة، نظرَ صوبي متسائلًا:

357

«لماذا الوطن السندباد؟»

«وأخـيرًا تحـرر الشـاعر مـن صمتـه..». قلـت مازحًـا، ثـم أضفـت: «طالمـا حدثتنـي عـن رحلتـك المضنيـة في البحـث عـن الوطـن، ولم أشـعر يومًـا، حتـى في لقائنـا الأخـير، بأنـك قـد عثـرت عليـه، وكنـتَ في كل مـرة تتحـدث فيهـا عـن الوطـن تقـول الجملـة ذاتهـا: «يبـدو أن وطنـي مسـافر عـلى الـدوام». تلـك العبـارة أهدتنـي إلى العنـوان، بالإضافـة إلى بعـض القصائـد التـي تتحـدث بفكرتهـا عـن الحالـة نفسـها.. «وطـنٌ هـاربٌ، تتبعـه اللصـوص.. وطـنٌ عـرف ألا يـترك أثـرًا خلفـه، كـي لا يقابـل حتفـه..» وغيرهـا مـن الأبيـات، فهـل أعجبـك العنـوان؟»

قـام عدنـان واحتضنـني، وكنـت أسـمع زغاريـد دمـوع هيـام، رغـم صمتهـا، كانـت تـذرف دموعهـا كالشـمعة.

«كيـف قـرأت روحـي أيهـا السـاكن وسـطها؟.. كيـف لي تقديـم الشـكر لـك؟»

حـين أعلنـتْ هيـام إتمامهـا لمائـدة الطعـام، وأخذنـا أماكننـا، كان عدنـان لا يـزال ممسـكًا بديوانـه، ينظـر إليـه بـين لحظـة وأخـرى، وقبـل أن نبـاشر الأكل، أفصـحَ عـن رغبتـه في شرب نخـب المناسـبة. أحـضرت هيـام قنينـة «فـودكا» بطعـم الليمـون وثلاثـة أقـداح صغـيرة.

رفـع عدنـان كأسـه وقـال: «بصحـة أعظـم ذاكـرة عرفهـا التاريـخ.. بصحـة مـن حفـظ قصائـدي لسـنوات طـوال عـن ظهـر

قلب..». دفعتُ ما في الكأس إلى جوفي دفعة واحدة، وطلبتُ من هيام أن تسكبَ لي مرة أخرى، وما إن فعلت حتى رفعته قائلًا:

«لنشرب نخب «الوطن السندباد»، الوطن الذي عرف كيف يهرب سارقًا ضحكات البسطاء..».

ما إن غابت هيام وهي تحمل الأطباق بعد أن انتهينا من تناول الطعام، حتى انتهزتُها فرصةً لأسكبَ في ذهن عدنان كلماتي، أو لنقل رجائي، فقلت له هامسًا: «أتمنى عليك راجيًا أن تقنع الأستاذ عبد الله بالسفر إلى خارج البلاد.. هناك من يفكر في اغتياله».

ارتعد عدنان، وصار يتلفت من حوله، ثم همس متسائلًا: «هل أنتَ متأكد من هذا؟» أجبته بالإيجاب جازمًا، وحين سألني عن مصدر المعلومة، طلبت منه عدم الاكتراث للمصدر، فالمهم هو سفر عبد الله في الوقت الحالي. هز رأسه موافقًا، ثم وعدني بنقل المعلومة له بكل أمانة وصراحة. وبعد فترة صمت لم تدم طويلًا قال:

«يا أخي، هذا الرجل يحيرني، رغم رقته وهدوئه ولوذ روحه المسالمة إلى التسامح وتقبل الآخر، فإنه يمتلك شجاعة لم ألمسها عند مثقف آخر، ما من محب له إلا ونصحه بالسفر، أو على الأقل، أن يمنح موافقته إلى الجهات الرسمية، على أن يرافقه عدد من الأشخاص الذين نسّبتهم له الوزارة كحماية شخصية. هل تصدق إذا قلت لكَ،

359

بأنني في إحدى جلساتنا، وحين رحت أحدثه عن ضرورة الموافقة على وجود حماية بقربه، قال لي بقناعة تامة: «حين يُتخذ قرار اغتيالي، فإن جميع أفراد الحماية سيمرضون ويتغيبون عن الدوام..». صمتَ عدنان قليلاً ثم قال: «الشجاع لا يخشى الموت.. بل يختاره إن كان الملاذ الوحيد المتوفر في لحظة ما..».

❁ ❁ ❁

مع مغيب الشمس عدتُ إلى المؤسسة، كنتُ متردداً بعض الشيء في رغبتي بالاطلاع على رسالة رضوان التي وجدتها على سطح مكتبي، والتي بقيتُ أقلّبها بين أصابعي ناظراً إليها، وأنا أردد دون شعور مني مطلع قصيدة كنت قد قرأتها في وقتٍ ما:

«مضيت أبحث عن عينيكِ

خلف قضبان الحياة..

تعربد الأحزان في صدري ضياعًا

لست أعرف منتهاه..».

ثم وبشكل مفاجئ، دار في ذهني سؤال: «ألم تحنّ المرأة لرؤية ولدها؟.. هل أنا حقًّا ابنها؟»

فتحت الرسالة بقلب خالٍ من الرأفة، وكأنني أفتح رسالة مشروع اغتيال لشخص غير ذي أهمية، كانت هناك ثلاث أوراق بدأت بقراءتها وأنا أرتشف كأسي المبردة بالثلج.

عرفتُ بأن أم وداد تتواجد بصحبة ابنتها في شارع سوق التجار الضيق يومي الخميس والجمعة، ومن عادتها الدخول إلى محلات التجار لتسألهم عن رغبتهم في مضاجعة ابنتها، ثم تتفاوض معهم على المبلغ المطلوب. حرص رضوان على تدوين كل مواصفات المرأة وابنتها، وقد أثار ضحكي حين راح يصف نعال أم وداد: «نعال جلدية سوداء بكعوب عالية، ملصوق في مقدمتها قطعة معدنية بلون الذهب، عبارة عن صورة لأسد غاضب..». أضحكني ذلك الوصف، لتصوري أن رضوان قد وقَف مع المرأة لفترة لا بأس بها وهو يتفاوض معها على السعر.

وفي لحظة، أثار تصوري ذاك، الرعب في نفسي، فحملت هاتفي وطلبت رضوان، وما إن ردَّ على المكالمة حتى سألته إن كان هو من كتب التقرير الخاص بأم وداد، فأجاب بالإيجاب، حينها سألته إن كان قد ضاجع إحداهن، فنفى وقال بأنه لا يقترب من المزابل كثيرًا، ولولا قدسية المهمة لما نظر في وجه المرأة القبيح بأصابعه. شكرته على دقة المعلومة في التقرير وأخبرته بأن المهمة قد انتهت ولا حاجة إلى متابعة المرأة أو ابنتها.

نزلتُ إلى الطابق الثالث حيث الأرشيف مصطحبًا معي تقرير رضوان، وهناك حيث المطبخ، حرقت التقرير وتأكدت من أنه أصبح رمادًا، وحين فتحتُ الثلاجة طالبًا قطع الثلج، لاحت أمامي قنينة المخدّر. ابتسمتُ لها وعدت صاعدًا أحمل كأسي بين أصابعي، وما إن قطعت نصف مسافة السلَّم حتى سمعت رنين هاتفي. أسرعت الخطى صوبه، وما إن ضغطت على زر القبول

361

حتـى سـمعت صـوت غسـان عـلى الطـرف الآخـر، قـال لي بكلـمات مختـصرة: «إن أردت التعـرّف عـلى صديـق كوثـر، يمكنـك الآن لقـاؤه في شـقتها..». شـكرته ضاحـكًا وأغلقـت الهاتـف.

حملـتُ قنينـة ويسـكي فاخـرة ونزلـت حيـث الطابـق الثـاني، ضغطـت عـلى زر الجـرس وانتظـرت قليـلاً حتـى فتحـت كوثـر بـاب شـقتها. قـرأت المفاجـأة في عينيهـا، حيـث بقيـتْ واقفـة لا تـدري مـا تفعلـه. سـحبتها مـن يدهـا خارجًـا وطبعـت قبلـة عـلى خدهـا، ثـم همسـتُ في أذنهـا: «أريـد أن أتعـرَّف عـلى صديقـك الجديـد.». ابتسـمتْ وطلبـت منـي الدخـول.

كان شـابًّا أنيقًـا، مـا إن شـاهدني حتـى وقـف مـادًّا كفـه صـوبي، صافحتـه وصـوت كوثـر يـرن في أذني: «أقـدم لـك الدكتـور فـارس، أسـتاذ مسـاعد في قسـم اللغـة الألمانيـة..».

طلبـتُ منـه الجلـوس، ثـم وضعـتُ قنينـة الويسـكي عـلى الطاولـة، وكانـت هنـاك قنينـة ويسـكي مـن النـوع المتـداول الرخيـص، وكان واضحًـا أنهـا فقـدت القليـل مـن محتواهـا. يبـدو أن غسـان الملعـون قـد هاتفنـي بعـد دقائـق قليلـة مـن دخـول فـارس إلى شـقة كوثـر.

«كوثر واحدة من أفراد عائلتي، وأمرها يهمني جدًّا..».

صـارت كوثـر تنظـر لي بعينـين مفتوحتـين وكأنهـا ترتقـب منـي ثـورة لا تحمـد عقباهـا. لاحظـتُ ارتجافـة يديهـا، فابتسـمتُ لهـا مطمئنًـا، وأضفـت موجهًـا كلامـي إلى فـارس: «لـذا اسـمح لي أن أقـول لـكَ بـكل وضـوح وصراحـة: إن أردت بهـا خـيرًا، فسـأكون عونًـا لكـما، مـادًّا يـد

المساعدة إلى أقصى الحدود، أما إذا كان الأمر غير ذلك..». مسك فارس يدي مقاطعًا وكأنه لا يريدني إكمال حديثي، وقال:

«أرجو أن تقف عند هذا الحد، فما قلته هو الذي يهمني، أما الأمر الآخر، فلا وجود له في تفكيري..»، ثم حوَّل نظره صوب كوثر دون أن تفلت قبضته يدي وقال متسائلًا: «هل ما تزالين خائفة من الدكتور مرهون؟.. هل سمعتِ ما قال؟»

نهضتْ كوثر واقتربتْ مني لتطبع قبلة على جبيني، قبّلتها أنا أيضًا، وما إن عادت إلى مكانها حتى أخبرني فارس، بأن كوثر قد حكت له الكثير عني، وأنه معجب بي إلى حد الاحترام والتقدير. شكرته ونهضت واقفًا معلنًا انتهاء زيارتي، ولم أنسَ الإشارة إلى أن قنينة الويسكي التي أتيت بها هي هدية اللقاء الأول بيننا.

ودَّعاني بحفاوة مبالغ فيها، وما إن وصلت الباب حتى التفتُّ صوب فارس قائلًا: «لكل إنسان في هذه الدنيا جوهرة خاصة به، وما عليكَ بعد العثور على جوهرتك إلا المحافظة عليها بكل صلابة وإصرار.. دعونا نحتفل بكما قريبًا..».

❋ ❋ ❋

وصلتني رسالة مشفرة من رضوان تخبرني بأن إحدى خلايا الاغتيالات التابعة لنا قد تعرضت إلى اعتداء شرس راح ضحيته عنصران من المجموعة، وحين سألته عن الجهة المهاجمة وإن كان

قد توصل إلى معرفتها ومعرفة مَنْ يقف وراءها، أخبرني وهو على يقين بصحة كل المعلومات التي راح يسردها لي، وكنتُ أدونها على ورقة صغيرة قمت بإحراقها بعد أن اتصلت بالسيد «الوزير»، وأخبرته بكل ما حدث وبتفصيل ودقة متناهية، حينها طلب مني السيد «الوزير» فترة يومين ليصدر أوامره.

في صباح اليوم التالي، وبعد أن أفطرت برحيق جسد فاتنة الساحر، وشربت القهوة من يدها، أوصلتْ لي رسالة اشتياق من الصبي «نشوان»، فوعدتها بزيارة خاصة له، ثم خرجتُ متوجهًا إلى شارع المكتبات، وكنت أروم اللقاء بشاكر الشامي، فقد عرفت من رضوان أن «شاكر» غالبًا ما يتناول فطوره هناك كونه يسكن في شقة قريبة من الشارع، وكعادة رجل سكير مثله، فإنه يتناول فطوره بين الساعة الحادية والثانية عشرة عند أحد المطاعم الشعبية.

حين دخلت المطعم لم أجد «شاكر» هناك، ولكن ما إن وضع النادل طبق البيض المقلي وكأس الشاي أمامي حتى دخل شاكر داعكًا خصلات شعره بضجر واضح. أشرتُ إليه طالبًا منه الجلوس حيث طاولتي. نظر صوبي مستغربًا كونه لم يلتقني من قبل، وحين اقترب مني، وقفتُ له مادًّا يديّ، فصافحني دون أن ينبس بكلمة، حينها أخبرته بأنني صديق الفنان عطا، وأنني أعرف متانة العلاقة بينه وبين عطا؛ لذا أحببت التعرف عليه وسؤاله إن كان عطا قد سافر عائدًا إلى منفاه أم لا. ابتسم وجلس قبالتي مرحبًا، ثم قال مازحًا: «هل أعتبر أن فطوري سيكون

عربـون تعـارف بيننـا؟» ضحكـت وأجبتـه بأننـي قـد أتيـتُ إلى المطعـم قبلـه، ومـن الأصـول أن أقـوم بدفـع الحسـاب عنـه. ابتسم وقـال شـاكرًا صديقـه عطـا الـذي اعتـاد أن يدفـع عنـه حسـاب مـا يأكلـه في المطاعـم، وحتـى حيـن سـفره فإنـه يهيـئ مـن ينـوب عنـه بدفـع الحسـاب. ضحكـتُ بسـبب كلماتـه تلـك، وقلـت لـه: «هـل أفهـم مـن كلامـكَ بـأن عطـا قـد سـافر فعـلًا؟»

«أكيـد، وقـد هاتفنـي ليلـة أمـس حـال وصولـه إلى بلـده الثـاني..»، ثـم أطلـق ضحكـة وأضـاف: «لنقـل بلـده الأول، فهـذا البلـد يمتهـن طـرد أبنائـه النجبـاء منـذ زمـن بعيـد، والأولى بعطـا أن يعتـبر منفـاه بلـده الأول، فالمنفـى منحـه الأمـان والحريـة والاسـترخاء، أمـا هـذا البلـد، فـلا يمنـح شـيئًا غـير المـوت ورائحـة البـارود والـدم..».

«ولكنـك، أنـت أيضًـا كنـت تقيـم في دولـة مجـاورة لسـنوات طـوال، وتعمـل في إحـدى جامعاتهـا، ورغـم ذلـك قـررتَ العـودة إلى بلـدكَ، وتركـتَ بلـد الأمـان والراحـة والحريـة!»

«كان قـرارًا غبيًّـا..». قـال شـاكر وهـو يدعـك خصـلات شـعره ويلـوك لقمتـه قبـل أن يزدردهـا، ثـم يقـول: «كنـت أحسـب أننـي سـأنال مـا يليـق بي مـن منصـب بعـد الدراسـة والتحصيـل العلمـي المرمـوق، ولكنـي اكتشـفت أن الغبـي والمـزور وابـن الشـوارع وخريجـي السـجون مـن المجرمـين واللصـوص هـم أصحـاب الحـق في المناصـب والرواتـب الخياليـة..». نظـرتُ صوبـه متفحصًـا ملامحـه، وكنـت قـد عزفـت عـن تنـاول طعامـي، وقلـت:

365

«أتابع برنامجكَ بين الحين والآخر، من خلال قناة الحقيقة، وكنت دائماً ما أسأل نفسي: «ألا يخشى هذا الرجل على نفسه؟.. ألا تخاف يا رجل؟»

«الحقيقة أنني خائف، ولكن الخوف قد يأتي بثماره يومًا ما..».

«أي ثمار يمكن للإنسان انتظارها من وراء خوفٍ تكون صورة القتل أو الاغتيال فيه هي المهيمنة؟»

«أن تكون أو لا تكون.. ربما أُقتل، وربما أصبح وزيرًا..!»

«هل أفهم من كلامك أنك تنتظر من جراء مهاجمتك للحكومة بهذه الصورة الثورية القاسية، أن يأتيك من يفاوضك على منصب معين لتكف عن محاربتها؟»

«ولم لا؟.. أليس هذا من حقي؟.. هل تجد في التشكيلة الوزارية الحالية من هو أفضل مني؟»

«أعتقد بأنك قد قمت بتأليف مسرحية تكون أنت بطلها الأوحد، أقصد «ميلودراما»، ولكنها ليست على مقاسك..».

«رغم أني لست مسرحيًّا، ولم أكن ضليعًا بتاريخ المسرح، فإنني لم أكتب هذه المسرحية كما تدّعي، كل ما في الأمر أن شهادتي العلمية تؤهلني لاستلام منصب مرموق في هذه الدولة الهزيلة..».

«أفهمك الآن.. ولكن تأكد من أن هناك أكثر من صوت إعلامي يضغط على الحكومة ويشهِّر بها من أجل نيل مركزٍ أو وظيفة في تشكيلة الدولة، ولو هادنتْ الدولة كل هؤلاء من أجل إسكاتهم

فستعلن إفلاسها وتستقيل!» قلت ذلك وأنا أُردد في داخلي كلمات الامتعاض: «هذا الرجل انتهازي بامتياز!»

الحقيقة التي توصلت إليها من خلال لقائي بشاكر الشامي، كنتُ قد سمعتُها على لسان صديقي عطا الفنان، حين كان في شقة الطابق الثاني مع الفتاة الجميلة، والتي تمت أرشفتها بالصورة والصوت، وذلك ما نقلته إلى السيد «الوزير» بعد أن أتمَّتْ فاتنة تقريرها عما احتوته السيديهات الثلاثة الخاصة بليلة عطا. قلت له وبكل صراحة: «إن شاكر الشامي مجرد انتهازي، يصرخ ويجعجع على شاشة القناة الفضائية التي يشتغل فيها، وهو يكيل الاتهامات بالإهمال والفساد إلى الحكومة من أجل لفت الانتباه، علَّهُ يحظى بمكسب وظيفي أو مادي». حينها أخرج لي «الوزير» صفحة من جريدة يومية، وطلب مني قراءة العمود الذي يحمل اسم شاكر، وقال: «انظر كيف يهاجمنا أسبوعيًّا، وبكل وقاحة، لا أدري من منحه هذا العمود الأسبوعي كي يهاجمنا؟» رحت أقرأ مقال الشامي بصوتٍ عالٍ حسب طلب السيد «الوزير»، وقد أثار إعجابي: «الكتابة عن الحب.. مقاومة

الكتابة عن الحب، في وقتنا الصعب هذا، غالبًا ما أجدها فعلاً مقاومًا عظيماً، فهي دعوة للوقوف بحزم أمام موجات التكاره والعداء التي يطلقها بوجوهنا أصحاب العقول العفنة من الطائفيين والقوميين والمؤدلجين، الذين لا تعرف أرواحهم الخجل أو حتى تأنيب الضمير، وهم يدعوننا إلى كره أبناء جلدتنا.

الطائفي يدعونا لكره من ينتمي إلى غير طائفته، وغالبًا ما يصل به التمادي إلى الدعوة لقتله، والمؤدلج يدعونا إلى كره من لا يؤمن بالفكرة التي يؤمن بها، وكذلك الأمر مع من يتخذ من القومية مرتكزًا للتكاره والتحارب.. هذه الدعوات نشاهدها ونسمعها ونقرؤها كل يوم وبشكل مستمر، فكيف السبيل إلى محاربة هؤلاء الذين يحاولون تفكيك كل آصرة إنسانية أو بنية مجتمعية بُنيت على أساس احترام الروح البشرية والحب؟

الحقيقة ليس أمامنا إلا العمل بالحب، الدعوة إلى الإيمان بالحب والكتابة عنه، فحين يكتب صديقي الشاعر، الروائي، الفنان، المثقف عن الحب، فهو بالضرورة يقف ضد كل تلك الأفكار التخريبية.

يقف بوجه الأفكار المتخلفة التي باتت تغلف حياتنا نافثة سمومها داخل نسيج جسدنا الإنساني.. أفكار تكفيرية، وأخرى تطالبنا بتحريم الموسيقى، وضرورة «تحجيب» الأطفال من البنات، وتحريم الحب، وشرعية تعدد الزوجات لذرائع سخيفة لا يقف وراءها غير تلك الشهوة الحيوانية التي يحاول بها رجال الدين دغدغة مشاعر المراهقين طمعًا بكسبهم إلى حظيرته العفنة.

الكتابة عن الحب، سلاح إنساني نبيل، لا يعرف القتل، إلا من زاوية واحدة، هي محاولاته لقتل كل جرثومة من شأنها قتل إنسانية الإنسان؛ فحين نكتب عن الحب، فإننا لا نكتب بالضرورة عن تجاربنا الشخصية، وأن هناك امرأة بعينها ننوي مغازلتها أو استمالتها،

كما يدعي البعض من أصحاب الأفق الفكري والعقلي المحدود، بل نكتب كي نقاوم العفن والتخلف الذي يريد أصحاب العقول العفنة فرضه علينا.

نكتب عن الحب، لتصبح الحياة أجمل».

نظرتُ صوب السيد «الوزير» قائلًا: «المقال جميل ومعبّر، لكنه فاقد لمعناه، كون الأغلبية يعرفون انتهازية شاكر الشامي جيدًا». وما إن صمتُّ حتى سألني «الوزير» عما أقترحه بشأن شاكر الشامي، قلت دون تردد:

«اغتياله».

❊ ❊ ❊

حلّ يوم الخميس وكأنني على موعد مع عشيقة طالما أرّقني شوقي لها، منذ بدايات الصباح وأنا أنتظر لقاءها في موعدٍ لم يعلم به غيري، فأنا من حدد الموعد، بل إن تقرير رضوان هو من حدد لي الموعد.

كنت أنتظر حلول العاشرة صباحًا، بكل شوق. ارتديت أفضل ما عندي من ملابس وتعطّرت ولبست إكسسوارات مبالغ فيها كي تضفي عليَّ ميزة الترف، وتوجَّهت صوب سوق التجار لأقابل أمي وأختي.. أمي «أم وداد القوادة»، التي لا أعرف كيف سأقابلها، ولا أعرف إن كانت ملامحها قد تغيّرت بفعل الزمن. كنت أعرف

369

عينيها وعنقها الطويل، اللذين انطبعت صورتاهما، كوشم داخل روحي، فطالما رأيت عينيها محمولتين على ذلك العنق الاستثنائي التكوين، تلاحقاني في أحلامي وصحوي. أما أختي التي ورثتْ عن والدها مانع القتيل شعره المجعد الفاحم، كما قالت لي أمي يومًا، فقد كانت تشكل رائحة المشهد، رائحة طفلٍ رضيعٍ لم يعرف النطق بعد.

اتخذتُ مكانًا منزويًا في ركن من سوق التجار وأنا أنظر صوب النساء المارَّات، وعلى الرغم من قلة عدد النساء هناك، فإنني كنت أرى بعض خوف وشقاء في ملامحهن وعيون بعضهن.

رنَّ هاتفي، فشاهدت اسم عدنان على شاشته، ضغطت على زر الاستجابة. أخبرني بكلمات مقتضبة، أن صديقي قد سافر منذ دقائق. فَرحتُ للخبر، خصوصًا بعد أن أكد لي عدنان دون أن يذكر اسم الأستاذ عبد الله، أنه عائد للتو من المطار حيث ودَّعَ صديقه منذ قليل.. سحبتُ نفسًا عميقًا وكأن همًّا قد أُزيل عن كاهلي، وبعثت برسالة مختصرة إلى السيد «الوزير» أخبره فيها بسفر الأستاذ عبد الله دون ذكر اسمه في نص الرسالة.

شعرت أن انشغالي بالهاتف كان مبررًا جيدًا لوقوفي في المكان، ولكني انتبهت إلى رجل يبيع شيئًا ما على عربته التي تقف على بعد أمتار مني، توجهتُ صوبه ووجدته بائعًا لحلوى شعبية لم أذقها من قبلُ. طلبتُ منه القليل، وما إن تذوقتها حتى سحرني طعمها،

وشعرت بأن طعمها ليس غريبًا عني، ربما أكون قد تذوقتها من قبل، لكنني لا أعرف أين أو متى، وحين سألت الرجل عن طبيعة حلواه، أخبرني بأنها حلاوة الجزر.

صرت أحادث الرجل بائع الحلوى وأنا أجول بنظري بين زوايا السوق ومحلاته، علّني أعثر على ما أبحث عنه. كانت عيناي تتفحصان كل النساء، خصوصًا من تكون برفقة فتاة.

انتبهت إلى فتاة في العشرينيات من عمرها، كانت بوجهتي وهي تقترب نحوي، كانت تضع على رأسها شالًا أبيض، وترتدي فستانًا أسود طويلًا يصل حد القدمين. وقفتْ الفتاة عند عربة الحلوى وطلبتْ من البائع بعضًا منها، وكانت قد ناولته ورقة نقدية واحدة. عرف الرجل أن الفتاة تطلب حلوى بثمن الورقة.

صارت الفتاة تنظر إليَّ مبتسمة، سألتها إن كانت تحب حلوى الجزر، فضحكتْ وكأنها تلمستْ قصدًا آخر من وراء سؤالي، قالت: «إنها حلوى المحبين، هكذا يُسمِّيها الناس..».

«لهذا أجدها طيبة جدًّا.. طيبة لأن لها علاقة بالحب..». قطع كلامي صوت امرأة قادم من الخلف:

«هل سأنتظر طويلًا.. استعجلي يا بنتي!» نظرتُ إلى الخلف وصعقني المشهد، شاهدتُ أمي تبتسم لي، دمعتْ عيناي دون إرادة مني، عرفتها، فملامحها لم تتغير كثيرًا، سوى فقدانها اثنين من أسنانها الأمامية، بالإضافة إلى امتلاء جسدها. تذكَّرتُ ضحكاتها ومداعبتها لي وأنا طفل صغير، تذكرتها وهي تجلس

القرفصاء على أرض المطبخ الصغير في بيتنا، وهي تقطع رؤوس حبات البامية، ذلك المشهد الذي لم يفارق مخيلتي، فقد كانت تعد لنا طبخة البامية مع الرز أغلب أيام الأسبوع حين يحل موسمها. اقتربتُ منها خطوة واحدة ولكني توقفت، لا أدري ما الذي ألجمني، وحين تلمَّسَتِ ارتباكي اقتربتْ مني وقالت:

«لا أدري لماذا حين رأيتك ارتجف قلبي؟»

فجأة، طفحت قدرتي على المغازلة بصورة لا إرادية وقلت: «هل هذا يعني أنكِ أحببتني من النظرة الأولى؟» أطلقتْ ضحكة مرتبكة وقالت: «الذي يرى هذه الرجولة والهيبة لابد وأن يحبك»، ثم نظرتْ صوب الفتاة حيث عربة الحلوى وقالت:

«هل أعجبتك بنتي؟.. هل تريدها؟»

هزَّني سؤالها، وشعرت بدوار اختصر كل الكون ببضعة سنتيميترات تغلف جسدي، وكأنني داخل كيس بلاستيكي حجب عني الرؤية، حتى كدت أختنق. تضمَّخ جسدي بسائل لزج بدأت حموضته تنهشني، وفي لحظة قررت إنهاء الموقف بأقصى سرعة ممكنة. أخرجتُ من جيبي ورقة خضراء من العملة الأجنبية ووضعتها في كفِّ المرأة، وأخبرتها بأنني راغب في الفتاة، وأريدها في شقتي، وأنني سأدفع لها مثل تلك الورقة بعد أن تخرج من شقتي، شريطة أن تأتي هي معها، فوافقت. أشرتُ لها صوب سيارتي التي تقف على قرابة الخمسين مترًا، فتبعتني هي وابنتها.

صارت أم وداد إلى جانبي بينما كنت أقود السيارة، وقد احتلت

372

الفتـاة الكـرسي الخلفـي. عرفـتُ حـين نظـرت في المـرآة التـي أمامـي أنهـا تعمّـدت الجلـوس خلفـي وبزاويـة خاصـة؛ كـي تنظـر في عينـيّ مـن خـلال المـرآة، وتتمكـن أيضًـا مـن رؤيـة نصـف وجـه والدتهـا.

كنـت متأكـدًا مـن وضـوح ارتباكـي، وكان جسـدي يتفصّـد عرقًـا بشـكل لم أعهـده مـن قبـل، وشـعرت بأنَّنـي أقـود السـيارة بذهـن مشـتت.

سـحبتُ نفسًـا عميقًـا، وأوقفـت سـيارتي عنـد بائـع قنـاني المـاء المعـدني، وأشرت لـه بأصابعـي أن يعطينـا ثلاثًـا، وناولتـه المبلـغ. لم أسـتأنف قيـادة سـيارتي إلا بعـد أن أفرغـت القنينـة في جـوفي. مسـحت وجهـي ورقبتـي بمنديـل، قمـتُ برميـه في الشـارع، ثـم توجهـت صـوب عـمارة الشَّـكَري. قبـل وصـولي إلى هنـاك، توقفـت، وطلبـت مـن أم وداد أن تذهـب مشـيًا إلى العـمارة الكائنـة في نهايـة الشـارع، وأن اسـمها عـمارة الشَّـكَري، وأن عليهـا صعـود السـلَّم حتـى الطابـق الثـاني، وإن سـألها أحـد عـن وجهتهـا فعليهـا القـول بأنهـا تبتغـي مكتـب الكوثـر للترجمـة، وحـين تكـون أمـام المكتـب، عليهـا ألا تدخـل، بـل تنتظـر مـع ابنتهـا عنـد البـاب المجـاور. أشـارت المـرأة بأنهـا فهمـت مـا قلتـه، ولكـن الفتـاة قالـت بأنهـا حفظـت كل كلمـة، وعـليَّ ألا أقلـق، فهـي تتمتـع بذاكـرة حديديـة. ضحكـتُ وأنـا أنظـر إليهـا، وكانـت تـشرع في النـزول مـن السـيارة. الحقيقـة، وجدتهـا جميلـة، وتتمتـع بقـوام رشـيق أهيـف الطـول، ولـو لم أرَ «مانـع» القتيـل مـن قبـل، لقلـت إنهـا ابنـة أبي حقًّـا.

373

بقيتُ جالسًا خلف المقود وأنا أنظر إليهما. هل حقًّا عثرت على أمي وأختي؟ لماذا شعوري مضطرب بين الحقيقة والخيال؟ صحيح أن هناك رفيفًا في أحشائي، لكنني لم أتلمس الشعور الحقيقي والمتوقع لشاب يقابل والدته بعد فراق امتد قرابة الربع قرن.

هاتفت غسان وطلبتُ منه الوقوف فورًا عند باب العمارة، وما هي إلاّ ثوانٍ حتى لمحته واقفًا يتلفت. نزلت من السيارة وأقفلتها، ثم توجَّهت صوب غسان، وما إن صرت قربه حتى أمرته بأخذ السيارة وركنها في مكانها المخصص، وأن يكون على أهبة الاستعداد لتلقي أوامري في أي لحظة، مشددًا عليه بألا يحتسي أي قطرة كحول. أخذ التحية المائعة كما هي عادته وقال: «يعني اليوم رمضان!.. أنتَ تأمر دكتور».

وجدت المرأة والفتاة واقفتين عند باب شقة الطابق الثاني، ابتسمتُ لهما وفتحتُ باب الشقة طالبًا منهما الدخول.

ما إن دخلتا حتى سألتْ أمُّ وداد عن الحمام، فسألتها إن كانت تروم الدخول إلى التواليت أو الحمام لتغتسل، فقالت ضاحكة وهي تشير إلى أسفل بطنها: «التواليت يا روحي». أشرتُ صوب الزاوية، فتوجهتْ نحوها. نظرتُ صوب الفتاة ووجدتها واقفة تجول بنظرها بين زوايا الصالة وأثاثها، وحين طلبتُ منها الجلوس شكرتني وهي تشير إلى أن ما تراه لا يعود إلى شقة، بل قصر داخل عمارة، ثم سألتْ: «هل أنت مالك هذا القصر أم مستأجر؟» أخبرتها بأن العمارة كلها ملكٌ لي، فتمنَّتْ لي دوام النعمة وزيادة الرزق.

حـين خرجـتْ أم وداد مـن التواليـت، أفصحـتْ عـن إعجابهـا بالنظافـة والترتيـب، ثـم سـألتني سـؤالًا خبيثًـا: «هـل زوجتـكَ مسـافرة؟» أخبرتهـا بأننـي أعـزب ولم يسـبق لي الـزواج، لطمـتْ عـلى صدرهـا، فتذكـرت حينهـا أم عامـر التـي كانـت تقـوم بالحركـة نفسـها حـين تتأسـف عـلى شيء، وقالـت: «لمـاذا يـا حبيبـي؟ لمـاذا تحـرم نفسـك مـن متعـة الحيـاة والذريـة؟.. عليـكَ أن تتـزوج بأكثـر مـن واحـدة حتـى تعـوِّض مـا فاتـك..». قاطعَتْهـا ابنتُهـا قائلـة بنـبرة مؤنِّبـة: «ولمـاذا تريدين حرمانـه مـن الحريـة؟ دعيـه يطـير مـن عـش إلى آخـر، فلـو كان متزوجًـا لمـا تعرفنـا عليـه..».

سـألتهما عـما يفضـلان أن يشربـا. طلبـت الفتـاةُ عـلى الفـور كأس ويسـكي، أمـا أمـي فقـد طلبـت علبـة بـيرة. نظرتُ لهـا بنظـرة مسـتفهمة، فقالـت بأنهـا لا تـشرب كثـيرًا، وإن علبـة واحـدة تكفيهـا حتـى صبـاح اليـوم التـالي.

ذهبـتُ إلى المطبـخ وأحـضرتُ قنينـة ويسـكي وثلاثـة أقـداح وزَّعتهـا عـلى المنضـدة، ثـم ذهبـت مـرة أخـرى وأحـضرت علبـة بـيرة بـاردة وضعتهـا أمـام أم وداد. حتـى تلـك السـاعة لم أتأكـد مـن المـرأة التـي أمامـي، هـل هـي أمـي أم لا، ليـس لأننـي أشـك في شـعوري نحوهـا، فقـد كان الشـعور صادقًـا ولا يقبـل الشـك، ولكنـي أردتُ سـماع الحقيقـة عـلى لسـانها، وكنـت دائـماً مـا أنظـر في عينيهـا متفحصًـا ذكريـاتي. المـاضي «القـذر» الـذي عشـتُه، وأسـأل بداخـلي: «ألم تشـتق هاتـان العينـان إلى رؤيـة وليدهـا؟ ألم تفكـر بـه طـوال السـنوات الماضيـة؟».

بـدأتْ الفتـاة تغازلنـي، وصـارت تطلـب منـي شرب كأسي بعـد أن سـكبتْ لي ولهـا، لكنهـا لم تـشرب، بـل لم تذقـه حتـى وهـي تـرنّ كأسـها بـكأسي معلنـةً شرب نخبهـا بصحـة أجمـل شـباب العاصمـة كـما قالـت. وحـين رفعـتُ الـكأس إلى فمـي، طلبـتْ منـي ضاحكـة، أن أشربهـا دفعـة واحـدة. تذوقـتُ السـائل الأصفـر وأنزلتـه عـن فمي. نظـرتُ صـوب الفتاة وقلـت لهـا بجديـة واضحـة: «تأكـدي يـا..»، ضحكـتْ وقالـت: «وداد.. اسـمي وداد»، فقلـت: «تأكـدي يـا وداد، بأننـي لـو شربت هـذه القنينـة التي أمامـك فلـن أسـكر؛ لـذا أرجـو منـكِ أن تهدئـي وألّا تحـاولي أن تُسـكريني بطريقـة غبيـة..». رفَسـتْ أم وداود سـاق بنتهـا، وطلبـتْ منهـا أن تتـأدب، ثـم توجهـتْ صـوبي بكلامهـا وقالـت متسـائلة: «يبـدو أنـك شـخص مهم، وتشـتغل في مـكان مهـم، هـل حـدسي صحيـح؟»، فقلـت لهـا نافيًـا بأننـي لسـت مهـماًّ جـدًّا، وأننـي تاجـر، وكثـيرًا مـا أكون خـارج البـلاد متنقـلاً بين العديـد مـن العواصـم، ثـم أعـود إلى بلـدي في أوقـات الـضرورة. رفَسـتْ المـرأة ابنتهـا مـرة أخـرى وقالـتْ: «ألم أقـل لـكِ تـأدبي، هـذا الرجـل ابـن خـير، وليـس مثـل أصحـاب المحـلات والحـماّل الـذي ضحـكَ عليـكِ بحجـة الحـب..». عضّـتْ الفتـاة شـفتها السـفلى بوجـه أمهـا طالبـة منهـا عـدم البـوح بالفضائـح. أطلقـتُ ضحكـة وقلـتُ مطمئنًـا المرأة بأنني لسـت بغاضـب مـن الفتـاة، ولي خـبرة جيـدة بمثـل تلـك السـهرات.

نطَّـت الفتـاة إلى جانبـي، ووضعـتْ كفّهـا عـلى صـدري محاولـة تقبيـلي وهـي تطلـق كلـمات الاعتـذار، وترجـو ألا أكـون قـد انزعجـت منهـا. أبعدتهـا عنـي وأنـا أشـعر بقـرف غـير واضـح، ثـم طلبـتُ منهـما أن تمنحـاني دقيقـة كـي أتصـل بالمطعـم وأطلـب لهـما الأكل.

أخرجتُ هاتفي وهاتفت غسان، طلبت منه حين وصلت المطبخ أن يجلب أكلًا متنوعًا لخمسة أشخاص، ثم طلبت منه بصوت منخفض أن ينتظرني على باب شقته بعد أن أنهي مكالمتي معه. أغلقتُ الهاتف وعدتُ إلى الصالة. لاحظت أن المرأة والفتاة قد أزالتا شاليهما، لأشاهد شعر وداد المجعّد الفاحم. كان جميلاً جدًّا، وقد أضفى عليها جمالًا مضاعفًا. أما أمي، فقد بان شعرها أقل كثافة عما أتذكره، وأنها قد صبغته بصبغة بنية داكنة من النوع الرخيص. نظرتُ صوب المرأة مبتسماً وقلت لها: «تبدين أكثر شبابًا من ابنتكِ..». ضحكتْ وشكرتني، بينما صارت الفتاة تنظر لي بنظرة استهزاء وقالت: «لا تتصور بأن كلامك يغيظني، فأنا أعرف أمي جيدًا، وأعرف كم هي جميلة..!» أطلقتْ المرأة ضحكة مجاملة وشكرت ابنتها.

أخبرت المرأة بأنني سأغيب لدقائق، وعليهما أن تعتبرا البيت بيتهما.

خرجتُ وأقفلت الباب ورائي، كان غسان ينتظرني خلف باب شقته الموارب قليلاً، وما إن رآني حتى خرج مستعدًّا لتلقي الأوامر. طلبتُ منه أن يراقب باب الشقة، وألا يسمح لأي شخص بالخروج منها، حتى لو اضطر إلى التهديد بمسدسه، ثم تركته وصعدت حيث الطابق الرابع. وما إن دخلت المؤسسة حتى نزلت مسرعًا إلى الطابق الثالث متوجهًا صوب غرفة السيطرة مباشرة. فتحت جهاز المراقبة دون أن أضع قرص التسجيل، شاهدت الفتاة وهي

تتجول مستطلعة الشقة، وكانت تحدِّث والدتها عن فخامة الأثاث والتحف. كانت الأم جالسة في مكانها وهي تطلب من ابنتها العودة حيث الأريكة، مشددة عليها ضرورة الانتباه إلى أن الرجل صاحب الشقة سيأتي بين لحظة وأخرى.

تركت الجهاز مشتغلًا، وتوجهت إلى المطبخ، فتحت الثلاجة وأخرجت قنينة المخدِّر ودسستها في جيبي.

حين صرت في باحة الطابق الثاني كان غسان لا يزال واقفًا عند باب شقته، فطلبتُ منه الذهاب لجلب الأكل وإنهاء المراقبة.

لم أجد الفتاة في مكانها حين دخلت الشقة، وعلى الفور أخبرتني أمها بأنها في الحمام لتغسل وجهها. سمعت الفتاة تغني أغنية هابطة جدًّا وأنا أنظر صوب كأسها لأتبين أنها لم تشرب شيئًا منها، تأكدتْ ظنوني بأنها قد تكون سارقة، إضافة إلى عملها في الدعارة؛ لذا حرصتْ على إسكاري بشكل متعمد. وحين خرجتْ وصارت أمامي، وجدتها وقد ارتدت فستانًا قصيرًا شفّافًا بلون بشرتها، وكان حامل الصدر واللباس الداخلي واضحين بلونهما الأحمر الغامق، وما إن شاهدتني حتى اقتربتْ مني تروم الجلوس بقربي. أشرت لها بالجلوس في مكانها السابق، مشيرًا إلى أن الوقت لا يزال مبكرًا، ثم سألتها عن سبب عدم شربها لكأسها. ودون أن أمنحها فرصة للإجابة، أخبرتها بأنها ليستْ مجبرة على شرب شيء لا تحبه، حيث يمكنني أن أعمل لها عصير فواكه طازجًا، فوافقتْ، وطلبتْ أمها أيضًا كأسًا من العصير.

378

دخلتُ المطبخ وعملت كأسين من خليط البرتقال والليمون، وأضفت عليهما قطع الثلج، وأضفت إلى إحداهما قطرات المخدِّر.

قدَّمتُ الكأس بالمخدِّر للفتاة، وقدَّمت الأخرى إلى أُمِّها، ثم رفعتُ كأسي وشربنا بصحة بعضنا. شربتْ الفتاة نصف كأسها وكرعت الأم كأسها بالكامل. أما أنا فقد شربت كأسي إلى آخرها.

حين أكملتْ الفتاة كأسها، سألتني إن كنت أريدها للفراش، فوافقت، واصطحبتها إلى إحدى غرف النوم، وهناك طلبتُ منها أن تستلقي وتنتظرني، كوني نسيت جلب الواقي من الغرفة الأخرى. تركت الفتاة على السرير، وعدتُ إلى الصالة، وحين شاهدتني أمها، سألتني عن سبب خروجي، أخبرتها بأنني سأدخل عائدًا بعد دقائق، ثم سألتها محاولًا تغيير الموضوع، إن كانت تشعر بالجوع، فقالت بأنها تستطيع الصبر ساعة أخرى. أخرجتُ هاتفي وهاتفت غسان سائلًا إياه عن الطعام، فأخبرني بأن أمامه ربع ساعة ليجلبه لنا، ثم سألته عن المطعم وسير العمل، وإن كان هناك زبائن كثر أم لا، فعرف بأنني أبتغي حرق الوقت.

كنت أستمع إلى غسان وهو يحكي نكاته الماجنة وأضحك ناظرًا إلى عينَي أُمّي اللتين طالما حلمت برؤيتهما، عيني أمي أجمل عينين رأيتهما في حياتي.

أخبرني غسان بأنه في طريقه إلينا، فأقفلت الهاتف وقلت للمرأة بأن الأكل سيصل خلال خمس دقائق، وأنني سأدخل الغرفة لأكون مع وداد، وحين دخلت وجدتُ وداد نائمة. وقفتُ أتأمل ملامحها باحثًا عن أي ملمح يشير إلى والدها مانع القتيل، صحيح كان مانع

379

قد منحها طبيعة ولون شعره، ولكني لم أتلمس غير ذلك ليدلني عليه. كانت وداد نسخة من أمي، لكنها أطول قليلاً.

لم تكن وداد حين كنت أتأملها، فتاة تمتلك الأنوثة، كانت لوحًا أثريًّا معقد النقوش، وكنت أبحث بداخله عن رمز أو نقش أكتشفه ليكون دليلي للإبحار في عالم الماضي، العالم الذي طالما كنتُ أبحث عنه رغم قساوته ومرارته.

أخرجني رنين جرس الباب من تأملي لوجه أختي، فخرجت وفتحت الباب ليدخل غسان حاملاً أكياس الطعام وهو يلقي التحيّة المسائية:

«مساء الخير، دكتور.. خمس دقائق ويكون الأكل جاهزًا..».

ثم دخَل المطبخ ليعد مائدة الطعام. لحقتُ به، وهمست في أذنه أن يحرص على ألا ينطق باسمي أمام المرأة، وأن يكتفي بكلمة دكتور، ثم طلبتُ منه مغادرة الشقة حالما ينتهي من تفريغ الأكل بالأطباق ويرتبه جيدًا.

عدتُ إلى أم وداد وجلست قبالتها مبحرًا في عينيها، وبعد ثوانٍ سألتني: «هل أنت دكتور؟.. سمعت الشاب يناديك بدكتور..». وجدتها فرصة طيبة لتحكي لي المرأة ما بداخلها، فأجبتها بأنني دكتور بالفعل، فقالت بأنها تشكو من ألم في جانب بطنها جهة اليمين. سألتها إن كانت قد تعرضت للضرب سابقًا، فضحكت وقالت بأن الضرب والإهانة يكاد يكون زادها اليومي. اعتصرت روحي لكلماتها وسألتها إن كان الضرب هو من أدى إلى فقدانها

أسنانها الأمامية، ضحكت وهي تغطي فمها بكفها، وقالت بأنها العلامة الوحيدة الظاهرة نتيجة الضرب، وإن هناك العديد من العلامات تختبئ خلف الملابس.

خرَج غسان مودعًا بعد أن أعدَّ المائدة في الزاوية اليمنى القريبة من المطبخ حيث طاولة الطعام. شكرتهُ وطلبتُ من أم وداد أن تنتقل إلى المائدة. سحَبتُ لها الكرسي كي أحدِّد مكانها الذي تجلس فيه، وحين جلستْ صار ظهرها مقابلاً للغرفة حيث تنام وداد المخدّرة. جلستُ قبالتها، وطلبتُ منها تناول الطعام دون خجل، فسألتني إن كان من الضروري أن أوقظ «وداد» من نومها كي تأكل، فقلت لها أن لا داعي لذلك، فالأكل كثير، وسنضع حصتها جانبًا لتأكلها حين تصحو.

أعدتُ عليها سؤالي السابق بخصوص أسنانها وسبب فقدانها، فقالت بأن زوجها كثيرًا ما كان يضربها، خصوصًا إذا مرضت ولم تعد قادرة على الخروج للعمل، أو حين تعود إلى البيت دون مبلغ يكفيه لشرب الخمر ولعب القمار. وفي ليلة كان قد خسر ما في جيبه في القمار، أتى للبيت على أمل العودة لأصحابه واستئناف اللعب. طلب منها مبلغًا من المال، ولم يكن متوفرًا لديها ما يطلبه، فضرَبها وفقدتْ على إثر ذلك وعيها. تم نقلها إلى المستشفى، وحين استعادت وعيها، اكتشفت أن فمها قد فقد رَبَاعِيَاته.

سألتها بخبث: «هل زوجكِ الحالي هو والد وداد؟» فنفت وقالت بأنها لم تنجب من زوجها الحالي، وأن وداد ابنة زوجها السابق الذي مات مقتولاً..

«من قتله؟»

سألتها بشغف من يريد اغتنام جائزة كبرى، فقالت: «ابني مرهون الشجاع هو من قتل «مانع» القواد..!» ولكنها وما إن لاحظت لهفتي لسماع إجابتها على السؤال حتى صمتتْ وامتنعت عن البوح، ثم سألتني عن سبب رغبتي في معرفة حيثيات حياتها السابقة. لم أُجبها، ونظرتُ إلى عينيها صامتًا، ثم دخلتُ المطبخ حيث كنت أضع بعض المال في قارورة نحاسية اشتريتها من سوق المواد العتيقة؛ لأنها كانت تشبه «فازة» الضابط حاتم الذي قتلته في حديقة داره ليلًا، وحرصت على أن أضع المبلغ نفسه الذي وجدته داخل الفازة، في قارورتي التي اشتريتها. أخرجت عشر ورقات خضراء وعدتُ إلى أم وداد. اقتربتُ منها ووضعتُ الأوراق أمامها بصمت.

عدتُ إلى مكاني السابق وتناولت قطعة لحم صغيرة، بدأت أمضغها وأنا أنظر صوب المرأة التي كانت تنظر إلى المبلغ بتمعُّن، وحالما رفعت رأسها ناظرة إليَّ لتقول شيئًا، قلت لها كاذبًا: «مررت بوعكة صحية منذ ثلاثة أيام..».

«سلامتك..! ألف سلامة..!» قالت المرأة مقاطعة كلامي، ولكني أضفت:

«واليوم أشعر بأنني أحسن، وقد تماثلت للشفاء تقريبًا؛ لذا أشعر بأنني لا أمتلك الرغبة في ممارسة الجنس، ومن أجل ألا يذهب المبلغ الذي سأمنحه لكِ ولبنتكِ سدًى، أريد شراء قصة

حياتـك بهـذا المبلـغ الـذي أمامـك، وإن طلبـتِ المزيـد فسـأعطيك. مـا رأيـك؟»

ضحكـتْ وبـان الفـراغ الـذي خلفتـه أسـنانها الهاربـة قبـل أن تغطيـه بكفهـا، وسـألتني إن كانـت قصـة حياتهـا مهمـة إلى ذلـك الحـد، فقلـت لهـا: «لنتسـلى ونقـضي الليـل في المسـامرة والحديـث». فوافقـت بعـد أن دسَّـت المبلـغ بـين ثدييهـا، وراحـت تقـص علـيَّ سـيرتها منـذ أن كانـت طفلـة.

تأكـدتُ مـن أنهـا أمـي، وصرتُ أبكـي لبكائهـا وأضحـك لضحكهـا وهـي تـسرد لي سـيرتها. عرفـتُ منهـا، بأنهـا تزوجـت صغـيرة قبـل زواجها مـن أبي، كانـت في سـن الثانيـة عـشرة حـين تزوجهـا ابـن عمهـا، وكانـوا يسـكنون في قريـة نائيـة تبعـد أكثـر مـن أربعمائـة كيلومـتر عـن العاصمـة. بقيـتْ زوجـة لابـن عمهـا قرابـة ثـلاث سـنوات، ولكنهـا لم تنجـب، فقرر زوجهـا الـزواج بثانيـة، ومـا إن تأكـدتْ مـن نيّتـه حتـى قـررت الهـرب. وبالفعـل، هربـتْ عنـد فجـر أحد الأيـام صـوب العاصمـة، وهنـاك، وبعد فـترة قصـيرة، تعرفـتْ عـلى أبي وتزوجهـا، لتلـدني بعـد سـنة ونصـف. ذلـك مـا كنـت لا أعرفـه مـن سـيرتها، أمـا مـا حكتـه لي بعـد ذلـك، فقـد كنـت أعرفـه جيـدًا حتـى وصلـت إلى قصـة ولدهـا، قالـت بأنهـا تركـت ابنهـا يشـتغل مـع زوجهـا الثالـث الـذي تزوجتـه بعـد مقتـل أبي، وتقصـد «مانـع» القتيـل، وذكـرتْ بأنهـا كانـت مضطـرة لـترك ابنهـا ليعمـل ويبيت في مـكان عمـل زوجهـا؛ لأن زوجهـا قـد طلـب منهـا ذلـك وبـإصرار. كان يريـد إبعـاد ابنهـا عـن البيـت ليـلاً؛ لأنـه كان بـين الحـين والآخـر يـأتي

383

بصحبة أصدقائه، ليحتسوا الخمر، بعد أن تعمل لهم أمي أنواعًا شهية من المأكولات والمزة، وحين يدبّ السكر في رأس مانع، يطلب منها مضاجعة أصدقائه. كانت أمي ترفض، وكانت تتعرض بسبب رفضها إلى الضرب المبرح حتى تصل حد الإغماء، ومن أجل التخلص من الضرب، وافقت وصارت تضاجع الرجال بين حين وآخر، ولكنها وبعد أن ولدتْ ابنتها، قررتْ الهرب. وبالفعل، هربت لتتخلص من زوجها «القوّاد»، كما قالت، ولكنها وقعت برجل آخر أكثر خسة وشراسة من مانع.

انتبهت المرأة إلى شيء معين وهي تجول بنظرها في زوايا السقف وقالت: «هل من المعقول أن التيار الكهربائي في هذه المنطقة لا يعرف الانقطاع؟..». ضحكتُ وقلت لها: «هذه البناية لا تعرف انقطاع التيار الكهربائي ما دمتُ أنا موجودًا..!» قلت ذلك، ثم سرعان ما عدتُ بها إلى الموضوع الأهم، وسألتها إن كانت قد فكّرتْ بالسؤال عن ولدها أو البحث عنه، فقالت بأنها فعلت لمرة واحدة فقط، حيث وقفت قريبًا من ساحة وقوف السيارات التي يملكها مانع، وبعثت بصبي ليسأل عنه، فأتاها الصبي بعد دقائق ليخبرها بأن ابنها قد قتل «مانع» ودخل السجن، وأن ساحة وقوف السيارات قد صارت لرجل آخر.

«وهل سألتِ عنه بعد ذلك؟» سألتها وعيناي مغرورقتان بالدموع. نفَتِ المرأةُ وأوضحتْ بأنها تخشى الشرطة والسجون، ثم نظرتْ إليَّ بتمعُّن وسألتني بعد أن شاهدت دموعي:

384

«أراكَ تبكي، يا خوفي أن تكون أنتَ مرهون!»

«مـن مرهـون هـذا؟» سـألتها متغابيًـا وقـد هـزَّني سـؤالها لأصحـو مـن نوبـة عاطفيـة أخذتنـي بعيـدًا، فقالـت:

«مرهـون ولـدي الـذي قتـل زوجـي «مانـع» القـواد.. هنـاك شـبه بينـكَ وبـين ولـدي، ولكنـه كان صغـيرًا وأنـت طويل ضخـم البنيـان..».

قاطعتهـا مبتسـماً كـي أتخلـص مـن حبـال عاطفتـي التـي صـارت تجـرني إليهـا، وسـألتها إن كانـت ترغـب في شرب كأس عصـير أخـرى، فوافقـت.

توجهتُ إلى المطبخ لعمل العصير، وأنا أسألها:

«مـا اسـم زوجـك الحـالي؟ وأيـن يسـكن؟ وهـل سـيقلق عليـكِ إذا قضيـتِ ليلتـك هنـا؟» ضحكـتْ بعمـق وقالـت:

«عبـود القـواد لا يعـرف القلـق، هـو يعـرف الدنانـير فقـط، وحـين أتأخـر وبنتـي عـن البيـت، يكـون متيقنًـا بـأن المـال سـيأتيه مـع صينيـة الفطـور صباحًـا..».

«وأيـن يسـكن؟». سـألتها، فقالـت: «في منطقـة السراي، فـوق محلات الزيتونـة. صاحبهـا رجـل كريـم كثيرًا مـا نتبضـع منه بالآجـل..».

كنـتُ أسـتمع لهـا وأنـا أضـع قطـرات المخـدِّر في الـكأس، فسـألتني وكأنهـا تذكّـرتْ شـيئًا مهـماً: «هـل أوقـظ «وداد»؟.. أظنهـا قـد شـبعت نومًـا، وعليهـا أن تـأكل شـيئًا.. جوعانـة المسـكينة».

«طبعًا، يمكنك إيقاظها، ولكن اشربي العصير أولًا، لأنني أريد أن أسألكِ السؤال الأخير».

ضحكتْ المرأة وقالت ممازحة:

«هل هناك أسئلة أخرى؟.. هل تريد أن تكتب قصة حياتي؟»

«لا أبدًا.. أريد أن أسألكِ عن أي الرجال الذين عاشَرْتِهم قد أحببتِ؟»

طرحتُ عليها السؤال وأنا أضع كأس العصير المثلّج أمامها. شكرتني وأخذتْ رشفة من العصير وقال ضاحكة:

«لو أن الله خلق عشرة رجال مثل عيسى أبي مرهون، رحمه الله، لصار بلدنا من أفضل البلدان».

«وماذا كان يشتغل؟»

«حرامي..!»

20

احتضنتُ أمي، قبّلتها، شممتُ رائحة شعرها، نمتُ على حِجرها، ووضعتُ كفّها على رأسي، طلبتُ منها أن تهدهدني كما كانت تفعل وأنا طفل صغير، لكنها لم تفعل، فقد كانت مخدّرة.

وقفتُ أمامها واعترفتُ لها بكل شيء، وكانت حين أقسو عليها بكلامي تُطلقُ أنّاتٍ موجعة. أعرف أنها مخدّرة، ولكنها بكل تأكيد كانت تسمعني، حتى إنها حرّكتْ أصابع يدها اليمنى حين أعلنتُ كرهي لها.

«كل شيء فيَّ معافًى يا أمي، إلا روحي المثخنة بالجراح».

هززتها وأنا أطلب منها أن تستمع إليّ جيدًا، كم كنت أودُّ في تلك اللحظة لو كانت أمي بكامل وعيها! حاولتُ فتح عينيها الجميلتين، وما إن نظرتُ في حدقتيهما الشهلاوين حتى ارتعبتُ. شاهدتُ صورتي وأنا طفل صغير ابن السابعة، صارت الحدقتان شاشتي عرض لكل مأساتي. هالني ما رأيت، فأغلقت عينيها سريعًا والخوف يتلبسني. هرعت إلى الطابق الرابع، ومنه إلى غرفتي في الطابق الثالث. هناك انتبهت إلى الأكياس التي تحتوي على رموز

الضحايـا، أشـيائهم التـي أخذتهـا منهـم واحـدًا تلـو الآخـر. رحـتُ أحـدث الضحايـا موجهًـا كلامـي إلى الأكيـاس، وأخبرتهـم بـأن السـبب في موتهـم يقبـع الآن مخدّرًا في شـقة الطابـق الثـاني: «المـرأة العاهـرة هـي السـبب في موتكـم أيهـا التعسـاء..!» صرخـتُ، ودون درايـة منـي رحـت أبحـث عـن المـشرط الطبـي الـذي وضعتـه عـلى أحـد الرفـوف، مسـكته بيـدي المرتعشـة، وتوجهـتُ إلى الشـقة حيـث تسـتكين أم وداد هنـاك.

جلسـتُ عـلى الأرض، وسـحبتُ المـرأة نحـوي حتـى هبـط جسـدها الثقيـل أرضًـا، وصـار رأسـها وسـط حجـري، فتحـت عينيهـا ونظـرت في الحدقتـين، ورأيـتُ مـا رأيـت في المـرة السـابقة، فصرخـتُ مـبررًا كل جرائمـي بأننـي مجـرد ضحيـة لتلـك العينـين.

للحظـة لم أعـرف سرّهـا، اشـتقت لمنظـر الـدم. سـحَبتُ يـد أمـي ووخـزتُ وريدهـا بالمـشرط. خـرج دم قليـل كان يشـبه دمـاء كل الضحايـا، إلا أنـه قليـل. لعقتـه.. كان مـرًّا.

تركـت المـرأة ملقـاة عـلى الأرض ووقفـتُ ناظـرًا إليهـا، كانت جميلـة وهي نائمـة. تناولـت كأسي وشربـت نخبهـا، ثـم اتجهـت صـوب المطبـخ لسـبب لا أعرفـه. وقفـتُ هنـاك سـاهمًا، لا أعـرف مـا أريـد. كانـت غلايـة المـاء إلى جانبـي. انتبهـتُ إليهـا. خلعـتُ سـلكها الكهربائـي، واسـتخدمت المـشرط لكشـط بضعـة سـنتيميرات مـن طرفيـه. توجهـتُ صـوب أمـي النائمـة، وجلسـتُ إلى جانبهـا، ثـم لففـت أحـد أطـراف السـلك عـلى رسـغها الأيسر، وربطـت الآخـر في الأيمـن. أوصلـت رأس السـلك إلى مأخـذ الكهربـاء، وضغطـت عـلى الـزر. انتفـض جسـد المـرأة وصـار يرتعش لثـوانٍ حتـى همد.

388

فصلتُ السلك عن المأخذ الكهربائي، ثم أزلته عن رسغيّ المرأة التي تحوَّلَ لون جلدها إلى الأصفر الباهت. دخلتُ غرفة النوم حيث تنام وداد هناك، حاملاً بيدي السلك الكهربائي. فعلت بها كما فعلتُ بالمرأة. يبدو أن مفعول المخدِّر في جسد وداد كان قد فقد بعضًا من تأثيره، فما إن كبست الزر الكهربائي حتى صرخت الفتاة واهتز جسدها بشكل عنيف. رحتُ أنظر إليها حتى سكن جسدها. سحَبتُ السلك وخلّصته من يدي الفتاة ورميته أرضًا. اقتربتُ من الفتاة وطبَعتُ قبلة على جبينها، وأعلنت أسفي عما فعلته، ولكنه كان الحل الوحيد المتاح أمامي كي لا يعرف أحد شيئًا عن تلك النقطة السوداء في حياتي.

انتزعتُ ما كانت وداد تلبسه من مصوغات، ووضعتها على الطاولة الصغيرة جنب السرير، ثم سحبتها من يديها وخرجتُ بها سحلاً حتى وضعتها بجانب جثة والدتها.

لقد أعجبني شعرها المجعد منذ أن رفعت الشال الأبيض عنه وهي تغازلني. قطعتُ خصلة صغيرة من شعرها ووضعتها في جيبي.

عدتُ إلى جثة أمي، ومددتُ يدي إلى صدرها، أخرجت الأوراق النقدية العشر التي كنت قد أعطيتها إياها، وأثناء ذلك تلمّستْ أصابعي خيطًا سميكًا من القماش. سحَبته خارجًا ليكون أمامي كيسًا من القماش كبير الحجم بعض الشيء. كانت المرأة تضعه في رقبتها كالعقد، وتبين أنه كل ما كانت تدخره من أوراق نقدية ومصوغات بعيدًا عن زوجها السكير «عبود القواد»، كما أسمته.

صعدتُ إلى غرفتي حيث الأرشيف وأنا أحمل معي كل ما أخذته من جثتي المرأة وابنتها. اغتسلت واستبدلت ملابسي، ثم وأنا في طريقي إلى الشقة حيث جثة المرأة وابنتها، ضغطتُ على الجرس الخاص بشقة غسان، وما إن فتح لي -وكان مستعدًّا لأي أمر مني- حتى طلبتُ منه أن يُحضر أكياسًا بلاستيكية كبيرة ويلحق بي.

دخلتُ الشقة ناظرًا إلى الجثتين، ودخلَ غسان ورائي حاملاً لفة الأكياس السوداء، وما إن شاهد الجثتين حتى شهق عميقًا دون أن ينبس بكلمة.

لففنا الجثتين بالأكياس جيدًا، وحملناهما إلى السيارة، وتوجهنا بهما إلى مستشفى العاصمة، حيث الدكتور واثق.

لم يكن الدكتور واثق هناك. هاتفته وشرحتُ له الموقف، ولم تمر على مكالمتي معه سوى نصف ساعة حتى أتى بكامل أناقته. عانقني وصافح غسان، وسألني عن الجثتين. أخبرته بأنهما في السيارة.

طلب من الموظفين جلب الجثتين، وشرعَ في كتابة شهادة الوفاة قبل أن يشاهدهما، سألني عن اسمي الضحيتين وماذا أعرف عنهما، فأخبرته بما أعرفه وكأنهما غريبتان عني، وقد شدَّدتُ على ضرورة تدوين عبارة: «تعرض لعمل إرهابي» كسبب للوفاة.

هاتفتُ رضوان وطلبتُ منه أن يستأجر زورقًا، وينتظرني داخله خلف مستشفى العاصمة حيث ضفة النهر. طلَب مني نصف ساعة فقط ليُتمَّ المهمة، دون أن يسأل عن السبب كعادته.

«والآن، هل يمكننا استلام الجثتين لغرض الدفن؟»

سألت الدكتور واثق، فأجاب:

«بكل تأكيد، ولكن بعد إتمام شهادتي الوفاة».

بعد أن استلمتُ شهادتي الوفاة وطويتهما ودسستهما في جيبي، وصارت الجثتان جاهزتين لتسلمهما بعد أن أجرى غسان اللازم ونفَّذ كل التعليمات التي طلبتها منه. نظرتُ صوب الدكتور واثق مبتسماً وسألت: «هل عمليات «التفصيخ» ما زالت قائمة؟» ثم أضفت قبل أن يجيبني: «أعرف أنها قائمة على أقدام وسيقان، ولكني أسأل بما يخصك ومشفاك»

هزَّ رأسه موافقًا وكأنه يتأسف، فسألته: «لماذا الأسف وأنتَ مَنْ عمِل في هذا المجال لسنوات طوال؟»

«لم يعد المال يغرينا، فقد حصلنا على أضعاف ما كنا نحلم به، ولكن التهديدات المستمرة على أتفه الأشياء، من قبل سياسيي الغفلة الجدد، واحتكارهم الحقير للمتاجرة بالأعضاء البشرية، جعلتنا نعيش رعبًا مُرًّا، تمامًا كما ترعبنا الكوابيس ونحن نلهث داخلها راكضين أمام عيون ضحايانا التي باتت تلاحقنا ليل نهار!»

«قد أجلب لكَ رجلاً في وقتٍ قريب، يمكنكَ الاستفادة منه، ثم تحويله إلى جثة مجهولة الهوية، مقطوعة الرأس، مرمية على كومة أزبال كما تفعلون دائماً». ضحك وقال بأنه رهن إشارتي وفي خدمتي دائماً.

391

حين وصلنا بالجثتين ضفة النهر، كان رضوان بانتظارنا وسط قارب يظهر أنه حديث الصنع. وضعنا الجثتين في قلب القارب واتجهنا حيث وسط النهر. رمينا الجثتين هناك وعُدنا إلى الضفة التي انطلقنا منها.

«صار النهر أمًّا طاهرة لي، بعد أن اغتَسلتْ بمائه أمي العاهرة».

عدتُ وغسان إلى عمارة الشَّكَري، كنت أرتعش، وكلما مضى وقت أكثر على زمن جريمتي، كنتُ أرتعش أكثر، حتى لاحظ غسان ذلك، فاقترح عليَّ كأسًا من الويسكي نحتسيها في شقته. وافقته على كأس الويسكي، ولكن ليس بشقته، بل في شقة أم عامر، وعليه أن يلحق بي هناك بعد أن يقوم بتنظيف شقة الطابق الثاني، وإعادتها كما كانت في السابق، وطلبتُ منه أن يجلب معه المبلغ المالي من الأوراق الخضراء الموضوعة على الطاولة.

أطلقتْ أم عامر زغرودة حالما رأتني، ونادتْ على البنات الموجودات في شقتها لتطلب منهنَّ إعداد لوازم السهرة، ثم اتجهتْ صوب خزانة صغيرة ينتصب عليها جهاز التلفاز، وأخرجتْ قنينة ويسكي قائلة: «أعرف ما يفضله الحبيب من شراب..».

ثلاث فتيات دخلن الصالة، جميلات ومثيرات، وكانت واحدة منهن تمسك سيجارة مشتعلة بين أصابعها، وحالما وقع نظر أم عامر على السيجارة حتى طردتها قائلة بصوت غاضب:

«اذهبي إلى المطبخ وأطفئي سيجارتك، الدكتور لا يحب رائحة السجائر، ولا تنسي أن تعدّي له أفضل ما لدينا من المزّة..».

نظرتْ إليَّ مبتسمة ثم أضافت:

«الملعونة تتصور نفسها في ملهًى..». ضحكتُ، وربَّتُّ على كتفها وقلت: «جميلات بناتك.. دائماً بضاعتك جديدة وطازجة!»

«كل ما في البيت في خدمتك، ما عليك إلا أن تشير إلى ما تريد وترغب..». طبعتُ قبلة على وجنتها، وطلبت منها الجلوس إلى جانبي، وما إن التصقتْ بي حتى همستُ في أذنها: «هل من بين الفتيات من تجيد الغناء؟» أمالت رأسها نحوي أكثر وقالت إن الفتاة صاحبة السيجارة تمتلك صوتًا يُضاهي صوت أم كلثوم، فقلت: «جميل، دعينا نسمعها». صاحتْ على الفتاة، وطلبتْ منها ترك ما بيديها للفتاتين الأخريين، وأن تحضر فورًا إلى الصالة. حين وقفتْ الفتاة أمامنا، شعرتُ بارتجافة جسدها. ابتسمتُ لها وطلبتُ منها الجلوس قبالتي، ثم طلبتُ منها أن تهدأ ولا تخاف، فليس هناك أي لوم عليها، وحين طلبتْ منها أم عامر أن تغني لنا موالًا، ابتسمت الفتاة وشعرتْ بأنها تمتلك ما يميزها عن زميلاتها، فغنَّت:

«رُميتَ بسهمِ اللحظِ أم عقّكَ الدهرُ... أم انتابكَ الواشون فافتضح السِّرُّ

فلا تبتئسْ يا صاح إنْ لامكَ الغيرُ».

ذرفتْ أم عامر دموعها تأثُّرًا بصوت الفتاة، وقلتُ منتشيًا:

«الله! الله!..» صحُت متلذذًا بصوتها. كان صوتها ساحرًا بالفعل، فقلت لها: «أجمل صوت سمعته مترنماً بمقام الصَّبَا..». ابتسمتْ الفتاة وقالت: «يبدو أن الدكتور خبير في المقامات وأصول الغناء؟»

فسألتها أيـن تعلمـتِ الغنـاء، قالـت -وكان قولهـا صادمًـا- بأنهـا طالبـة في قسـم الموسـيقى، وهـي في سـنتها الأخـيرة مـن الدراسـة الجامعيـة.

حـين دخـل غسـان مبتسـماً، كنـت قـد شربـت كأسي الثانيـة ورأسي مستسـلم لصدر أم عامـر التـي كانـت تداعب خصـلات شـعري. أراد أن يناولنـي الأوراق النقديـة، فطلبتُ منـه أن يقـدّم كأسًـا إلى الفتـاة صاحبـة الصـوت الجميـل، ففعـل، ومـا إن سـلّمها الـكأس حتـى طلبـتُ منـه أن يشـعل لهـا سـيجارة. نظـر إليَّ مسـتغربًا طلبـي، فهـززت لـه رأسي موافقًـا.

انفرجـتْ أسـارير الفتـاة وهـي تسـتلم السـيجارة، وراحـت تمـجّ منهـا نفسًـا عميقًا.

ثـم أشرت إلى غسـان بالاقـتراب منـي، ومـا إن صـار قـربي حتـى طلبـت منـه توزيـع الأوراق النقديـة عـلى الجميـع وبالتسـاوي. أعطـى ورقتـين لـكلٍّ مـن الفتيـات الثـلاث وأم عامـر، ثـم دسَّ في جيبـي آخـر ورقتـين. ضحكـت كثـيرًا لفعلـة الملعـون الـذي لم ينـسَ أبـدًا أن يُدخـل الفرحـة إلى روحـي.. أخرجـتُ الورقتـين مـن جيبـي وأعطيتهـما لـه، ثـم طلبـتُ مـن الفتـاة بعـد أن جلـس غسـان إلى جانبهـا أن تزيـدني بغنائهـا، فأنشـدت عـلى مقـام الحجـاز:

«مـن أطفـأ الجـذوة الكـبرى بأنفسـنا؟ ... أدهرنـا حـال أم حالـت سـجايانا؟

هـي الكـؤوس ولكـن أيـن نشـوتنا؟ ... وهـي الحـروف ولكـن أيـن معنانـا؟»

نمتُ ورأسي متكئ على صدر أم عامر، ذلك ما أخبرتني به الفتاة صاحبة الصوت الساحر صبيحة اليوم التالي حين وجدتها تنام عارية إلى جانبي، والتي أخبرتني أيضًا ببكائي المرّ أثناء نومي.

❋ ❋ ❋

يومان قضيتهما في بيت أم عامر. لم أخرج منه إلا عند الضرورة. ثلاث مرات فقط خرجت فيها من شقة أم عامر. كنت أصعد إلى المؤسسة لأتفقد سير العمل وأتابع فاتنة، كما تفحصت هيئة الشقة في الطابق الثاني بعد أن نظفها غسان من آثار جريمتي.

خرجتُ من سباتي على إثر مكالمة السيد «الوزير»، الذي أخبرني بأنه اشترى الخلية التي هاجمت إحدى مجموعاتنا مؤخرًا، من الرجل صاحب المنصب المهم في الدولة، وأنَّ هناك كمينًا يجب علينا نصبه لهم، فلقد أصدر الرجل المهم أوامره لهم بإعادة الكرّة نفسها، وعلى المكان نفسه عند الساعة السابعة مساءً.

هاتفتُ رضوان، وأخبرني بأنه موجود في مكتبه داخل المؤسسة. صعدت إليه وأخبرته بما وصلني من السيد «الوزير». وضعنا الخطة وتوجهنا إلى مكان خليتنا المستهدفة.

كنت على رأس المجموعة، وكنا بانتظار وصول الخلية المهاجمة، وما إن صاروا داخل المكان حتى انهال عليهم الرصاص من كل

395

جانب. خمس دقائق كانت كافية للقضاء عليهم جميعًا. خرجنا من مخابئنا، وحين صرنا قرب الجثث الخمس السابحة بدمائها، أشار رضوان إلى إحداها، وقال بأن الرجل لا يزال يتنفس، جلستُ القرفصاء قربه وشممتُ رائحة دمٍ نتنة. حرّكته وسألته إن كان يسمعني، فهزَّ رأسه بالإيجاب. أخبرته بأن السيد الذي بعَثهم كان قد باعهم لنا، وكنا نعرف وقت قدومهم. أطلق أنّةً موجعة وقال: «مع الأسف، الخيانة صارت أكثر من القمصان في هذا البلد!» ضحكتُ كثيرًا، وصرت أداعب عينيه، أغلقها وأفتحها، حتى نهضتُ طالبًا من أحد رجالي أن يجهز عليه ويريحه. برَك الشاب عند رأس الرجل الجريح، واستل سكينًا طويلة لها هيئة الحربة أراد أن يقلع بها عين الرجل. أرعبني المنظر، وصحتُ به ناهيًا، ثم أخرجتُ مسدسي الكاتم وأطلقت رصاصة واحدة على رأس الرجل الجريح، لألتفت بعد ذلك إلى الشاب الذي أراد قلع عين الجريح. مسكته من ذراعه هازًّا جسده بشكل عنيف وأنا أقول بصوتٍ عالٍ:

«تعذيب الضحية من أفعال الجبناء، فما من رجل شجاع قام بتعذيب شخص وهو يعرف بأنه سيقتله عاجلاً أم آجلاً.. إن فكّرتَ بمثل هذا العمل مرة أخرى سيكون مسدسي كفيلاً بروحك المريضة!»

هزَّ الشاب رأسه موافقًا ثم اعتذر مبديًا أسفًا صادقًا.

هاتفتُ السيد الوزير مُبشِّرًا بالخبر. شكَرنا وطلَب منا الرجوع

396

إلى عملنـا، كـما طلَـب منـي أن أغـيرِّ مـكان خليتنـا التـي تعرضـت للهجـوم لأنــه بــات مكشــوفًا.

❋ ❋ ❋

في صبيحـة اليـوم التـالي، وبعـد أن أتـم رضـوان إشرافـه عـلى انتقـال الخليـة إلى مـكان جديـد أكثـر أمنًـا، وبعـد أن تفحصـتُ المـكان جيـدًا وأعطيتهـم موافقتـي، توجَّهـتُ وغسـان صـوب منطقـة السـراي حيـث «أسـواق الزيتـون» وبيـت «عبـود القـواد» الـذي يحطّ فوقهـا كطائـرٍ مريـض. لم يحتـوِ الطابـق إلّا عـلى شـقة واحـدة، كانـت شـقة عبـود؛ لـذا كان مـن السـهل الاسـتدلال عليـه. طرقنـا البـاب وانتظرنـا، ولكـن حـين طـال انتظارنـا، طلبـتُ مـن غسـان التنحي جانبًـا، ورفسـتُ الباب رفسـة واحـدة كانـت كافيـة لخلعـه عـن الجـدار. دخلنـا لنجـد أن الشـقة التـي كانـت تعيـش داخلهـا أمـي وأختـي لم تكـن سـوى غرفتـين متداخلتـين، وخـلاء يسـتخدم كحـمام أحيانًـا. رغـم الجلبـة التـي أحدثهـا البـاب وهـو يسـقط، فإننـا وجدنـا الرجـل نائـماً في الغرفـة البعيـدة، ملتحفًـا بغطـاء ثقيـل وقـد لـفَّ رأسـه بكوفيـة فقـدت لونهـا منـذ زمـن بعيـد. أشرت لغسـان بإيقاظـه، ففعـل.

نظـرَ الرجـل إلينـا، وقبـلَ أن يسـأل، قلـتُ لـه آمـرًا: «انهـض! نحـن مـن الشرطـة، لدينـا زوجتـك وابنتـك في الحجـز، فتعـال معنـا». يبـدو أن الرجـل قـد صـار تحـت تأثـير الخـوف تمامًـا، فرفـض الذهـاب معنـا ونفـى بـأن تكـون وداد ابنتـه، وقـال: «وداد ليسـت ابنتـي، أنـا لا أولاد

عندي..». انحنى غسان صوب الرجل وقال له همسًا في أذنه بضع كلمات، وما إن اعتدل غسان بقامته حتى نظر الرجل صوبي ووافق على أن نصطحبه.

في طريقنا إلى المستشفى، سألت «عبود» عن سبب ضربه المتكرر لزوجته، فارتبك وتلعثم، ثم قال بأنها كاذبة، وأنها هي من تضربه وتمنع عنه الأكل أحيانًا بسبب سُكره المتواصل. ضحكتُ وتذكّرتُ ما قرأته عن الطبقات المسحوقة في المجتمع وأساليبها في التملص حين يكونون أمام القانون أو المساءلة، فهم يمتلكون دائمًا المبررات لكل سلوك أو تصرف مشين، وغالبًا ما تكون مبرراتهم مقنعة لهم فقط، مع أنهم يعرفون بأنهم يكذبون، ومع مرور الوقت يصبحون مؤمنين بأكاذيبهم إيمانًا مطلقًا.

دخلنا المستشفى بعد أن هاتفت الدكتور واثق الذي كان بانتظارنا في غرفته، والذي ما إن نظر صوب الرجل حتى أشار إلى أنه لا يرى أمامه إلا خردة صدئة.

كان الرجل خائفًا جدًّا، خصوصًا بعد أن عرَف بأنه موجود داخل مستشفى العاصمة وليس مخفر الشرطة، فسأل عن سبب وجوده في غرفة الطبيب، وحين نظر الدكتور واثق صوبي باحثًا عن إجابة، أخبرتُ «عبود» بأن زوجته وبنته قد قتلتا في عمل إرهابي، وأن عليه استلام الجثتين. انهار الرجل وراح يصرخ: «أعطوني نقودي ودعوني أذهب من هنا..». لم أكن أعرف شيئًا عن النقود التي يريدها الرجل، وكان من الواضح أنه لم يُفجع بالخبر، وأراد

أن يتملص من استلام الجثتين. صار جسده يرتجف أكثر، وصار يتمتم بشكل هستيري، ثم افتعل إغماءة ساذجة وراح فاردًا جسده على بلاط الغرفة، حينها وجد الدكتور واثق فرصته لحقن الرجل بالمخدِّر.

ما إن غاب عبود عن الوعي حتى دخلنا في نوبة ضحك عارمة، ثم تذكرت أن غسان قد أقنع الرجل بكلمات لم أسمعها، وحين سألته عنها، قال: «ألم تسمعه وهو يطالب بنقوده؟! فقد قلت له بأننا وجدنا مبلغًا كبيرًا من المال في حوزة زوجتك وابنتها، وحين سألناها عن مصدره قالت بأنها سرقته من زوجها عبود، وما عليك إلا أن تأتي معنا لتستلم نقودك..». ضحكنا أكثر ونحن ننظر لجسد عبود القواد ممددًا على الأرض.

اشتقتُ إلى شارع المكتبات، وكنت قد فكّرت بشراء كتاب «مقالات العبودية الطوعية» لإيتيان دو لا بويسي، الذي سمعت عنه مؤخرًا، والذي نصحني به الأستاذ عدنان في زيارتي الأخيرة له؛ لذا طلبتُ من غسان أن يوصلني إلى هناك، وينتظرني في المكان المعتاد، والذي يبعد عن الشارع قرابة المائتي متر.

حين ابتعدت عن غسان، كان النهر أقرب لي من شارع المكتبات، فالتفتُّ صوبه وخطوتُ بضع خطوات حتى وقفتُ عند ضفته. غرفتُ من مائه بكفي، وقبلتُ ما غرفت، ثم نثرته في الهواء معلنًا انتهاء زيارتي لقبر أمي وأختي.

دخلت شارع المكتبات ولم يكن مزدحمًا حينها، سألت عن الكتاب

ووجدته عند إحدى المكتبات، ثم توجهت نحو المقهى علّني أجد من أسمع منه ما يمتع، وينقذني من حفلات الدماء التي كنت بطلها مؤخرًا، وما إن طلبت الشاي وقنينة ماء معدني حتى هالني ما رأيت.. ظهر الأستاذ عبد الله أمامي مبتسماً. وقفتُ له وعانقته، وكان بمعية شابين لم أتعرّف عليهما من قبل، وسألته مندهشًا ودون أي مقدمات: «ألم تسافر يا رجل؟.. لقد أخبرني الأستاذ عدنان بأنك قد سافرت، فمتى عدت؟».

«ثلاثة أيام كانت كافية لأستنشق هواء خاليًا من رائحة البارود وأشياء أخرى تعرفها..».

«كنتُ أتمنى لو أن سفرتك تطول أكثر، على الأقل شهر أو شهرين..».

ارتسمت على وجهه تلك الضحكة التي لم يصحبها أي صوت يسمع، بل إن لها صوتًا روحيًّا يمنح البهجة لمن يلحظها، وقال بأن والدته متوعكة بعض الشيء، وذلك ما دعاه إلى العودة سريعًا، وإنه على موعد معها بعد ساعتين من الآن. ثم نظر صوب الكتاب الذي في يدي، فمد يده واستأذن للاطلاع عليه. نظر إلى العنوان ثم قال دون أن يرفع نظره عن الكتاب:

«لقد أصابكَ عدنان بجنونه وقُضيَ الأمر أيها الفيلسوف الشاب.. هذا كتاب مهم، كنت قد قرأته بالفرنسية قبل عدة أعوام، أتمنى أن تجد فيه ما يمتعك..»، ثم نظر إليَّ وقال:

«وإن لم يعجبك، فعليكَ قراءته مرة أخرى!» ضحكتُ لمزحته

وهو يطلب مني أن أسمع ما سيقرؤه لي بعد أن صار ظهر الكتاب تحت سطوة نظره، فقرأ:

«إنَّ مقاومة البؤس والقهر، لا تمر، حسبما يرى «لا بويسي» عبر العنف والقتل؛ لأن عبودية الشعوب عبودية طوعية، فهم الذين «يذبحون أنفسهم بأنفسهم»، وهم الذين بخضوعهم للنير، يشوهون الطبيعة البشرية المفطورة أصلاً على الانعتاق والحرية.. سيتخلص الناس من العبودية الرهيبة، باستعادتهم حقيقتهم الأولية «طبيعتهم الحرة»، فيناط بهذه الاستعادة التحول الكبير في الحياة السياسية التي تجعل من الإنسان، لا من الله ولا من أوليائه، الفاعل الأوحد في العالم السياسي، وذلك ضمن إطار تعاقدي حر».

«رائع، إنه يتحدث عنا، ولكن كيف تسمح حكومتنا «العظيمة» حكومة الأولياء، بمثل هذا الكلام؟» قلت ذلك فأجابني مبتسماً:

«كن مطمئنًا يا صديقي، فهم لا يقرؤون..».

رنَّ هاتفي مقاطعًا الأستاذ عبد الله، وحين نظرت مستطلعًا جهة الاتصال عرفت بأنه السيد «الوزير»، حملتُ الهاتف وخرجت مستأذنًا، وما إن صرت خارج المقهى حتى ضغطت على زر القبول لأسمع: «اسمع يا مرهون! أنتَ الآن تجلس مع الأستاذ عبد الله في المقهى، هل عرفت أين ومتى سيغادرها؟»

«نعم، بعد ساعتين تقريبًا لزيارة والدته».

«عظيم، نحن نعرف أي طريق يسلكه حين يروم زيارة والدته،

عليك إتمام المهمة اليوم، وسوف ننصب سيطرتين، تكون المسافة بينهما كيلومترين، عليك الإجهاز عليه في تلك المسافة لأنها ستكون خالية. كن وراء سيارته، وما إن تتجاوز السيطرة الأولى حتى تكون بجانب سيارته وتطلق عليه، مفهوم؟»

«مفهوم، ولكن..».

«انتهى الأمر».

أغلق «الوزير» هاتفه، وصرتُ أمام الأمر الواقع. هاتفتُ رضوان وطلبت منه أن يكون جاهزًا لأننا أمام مهمة مستعجلة دون أن أذكر له التفاصيل، ثم هاتفت غسان وطلبتُ منه العودة إلى بيته، وأن يكون مستعدًّا لأي أمر أصدره، كوني سأتصل به حتماً.

عدتُ مرتجفًا إلى مكاني السابق وقد لاحظ عبد الله ذلك، دون أن يسألني.

«كنت أبحثُ عن معجم مصطلحات الفلسفة، ولكني لم أجده. صاحب المكتبة الذي أعرفه جيدًا وأكنّ له كل الاحترام، وعدني بتأمينه لي». قال الأستاذ عبد الله، فتلقفتها فكرة خبيثة.

ودعتُ الأستاذ عبد الله ومن معه على أمل اللقاء به بعد يومين في بيت الأستاذ عدنان، ذلك ما قاله لي وهو يهمس في أذني. خرجتُ من المقهى متوجهًا صوب مكان أعرفه لا يبعد عن المقهى كثيرًا. وجدتُ رضوان هناك ينتظرني بسيارته الحديثة العائدة إلى وزارة الداخلية، وبعد أن تأكدت من إتمام كل الاستعدادات، طلبتُ منه

التوجه إلى بداية شارع «المقاسيم» لنقف هناك وننتظر سيارة الأستاذ عبد الله بسائقها المعيّن من قبل وزارة الثقافة. ولكني طلبتُ منه، بعد أن نظرت في الساعة وتأكدت من أن نصف ساعة أمامنا حتى يحين موعد تنفيذ العملية، أن يقطع الشارع الطويل، لنتأكد من وجود السيطرتين اللتين أمر بهما السيد «الوزير».

السيطرتان موجودتان في مكانهما. ذلك ما شاهدتهُ وتأكدت منه، وخلال سيرنا شرحت لرضوان الخطة. عُدنا إلى بداية الشارع، وكادت إحدى السيطرات تؤخّرنا، لولا نزولي وإظهار هويتي لهم، ففتحوا أمامنا الطريق.

هاتفتُ السيد «الوزير» وأخبرته أننا جاهزون للمهمة، وأننا على وشك التنفيذ.

ما إن مرتْ سيارة الأستاذ عبد الله الذي كان كعادته يجلس إلى جنب سائقه، وليس في الجزء الخلفي كشخص مسؤول، حتى انطلقنا وراءه، وما إن تجاوز السيطرة الأولى حتى ضغط رضوان على دواسة البنزين لنكون بمحاذاة السيارة، عندها لوحت بيدي إلى السائق، وشاهدني الأستاذ عبد الله الذي يبدو أنه أمر سائقه بالتوقف، وحين توقفت سيارته، توقفنا نحن أيضًا أمام سيارته. ترجلتُ من السيارة واقتربت منه. ترجل الأستاذ عبد الله من سيارته وصار قبالتي، فقلتُ له بأنني حصلت على القاموس الذي كان يبحث عنه، أقصد «معجم مصطلحات الفلسفة»، وأنه في السيارة، ودون أي مقدمات، احتضنته وقبّلته شامًّا رقبته،

فضحك. كنت أودعه الوداع الأخير، كنت أتوسله في سريرتي أن يهرب، أن يرتدي طاقية الإخفاء حتى لا يراه رضوان الكلب. طبعتُ قبلة على جبينه وأخبرته بأنني سأجلب له القاموس.

عاد الأستاذ عبد الله إلى كرسيه منتظرًا.

توجهتُ إلى السيارة حيث رضوان وعيناي مغرورقتان بالدموع، وما إن شاهدني رضوان متوجهًا نحوه حتى ترجل من السيارة وتجاوزني حاملاً مسدسه الكاتم، وما إن وصلت كرسي القيادة واستويت جالسًا خلف المقود حتى سمعت ثلاث كلمات متشابهة بصوت صارخ مستغيث: «لا.. لا.. لا..». لم يكن صوت الأستاذ عبد الله الذي أعرفه جيدًا، ولا أعتقد أنه صوت السائق، فقد كان الصوت يصلني من الأعلى، تمامًا كصوت الرعد.

انطلقت بالسيارة ودموعي تنسكب بسخونة مؤلمة، قال رضوان دون أن أسأله: «سبع رصاصات حصة السيد المستشار، ورصاصتان حصة السائق».

أدرتُ المقود وعدت إلى سيارة الأستاذ عبد الله. توقفتُ عندها وقفزتُ من السيارة راكضًا صوبه، كنت على أمل أن أجده مصابًا وليس قتيلاً كي أسعفه، ولكن رضوان الكلب قد استهدف الرأس بشكل مباشر. نظرت صوب رضوان الذي لحق بي وكان إلى جانبي، فلطمته على وجهه لطمة غاضبة أسقطته أرضًا.

شممتُ رائحة زكية كانت تبعثها الدماء التي كانت تسيل من

رأس وجسد الأستاذ عبد الله، رائحة ذكّرتني بسورن كيركغارد، وابن رشد، وماركس، وسارتر، وعبد الرحمن بدوي، وديفيد هيوم، ونجيب محفوظ، وإمانويل كانط، وإخوان الصفا، وفولتير، والحلاج ... والأستاذ عدنان، وهيام، وفاتنة، وأمي حين كنت في السابعة من عمري.

تناولتُ نظارته وسلسلة مفاتيحه وقلمه الحبر وعدت إلى السيارة منهارًا. جلستُ في المقعد الخلفي طالبًا من رضوان المحمر الخد إثر صفعتي، تولّي قيادة السيارة مرة أخرى، ففعل.

❋ ❋ ❋

انقلبت الدنيا في البلد على إثر الخبر الذي كتبتهُ وبعثتهُ إلى وسائل الإعلام بعد موافقة السيد «الوزير»، والذي يشير إلى فاجعة اغتيال مستشار وزارة الثقافة الأستاذ عبد الله بمسدس كاتم، وتلكَ المعلومة الدقيقة كنت قد أصررتُ على تضمينها الخبر رغم اعتراض السيد «الوزير».

فتحتُ التلفاز وسمعتُ الخبر، فانهالت دموعي بغزارة وكأنني أفجع بخبر مفاجئ. يبدو أنني قد خرجت من هول الحادثة وعدتُ إلى إنسانيتي.

«ترى أي إنسانية أمتلك؟» سألت نفسي محتقرًا إياها.

بكيتُ بمرارة، ولم أكن أعلم بأنني أبكي نفسي، الروح

القـذرة التـي أحملهـا داخـل جسـدي. أغلـب الذيـن قتلتهـم كانـت لي مـبرراتي، أو أني لا أعرفهـم، ولكـن كيـف وقـد قتلـت الأسـتاذ عبـد الله، الـروح الجميلـة الشـفافة المثقفـة التـي أحببـت وجعلتهـا مثـالًا وقـدوة لي؟

هـل كان الأسـتاذ عبـد الله قـدوة لي بالفعـل؟ أشـك في ذلـك، فـأي قـدوة يتخذهـا قاتـل شريـر مـن عقـل مثقـف مفعـم بالإنسـانية، همُّـه الأعظـم أن يتقبـل أحدنـا الآخـر بمحبـة مهـما اختلفـت الأصـول والانتـماءات؟

البـكاء المـر عـزّز في عقـلي قناعـة مطلقـة بـأن روحـي لا تكتنـز سـوى الوسـاخة والإجـرام.

بعـد يومـين، وحـين حلّـتْ لحظـة التشـييع ووداع جثـمان الأسـتاذ عبـد الله، كنـت والأسـتاذ عدنـان وهيـام وفاتنـة وكوثـر وغسـان أول الواقفـين عـلى النعـش. كانـت هنـاك امـرأة سـتينية تنـدب الشـهيد بصـوت مبحـوح، كنـت أتلمـس كذبهـا وادعاءهـا، فقـد كنـت أعرفهـا جيـدًا، وكنـت أعـرف مقـدار المبلـغ الشـهري الـذي تتقاضـاه كـ«هديـة» شـهرية غـير مسـجلة رسـميًّا، مـن السـيد «الوزيـر». كانـت المـرأة أكثـر الحشـد بـكاءً وعويـلًا. أنـا أيضًـا كنـت أبكـي بمـرارة، حينهـا سـألت نفـسي: «هـل المـرأة تُشـبِهُني بـشيء مـا؟.. هـل لهـا علاقـة بمقتـل عبـد الله كـما هـي علاقتـي بالجريمـة؟».

التفـتُّ إلى الأسـتاذ عدنـان، فأرعبنـي منظـره. إنهـا المـرة الأولى التـي أراه فيهـا وقـد شـاخ ليصـل عمـر الشـيخوخة، وحـين شـعر عدنـان

406

بنظـراتي صوبـه، أدنـى رأسـه مني وقـال: «أخشـى أن تكـون ثقافـة هـذا البلـد قـد ماتـت بمـوت عبـد الله..».

كنـتُ أسـمع أصـوات المعابـد وأجراسـها تئـنّ كامـرأةٍ أنهكهـا المخـاض ومـات الجنـين في رحمهـا، تئـنّ وجعًـا جزعًـا لأنهـا عـلى يقـينٍ بأنهـا سـتلد جثـة.

407

21

إنها فترة الجحيم، ذلك ما أطلقته على تلك الفترة التي ازدادت فيها عمليات الاغتيالات، وازداد عدد ضحايا التفجيرات بالسيارات المفخّخة. ضباط وعلماء وأساتذة جامعات، نساء ومحلات لبيع الخمور، وحالات اختطاف عديدة. صحيح أن اليد الطولى كانت للتنظيم «الكبير» في تلك الأحداث، إلا أننا، أقصد مؤسستنا، كان لها حصة لا بأس بها، خصوصًا عمليات الاغتيال والاختطاف، كنا نودع المختطفين مستشفى العاصمة حيث يتولاها الدكتور واثق، ليصبح المختطَف جثة مجهولة الهوية بلا رأس، مرمية في أحد الأزقة أو أحد أماكن تجميع النفايات. صارت خلايانا الخمس تعمل بنشاط ليل نهار، ولم تكن ورشات التفخيخ أقل منها نشاطًا، وكنتُ أكتب على أثر أي عملية خبرًا أبعثه إلى وسائل الإعلام المختلفة، أحرص فيه على الإشارة إلى أن إحدى الجهات «الإرهابية» قد تبنتْ مسؤوليتها عن الحادث، بما فيها التنظيم «الكبير». الغريب، أنه ما من جهة من تلك الجهات التي أتهمها بادرت بتكذيب الخبر، أو نفي مسؤوليتها عن الحادث!

ازداد غضب الناس على الحكومة متهمةً إياها بالفساد والتهاون في ضبط الأمن، وازداد صراخ الفضائيات غير الموالية للسلطة بضرورة التغيير واستبدال الحكومة بأخرى تكون أكثر حرصًا على حياة المواطن، ولم يكن شاكر الشامي أقلهم صراخًا وتحريضًا على التظاهر. شاهدته على التلفاز وهو يحدد يومًا معينًا للخروج بتظاهرة عارمة، وقد حدد ساحة وسط العاصمة مكانًا للتجمهر. كانت هناك استجابة واضحة من قبل العديد من المنظمات والأشخاص لفكرة التظاهر، وذلك ما دفع بالحكومة إلى التفكير بشكل جدي في أخذ احتياطاتها، فخرج رئيس الحكومة على شاشة القناة الحكومية يحذّر الناس من خطورة التظاهر، مشيرًا إلى أن الجماعات الإرهابية ستندس بين المتظاهرين لتقوم بعمليات إرهابية من أجل اتهام الحكومة بتلك الأعمال. كان كلامه مرتبكًا، ولا يخلو من نبرة العجرفة والادّعاءات الكاذبة.

قبل يوم التظاهر بثلاثة أيام، هاتفني السيد «الوزير» طالبًا مني الاجتماع به حيث مكتبه، وعلى الفور توجهتُ إلى الوزارة، لأجد السيد «الوزير» خارج مكتبه يتمشى في الممر الطويل وحيدًا.

حين دخلنا المكتب وجلسنا متقابلين، سألني «الوزير»: «هل هناك إمكانية زرع سيارة مفخّخة وسط التظاهرة التي ستنطلق بعد ثلاثة أيام؟» شعرتُ بأنني أغور في بئر دم نتن الرائحة، وليست هناك أي فرصة أو منقذ يخرجني منه، فقلت دون تفكير مسبق:

«سيادة الوزير، هل يمكن لي التمتع بإجازة خارج الجحيم؟»

«هل تقصد خارج البلد؟»

«نعم، وهل هناك اسم آخر غير الجحيم يليق بهذا البلد؟» ضحكَ «الوزير» وطلب مني العودة إلى الموضوع الأساس الذي بسببه دعاني للاجتماع، مشيرًا إلى أن رغبتي في السفر بسيطة ويمكن تحقيقها في أي وقت، ثم قال متسائلًا:

«ما رأيك، هل يمكن زرع سيارة في المكان؟»

«ممكن جدًّا إذا تركناها مركونة قبل يوم من الموعد..».

«عظيم، عليكم مباشرة العمل من الآن..».

«سيادة الوزير، هل لي أن أسأل عن السبب؟»

«لا نريد أن يخرج السيد رئيس الوزراء بوجه كاذب أمام الشعب».

«فقط؟!» قلت مندهشًا.

«فقط». قال السيد «الوزير» ضاحكًا.

❋ ❋ ❋

في الليلة السابقة ليوم التظاهر، تم ركن السيارة المفخّخة من قبل إحدى الخلايا الخاصة بالتفخيخ وتحت إشراف رضوان، الذي سلَّمني جهاز التحكم بالتفجير خاليًا من بطاريته. استلمتُ الجهاز والبطارية منفصلين ودسستهما في جيبي، مشددًا

على رضوان بضرورة حضوره بمعية خلية واحدة للاغتيالات ليندسوا وسط التظاهرة.

السيارة مركونة في الجانب الشرقي من الساحة، وأنا أقف بالجانب الجنوبي. كانت المسافة التي تفصل بيننا قرابة المائتي متر. منذ قرابة الساعة، بدأت الأجساد البشرية تتوافد إلى الساحة، وقبل موعد انطلاق التظاهرة بنصف ساعة، امتلأت الساحة بالبشر، كان أكثرهم من الشباب، رجال ونساء، شابات وشباب وعجائز، كانوا يحملون لافتات أو أوراقًا كرتونية كُتبَ عليها شعارات أو مطالب بخط اليد.

على بعد خمسين مترًا مني، شاهدت رضوان ومجموعته يدخلون بين الحشود، ويبدو أنه أوصاهم بالابتعاد عن مكان السيارة بمسافة كافية.

كنت قد قررت بالاتفاق مع السيد «الوزير» ورضوان، أن أضغط على زر التفجير بعد نصف ساعة من بدء التظاهرة، إلا أنني شاهدت سيارة عسكرية قبل عشر دقائق من الوقت المحدد، وقد وقفتْ إلى جانب السيارة، وتوجه صوبها أحد الضباط، وما هي إلا دقائق معدودة حتى أعلن الضابط عن وجود سيارة مفخّخة. علتْ الأصوات تندد بالحكومة ورئيس وزرائها، وتتهمه بمحاولة إرعاب أو قتل المتظاهرين. تم سحب السيارة إلى مكان بعيد لم أتبينه في حينها.

هاتفتُ السيد «الوزير» وأخبرته بما حدث، وما إن أنهيت كلامي حتى سمعت قهقهاته. صار يضحك بعمق مما أغاظني، فقد شعرت بأنه يسخر مني ومن مجموعتي. أغلقتُ الهاتف وبقيتُ واقفًا ساهمًا وأنا أنظر صوب الحشود. كنت أشاهد أفواههم مفتوحة تصرخ بشيء ما، ولكنني لم أكن أسمع شيئًا حتى انتبهت إلى مجموعة الشباب التي تحيطني، لأشاهد رجلاً بنظارة طبيّة، لفتَ انتباهي، كان يرتدي بدلة زرقاء داكنة وربطة عنق حمراء بان لونها صارخًا وهي تنسدل على قميصه الأبيض، وكان شعره قد صُفِّفَ بطريقة مبالغ فيها، أظن أنه قد استخدم بعض الدهون لذلك الغرض، حتى حذاؤه، كان نظيفًا لامعًا. «ترى هل الرجل جاء ليشارك المتظاهرين مطالبهم بالفعل؟» سألت نفسي وأنا أحاول الاقتراب منه.

صرتُ لصقه، وسألته عن سبب التحشد العسكري في وجه متظاهرين عزّل، فقال بلغة فصحى، إنه تصرف يعكس خوف الحكومة وجبنها، وأضاف: «حكومة جبانة تريد إرعاب الناس بمنظر عساكرها الذين يشكون وعوائلهم من الجوع والعوز، وبسيارة مفخّخة تزرعها وسط المتظاهرين لتقول إن الأعداء يستهدفونهم حتى تتسع الهوة بين الحكومة وشعبها.. أي حكومة مجرمة ابتلينا بها؟»

سألته عن اختصاصه، فقال بأنه شاعر، وحين سألته عن سر وقفته المنزوية بدلًا من الانضمام إلى المتظاهرين، قال بزهو واضح: «قادة التظاهرة عليهم التوجيه والمراقبة، وليس المشاركة!»

413

توصلتُ من خلال حدسي، وما تلمسته من كلامه، بأنه رجل فارغ يدعي الثقافة، انتهازي، يريد أن يغتنم أي مكسب من خلال تنصيب نفسه أحد قادة التظاهرة، وحين نظرت صوب المتظاهرين شاهدت «شاكر الشامي» على المنصّة وهو يصرخ بأعلى صوته مطالبًا بإسقاط الحكومة المجرمة التي اغتالت العقول العلمية والثقافية المهمة في البلد.

التفتُّ إلى الشاعر مادًّا يدي لأصافحه مودعًا، وقد ادعيت بأن علي التوجه صوب زملائي لأشاركهم التظاهرة، وقلت له بأن اسمي عيسى، وانتظرت ماسكًا كفه حتى يفصح عن اسمه، فقال: «الشاعر زاهي الوردي».

انسحبتُ من بين الجموع وخرجتُ قاطعًا بعض الأزقة لأصل سيارتي التي ركنتها بعيدًا.

وصلت المؤسسة متأخرًا، فقد زرت كوثر في شقتها على إثر مكالمة طلَبتْ مني فيها زيارتها، لتخبرني بأنها اتفقت مع حبيبها على تاريخ معين لزواجهما، وتريد مني أن أكون شاهدًا على العقد. باركتُ لها وطبعتُ قبلة على جبينها، وبعد أن شربت الكأس الثانية التي قدّمتها لي بكل حب، صعدتُ إلى الطابق الرابع حيث المؤسسة.

فتحت التلفاز لأتابع أخبار التظاهرات التي انتهتْ منذ ثلاث ساعات، لأشاهد شخصيتين من شخصيات الحكومة، الأولى عسكرية من بقايا النظام السابق، والثانية متهمة بالفساد المالي والأخلاقي، وقد جلسا وسط ساحة التظاهر التي بانت خالية،

يتوسطهما مقدم برامج معروف بولائه للحكومة. كانت حركة استفزازية مؤلمة بالنسبة للمتظاهرين.

كنت أستمع إلى البرنامج المستفز حين سمعت إشارة من هاتفي تخبرني بوصول رسالة نصية. فتحت الرسالة فوجدتها مشفرة، وعلى الفور نزلت حيث طابق الأرشيف، وأخرجت رواية «حفلة التيس» لأفك الشيفرة وأعرف أن أمرًا قد صدر باغتيال شاكر الشامي. ضحكتُ كثيرًا، فذلكَ الانتهازي كان شبه متأكد من إنه سيحتل منصبًا مرموقًا في الدولة نتيجة صراخه، ولكنه لن يحصل إلا على رصاصة ربما تستقر في إحدى عينيه.

بعثتُ برسالة نصيّة إلى رضوان أطلب منه اختيار شخصية مثقفة من بين أفراد الخلايا التي تأتمر بأمرنا.

في صبيحة اليوم التالي، أخبرني رضوان حالما وصل المؤسسة، بأن الشاب الذي طلبته في رسالة ليلة أمس ينتظرنا في مقهى «الزيزفون»، فخرجنا متوجهين صوب المقهى الذي أعرفه بنخلاته الثلاث التي تميزه، وباحته الواسعة التي ينتشر بين زواياها ضوء النهار بكل حرية.

وجدته شابًّا يمتلك ثقافة سطحية، يحفظ العناوين والأسماء، ودائماً ما يتحدث عن القرن الثامن عشر على أنه القرن الذي نهض بالعالم صوب التحضّر والتمدن والتطور العلمي. كان يحفظ التواريخ والأسماء بشكل جيد. وحين سألته إن كان على معرفة بشاكر الشامي، ارتبك وبانت عليه علامات الحيرة وسكت.

استفسرت منه عن سبب سكوته، فسألني عن القصد من وراء سؤالي. قلت له مبتسماً: «لأنكَ ستقوم باغتياله مساء الغد. ضحكَ ودعكَ فخذيه براحتيه، وقال:

«بسيطة.. كنت أحسبها تهمة توجهها إليَّ..». أثارتْ كلماته ضحكي، وسمعتُ قهقهات رضوان، وانتهى اللقاء بالاتفاق على خطة التنفيذ.

عند الساعة السادسة مساءً من اليوم التالي، زرت شاكر الشامي في بيته على إثر مكالمة تلفونية أجريتها معه لأسأله إن كان لديه الوقت لاستقبالي، فوافق.

حين صرتُ جالسًا على الأريكة حيث صالة البيت سألني ضاحكًا: «هل تأكل شيئًا، أم تكتفي بكأس شاي أعددته للتو؟» ضحكتُ أنا أيضًا لإشارته الواضحة بأن لا أكل يتوفر في مطبخه، وأنَّ عليَّ اختيار الشاي مجبرًا، فاخترت الشاي وصرنا نضحك أكثر.

جلَس شاكر قبالتي وسألني عن رأيي في كلمة رئيس الوزراء الذي ظهر على شاشة التلفاز الرسمي، والتي أشار فيها إلى أهمية ما كان قد حذر منه، وما عثور السلطات الأمنية على السيارة المفخّخة إلاّ دليل قاطع على ما كان قد أشار، فقلت له وكأنني على يقين، وكنت صادقًا، كوني تحدثت مع السيد «الوزير» بخصوص تلك اللعبة: «أنا على يقين بأن الحكومة هي من زرع السيارة في الساحة، وأنها هي من قامت باكتشافها المزعوم وأخلتها إلى مكان بعيد..». وحين سألني عن كيفية توصلي لذلك الاستنتاج، قلت له موضحًا بأن كل سيارة مفخّخة لا بد وأن يكون

هنـاك شـخص مختبئ في مـكان مـا يحمـل بيـده جهـاز التحكـم، وكان بإمـكان الشـخص المسـؤول عـن تفجيرهـا أن يكبـس زر التفجـير حـال وصـول الجنود قربهـا، فهـي ليسـت سيارة يقودهـا انتحـاري تـم الإمسـاك بـه.

دعـكَ الشـامي خصـلات شـعره وقـال بـأن الاسـتنتاج مقنـع جـدًّا، وأنـه سـيكتب الملاحظـة ويجعلهـا المـادة الرئيسـة لحلقـة الغـد.

«هل أعتبر هذه سرقة علنية لأفكاري؟» قلت ضاحكًا.

فأجابنـي شـاكر وهـو يضحـك أيضًـا، بـأن الفكـرة أكثـر مـن عظيمة، وإنـه سـيضمنها البرنامـج حتـماً، وإذا أحببـتُ فسـيقول بأنهـا فكـرتي ويذكـر اسـمي في بدايـة البرنامـج، فقلـت لـه بـأن الفكـرة حـلال عليـه، وأنـا متنـازل عنهـا مقابـل عـدم ذكـر اسـمي؛ لأنني لا أريـد أن ينتبـه لي أحـد مـن رجـال السـلطة، لأنني بـكل تأكيـد سـأكون مـشروع شـهيد.

ضحـكَ شـاكر وسـألني إن كنـتُ أراه مشروعًـا لشـهيد، فقلـت لـه بأننـي أحسـده عـلى شـجاعته، ولـو كنـت رجـلاً صاحـب قـرار لمنحتـه منصبًـا مهـماًّ وكسـبته لجانبـي، فقـال: «حمـير.. لا يفهمـون.. والله لـو منحـوني المنصـب الـذي أريـد، لأكـون جنديًّـا مدافعًـا عنهـم بـكل إخـلاص..»، فقلـت مقاطعًـا كلامـه الـذي أزعجنـي بانتهازيتـه:

«صديقـي، لقـد أتيتـكَ لأناقـش معـك فكـرة الاسـتمرار في التظاهـرات، وفي المرة القادمـة أجـد أن مـن المهـم مطالبـة أعضـاء مجلس النـواب بالانضـمام إلى المتظاهريـن إن كانـوا بالفعـل يمثلـون الشـعب، أو مَـن انتخبهـم عـلى أقـل تقديـر، فـما رأيـك بهـذا؟» صفّـق ووقـف فرحًـا وهـو يتغـزل بالفكـرة وقـال:

«لماذا لا تأتي يوميًّا إليَّ، فكل كلمة منك تعد مادة دسمة لحلقة كاملة من برنامجي.. يا صديقي أنت كنز، ولم يكن الشهيد عبد الله مخطئًا حين أطلق عليك لقب الفيلسوف الشاب..».

دوَّنَ شاكر الفكرتين على ورقة، وكنت أداعب ملعقة الشاي بين أصابعي حين سألني إن كنت أرغب بالمزيد من الشاي، فأشرت إلى إعجابي بالملعقة، وسألته إن كان بالإمكان الاحتفاظ بها كذكرى، فوافق ضاحكًا، ثم أخبرته وأنا أدس الملعقة في جيبي، بأن وقت زيارتي قد انتهى، وأنني مرتبط بموعد مع إحدى الجميلات، فقال إن كل المواعيد يمكن تأجيلها إلا موعد الحب، وطلب مني راجيًا تكرار الزيارة.

خرجتُ من بيت شاكر الذي أراد أن يرافقني إلى الباب، ولكني رفضت، وطلبتُ منه البقاء جالسًا لأنني أعرف طريقي، مؤكدًا له بأنني سأوصد الباب جيدًا ورائي، فودعني وعاد جالسًا حيث الأريكة.

حين خرجتُ تركت الباب مواربًا، وما إن وصلت سيارتي حتى أشرت إلى الشاب الذي كان يحتل حوضها الخلفي بالشروع في تنفيذ المهمة حسب الخطة التي رسمتها له.

جلستُ خلف المقود، وتوجه الشاب صوب هدفه، وما هي إلا دقيقتان حتى خرج مبتسماً.

418

جلس إلى جانبي وأشار بانتهاء المهمة كما يجب، فانطلقتُ بسيارتي صوب مطعم فاخر على ضفة النهر.

❋ ❋ ❋

عينا أمي تراقبانني وأنا أحدّق إليها حيث النهر. كنت أمضغ الذكريات المملحة بالدموع، هناك حيث وسط النهر كانت أمي تقف عارية العينين، فصار النهر لألأة عيون فقط.

❋ ❋ ❋

كان تشييعًا مهيبًا، ذلك الذي حظيَ به جثمان شاكر الشامي، والغريب أن السيد «الوزير» قد حضر التشييع، وقد كلَّفَ أفراد حمايته بحماية النعش. ثمانية من رجاله يحيطون السيارة الحاملة للنعش. لم أكن أدرك سرّ تلك الحركة، ولا يمكنني تفسيرها إلا لكونه صاحب قرار الاغتيال. كان منظر الرجال الثمانية مضحكًا جدًّا وهم يتلفتون يمينًا وشمالًا وكأن شاكر الشامي يجلس أعلى السيارة تدب فيه الروح، ملوحًا للحشود، وهم يخشون عليه من الاغتيال.

وقف الشاعر زاهي الوردي أمام النعش، أزاح نظارته الطبيّة عن عينيه، وراح ينظر في الورقة التي بين يديه، حينها تأكدتُ بأن عينيه ليستا بحاجة إلى النظارة، بل روحه المدّعية. ألقى الوردي قصيدته التي اتهم فيها الحكومة بجريمة الاغتيال. كان يلقي قصيدته

بصوته الذي يقترب من الصوت النسائي، ويشير بيده نحو بعض من رجال الدولة، موجهًا إليهم الاتهام، وما إن انتهى من إلقاء قصيدته حتى قلت لنفسي مبتسماً: «انتهازي يرثي انتهازي!»

بعد انتهاء مراسم التشييع وافتضاض المشيعين، توجهتُ صوب أحد محال بيع الهواتف النقالة واشتريت جهازًا جديدًا مع رقم خاص به. أجرى الشاب صاحب المحل كل ما يلزم لجعل الهاتف صالحًا للاستعمال، ثم أعاده إلى علبته التي حملتها وتوجهتُ نحو سيارتي.

حين وصلت المؤسسة، كانت هناك نصف ساعة فقط لانتهاء ساعات عمل فاتنة. طلبتُ منها حمل ما أعدته من طعام، لأنني راغب في تناول غدائي مع نشوان. ابتسمتْ وقالتْ: «كنت أظنكَ قد نسيت وعدكَ له بالزيارة».

«لم يزر النسيان ذاكرتي بعد..». قلت لها ملوحًا بالعلبة، وحين سألتني عنها، أخبرتها بأنها هديتي لنشوان.

احتضنني نشوان طويلاً، حتى شعرت بلوعة افتقاد الأب تتغلغل إلى روحي. قبّلته وقلت هاربًا من ذلك الشعور القاسي، بأن علينا تناول طعامنا، فالشعور بالجوع يكاد يفتك بي.

كانت نظرات نشوان متسمرة على العلبة ونحن نتناول الطعام. مدَّ يده صوب العلبة وراحت أصابعه تداعبها. كان ينظر إليَّ وهو يمضغ الطعام، ثم يحوّل نظره صوب العلبة سريعًا. كنتُ وفاتنة نتبادل الابتسامات، حتى نفد صبره وأعلن الشبع بعد ثلاث لقيمات. طلَبتْ منه فاتنة أن يعدّ لنا الشاي، فقال:

420

«لا مامـا، الشـاي مـن يـدكِ ألـذّ وأشـهى..». لم أتمالـك نفـسي، فانفجرتُ ضاحـكًا، وقلـت لـه بأنني سـأعطيه العلبـة كـي يتفحـص مـا بداخلهـا شريطـة أن يعـود لـلأكل، فوافـق. مسـك العلبـة وقـال:

«ماما فاتن، هل تعرفين ما بداخلها؟» فقلت له:

«اسـمها مامـا فاتنـة. فاتنـة هـو الأصـح..»، وطلبـت منـه ترديـد الاسـم عـدة مـرات، ففعـل، وهـو يحـاول إزالـة غـلاف العلبـة.

وقـفَ نشـوان مندهشًـا، وهـو يسـأل: «لمـن هـذا التلفـون؟.. لمـن؟»، فقلـت لـه: «إنـه لـكَ يـا عزيـزي، لقـد اشـتريته لـك هديـة لأنـك شـاب مهـذب ومطيـع..». احتضنني وهـو يـردد كلـمات الشـكر. قبَّلني مـرات عديـدة وبـين قبلـة وأخـرى كان ينظـر إلى الهاتـف ويتلمسـه.

الدهشـة أصابـت فاتنـة أيضًـا، وقالـت متسـائلة إن كان الوقـت مبكـرًا عـلى نشـوان حتـى يحصـل عـلى هاتـف نقّـال، فقلـت لهـا بأنـه أصبـح شـابًّا، وأن هنـاك صبيانًـا أقـل منـه عمـرًا يمتلكـون الهاتـف النقـال منـذ زمـن، فصـاح نشـوان:

«هـل تعـرف بأنني أعـرف كل شيء بهـذا الهاتـف، حتـى أصدقائـي في المدرسـة يسـألونني أحيانًـا عـن بعـض الأشـياء في هواتفهـم».

نظـرتُ صـوب فاتنـة، مشـيرًا إلى إعجـابي بنشـوان وقلـت لهـا: «لا مسـتوى وسـطيًا في هـذا الجيـل، إمـا أن يكـون ذكيًّـا متفوقًـا، أو أميًّـا ركيـك المعرفـة والرغبـة في التعلُّـم». هـزّت رأسـها موافقـة، ووقفـتْ معلنـة أهميـة عمـل الشـاي بعـد وجبـة الطعـام الفاخـرة، حسـب تعبيرهـا.

أمليتُ على نشوان رقم هاتفي، وطلبتُ منه الاتصال بي، وما إن رنَّ هاتفي وشاهدت الرقم حتى قمتُ بخزنه، ثم طلَبت منه أن يُخزّن رقمي تحت اسم «عمو» فقط، سألتني عيناه عن السبب، فأجبتُه بحركة من رأسي وعيني، فاقتنع، وفعلها.

422

22

مـن دون أن يعلـم أحـد مـن داخـل المؤسسـة، كان السـيد «الوزيـر» ومنـذ سـنتين تقريبًـا يـشرف عـلى إنشـاء بنايـة ضخمـة قريبـة بعـض الـشيء مـن مبنـى الـوزارة. عرفـتُ ذلـك حـين التقيـتُ العـم «عـلي» الـذي دعـاني إلى وجبـة سـمك فاخـرة في بيتـه. يبـدو أن السـيد «الوزيـر» يريـد مـن البنايـة الجديـدة أن تكـون البديـل الأمثـل للمؤسسـة التـي أديرهـا، ولكـن لمـاذا لم يخـبرني بفكرتـه إن كانـت تخـص المؤسسـة؟

سـمك شـهي، كنـا نتناولـه عـلى مائـدة العـم «عـلي» وعائلتـه. كنـا مُتحلِّقـين حـولَ طاولـة كبـيرة تتسـع لأكثـر مـن عـشرة أشـخاص، وسـط صالـة كبـيرة لافتـة للنظـر بوسـعها وأثاثهـا. تذكـرتُ حينهـا البيـت الشـعبي الـذي كان يسـكنه، وكيـف أنـه كان يحتمـي بالجـيران وأبنـاء الزقـاق، لكنـه الآن يحتمـي بأكثـر مـن ثلاثـين شـخصًا كأفـراد حمايـة خاصـة بـه.

سـألني إن كنـت أنـوي الـزواج. أثـار سـؤاله سـخريتي وضحكـتُ بصـوت عـالٍ مـع احتفاظـي باحترامـي لهيبتـه، ثـم لاحظـت أن ابنتـه الكـبرى كانـت تنظـر إليَّ مبتسـمة، فراودتنـي الشـكوك، وحاولـتُ تغيـير الموضـوع، إلا أن هاتفـي كان المنقـذ في تلـك اللحظـة.

423

كانت رسالة قصيرة جدًّا من السيد «الوزير»: «عند الرابعة عصرًا نلتقي.. مهم».

ما إن انتهيت من شرب الشاي حتى أعلنت ضرورة مغادرتي، وحين سألني العم «علي» عن السبب، قلت: «السيد الوزير». ففهم الإشارة وودعني حتى باب قصره المزدان بحارسين يقفان على جانبيه بكامل ملابسهم العسكرية «الأنيقة».

شعرتُ وأنا أجلس في مكتب السيد «الوزير» بأنه، ومنذ نصف ساعة تقريبًا، يتحدث ويسأل عن مواضيع لا أهمية لها. يبدو أن هناك موضوعًا أو «قنبلة موضوع» يريد تفجيرها بوجهي. شرَح لي كيف أن ملف صديقي عطا الفنان صار يجني ثماره، فهناك الكثير من القرارات والتوصيات كانت كتلة السيد رئيس مجلس النواب تعارضها، ولكنها وافقت عليها بعد الكشف عن الملف الذي أعدّته فاتنة سابقًا، وأجرى عليه السيد «الوزير» وكتلته بعض التعديلات، لتصبّ في مصلحتهم، ثم سألني إن كان صديقي الفنان ينوي العودة إلى وطنه؟ لم أُجبه بشيء ذي أهمية لكوني لا أعرف عن الأمر شيئًا، وحين سألته عما يفكر به، قال بأن عليَّ إخباره إن عاد صديقي إلى وطنه. ضحكتُ وقابلني سيادته بضحكة مماثلة، حيث فهم ما غمزتْ إليه ضحكتي، فالسيد «الوزير» يستطيع معرفة وصول عطا إلى العاصمة منذ الدقيقة الأولى التي تلامس فيها قدماه أرض المطار.

سحبَ السيد «الوزير» ورقة كانت أمامه وسلّمني إياها، قَلَّبتُ

الورقـة لأشـاهد صـورة لرجـل يحتـل كرسـيًّا وسـط دكان متواضـع. ابتسـمتُ وسـألته عـن موضوعهـا، فقـال:

«اغتياله».

«الواضـح مـن الصـورة أن الرجـل مسـكين.. فلـماذا القـرار بالاغتيـال؟»

«إنـه مخبرنـا السـرّي، الـذي اكتشـفنا عـن طريقـه العديـد ممـن يعملـون ضدنـا، ومؤخـرًا، وعـن طريقـه أيضًـا، أودعنـا شـخصية إعلاميـة مهمـة السـجن، ومـن ثـم القـبر. الرجـل أدلى بشـهادة مـزورة تصـب في مصلحتنـا، وإن بقـي عـلى قيـد الحيـاة فربـما يغـير أقوالـه تحت أي ظـرف، فعائلـة المغـدور قـررت إقامـة دعـوة ضدنـا، أقصـد الـوزارة؛ لـذا وجـب التخلـص منـه..»، ثـم ذكـر لي اسـم الشـارع والمنطقـة التـي يوجـد فيهـا دكانـه، واقـترح أن نجهّـز لـه سـيارة مفخّخـة لتكـون فيهـا نهايتـه، فقلـت: «السـيارة المفخّخـة تكلفنـا الكثـير، إضافـة إلى بعـض الضحايـا الأبريـاء الذيـن سـيذهبون لملاقـاة ربهـم دون سـبب، فـما رأيـك أن أقبـض عليـه مـن خـلال دوريـة شرطـة كاذبـة، ونسـلمه إلى الدكتـور واثـق؟»

لم تـرق لـه الفكـرة، وقـال بـأن التفجـير لـه فوائـده أيضًـا، فمـن خلالـه، والضجـة الإعلاميـة التـي سـيُحدثها، سـتقوم الـوزارة بـشراء أجهـزة حديثـة لكشـف السـيارات المفخّخـة، وهـذا مـن شـأنه أن يـدرّ الملايـين لحسـاب كتلتـه.

رجوتـه أن يعـدل عـن قـراره، ليـس حبًّـا بالرجـل، فهـو سـيموت

حتماً، ولكنني كرهت منظر الدم والأوصال البشرية المنتشرة على الأسفلت بعد كل عملية تفجير، فقلت له راجيًا: «هذه المرة فقط، أرجو أن تلبي طلبي، فما عارضتكَ يومًا ولا طلبتُ من سيادتكَ أمرًا مشابهًا من قبل..».

«طيب، لكَ ما تريد، ولكن هل يوم واحد يكون كافيًا للخلاص من الرجل؟»

قلت له بأن ساعات قليلة كافية ليكون الرجل بين يدي من لا يرحم. ضحكَ وهو يرفع سماعة الهاتف الداخلي ليطلب فنجاني قهوة مع ماء معدني، وما إن أعاد السماعة إلى مكانها حتى نظر إليَّ وهو يدعك راحتيه، فقلت سرًّا: «ها قد وصلنا إلى الموضوع الرئيسي»، فقال:

«أنتَ تعرف بأن السيد الرئيس موجود الآن في إحدى الدول الأوروبية لغرض العلاج؟»

هززت رأسي موافقًا، فقال: «السيد الرئيس يطلبكَ بالاسم لتكون ضيفًا عليه لمدة ثلاثة أيام، فما رأيك؟»

لاحظ اندهاشي دون أن أتفوه بكلمة واحدة، فأضاف: «ألم تطلب مني سابقًا إجازة تقضيها خارج الجحيم، حسب تعبيرك؟» أومأت برأسي موافقًا وأنا محتفظ بدهشتي، فقال بأن الفرصة قد أتتني على طبق من ذهب، فقلت له مبتسماً:

«لطالما حلمت بزيارة البلد الذي يوجد على أرضه السيد الرئيس، وأتمنى السفر إليه الآن إن كان ممكنًا..»، ثم رحت أشرح له

أهميـة البلـد الـذي يسـتضيف أحـد مستشـفياته رئيـس دولتنـا، خصوصًـا الثقافيـة والفنيـة، وتأثـيرات الفلاسـفة في أغلـب شـعوب العـالم. كان يسـتمع إليَّ بمتعـة اسـتطعت قراءتهـا في ملامحـه، وحـين شـعر بـأن الوقت قـد أزف، قـال مقاطعًـا:

«مـن أيـن لـكَ هـذه الأفـكار الخطـيرة سـيادة اللـواء؟» ضحكـت وقلـت لـه بـأن لقـب دكتـور أجمـل، فوافقنـي وأعـاد عـلي سـؤاله الـذي ختمـه بـ«سـيادة الدكتـور». خرجـتِ العبـارة مـن فمـه مضحكـة جـدًّا، ولم أتمالـك نفـسي حينهـا، فأطلقـت ضحكـة عارمـة أدخلـت السـيد «الوزيـر» بنوبـة ضحـك اسـتغرقت بضـع دقائـق حتـى دمعـت عينـاه.

وأنـا أصافـح السـيد «الوزيـر» مودعًـا، سـألته: «سـيادة «الوزيـر»، كيـف توصـل «عمنـا» الرئيـس إلى معرفتـي؟»

ابتسـم سـيادته رغـم أني تلمسـتُ مسـحة حـزن مباغتـة ارتسـمت عـلى ملامحـه، وقـال: «حـين تعـود سـالمًا، سـأخبرك بالتفاصيـل. لا أريـد تشـويش ذهنـكَ بتفاصيـل صغـيرة..».

مبـاشرة، وبعـد خروجـي مـن الـوزارة، هاتفـتُ غسـان ورضـوان وطلبـتُ منهـما انتظـاري حيـث الشـارع الـذي يضـم دكان الرجـل الـذي ظننتـه مسـكينًا. هاتفـت الدكتـور واثـق وأخبرتـه بالبضاعـة التـي سـتصله قريبًـا، فوافـق، إلا أننـي قـرأت بعـض الحـزن في نبرتـه.

لم نلـق أي صعوبـة في عمليـة اختطـاف الرجـل. دخلنـا نحـن الثلاثـة إلى دكانـه، وأظهـر لـه غسـان هويتـه التـي تحمـل رتبـة مـلازم في الشرطـة، ثـم أخـبره بأنـه مـن الشرطـة الجنائيـة، وأن هنـاك شـخصًا يدّعـي بأنـكَ قتلـت ابنتـه، وأن جثـة الفتـاة موجـودة في مستشـفى العاصمـة.

ارتبك الرجل وتغيّر لونه، ثم نفى عن نفسه التهمة وهو يقسم بكل مقدس، وحين ازدادت حدة صوته وأراد الصراخ مستنجدًا بالمارة، طلبَ منه رضوان أن يهدأ، وقال له مطمئنًا:

«نحن على يقين بأن الرجل يكذب، وأنك بريء من التهمة، بل لدينا الدليل الذي يتهمه هو بقتل ابنته؛ لذا نريد منكَ مواجهته فقط، وسأقوم أنا بإعادتك إلى محلك». وافق الرجل، ولكن على مضض، كان مرتابًا منا، وكان ينظر إليَّ بريبة واضحة، فقد كنتُ صامتًا طوال الوقت.

حين دخلنا غرفة الدكتور واثق، صار الرجل يرتجف، ويبدو أنه شعر بادّعائنا الكاذب، وصار يهذي بكلماتٍ غير مفهومة، حينها عاجله الدكتور واثق بإبرة مخدِّر كان قد جهزها قبل ذلك، طرحتهُ أرضًا بعد أقل من دقيقتين.

لم أغادر غرفة العمليات أو غرفة «التفصيخ» إلا بعد أن تأكدت من توقف قلب الرجل. خرجتُ حاملًا كيسًا بلاستيكيًّا صغيرًا جمع فيه واثق كل ما كان بحوزة الرجل من أشياء، ثم رحت مهاتفًا السيد «الوزير» لأُبشّره بانتهاء العملية على أكمل وجه. شكَرني وطلَب مني أن أجهّز نفسي للسفر قريبًا، وأن تأشيرة الدخول ستكون جاهزة بعد يومين فقط. سألته إن كان مسموحًا لي إخراج بعض المال من المطار، فأخبرني بأنني لن أخضع للتفتيش، ويمكنني إخراج أي مبلغ أقرره.

23

عنـد بدايـة الصبـاح، كنـت جالسًـا عنـد حافـة النهـر، أغمـس أصابعـي في مائـه، أداعبـه وكأنني أداعـب شـعر أختـي أو وجنـة أمـي، ثـم أغـترف في كفـي مـن مائـه، أقبّلـه وأشـمه، كأننـي أشـم رقبـة أمـي التـي صرت أتحـدث لهـا عـن سـفري، فقـد جئـت مودعًـا لهـا كـوني -ولأول مـرة- سـأكون عـلى متـن طائـرة بعـد سـويعات قليلـة.

وقفـتُ ناظـرًا صـوب امتـداد النهـر. فكـرت مبتسـماً: «كـم جميـل أن تكـون أمـكَ نهـرًا!»

أوصلنـي غسـان إلى المطـار ودخـل معـي صالـة المغادريـن. إنهـا المـرة الأولى التـي سـأركب فيهـا طائـرة. كان شـعورًا خاصًـا، وللمـرة الأولى أيضًـا أعـرف أن ركاب الدرجـة الأولى يدخلـون مـن بـاب خـاص إلى صالـة المغـادرة.

نظَـر موظـف الجـوازات في وثيقـة سـفري وقـال: «تفضـل دكتـور، إلى المدخـل الخـاص بـركاب الدرجـة الأولى». فاجأتنـي كلماتـه؛ لأننـي أعـرف جيـدًا أن لقـب دكتـور غـير مـدوّن في جـوازي، فمـن أيـن عـرف الموظـف المسـكين «درجتـي العلميـة»؟

429

كل الإجابات باتت واضحة حين شاهدت أمامي، حيث صالة المغادرة الخاصة بالدرجة الأولى، سيادة «الوزير» واقفًا وهو يبتسم لي. نظرتُ صوب غسان ووجدته مبتسماً هو الآخر. عرفتُ بأن هناك اتفاقًا مسبقًا بين «الوزير» وغسان يقتضي إيصالي حتى باب الطائرة.

كان أربعة رجال بملابسهم المدنية الأنيقة يقفون خلف السيد «الوزير» بمسافة تقترب من الخمسة أمتار، وكان يقف إلى جانبه رجل لم أتعرَّف عليه من قبل. تقدّم «الوزير» نحوي وتبعه الشخص الذي معه، صافحني مرحبًا والتفتَ إلى الشخص الذي يرافقه وقدّمه لي بصفته مديرًا عامًّا للمطار، ثم قدّمني له «الدكتور مرهون.. مستشار وزارة الداخلية». صافحني الرجل بكل تهذيب، ثم سحبني «الوزير» جانبًا وسلّمني حقيبة يد صغيرة، قال بأنه مصروف جيب بمثابة هدية صغيرة منه، وطلب مني أن أتمتع قدر المستطاع، كون القادم من المهمات يتطلب جهدًا عاليًا. ابتسمتُ له وشكرته، وسألته عن الذي سيستقبلني حين الوصول إلى هناك، فقال إن كل الأمور تحت السيطرة، وشدد عليَّ أن أبقى جالسًا في الطائرة لحين صعود شخص معين سينادي علي بالاسم، يصطحبني إلى مكان إقامتي، ثم ربَّتَ على كتفي وقال مبتسماً: «لقد جعلتها أسبوعًا بدلًا من ثلاثة أيام.. رافقتك السلامة أيها البطل»، وما إن خطا خطوتين مبتعدًا عني حتى عاد ليهمس في أذني: «عليكَ فتح حساب بنكي هناك من أجل تسهيل تأشيرة الدخول في المرات القادمة.. أراك بخير».

أشـار السـيد «الوزيـر» إلى أحـد مرافقيـه أن يصطحبنـي حيـث الطائـرة. هَـمَّ الرجـل مسرعًـا وأراد أن يحمـل عنـي حقيبتـي اليدويـة، فرفضـت بـكل أدب وقلـت لـه بأنني أفضّـل حملها بنفسي. امتثـل الرجـل لرغبتـي ورافقني حيث قلب الطائـرة والكـرسي المخصص لي، ثـم ودّعنـي بـكل أدب وهـو يتمنـى لي سـلامة الوصـول.

* * *

جـرت الأمـور كما خُطـط لهـا، بقيـت جالسًـا في مـكاني داخـل الطائـرة، ومـا إن نـزل جميـع الـركاب حتى اقـترب مني شـاب وسـيم، فـارع الطول، مفتـول العضـلات، حليـق الـرأس، وقـال بـأدب واضـح: «تحيـاتي دكتـور مرهـون.. أهـلاً بـك وحمـدًا لله عـلى سـلامة الوصـول.. تفضـل من هنـا..». رافقتـه خارجين مـن الطائـرة، وقـد طلَـب مني جـواز سـفري فأعطيتـه له.

مشـينا قرابـة العشريـن مـترًا، وكان هنـاك شـاب آخـر ينتظـر. سـلَّم مرافقـي جـواز سـفري إلى الشـاب دون أن يقـول كلمـة. تجاوزنـاه ودخلنا بهـوًا واسـعًا، ليسـألني إن كنـت راغبًـا في فنجـان قهـوة، فشـكرته موافقًا.

أخـبرني مرافقـي ونحـن نـشرب قهوتنـا بـأن تأشـيرة الدخـول المثبتـة عـلى جـواز سـفري سـارية المفعـول لمـدة ثلاثـة أشـهر، حيـث يمكنني العـودة إلى البلـد بعـد مغـادرتي لـه متـى شـئت، ولكـن قبـل انتهـاء المـدة. شـكرته وأخبرتـه بـأن هنـاك مـن شرح لي الأمـر مـن قبـل، ثـم سـألته عـن طبيعـة الجـو الخـاص بالبلـد، فـراح يـشرح لي طبيعـة الفصـول الأربعـة وعـلى مـدار السـنة.

431

في طريقنا إلى مكان إقامتي، كما أخبرني مرافقي الذي كان جالسًا إلى جانبي، بينما رفيقه الذي أخذ جواز سفري في المطار وأعاده إليَّ بعد عشر دقائق كان يقود السيارة الحديثة. كنت أستمع إلى الشاب وأنا أنظر من خلال الزجاج إلى عمران وشوارع وتماثيل ويافطات خُيِّلَ إليَّ بأنني رأيتها من قبل، ثم انتبهت إلى أن الروايات التي قرأتها والعديد من الصور والأخبار والخرائط، وكل ما عرفته عن البلد العريق فنيًّا وثقافيًّا، منذ أن حدثني عنه صديقي عماد الذي بعثتهُ مخدّرًا إلى حتفه، قد كوَّن في مخيلتي صورة تطابق الواقع. تأكدتُ من خلالها بأنني بالفعل أعشق البلد.

توقَّفَ الشاب بسيارته عند إحدى البنايات بعد أن دخل شارعًا واسعًا، كانت نظافته لافتة للنظر. أخبرني الشاب الذي يجلس إلى جانبي بأننا قد وصَلنا الشقة المحجوزة باسمي لمدة شهر كامل، ابتسمتُ له وقلت بأن سفرتي تمتد لأسبوع واحد فقط، فلماذا الشهر؟ قال: «تحسبًا لأي ظرف طارئ».

بينما ظل الشاب الذي كان يقود السيارة جالسًا خلف المقود، نزلتُ ومرافقي ودخلنا البناية، ثم أخَذنَا المصعد الكهربائي حيث الطابق السادس. وقفنا عند باب إحدى الشقق. توقعت بأن الشاب سيفتحها بمفتاحها الخاص، ولكنه ضغط على زر جرس الباب، وبعد لحظات، انفتحَ الباب لأشاهد امرأة شابة شقراء رائعة الجمال، رحبتْ بنا مبتسمة وطلبتْ منا التفضل بالدخول. ما إن دخلنا حتى غزتنا رائحة طعام شهية، وقع نظري على مائدة

الطعـام ووجدتهـا عامـرة بمأكـولات لم أتعـرف عـلى أي نـوع منهـا سـوى الخبـز، الـذي يشـبه إلى حـدٍّ مـا ذلـك الخبـز الأسـمر الـذي كنـا نتناولـه في السـجن.

عرّفنـي الشـاب بالمـرأة، كان اسـمها فيرونيـكا، وحـين قدمنـي لهـا بصفـة «دكتـور» ابتسـمت وقالـت: «أعـرف عظمـة بلدكـم! وشـغفكم بالدراسـة والتعليـم، حتـى صـار يصـدّر إلى العـالم العقـول التـي تحمـل أعـلى الشـهادات.. تفضلـوا، الأكل جاهـز..»، ثـم نظـرتْ صـوبي وسـألتني إن كنـتُ أفضّـل شـيئًا معينًـا أشربـه مـع الأكل، فقلـت لهـا مازحًـا: «هـل تعرفـين النبيـذ المفضـل لـدى هايدغـر؟ إن كنـتِ عـلى علم بذلـك فأسـعفيني بـكأس منـه..». ضحِكـتْ المـرأة بدهشـة واضحـة ثـم هـزَّتْ رأسـها واتجهـتْ صـوب المطبـخ لتـأتي بـكأس نبيـذ وهـي تقـول: «إنـه نبيـذي المفضـل، وليـس مـا يفضلـه صديقـك الـذي ذكرتـه منـذ قليـل..».

رفـض الشـاب مشـاركتنا طعامنـا، وقـال بأنـه لا يسـتطيع الانتظـار أكثـر. أشـار صـوب فيرونيـكا وقـال لي بأنهـا سـتكون المسـؤولة عنـي حتـى صبـاح الغـد، حيـث سـيأتي عنـد التاسـعة صباحًـا ليوصلنـي إلى بيـت السـيد الرئيـس، أو «العـم الرئيـس»، حيـث موعدنـا عنـد العـاشرة صباحًـا.

وقفـتُ مودعًـا لـه، ثـم رافقتـهُ المـرأة الشـابة حيـث البـاب، وعـادت إلى طاولـة الطعـام مبتسـمة.

الحقيقـة كنـت جائعًـا، وصرت أتنـاول طعامـي بشـهية أثـارت انتبـاه

433

فيرونيكا، ويبدو أن النبيذ قد زاد من شهيتي لتناول الطعام. نظرتُ إليها وأنا أردد اسمها: «فيرونيكا... Veronica ...»، ثم سألتها إن كانت تعرف معنى اسمها، فقالت بأنه اسم قديم يعود إلى زمن السيد المسيح، ولكنها لا تعرف التفاصيل، فقلت لها مبتسماً:

«فيرونيكا اسم امرأة من القدس، أو «أورشليم» كما تسمى في لغتكم، وكانت تلك المرأة تتابع خطوات السيد المسيح وهو في طريقه إلى الصلب. أشفقت على وجهه الشاحب وهي تلاحظ العرق يتصبب منه، فقامت بتجفيف وجهه بمنديلها، ومكافأة لها انطبعت صورة السيد المسيح على المنديل. واسم فيرونيكا يدل في الأصل على الصورة التي انطبعت، فهو يتكون من مقطعين هما Vero أي حق، وnica أي صورة، فيكون معنى اسم فيرونيكا هو «الصورة الحقة»».

«يا الله! هل اسمي عظيم لهذه الدرجة؟.. من أين عرفت هذه المعلومة؟»

«قرأتها في كتاب، ولأنني نادرًا ما أنسى المادة التي أقرؤها، فقد استحضرتها ذاكرتي وأنا أردد اسمك الجميل».

«هل تجده جميلًا حقًّا؟»

«نعم، ولكنكِ أجمل من اسمك بكثير..». ضحكت المرأة وهي تشكرني، ثم سألتني عن اسم صديقي الذي سألتها عنه حين طلبت النبيذ، فقلت: «هايدغر.. هل تعرفينه؟»

434

«كلا.. تُرى من يكون؟» تأكدتُ بأن فيرونيكا امرأة ذكية لماحة، ولكن عالمها لا يمكنه الخروج عن حيّز البيت، متخصصة بالتنظيف والطبخ وإدارة المنزل بطريقة مذهلة كما سأعرف لاحقًا. قلت لها أن تنسى الموضوع، فقد كنت أمزح، فضحكت وقالت بأنها ستريني أقسام الشقة بعد أن أنتهي من الأكل، فطلبتُ منها أن تشير إلى غرفة نومي. أشارت إلى باب موصد وقالت: «هذه.. أما غرفتي، فتلك..»، وأشارت إلى الباب المجاور لتخبرني بأن الشقة تضم غرفتين وصالة وحمامًا ومطبخًا.

❋ ❋ ❋

لم أستيقظ كعادتي عند السادسة صباحًا، لقد تأخرت ساعة كاملة، ولولا رائحة قهوة فيرونيكا لنمت وقتًا أطول.

ما إن سمعتْ فيرونيكا صوت باب غرفتي وهو يفتح حتى جاءني صوتها مهلًلا، تلمست فيه ابتسامة عذبة دون أن أراها:

- «صباح الخير، حمامك جاهز. ستجد القهوة بانتظارك حال خروجك منتشيًا».

- «صباح الخير، فيرونيكا الجميلة. معك حق، فالماء الساخن كفيل بطرد كسل النوم ومنح الانتشاء.. رائحة قهوتك رائعة».

ما إن انتهيت من تناول فطوري، وشربت فنجان القهوة الثاني، حتى رنَّ جرس الباب عند الساعة التاسعة تمامًا.. «يبدو أن الشاب

435

منضبط جـدًّا في مواعيـده». قلـت لنفـسي، بينـما همَّـتْ فيرونيـكا لفتح البـاب.

«صباح الخير سيد أمين، هل تشرب القهوة؟»

إذن فالشـاب الـذي رافقنـي أمـس في رحلتـي مـن المطـار حتـى مـكان إقامتـي اسـمه أمـين. لا أدري لمـاذا لم يقـل لي اسـمه حـين التقـاني وقـال إنـه مبعـوث مـن قبـل «العـم الرئيـس» فقـط.

جلـس أمـين قبالتـي وهـو يحتـسي القهـوة، فسـألته: «تـرى كـم لدينـا مـن الوقـت لننطلـق حيـث موعدنـا؟!» نظـر الشـاب في سـاعته اليدويـة وقـال بـأن أمامنـا عـشر دقائـق فقـط.

لم يكـن السـيد الرئيـس في مستشـفى، ولم يكـن مريضًـا، بـل كان يسـكن فيـلا واسـعة بحديقـة تـكاد تبـدو بسـتانًا. ذلـك مـا رأيتـه، ومـا استشْـفَفْتُهُ حـين قابلنـي مبتسـماً مرحبًـا. صافحنـي وضغـط عـلى كفـي وهـو ينظـر في عينـيّ، ثـم قـال محتفظًـا بابتسـامته: «طولـكَ، وبنيتـك الجسـمانية لافتـة للنظـر، هـل تقبـل أن تكـون أحـد أفـراد حمايتـي؟» علـت ضحكتـه التـي سرعـان مـا اسـتفزت ضحكتـي وقلـت: «إنـه شرف كبـير لي سـيادة الرئيـس!»

شـبكَ السـيد الرئيـس أصابـع كفـه اليمنـى بأصابـع كفـي اليـسرى وسـار بي خارجًـا حيـث الحديقـة الواسـعة، وهـو يتحـدث لي عـن نقـاء الجـو وصفائـه، وأهميـة الاسـترخاء لرجـل عجـوز بعمـره، حسـب تعبيره.

في فسـحة أرضيـة خـضراء بعيـدة بعـض الـشيء عـن المبنـى، كانـت

هنـاك طاولـة متوسـطة الحجـم مصنوعـة مـن الخشـب، وكرسـيان متقابـلان فقـط، وكانـت ثلاثـة دوارق مختلفـة الألـوان وضعـت عـلى الطاولـة، مـع مجموعـة أقـداح وطبـق كبـير للفواكـه وعلبـة مناديـل.

جلَـس السـيد الرئيـس وظهـره إلى بنايـة الفيـلا، وجلسـتُ قبالتـه وكان نظـري صـوب المبنـى. كنتُ ألاحـظ بعـض الأشـخاص يتحركـون بخفـة لافتـة للنظـر.

حـين كان يحدثنـي عـن أمـور مختلفـة ليسـت ذات أهميـة تُذكـر، كنـتُ أتفحصـه باحثًـا عـن أي علامـة مـن علامـات المـرض، ولكنـي لم أفلـح في تلمـس أي علامـة سـوى الشـيخوخة. يبـدو أن السـيد الرئيـس -وبعـد أن تقـدَّمَ بـه العمـر- بـات يخشـى المـوت؛ لـذا قـرر أن يكـون في بلـد متطـور في مجـال الرعايـة الصحيـة. «إنـه يخشـى المـوت فقـط». قلـت لنفـسي، وكنـت شـبه متأكـد مـن ظنـوني.

مضـتْ قرابـة السـاعة مـن الوقـت والرجـل يحدثنـي عـن أمـور عامة، وأحيانًـا يسـألني عـن رأيـي في أمـور أخـرى، والغريـب أنـه لم يتحـدث في السياسـة، بـل كان أغلـب حديثـه عـن التركيبـة المجتمعيـة، وطبيعـة الشـخصية التـي يتميـز بهـا أبنـاء بلدنـا.

اقـترب منـا شـاب ممتلـئ الجسـم بعـض الـشيء، حليـق الـرأس تمامًـا، ووقـف عـلى مسـافة ثلاثـة أمتـار تقريبًـا. تنحنـح ثـم قـال: «عـذرًا سـيادة الرئيـس، مكالمـة لحضرتـك». نظـر الرئيـس إلى سـاعته اليدويـة وتنـاول الهاتـف النقـال مـن يـد الشـاب الـذي عـاد إلى المبنـى مسرعًـا. نطـق الرئيـس بكلمـة نعـم فقـط، وظـل مصغيًـا للطـرف الآخـر، وبعـد برهـة

مـن الوقـت قـال: «طيـب عزيـزي، يبـدو أن لا رجـاء فيـه.. شـكرًا..»، ثـم أغلـق الهاتـف ورفعـهُ بمسـتوى رأسـه، ليعـود الشـاب مهـرولًا ويأخـذ مـن يـده الهاتـف ويختفـي.

نظـر الرئيـس صـوبي، وقـد قـرأت مسـحة حـزن عـلى ملامحـه ثـم قـال:

«كنـتُ أنتظـر المكالمـة بفـارغ الصـبر، عسـى أن أعفيـكَ مـن مهمـة أراهـا صعبـة جـدًّا، ولكـن خـاب رجائـي..».

«سـيادة الرئيـس، لقـد جئـتُ مـن بلـدي قاطعًـا آلاف الكيلومـترات كـي أكـون في خدمتـك، وتأكـد بـأن لا شيء يصعـب علينـا إن كلفتنـا بـه».

«بـارك الله فيـك، لقـد سـمعت عنـك الكثـير، وأعـرف مقـدار إخلاصـك في عملـك..».

ثـم صمـتَ وراح يسـكب عصـير الفاكهـة للمـرة الثالثـة، وفي كل مـرة يسـكب فيهـا يأخـذ قدحًـا نظيفًـا، حيـث لا يعـود إلى القـدح الـذي اسـتخدمه في المـرة السـابقة، وكان مـصرًّا عـلى أن أشـاركه تـذوّق الأصنـاف الثلاثـة مـن العصائـر.

مـد الرجـل يـده في جيـب بنطالـه وأخـرج ورقـة مطويـة، مسـكها بين السـبابة والوسـطى مـن يـده اليمنـى، وسـلمها لي. ابتسـمت وسـألت: «سـيادة الرئيـس، هـل تسـمح لي بالاطـلاع عـلى مضمونهـا؟» هـزّ رأسـه موافقًـا دون أن يقـول كلمـة.

438

فتحت طيّات الورقة الأربع، وقرأت ما هو مدون عليها، ثم أعدت طيها وسألت:

«هل بإمكاني أن أطوي ساقًا على ساق في جلستي؟»

ضحك وطلب مني الاسترخاء وعدم التكلّف. وضعتُ ساقي اليسرى على فخذي اليمنى، ثم أنزلت حذائي قليلاً مستعينًا بالكعب، ودسست الورقة بين باطن قدمي والجورب، وما إن شاهدني الرئيس حتى انفجر ضاحكًا، وأشار إلى أنها طريقة كان يستخدمها بغرض إخفاء الأوراق الحزبية المهمة حين كان يعمل في التنظيم السياسي السري فترة الشباب، ثم قال:

«لقد تربينا، وللأسف، على كم هائل من الممنوعات، لدرجة كان كل شيء يتعلق بالحرية الشخصية ممنوعًا، حتى الضحك والبكاء والحب، فما بالك بالتنظيم السياسي المعارض للسلطة؟.. ولكن حين أصبحنا في السلطة، وصرنا نسنُّ القوانين ونصدر القرارات، وجدنا أن الممنوعات من أهم الأسلحة التي تبقي الحاكم على كرسيه أطول فترة ممكنة».

«سيادة الرئيس، هل صحيح ما يشاع بأنكَ اعتزلت العمل السياسي؟» سألته بعد أن أخذت الإذن بذلك، فقال مبتسماً:

«لا.. ليس العمل السياسي، بل اعتزلت السلطة؛ لأنني وجدت من المستحيل العمل مع لصوص، لصوص بكل ما للكلمة من معنًى. كلهم ودون استثناء لصوص، وإن شئت أن تحسبني لصًّا مثلهم فسأمنحك الحق؛ لأنني ببساطة تامة كنت قد عملت معهم،

وقد غضضت الطرف عن كم هائل من سرقاتهم، وبذلك أكون شريكًا لهم في سرقاتهم وإن لم أشاركهم بشكل فعلي..».

«من أين أتى هؤلاء؟»

«من الصدفة..». قال الرئيس بألم واضح، وأضاف:

«المصادفة هي من جعلت عشرة رجال كانوا يعملون معًا متنقلين بين البلدان المجاورة لبلدنا في التزوير والتهريب والنصب والاحتيال، حتى إنهم لم يوفروا تهريب البشر والاغتيالات. المصادفة هي من أتت بهم ليكونوا حكامًا لبلدنا..»، ثم انتبه إلى شيء آخر وقال محاولًا تغيير حديثه، فسألني:

«كيف وجدتَ الشقة؟.. وما رأيك بفيرونيكا؟»

«الشقة رائعة رغم أني مكثت بها سويعات قليلة، أما فيرونيكا، فأتمنى عليكَ راجيًا أن تقول لي رأيك بها».

ضحكَ وقال: «أنت دبلوماسي جيد، تنفع أن تكون ضمن طاقم الحكومة القادمة..».

أضحكني كلامه، حيث وجدت فيه بعض مجاملة أو مزحة لطيفة، ثم قال مضيفًا:

«فيرونيكا امرأة مثالية لمثل عملها الذي تقوم به، وأقصد كمديرة منزل، وإذا أخرجتها عن هذا الإطار فلن تجد فيها ما يسرّك، فهي متعلمة لغاية الإعدادية، وكانت تشكو من حالة شبه مرضية اسمها «عمى الحروف»، أي إنها ترى جميع الحروف، ولكن دماغها لا

يفسرها كما يجب، وذلك ما أعاق إكمال دراستها، رغم أنها راغبة جدًّا في مواصلة التعليم. أعرفها منذ كانت صبية، فقد عرفت والدتها التي كانت تعمل العمل نفسه الذي تقوم به فيرونيكا الآن؛ لذا عليك الاطمئنان من ناحيتها».

«إذن لا داعي لإخفاء الورقة بين قدمي والحذاء!»

ضحكَ الرجل وسأل إن كان تفكيري في المرأة هو من دفعني لإخفاء الورقة، فأجبته موافقًا، ثم سألته:

«سيادة الرئيس، دعني أسألك بما يخص عملي في خدمة حضرتك، الحقيقة حين قرأت الورقة الصغيرة التي أعطيتني إياها، وانتبهت إلى الاسم المدوّن عليها، حاولت أن أستدل عليه فلم تسعفني الذاكرة، فهل الرجل غير معروف فعلًا؟».

تململ السيد الرئيس قليلًا، ثم قال وكأنه يستنشق الهواء بصعوبة:

«إنه رجل أعرفه جيدًا، رافقته منذ أيام الشباب، أحبه وأحترمه، وهو يقاربني في العمر، ولغاية ثلاث سنوات كنا أحبة، ولكنه ودون سابق إنذار صار يهاجمني بشراسة، ويكيل لي الاتهامات، ويحاول جاهدًا تشويه سمعتي وتاريخي السياسي. التقيت به أكثر من مرة وعرضت عليه كل شيء، من أجل أن يكف عن الإساءة لي أمام الناس فلم يرضَ، والحقيقة كان كثيرًا ما يثير ضحكي؛ لأنني أحبه، وما زلت أحبه، ولكنه، ومنذ قرابة العام تقريبًا، شرَع في كتابة مذكراته، وأضحيتُ متأكدًا من أن غرضه من كتابة المذكّرات

441

هــو التشــهير بي وتشــويه ســيرتي، حتــى أنــه صــار يبعــث لي برســائل تحتــوي بعــض الفقــرات المخزيــة مــن كتاباتــه..».

«أعــرف تمامًــا أن ســيادتك تمتلــك قــوة عســكرية ومخابراتية لا يســتهان بهــا، فلــماذا لا تكلّــف أحــدًا تختــاره مــن بــين جماعتــك ليقــوم بالمهمة؟»

«هــذا ســؤال مهــم جــدًّا، وهــذه هــي النقطــة الرئيســية التــي أريــد أن نتفــق عليهــا بــكل دقــة..».

ســكَب الرئيــس بعضًــا مــن العصــير، وقــدم كأسًــا لي، ثــم قــرَّبَ الــكأس الأخــرى مــن شــفتيه، فــشرب نصفهــا، وأضــاف:

«قبــل لحظــة واحــدة مــن قدومــك، كانــت الفكــرة تــدور في رأسي فقــط، ولمــدة قــد تقــارب الســتة أشــهر، وأســتطيع القــول، إن مــن المســتحيل أن تجــد أي شــخص غــيري يعــرف بــما فكــرت بــه بخصــوص الرجــل ومذكراتــه، والآن، أنــا وأنــت فقــط مــن مجمــوع المليــارات الســبعة في هــذا العــالم نعــرف مــا ينتظــر الرجــل، أو مــا نخطــط لــه، ولا وجــود لشــخص ثالــث يعــرف بالأمــر الــذي ســيبقى سرًّا شــخصيًّا نحملــه معًــا حتــى نصــل الحفــرة الموعــودة لنــا مــن رب الســماء، كهديــة عظيمــة لنهايــة المشــوار..»، ثــم دعــك راحتيــه بســأم وأضــاف: «هكــذا يُكافــأُ الإنســان في نهايــة حياتــه، حفــرة لا تتعــدى المتريــن يدفــن فيهــا، والغريــب في الأمــر هــو أن تصبــح الحفــرة مقدســة لــدى البعــض! أي هديــة؟ وأي نهايــة؟!»

تأكــدتُ مــن أن الســيد الرئيــس ليــس مريضًــا، بــل هــو خائــف مــن المــوت. وبعــد أن صمــتَ ســيادته ســألته:

«هـذا يعنـي أن السـيد الوكيـل لا يعـرف شـيئًا، فكيـف فاتحتـه بالأمـر ليقنعنـي كـي أسـافر إليـك؟»

«لم أقـل لـه شـيئًا، فقـط طلبتـكَ ودفعـتَ لـه مبلغًـا محترمًـا مقابـل إقناعـك بالوصـول إليَّ، بعـد أن عرفـت عنـك إخلاصـك وكتمانـك، ليس فقـط فيـما يتعلـق بعملـك وأسراره، فقـد عرفـت أيضًـا بأنـك مخلـص حتـى للـماء والهـواء والطـير.. هـل أنـا محـق؟»

سـأل الرجـل وكان ينظـر إليَّ مبتسـماً منتظـرًا جـوابي، فقلـت بشـكل مقتضـب: «اطمئـن سـيادة الرئيـس، قريبًـا أُسـمعكَ الخـبر الـذي تنتظـر.. ولكـن مـن المهـم أن أعـرف، هـل هنـاك فـترة زمنيـة محـددة لإتمـام العمليـة؟»

«لا..». قـال الرجـل، وسرعـان مـا أضـاف: «ولكـن الإتقـان والكتـمان همـا المُهـمّان، حتـى لـو اسـتغرق الأمـر منـكَ أسـبوعًا كامـلاً..».

ضحكـتُ بعمـق، فالإشـارة تقـول بـأن الرئيـس عـلى عجلـة مـن أمـره، فأخبرتـه بأننـي هنـا لمـدة أسـبوع، وهـذه الفـترة ليسـت ضمـن الاتفـاق، فوافـق وهـو يضحـك، ومـا إن هـدأ ضحكنـا حتـى سـألت إن كان وقـت الاجتـماع قـد انتهـى، فقـال بأنـه قـد فكَّـرَ بتنـاول غدائـه معـي، فاعتـذرت، ولكنـي أوضحـت لـه بأننـي وخـلال فـترة إقامتـي سـأكون رهـن إشـارته وفي أي وقـت، وحـين حاولـت النهـوض، وضـع كفـه عـلى كتفـي وقـال بصـوتٍ مبالـغ في هدوئـه:

«ولكننا لم نتفق بعدُ على المكافأة؟»

443

طأطأتُ رأسي ناظرًا إلى كفيَّ وأنا أحاول أن أقول ما فكّرت به، وفي اللحظة الأخيرة غيرتُ رأيي ونظرتُ بوجهه وقلت بأن الأمر متروك لسيادته، فرفض وطلب مني تحديد المبلغ، حينها قلتُ فكرتي:

«هل تعلم، يا سيادة الرئيس، بأنني ومنذ سنوات طوال أحلم بالعيش في هذا البلد، وقد عرفتُ عنه الكثير من خلال قراءاتي وبحثي عن كل معلومة استطعت الوصول إليها؛ لذا أجد أن شقة أو بيتًا صغيرًا أمتلكه هنا، كافيًا كأتعاب للعملية..».

ضحكَ وقال: «لم يخطئ من قال عنك بأن القناعة إحدى صفاتكَ المهمة، لكَ هذا أيها الشاب الجميل، حين تعود بالخبر وتكون مخطوطة المذكرات في يدكَ، أنتَ وليس غيرُكَ، ستجد بيتك بانتظارك..».

اعتقدتُ بأن السيد الرئيس كان يتهكم. ودَّعتُه على أمل لقاء قريب.

في طريق عودتي إلى فيرونيكا، أرسلتُ رسالة نصية إلى فاتنة تحمل اسم الرجل المطلوب فقط، ثم هاتفتها بعد خمس دقائق، لأفضي لها باشتياقي، وأطلب منها البحث في ملفات الأرشيف عن أي معلومة عن الرجل، وإن لم تجد، فعليها إعطاء الاسم إلى غسان كي يستقصي عنه ويعد تقريرًا بذلك، وشدّدَت على ألّا يعرف رضوان بالأمر، ثم طبعتُ قبلة على الهاتف مودعًا لها، لتقابلني بصوت قبلة ألهبت مشاعري.

* * *

في اليـوم التـالي اصطحبتنـي فيرونيـكا إلى أحـد البنـوك المهمـة في البلـد حسـب معرفتهـا، وهنـاك فتحـتُ حسـابًا بنكيًّـا أودعـت فيـه المبلـغ الـذي حَمَلتُـه معـي، ونصـف المبلـغ الـذي منحنـي إيـاه سـيادة «الوزيـر» حـين قابلتـه في المطـار.

في الطريـق، حـين خرجنـا مـن البنـك، وبعـد قرابـة المائـة مـتر، شـاهدتُ صـورة كبـيرة لرجـل سـتيني أسـمر، معقـوف الشـاربين، فقلـت: «آه.. إنـه سـيلفادور دالي»، ثـم سـألتُ فيرونيـكا عـن المبنـى، فقالـت إنـه متحـف الفـن الحديـث، حسـب مـا هـو موجـود في اللوحـة الكبـيرة، ثـم ضحكـتْ. طلبـتُ منهـا الدخـول، وحـين وصلـتُ استعلامات المتحـف، اتضـح أنهـم يقيمـون معرضًـا للفنـان سـلفادور دالي، خاصًّـا بمنحوتاتـه، فقلـت متسـائلًا بتعجُّـب: «منحوتـات؟.. إني أعرفـهُ رسـامًا وليـس نحَّاتًـا!» ابتسـم لي الموظـف وقـال: «أنصحـك بدفـع ثمـن الدخـول، لتشـاهد في القاعـة رقـم ثمانيـة مـا لم تكـن تعرفـه مـن قبـل عـن هـذا الفنـان..».

كانـت القاعـة التـي تحمـل رقـم ثمانيـة واسـعة جـدًّا، إضاءتهـا لافتـة للنظـر، حيـث يمكـن رؤيـة أدق التفاصيـل. كانـت المنحوتـات مُوزّعـة بدراسـة متقنـة، مـن ناحيـة الضـوء والتوافـق بـين موضـوع وآخـر. «يـا إلهـي، كـم سـاحرة هـذه الأعـمال..!» قلـت بداخـلي وقـد نسـيت المـرأة الجميلـة التـي ترافقنـي. تجولـتُ بـين بعـض الأعـمال متفحصًـا لهـا، حتـى شـعرت بقشـعريرة تغـزو جسـدي بشـكل مفاجـئ حـين التفـتُّ يمينًـا لأشـاهد أحـد ضحايـاي ممـددًا سـاقيه عـلى الأرض، وجـزء جسـده

العلـوي مرتفعًـا عـن الأرض، مسـنودًا بكفـه اليمنـى المتشـبثة بـالأرض، أمـا يـده اليسرى، التـي أرعبتنـي، فكانـت ممـدودة نحـوي متوسـلة ألا أطلـق عليهـا الرصـاص. رجعـتُ خطـوة إلى الـوراء ونظـري متسـمر عـلى الرجـل البرونـزي المتوسـل.

لا أدري أيـن أخذتنـي ذكريـاتي المطليـة بلـون الـدم، ولا أعـرف كـم بقيـت متسـمرًا أمـام التمثـال، حتـى شـعرت بيـد تهـزّني:

«مـا بـك؟.. أراك مذهـولًا دامـع العينـين!.. هـل أنـتَ بخـير؟..» خرجـتُ عـلى إثـر الصـوت مـن عـالم مرعـب، لأشـاهد حديقـة غنـاء فتحتهـا أمامـي عينـا فيرونيـكا الخضـراوان. سـألتها عـن عنـوان العمـل فقالـت لي شـيئًا لم أفهمـه: «مجسـم مجلـس الـوزراء»، فقلـت إنهـا اللغـة اللعينـة التـي لم تسـعفني في التوصـل إلى العنـوان، فلـم أُعـر أهميـة لمـا قالـت مرافقتـي الجميلـة، وأطلقـت تسـمية «الضحيـة المسـتغيثة» عـلى المجسـم. كان العمـل بطـول يزيـد عـن المـتر والنصـف، وبارتفـاع يقـارب المـتر، «إنـه الحجـم الحقيقـي للإنسـان». الغريـب في العمـل أن كل مـا فيـه بـشري، باسـتثناء صـدر الرجـل الـذي بـان كأدراج مكتـب صغـير مفتوحـة، وكأن هنـاك مـن عبـث بهـا.

أخذتنـي فيرونيـكا إلى الكافتيريـا، وقـد جلسـتْ قبالتـي متفحصـة ملامحـي، وحـين سـألتها عـن سـبب نظراتهـا المتفحصـة، أخبرتنـي بـأن شـحوبًا قـد ارتسـم عـلى وجهـي، ثـم سـألتني بـتردد: «هـل أنـت خائـف؟». ابتسـمتُ لهـا ونفيـت،

لكنـي سـألتها وكأننـي كنـت أفكـر بصـوتٍ عـالٍ: «هـل يمكـن للضحيـة أن يتحـول إلى تمثـال برونـزي؟» هـزت رأسـها بصمـت ثـم أعلنـت عـدم فهمهـا السـؤال الـذي طُبـع في ذهنـي طـوال سـفرتي تلـك.

❋ ❋ ❋

قبـل سـفري عائـدًا إلى الوطـن بيـوم واحـد، أعطيـت لفيرونيـكا كل الأوراق المتعلقـة بحسـابي البنكـي الجديـد، بالإضافـة إلى الـكارت الخـاص بـه، إلا أننـي احتفظـتُ بالرقـم السـري الخـاص بالـكارت ولم أُطلِعهـا عليـه، وأخبرتهـا بأننـي عائـد لا محـال إلى هـذا البلـد الجميـل الـذي قـررت أن أقـضي بـه بقيـة عمـري. نظـرتْ صـوبي وضحكـتْ معلنـة تضامنهـا معـي، متمنيـة رؤيتـي بأقـرب وقـت.

في صبـاح اليـوم التـالي، حيـث كان أمـين قـد أخـذ حقيبتـي ونـزل حيـث السـيارة التـي سـتقلّني إلى المطـار.

طبعـتْ فيرونيـكا قبلـة عـلى شـفتيّ وهـي تحتضننـي، ثـم أعطتنـي مجلـة باللغـة العربيـة، قالـت بأنهـا اشـترتها لي لأتسـلى بهـا وأنـا في الطائرة. شـكرتها وأعـدت لهـا القبلـة، ولكـن بسـخونة أكثـر. ودعتهـا وخرجـتُ نـازلًا لألتحـق بالشـاب الـذي ينتظـرني.

لم يكـن الحيّـز المخصـص لـركاب الدرجـة الأولى مزدحمًـا، كنـا ثلاثـة فقـط، أنـا وامـرأة قصيـرة خمسـينية، ورجـل يرتـدي الـزي الرسـمي الـذي

يشبه الزي الجامعي الذي كنتُ أحلم بارتدائه حين كنت صبيًّا وأنا أرى طلبة الجامعات في شوارع العاصمة.

كانت فكرة تمثال سلفادور دالي قد قفزت في ذهني -ربما للمرة الألف- وأنا أقلّب صفحات المجلة التي أهدتني إياها فيرونيكا الجميلة. «تُرى كيف فكّرتْ بالعثور على مجلة مكتوبة بلغتي الأم كي أستأنس بها ناسيًا وقت الطيران؟.. كم هي رائعة!» عبارة قلتها بداخلي وأنا أستعيد صورتها وهي تقف إلى جواري حين كنت مذهولًا أمام حركة التمثال المتوسلة.

اتضح لي بأن المجلة متخصصة في الثقافة والفن والأدب، فكل موادها تنحصر في تلك الأطر التي أفضلها على غيرها. شدَّ انتباهي مقال عن الحركة السريالية في الفن التشكيلي، وحين قرأت الجزء الأول منه وجدته مقالًا فلسفيًّا أكثر منه فنيًّا، وأثناء قراءتي لنصفه الثاني، وحين قلبتُ الصفحة لأتابع، شاهدت صورة لعمل أذهلني، فقلت: «سيلفادور دالي مرة أخرى!» كانت الصورة لتمثال نصفي يظهر رأس رجل صارخ بأقسى صرخات الألم وهو مكمم الفم والعينين بما يشبه الشاش الطبي، لدرجة أنني استطعت أن أسمع صرخته وأتلمّس عروق رقبته الندية بعرق المحنة. وجدته عملًا مذهلًا، وشعرت بخيبتي لأنني لم أعرف من قبلُ أن دالي كان نحّاتًا عظيمًا، حتى قادتني الصدفة إلى معرضه حين كنت بصحبة فيرونيكا الجميلة، ولكن، حيرتي صارت أكبر حين عرفت أن التمثال الصارخ بفجيعته ما هو إلا عمل فني لنحات اسمه «سامي محمد». وضعتُ

يدي على رأسي وأنا أنظر صوب الصورة التي تظهر تفاصيل العمل بدقة عالية. إنه ضحية أخرى من ضحاياي، ذلك ما جسّده الفنان بعمله المبهر.

أغلقتُ عينيَّ ورجعت برأسي إلى الوراء محتفظًا بالصورة مطبوعة على حدقتي عينيَّ، هناك بدأت صورة تمثال دالي وتمثال سامي محمد تتناوبان حضورًا في المشهد، حتى بدأتا تتداخلان لتكوّنا شكلًا ثالثًا تجسَّمَ أمامي، وراح ينظر إليَّ وقد دبَّت به الروح. ابتسم التمثال لي، ثم قال: «أنا خلاصة ضحاياك أيها السفّاح المثقف، أنا خلاصة رموز الضحايا التي تكتنزها في أكياسك الكبيرة التي تغصّ بها غرفة نومك. كيف يغمض لكَ جفن وأنتَ بين ضحاياك؟ ألا تسمع أنينهم؟» صرختُ فزعًا لأتبين بأنني لا أزال على مقعد الطائرة، وأن إحدى المضيفات تقف إلى جانبي وهي تمسح على جبهتي وتسألني إن كنت بخير. أشرتُ لها بإبهام وسبابة يدي اليمنى قائلًا: «كأسًا من الويسكي المثلج، لو سمحت».

صرتُ أرى تمثالي متجسدًا أمامي وأنا أحتسي شرابي، ثم انتبهتُ إلى أن «تمثالي» قد أرشدني إلى طريقة صنعه، أرشدني إلى صهر رموز الضحايا لتصبح تمثالًا يرمز إليهم: «يا إلهي، ما هذه الفكرة المفجعة؟.. ما هذا العذاب؟». قلتُ في داخلي والطائرة في طريقها إلى الهبوط على أحد مدارج مطار العاصمة.

* * *

449

كانـت مفاجـأة عظيمـة لي، حـين وجـدت أمامـي في قاعـة اسـتلام الحقائـب صديقـي عطـا الفنـان، شـاهدته منتظـرًا عنـد طـرف الحـزام الناقـل رقـم ثلاثـة، حـين كنـت أقـف عـلى الطـرف المقابـل حيـث الحـزام رقـم أربعـة. تركـت مـكاني متوجهًـا صوبـه، ومـا إن رآني حتـى احتضننـي، ثـم سـألني: «مـا أخبـار الفتـاة الجميلـة التـي كانـت معـي قبـل سـفري؟» ضحكـتُ وقلـت لـه متفكّهًـا: «لا تـزال عـذراء، لأنهـا لا تـزال في انتظـارك..!» أطلـقَ ضحكـة عاليـة، وقـال وهـو يدعـك بحـركات سريعـة رأسـه الحليـق:

«صغيرة!»

خرجنـا معًـا، أنـا وعطـا، بعـد أن اسـتلم كلٌّ منـا حقيبتـه، كنـتُ أعـرف بـأن غسـان في انتظـاري، فقـد هاتفتـه وأعلمتـه بزمـن الوصـول، ومـا إن خرجنـا وصـار غسـان قبالتـي، ليشـاهدني برفقـة عطـا، حتـى وقـف وهـو ينظـر لي شـزرًا بصيغـة سـؤال أعرفـه جيـدًا، فـأشرتُ لـه أن يتقـدم نحونـا. عانقنـي وكاد يبكـي شـوقًا؛ مما أثـار ضحكـي. أبعدتُـه عنـي قليـلاً محـاولاً إنهـاء المشـهد وأنـا أقـدّم لـه صديقـي الفنـان التشـكيلي عطـا. صافحـه وقـال بأنـه قـد قابلـه مـن قبـلُ حـين كان ضيفًـا عنـدي، ثـم سرعـان مـا التفـتَ نحـوي مشـيرًا إلى أن السـيارة جاهـزة وبانتظـاري، فقلـت لـه بأننـا سـنوصل صديقنـا الفنـان أولًا.

سـألتُ عطـا عـما يُخطّـط لـه في زيارتـه لوطنـه، فقـال إنـه كان مضطـرًّا للعـودة بسـبب معامـلات رسـمية تخـص حَـصْر إرث العائلـة، فمنـذ وفـاة

والـده، أصرَّ بقيـة إخوتـه عـلى تقسـيم مـا خلَّفـه والدهـم مـن أمـلاك. ثم سـألته إن كانـت هنـاك أي مشـاكل. نفـى وأشـار إلى أن المشـكلة الكـبرى تكمـن في نظـام الدولـة «المهـترئ»، عـلى حـد تعبـيره، فهنـاك مـن يطلـب مبالـغ طائلـة ليتـم إنهـاء الإجـراءات، وأنـه يخشـى أن يدفـع الورثـة نصـف التركـة كـ«رِشًـا». ضحِـك ثـم دعـك رأسـه الحليـق وأضـاف بأن أحـد إخوتـه يحـاول عرقلـة مسـير القضيـة.

لم يكـن بيـت عائلـة عطـا بالبعيـد عـن المؤسسـة، فـما إن أوصلنـاه إلى بيتـه حتـى صرتُ بعـد عـشر دقائـق داخـل المؤسسـة.

شـهقتْ فاتنـة حـين رأتنـي، وهجمـت عـليَّ محتضنـة. راحـت تقبّلنـي ودموعهـا تنهمـر. «أيـن رضـوان؟» سـألتها تفاديًـا للإحـراج، فقالـت: «لـو كان رضـوان هنـا لوجدتنـي مسـتقبلة لـكَ وأنـا جالسـة عـلى مكتبـي.. اطمئـن، لا أحـد غيرنـا».

حملتها ونزلت بها حيث غرفتي في الطابق الثالث.

تعـرف فاتنـة سرَّ متعتـي. تفتـح صدرهـا أولًا، وتتركنـي أعـزف أجمـل سِـمْفونيات العـالم هناك.

فاتنـة تعـرف جيـدًا مكامـن سـحرها المهيمـن عـلى روحـي، وتعـرف أيضًـا بأنهـا صـارت تتربـع عـلى عـرش كيـاني بهيمنـة خاصـة، مـن خـلال كنـوز فتنتهـا.

في لحظـة، سـمعتُ لهاثهـا.. كانـت يداهـا ممسـكة بـرأسي دافعـة إيـاه إلى الأسـفل.. رحـتُ باسـترخاء الغائـب عـن الوعـي عائـدًا حيـث

طفولتـي.. كنـت أسـمع صرخاتهـا «أنينًـا خافتًـا» كأنـه صـوت قـادم مـن المـاضي البعيـد، وكنـتُ لا أدري بأنني أغيـب عـن الوعـي بشـكل تدريجـي كسـادرٍ في متاهـة حلـم.

وجدتنـي واقفًـا أمـام لوحـة كبـيرة، لم أشـاهد لهـا حـدودًا ولا إطـارًا، وكل مـا كنـتُ أراه صـورة كبـيرة للسـان آدمـي منتصـب كتمثـال.. ألـوان تتـوزع بـين الأسـود والبنـيّ الفاتـح، والبنـيّ المحمـر المحـترق كلـون الصـدأ.. اقتربـتُ مـن تمثـال اللسـان قليـلاً فشـاهدتُ ثمـة نصًّـا منقوشًـا عـلى سـطحه، وبـدأت أقـرأ:

... ...

الضحايا، تمثال مستكين

ساعاتٌ لزجة على الأشجار

أغصانها حبالُ الوقت

والريح أنين ...

... ...

... ...

الشيخ، صوت

المفجـ.....

أيقظتنـي فاتنـة، وقالـت: «يكفيـك نـوم! لقـد نِمـتَ لأكثـر مـن

452

ساعة، وحان موعد ذهابي». فتحتُ عيني لأجدني نائماً على صدر فاتنة العارية. قبّلتها وأنا أتمتم: «سأصهر الرموز لأصنع تمثالاً يحكي ما يكتبه الشيخ عنهم».

«ماذا تقول؟» سألتْ فاتنة، ويبدو أن سؤالها قد أعاد لي وعيي، فقلت:

«لا شيء، هناك بعض الهدايا لكِ ولنشوان الجميل في الحقيبة».

453

24

صار النهرُ مزارًا ألتجئ إليه كل صباح، ألقي فيه وزرَ آثامي. كنتُ هناك أداعب خصلات أمواجه بأصابعي وكأني أداعب وجنة «وداد» في سنتها الأولى. كانت تبتسم لي، وترفرف بيديها كجناحين لعصفور يحاول تعلّم الطيران. كنتُ أنشد لها ترنيمة الابن الذي هاجر ليأتي بجوهرتين ثمينتين يزرعهما في محجري أمه كي تراه مرة أخرى بعد أن أصابها العمى. حينذاك، شعرتُ بكفٍّ حانية تحط على كتفي كفراشة تحمل بأطراف جناحيها عطر الفردوس. التفتُّ لأرى الأستاذ عبد الله مبتسماً. هممتُ لأقف له احترامًا، ولكنه ضغط بكفه الحنون على كتفي طالبًا بقائي على جلستي، رأيته شامخًا عظيماً كجبل، ورأيتُ نفسي متربعًا وسط بركة آسنة. تحركتْ شفتاي وكأنني أريد قول شيء ما، ولكنه عاجلني بكلمة واحدة فقط:

«لماذا؟»

«لأنني صنيعة هذا البلد». قلت، وشعرت بسخونة حارقة تسيل على وجنتي. ابتسم وقال:

«معكَ حق أيها الفيلسوف الشاب.. لأنكَ ابن هذا البلد، أقصد صنيعته.. صباح الخير يا صديقي».

فزعتُ مستيقظًا على رنين هاتفي، وكانت عيناي مغرورقتين بالدموع، أخرجته من جيبي وضغطت زر القبول.

«صباح الخير يا صديقي..».

«صباح الخير أستاذ عبد الله، اشتقت لك..».

«هل أنتَ نائم؟ أنا عدنان وليس عبد الله! هل كان عبد الله رفيق حلمك؟»

«صباح الخير أستاذي، كيف حالك؟»

سألني عدنان مستفهمًا إن كنت باكيًا أو أشكو من نوبة زكام، فنفيت الحالتين، وتحججتُ بمغادرة سلطان النوم لعقلي وجسدي منذ دقائق.

«هل أنتَ بخير؟.. منذ أمس وهيام تطلب مني مهاتفتكَ، تعتقد بأنكَ ربما تشكو من شيء ما..». فرحت كثيرًا لكلماته، فقد شعرت بأن لي أهلًا، وأن هناك من يسأل عني ويتفقدني، فقلت:

«هل أحظى بأكلة بطٍّ دسمة، إذا زُرتُكم اليوم عند الساعة السادسة مساءً؟»

ضحك عدنان وقال هامسًا، ربما خوفًا من أن تسمعه زوجته: «بط محشي ونبيذ فاخر.. أنتظرك».

عـدتُ إلى المؤسسـة، وحـين حـضرتْ فاتنـة، تناولـتُ معهـا فطـوري، ثـم شـكرتني عـلى الهدايـا، وراحـت تصـف لي فرحـة نشـوان بـما جلبـتُ لـه: «كيـف عرَفـت قياسـه؟ وكيـف اخـترت اللعبـة؟ هـل كنـت تعـرف بأنـه كان يحلـم بهـا منـذ سـنة تقريبًـا؟»

ابتسـمتُ وقلـتُ صادقًـا: «أعـرف كل مـا ذكـرتِ، وأحفظـه عـن ظهـر قلـب؛ لأننـي أعـرف نفسي حـين كنـت بعمـره.. نشـوان أنـا، لكنـه لم يعـش مـا عشـته، ولـن يعيـش ذلـك مـا دمـتُ أتنفـس».

تـلألأ المرمـر الصقيـل عاكسًـا صـدى ألمٍ ثقيـل اخـترق زوايـا روحـي. مسـكتُ رأسـها وطبعـت قبلـة عـلى شـفتيها، ثـم لعقـت دموعهـا؛ لأتـذوق أشـهى عصـارة حرمـان في الدنيـا.

«هـل ندخـل عـالم العمـل؟.. هـل أنـتِ مسـتعدة؟» كفكفـتْ دموعهـا وقالـت: «نعـم.. نعم».

«طيب، هل هناك من جديد بخصوص ما طلبته؟»

«لم أعثـر عـلى أي معلومـة عـن الرجـل الـذي بعثـتَ لي اسـمه، ولكنـي وجـدت لقبـه ضمـن السـيرة الخاصـة بالسـيد الرئيـس، التـي تشـير إلى أنـه أحـد أصدقـاء الرئيـس القدامـى، ثـم أخـبرت غسـان بـما أمرتنـي بـه وأعطيتـه الاسـم والمعلومـة التـي وجدتهـا في سـيرة الرئيـس، ولغايـة الآن لم أسـمع منـه أي معلومـة».

أخرجتُ هاتفي، وحين شرعت بالضغط على زر الاتصال قالت:

«رضوان لم يعرف شيئًا عن الأمر كما أمرت».

«عظيم.. وأنا متأكد من هذا».

اتصلت بغسان، وطلبت منه انتظاري عند باب شقة الطابق الثاني المجاورة لشقته. حين أغلقتُ الهاتف، طلبتُ من فاتنة دورق قهوة يكفي لاجتماع قد يطول أكثر من أربع ساعات، وبعض الفواكه، وأربعة سندويتشات، ثم طلبتُ منها أن تتصل برضوان وتُملي عليه كل ما يحتاجه مطبخنا. هزتْ رأسها موافقة، وغابت حيث مكتبها.

❋ ❋ ❋

أفرد غسان أمامي مجموعة من الأوراق، وراح يشرح لي كل معلومة توصل إليها بخصوص الشيخ الذي كان صديقًا حميمًا لسيادة الرئيس. فهمت منه ما كنت أبحث عنه، وعرفت أن السيد الرئيس قد أهدى لصديقه الشيخ شقتين في بناية تتكون من ثلاثة طوابق: الأولى في الطابق الثاني حيث يسكن الشيخ مع عائلته المتكونة من ابنته وزوجها وطفليهما، والثانية في الطابق الثالث، اتخذ منها الشيخ مكتبًا له، لا يدخلها إلا بعد أن يتناول فطوره مع عائلة ابنته، ثم يعود مساءً ليدخل الغرفة المخصصة له وينام. كانت ابنته تخاف عليه من أي عارض صحي؛ لذا أصرت عليه بطلبها، في أن ينام ليله تحت أنظار العائلة، فوافق الشيخ على مضض.

سألت غسان عن الدقة في المعلومة ومصدرها إن كان موثوقًا به، فأخبرني بأنها معلومات مؤكدة حصل عليها من صديقين للشيخ:

الأول صاحب المتجر الذي تتسوق منه العائلة، والكائن في الطابق الأرضي من البناية نفسها، أما المصدر الثاني، فقد كان الرجل الكهل صاحب المقهى المجاور للمتجر، والذي يرتاده الشيخ كل صباح، أو بعد الظهر أحيانًا. وأخبرني بأنه قد شاهد الشيخ جالسًا إلى جانب صاحب المقهى لمرتين متتاليتين. عرفتُ أيضًا، بأن غسان لم يحصل على المعلومات بنفسه، وإنما عن طريق أفراد الخلية التي تعمل بإمرته، والتي تضم بينها فتاة في العشرين من عمرها، كانت هي من حصلت على المعلومات من صاحب المتجر. ثم سألته مبتسمًا:

«كيف وجدتَ مذاق الشاي في مقهى الرجل العجوز، هل كان لذيذًا؟»

ضحكَ غسان ونظرَ في ساعته وقال:

«لا يزال هناك متسع من الوقت، بإمكاننا الذهاب لتتذوق الشاي بنفسك».

ابتسمت له معبرًا عن إعجابي بنباهته، وقررتُ الذهاب إلى هناك.

كان مذاق الشاي لذيذًا بالفعل، وكان الرجل الكهل صاحب المقهى بشوشًا ضحوكًا لا يكل عن إطلاق النكات. عرفت طبيعة المكان، وارتفاع البناية، وعدد شبابيكها، ورنّتْ في مخيلتي خطة قد تكون محكمة، ولكنها بحاجة إلى دراسة ونقاش مع غسان.

في طريق عودتنا إلى المؤسسة، طلبتُ من غسان أن يُبقي الأمر سرًّا

بيني وبينه فقط، وألا يُطلع فاتنة على أي معلومة عن الشيخ؛ خوفًا من أن تُلحقها في الأرشيف، فوافق ضاحكًا، وأخبرني بأن أم عامر كثيرًا ما كانت تسأل عني فترة غيابي، وكان يخبرها بأنني منشغل في مكان آخر بعيد بعض الشيء، ثم سألني: «ما رأي الدكتور في أن نقضي ليلتنا عند الآنسة أم عامر؟» أضحكتني عبارته بعمق، وأخبرته بأن أمامنا الكثير من العمل.

كنا على وشك الوصول إلى المؤسسة حين رنَّ هاتفي ثلاث رنّات متقطعة وصمتْ. عرفت بأن رسالة نصيّة قد وصلتني. فتحتُ علبة الرسائل وقرأت: «اجتماع طارئ بعد عشر دقائق.. أنتظرك». رفعتُ نظري عن الهاتف وطلبت من غسان التوجه إلى الوزارة.

❋ ❋ ❋

لم يكن السيد الوزير قد خصص الكثير من الوقت للاجتماع الطارئ، ولكنه سها وراح يخبرني بأن المؤسسة ستنتقل قريبًا إلى مكانها الجديد، وأن هناك احتمالًا كبيرًا بأنه سيخرج من الوزارة ليتفرغ لرئاسة المؤسسة، وسألني عن طبيعة اللقاء بالسيد الرئيس، فأخبرته بأنه أراد تكليفي بموضوع خاص جدًّا يندرج ضمن عملنا، ولكن، وقبل الإفصاح عما كان بجعبته، جاءته مكالمة هاتفية أفرحته جدًّا، وصار يضحك بسعادة، ثم أخبرني بأن المشروع بيننا قد تأجل لفترة وجيزة، ثم أغدق عليَّ كرمه وطلب مني السياحة في البلد على حسابه الخاص، وذلك ما منحني فرصة عظيمة لزيارة

متاحف البلد وزواياها الفنية والثقافية، ثم سألته عن بناية المؤسسة وما قد فكَّر بخصوصها حين تنتقل إلى بنايتها الجديدة. حينها قال لي فكرتَه بشكل واضح، يبدو أنه توصل إليها عن قناعة: «يمكنك بيعها لساكنيها بالقطعة، وتبقى الأرض باسمك، وهذا ما سنتفق عليه لاحقًا.

أنهى السيد «الوزير» فنجان قهوته الثاني، وأشعل سيجارته الرابعة، ونظَر إليَّ وهو يُداعب سيجارته بين السبابة والإبهام، ثم قال: «لقد صدر الأمر باغتيال صديقك الفنان»، ثم سكَت تاركًا روحي تسبح في غشاوة قاتمة كانت قد غزتني من قبل عدة مرات. نهضتُ دون إرادة مني. لم أكن أعرف إلى أين ستأخذني تلك الدوامة الثقيلة بمرارتها، والتي اختصرت كل عالمي للحظات «بحاجة إلى كأس من الويسكي». قلت لنفسي، وقررت إنهاء اللقاء بسرعة. كان الرجل ينظر إليَّ بتوجس دون أن ينطق بكلمة. عدت إلى مكاني السابق، وقبل أن أجلس سألت:

«لماذا؟».

دعك «الوزير» رقبته بعد أن أمال رأسه جهة اليسار قليلًا وقال:

«لقد أُكملَ الملف، وآتى ثماره، وهناك ثمار أخرى علينا جَنْيها من خلاله؛ لذا يعتبر عطا الآن عقبة قد تقف حيال ما نطمح إليه..»، ثم اعتدل بجلسته وطلَب مني أن أفهمه جيدًا، وأضاف: «جماعة حلمي يخططون لخطف عطا وإجباره على تغيير أقواله، مُتَّهمين كتلتنا بأنها أجبرته تحت تأثير السلاح والتهديد بالقتل

ليـدلي بـما أدلى بـه مـن أقـوال؛ لـذا وجـب التخلـص منـه بـأسرع وقـت.. علينــا أن نســبقهم في النيــل منــه».

وقفتُ وأنـا أرتعش، ورحـتُ ناظـرًا صـوب الأرض. وقعتْ نظراتي عـلى فـردتي حذائـي، وسرعـان مـا تحولتـا إلى فـردتي نعـال بلاسـتيكية بنية اللـون، ليغـزوني شـعور بالوضاعـة والإهانـة ضربًـا بنعـالٍ، قلـت مخاطبًـا روحـي القلقـة ونظـري لا يـزال متسـمرًا عـلى فـردتي النعـال المُتخيَّلـة: «إنهـا بالفعـل لحظـة تاريخيـة رُسـمتْ بنعـال».

رفعـتُ رأسي ناظـرًا صـوب الرجـل، وقلـت: «ليكـن عطـا آخـر القديســين».

أطلـق الرجـل زفـرة عارمـة، وهبـط بجسـده غائصًـا بكرسـيه. شـعرت وكأن روحـه قـد اسـتقرت بعـد أن كادت تفارقـه جزعًـا مـن طـول انتظـار، ثـم ابتسـم وقـال بسـعادة غامـرة:

«اتفقنا».

عـدتُ إلى الكـرسي جالسًـا، وشربـت المتبقـي مـن المـاء، ثـم سـألت: «سـيادة الوزيـر، هـل حـان الوقـت لتخـبرني كيـف توصـل السـيد الرئيـس إلى معرفتـي؟» دعَـك السـيد «الوزيـر» راحتيـه ونظـر صـوبي ثـم قـال: «إنـه ضرغـام.. نعـم، وبـكل أسـف أُخـبرك، بـأن ضرغـام قـد بـاع أحـد أهـم أسرارنـا إلى شـخص مقـرَّب جـدًّا مـن الرئيـس..». وقفـتُ مقاطعًـا وقـد اعـتراني غضـب مُـرٌّ:

«أين هو الآن؟»

«اهدأ! لقد انتهى الأمر.. تمت تصفية ضرغام منذ ثلاثة أيام..».

❋ ❋ ❋

اتصلتُ برضوان طالبًا منه تجهيز سيارة مفخّخة، فأخبرني بأنها جاهزة وتنتظر إشارتي. حين أنهيت المكالمة، نظرتُ إلى ساعتي اليدوية، ثم حوّلت نظري صوب غسان الذي كان يقود السيارة، وطلبتُ منه أن يتوقف ويترك لي السيارة في مكانٍ يُمكّنهُ من الحصول على سيارة تاكسي، فقد تذكّرت موعدي مع الأستاذ عدنان، وأن أمامي ساعة واحدة فقط قد لا تكفي لشراء هدية لهيام.

حين غادرني غسان، هاتفت عطا سائلًا إياه إن كان هناك محل صياغة في منطقته، فأخبرني بأن هناك محلًّا يعرف صاحبه جيدًا إلى جانب المطعم الذي يمتلكه. كانت مفاجأتي كبيرة حين عرفت بأن عطا يمتلك مطعماً، فأخبرته بأنني سأكون قرب بيته بعد دقائق.

وصلتُ بيت عطا، وكان بانتظاري، صعد إلى السيارة وأخذ مكانه إلى جانبي وهو يبتسم ناظرًا إلى داخلها، سألته عن سبب ابتسامته، فقال متسائلًا: «أليست هذه سيارة صديقك الذي أوصلني من المطار إلى البيت؟» فأجبته بالإيجاب وأخبرته كاذبًا بأنني استعرتها منه لأنني على موعد غرامي بعد أقل من ساعة؛ لذا أريد شراء قطعة ذهبية لحبيبتي الجديدة. مسَح رأسه الحليق وقال متفكهًا وهو يطلق ضحكة صاخبة: «أليست لحبيبتك الجديدة أخت أو صديقة صالحة للعمل مع صديقك الفنان كموديل عار؟» أطلقتُ ضحكة

463

عميقـة صادقـة وقلـت لـه بأنـه لا يقـرب الفتيـات الصغـيرات، وأغلـب صديقـاتي مـن تلـك الفئـة العمريـة، فقـال كلمـة أرعبتنـي:

«أنت مجرم يا صديقي!»

فقلت له مداريًا ارتباكي جرّاء كلمته:

«في الحب فقط، يا صديقي».

وصلنـا مطعـم «الركـن الأخـضر» الـذي يمتلكـه صديقـي الفنـان ويديـره أحـد أشـقائه كـما أخـبرني حينهـا، وطلَـب عطـا مـن شـقيقه أن يجهّـز لنـا أكلـة كبـاب خاصـة «بالأحبـة» حتـى عودتنـا مـن الصائـغ. أخبرتـه بـأن لا وقـت لـدي، واعـدًا إيـاه بأننـي سـأتناول فطـوري معـه صبـاح الغـد، وسـألته عـن السـاعة التـي يتنـاول بهـا فطـوره، فقـال التاسـعة صباحًـا. وعدتـه أن أكـون في مطعمـه غـدًا صباحًـا عنـد التاسـعة لنتنـاول فطورنـا ونتحـدث كثـيرًا، فوافـق ضاحـكًا.

اشـتريت سلسـلة ذهبيـة، تتـدلى منهـا فراشـة مرصَّعـة بأحجـار صغـيرة فيروزيـة اللـون، وخاتمًـا نسـائيًا منقوشًـا عليـه شـكل الفراشـة التـي في القـلادة، ولكـن بحجـم أصغـر. دفعـتُ الثمـن بعـد أن وضَـع الصائـغ مـا اشـتريته في علبـة أنيقـة داكنـة الزرقـة. ومـا إن خرجنـا مـن المحـل حتـى ودَّعـت صديقـي الفنـان عـلى أمـل اللقـاء غـدًا صباحًـا.

في طريقـي إلى بيـت عدنـان، توقفـتُ بسـيارتي عنـد فسـحة واسـعة تفصـل بـين صفـي بيـوت متراصـة. اتصلـتُ برضـوان وطلبـت منـه

تجهيـز السـيارة المفخّخـة عنـد الثامنـة صباحًـا، وأن يـترك لي خـلال السـاعات القادمـة جهـاز التحكـم بالتفجـير عـلى مكتبـي في المؤسسـة، ثـم شرَحـت لـه كل مـا عليـه القيـام بـه. أخـبرني بعـد ذلـك بنـوع السـيارة ولونهـا، وأنـه مـن سـيقودها ويركنهـا في المـكان المناسـب. ودَّعتـهُ وأغلقـت الهاتـف بأصابـع مرتجفـة.

شـعرتُ بغمامـة حـزن سـوداء تغـزو روحـي، وضعـت جبهتـي عـلى المقـود وأنـا مغمـض العينـين، أشـعر بالانهيـار، وللمـرة الألـف أسـأل نفسي: «مـن أنـا؟» ليأتينـي الجـواب كـما في كل مـرة. مشـهد سـينمائي متقـن بحرفيـة عاليـة: «أنـا حصـان مـوت جامـح يجـر عربـة دون حـوذيّ، عربـة متلَّلـة بجثـث عائـدة لأحـلام جميلـة وأمنيـات عشـاق.. أنـا المـوت، رصاصـة الرحمـة، رصاصـة الغـدر الرحيمـة التـي تطفـئ الأحـلام المزيفـة.. تطفـئ أرواحًـا حالمـة بمسـتقبل مـشرق لبلـدٍ شمسـه سـوداء..».

رفعـت رأسي ناظـرًا إلى السـماء، وأطلقـت صرخـة مكبوتـة: «أيتهـا السـماء!.. أيـن الرحمـة؟»

قـدتُ سـيارتي متوجهًـا صـوب بيـت عدنـان، وقـد قفـز إلى ذهنـي سـؤال اسـتحوذ عـلى تفكـيري طيلـة الطريـق: «لمـاذا ينظـر البـشر نحـو السـماء كونهـا موطـن الإلـه، والصانـع والمانـح والمخلّـص؟.. لمـاذا لا ينظـر إلى الأرض ليقدسـها، فمنهـا أتـى وإليهـا يعـود، ومنهـا يـأكل ويـشرب، وعليهـا يسـتقر وينـام ونـمارس ملذاتنـا، ويشـيد عـلى سـطحها أماكـن أمنـه وسـلامته وعبادتـه؟

ألا يقــترب النظــر إلى الســماء مــن الوهــم، بينــما النظــر إلى الأرض هــو الحقيقــة بعينهــا؟»

❁ ❁ ❁

استقبلني الأسـتاذ عدنـان عنـد بـاب بيتـه واصطحبنـي إلى الداخـل، ولكــن، مــا إن خطونــا بضــع خطــوات حتــى اقــترح عــليَّ الجلــوس في حديقــة الــدار حيــث الطاولــة البلاســتيكية البيضــاء والكــراسي الأربعــة الموزعــة حولهــا. كان هنــاك دورق مــاء مثلّــج وعــدة أقــداح.

جلســتُ ناظــرًا في وجــه صاحبــي. راعنــي الشــحوب الــذي تلمســته. ســألته إن كان يشــكو مــن أي عــارض صحــي، وقبــل أن يجيبنــي ظهــرت هيــام مُعطِّــرة مــا يحيطنــا مــن هــواء. كانــت بهيــة أنيقــة، ولكــن مســحة حــزن بانــت واضحــة عــلى ملامحهــا، حرّكــتْ بداخــلي شــكوكًا غــير مريحــة.

وقفــتُ حامــلاً علبــة الهديــة، ثــم قدَّمتهــا لهــا مهنئًــا بعيــد زواجهــا مــن أســتاذي. نظــرتْ إليَّ بدهشــة ثــم راحــت تــوزع نظــرات حائــرة بينــي وبين زوجهــا الــذي كان قــد رسَــم عــلى وجهــه ابتســامة تقــترب إلى الضحــك، ثــم قالــتْ بــأن اليــوم لا يصــادف تاريــخ زواجهــما، فقلــت: «الأمــر بالنســبة إليَّ يختلــف، ففــي مثــل هــذا اليــوم عرفــت بأنكــما قــد تزوجتــما منــذ زمــن؛ لــذا أعــده يــوم فــرح خاصًّــا بي..». احتضنتنــي شــاكرة، وحــذا عدنــان حذوهــا، ولكنــه حــين احتضننــي تلمَّســتُ وهــن جســده وصعوبــة أنفاســه.

466

ثلاث بطّات محشية ومشوية، أعدتهن هيام، بالإضافة إلى الرز والبامية، وكأنها تحتفل. كنتُ أتناول الطعام ناظرًا صوب معلمي، أتفحَّصه علّني أجد جوابًا للأسئلة التي بدأت تتلاطم داخلي بسبب شحوبه، حتى سألته بعد أن نفد صبري:

«أستاذي العزيز، هل تشكو من شيء؟ أرى شحوبًا على وجهك، هل أنتَ متعب؟»

صمت عدنان ولم يجبني، وراح ينظر في طبقه، حتى أجابت هيام عنه: «أستاذنا يعاني من آلام في الرئة وضيق في التنفُّس.. أمس كنا عند الطبيب، وقال إن الأشعة أظهرت بعض البقع على جدار الرئة؛ لذا حوَّله إلى مستشفى العاصمة لأخذ عينات..». صُعقتُ، وصارت اللقمة في فمي مستحيلة الازدراد. ذهبت إلى الحمام، وعُدتُ بعد أن لفظت لقمتي. شربت كأس ماء، وسألت:

«منذ متى وأنتَ تشعر بالألم؟»

«منذ فترة ليست بالقصيرة، ولكن..».

قاطعته هيام قائلة:

«منذ مقتل عبد الله وهو يتنفس بصعوبة..».

نكَّستُ رأسي ورحت أنظر إلى أصابعي وصرت أردد في أعماقي: «هل يُقتل عدنان برصاصات استقرت في جسد غيره؟ هل أنا قاتله؟»

رفعتُ رأسي وأخرجت تلفوني ورحت مهاتفًا الدكتور واثق.

أخبرتـه بحالـة عدنـان وشرحـتُ لـه التفاصيـل، مشـددًا عـلى أنـه سـيكون في المستشـفى غـدًا صباحًـا لغـرض أخـذ عينـة مـن الرئـة، ورجوتـه الاعتنـاء بـه كونـه الإنسـان الأهـم عنـدي. طلَـب الدكتـور واثـق الحديـث مـع عدنـان شـخصيًا، فأعطيتـه الهاتـف، وراح يجيـب عـلى بعـض الأسـئلة.

قبـل أن أغـادر مودعًـا هيـام وعدنـان الـذي طبعـتُ قبلـة عـلى جبينـه مطمئنًـا إيـاه بـأن مديـر المستشـفى شـخصيًّا سـيتولى حالتـه، قـال لي بعـد أن سـمع بضـع كلـمات مـن زوجتـه:

«مرهـون العزيـز، أرجـو أن تتكلـم مـع هيـام لتكـفَّ عنـي خوفهـا الـذي تظهـره لي فترعبنـي..». ضحكـتُ وأنـا أمسـك كتفـه ثـم قلـت لـه:

«المـرأة التـي تكشـف لـكَ خوفهـا الإنسـاني هـي الجديـرة بالحـب، هـي التـي ممكـن أن تحبـك كرجـل.. خـوف المـرأة عنـوان أنوثتهـا، فالمرأة الخائفـة دائـماً بحاجـة إلى رجـل يحميهـا، وهنـا يكمـن الـسرّ..». ضحـكَ عدنـان بعمـق حتـى كاد يختنـق، ثـم لام نفسـه لأنـه طلـب منـي الحديـث مـع هيـام بخصـوص خوفهـا، وقـال مشـيرًا صـوبي وصـوب هيـام:

«كنت في واحدة، أصبحتُ في اثنتين..».

25

وصلتُ مطعم «الركن الأخضر» قبل التاسعة بعشر دقائق، كان عطا جالسًا أمام طاولة صغيرة خارج المطعم حيث الرصيف. ألقيتُ عليه التحية الصباحية وطبعتُ على وجنتيه أربع قبلات بالتناوب، ثم جلست إلى جانبه تتوسطنا الطاولة. ابتسم وقال ضاحكًا: «لقد شربتُ الكثير ليلة أمس، كنتُ أرسم لوحة تتحدث عن كلاب ببدلات عسكرية، مشغولة بقراءة الكتب.. يا الله! كم بدت رائعة..!» ثم أشار بسبابته نحوي وقال: «يجب أن تراها، ولكن بعد أن نتناول فطورنا».

سألته عن السبب الذي يدفعه لاختيار مكانٍ خارج المطعم وليس داخله، فقال إن رائحة الشواء تؤذيه وتُشعره بالدوار، وقال بأنه يجلس في مكانه المفضَّل كل صباح تقريبًا، ومهما اختلفتْ حالة الطقس.

رنّتْ في رأسي فكرة، فسألته: «منذ زمن وأنا أفكر بتكليف نحّات، لينحت لي تمثالًا يمثلني، فهل لديكَ ما تقترحه لشكل التمثال؟» نظر صوبي ضاحكًا وقال متفكهًا: «لماذا، هل أنتَ

469

رئيس دولة أو عالم أو مكتشف؟» ضحكنا، ثم أعدتُ عليه السؤال وأظهرت له بعض الجدية، فمد يده اليسرى إلى رقبتي. تلمسها وقال إن طول رقبتي وعينيَّ أهم ما يميزانني، ثم قال: «لو كنت أنا المكلّف بتصميم التمثال لعملته كالتالي..». صاحَ على العامل طالبًا منه ورقة بيضاء، ثم استل قلماً «فحميًّا» من جيب قميصه حال وصول الورقة بين يديه، وراح يخطط مقترِحًا شكل التمثال. حين انتهى من التخطيط، وأثناء ما كان يشرح لي بعض التفاصيل، أتى عامل المطعم بالأطباق ليضعها على الطاولة. سحَب عطا ورقته وقدمها لي قائلاً: «نتحدث فيما بعد.. أنا جائع».

بعد عشر دقائق من مباشرتنا الأكل، شاهدت رضوان بسيارة بيضاء وهو يركنها أمامنا، ثم ترجّلَ منها وأقفلها مغادرًا حيث الجهة المقابلة. نظر عطا إليَّ وقال ممتعضًا: «انظر لذلك الحيوان، أين أوقف سيارته؟ لقد سدَّ علينا رحمة الله!» ابتسمتُ له، وسألته إن كان يمتلك هاتفًا يمكنني استعارته لدقائق. أخرج الهاتف من جيبه وأعطاني إياه. قمتُ متأبطًا الورقة التي اقترح عليها صديقي الفنان شكل التمثال، وطبعتُ قبلة على قمة رأسه الحليق وكأنني أودعه، ثم باشرت بالضغط على أزرار الهاتف طالبًا رقم رضوان، وحين أجابني وأنا أبتعدُ عن المطعم ببطء شديد مستفهمًا من رضوان بعض التفاصيل، كان كل شيء كما خُطط له، وحين وصلتُ منعطفًا يُفضي إلى شارع آخر كنتُ قد ركنت سيارتي في نهايته، دخلت الشارع وسارعت الخطى، وما إن صار مكاني آمنًا، حتى أنهيت المكالمة وأخرجت من جيب بنطالي زر التحكم، الذي أعدت له بطاريته، وضغَطتُ.

دوى انفجار هائل أسقطني أرضًا، وشاهدت وأنا أشم رائحة التراب المختلط بالبارود أشكالًا بشرية ضبابية تتراكض هلعة لا تعرف لها اتجاهًا.

كان هاتف صديقي عطا الفنان في يدي وأنا أجلس خلف مقود سيارتي، وضعته على الكرسي المجاور وأدرتُ المحرك لأنطلق دون تحديد وجهتي. كنت أقود السيارة وأنا أصرخ لاعنًا كل شيء، وكانت دموعي تنهمر بغزارة، وكنت أمسحها بكفيَّ كلما تعذرتْ عليّ الرؤية.

توقفتُ عند بداية زقاق ضيق دون أن أعرف أين. ترجّلتُ من السيارة، وتركتها بعد أن أقفلتها. ذلك كل ما تذكرته حين صحوت عطشانًا لاهثًا من الركض أثناء كابوس كانت تطاردني فيه سحالي بحجم كلاب، مجتمعات بسلاسل مرتبطات بسلسلة واحدة طويلة تمسكها أختي وداد. كانت شعثاء الشعر، محمرة العينين، وكانت تصرخ: «أمسكوا مرهون النذل.. مزقوا مرهون النذل..». وكانت السحالي تصرخ بي وهي تجري خلفي: «ما أنتَ إلّا مجموعة متناقضات، قذارات.. جثث متعفِّنة لعاهرات، قد غُلِّفَتْ بجلدِ إنسان، بغفلة من الحياة..». وما إن شعرت بأن إحدى السحالي باتت قريبة وكادت تنال مني حتى صحوت فزعًا، لأتبين نفسي ممددًا على أرض غرفة السطح في بيت الأستاذ عدنان القديم، ومن حولي رموز الضحايا مبعثرة.

لا أدري كم من الوقت نمت، ولكن الذي عرفته أن الساعة تقترب من السادسة صباحًا. نفَضتُ الترابَ عن ملابسي، وانتبهتُ وأنا أخرج من الغرفة، بأنني قمتُ بكسر القفل حتى أتمكن من دخولها، ويبدو أنني فعلت الشيء نفسه مع القفل الخاص بباب الدار.

نزلتُ إلى الباحة وغسلت وجهي بماء الحنفية البخيل جدًّا، والذي كان يحمل رائحة صدأ وعفونة خانقة، وذلك ما أجبرني على الاحتفاظ بعطشي لفترة أطول.

صعدتُ إلى غرفتي مرة أخرى لأجمع ما بعثرته. لم يكن الأمر بهّين، فقد تذكرت كل الأرواح التي زُهقت، وشخصت أمامي عيونهم المطالبة بالثأر.

عند السابعة سمعت صوتًا رجوليًّا قادمًا من باحة البيت وهو يسأل إن كان هناك أحد داخل الدار. ناديتُ عليه ونزلت لأجد الرجل الذي عهد إليه عدنان بمهمة حراسة وحماية البيت من العابثين والعوائل السائبة. ألقيتُ عليه التحية الصباحية مصافحًا، وحين سألني عن سبب كسر القفل أخبرته بأنني فقدت المفاتيح وصار من اللازم شراء قفل جديد، ثم سألته وأنا أنظر في وجهه ماسكًا كتفه: «هل تناولتَ فطورك؟» أجابني بالنفي، وأنه قد اكتفى بكأس شاي قبل أن يشعل سيجارته الأولى. أعلنت له رغبتي في تناول الفطور معه عند أحد المطاعم القريبة، ولكن علينا شراء الأقفال أولًا، فأخبرني بأن هناك محلًّا قريبًا، وما إن شرعت بإخراج

مبلـغ لأعطيـه للرجـل حتـى تذكـرتُ سـيارتي ومـا تركتـه داخلهـا. خرجـتُ مـن البيـت مسرعًـا وأنـا أعِـدُ الرجـل بالعـودة سريعًـا، طالبًـا منـه شراء الأقفـال.

وصلـتُ سـيارتي ووجدتهـا عـلى حالهـا، ومـا إن جلسـت خلـف المقـود حتـى تناولـت هاتفـي لأجـد فيـه الكثـير مـن المكالمـات، كان أغلبهـا مـن رضـوان، وغسـان الـذي كلّفتـه بمتابعـة الشـيخ صديـق الرئيـس، ومكالمتـين مـن السـيد «الوزيـر»، وواحـدة مـن الأسـتاذ عدنـان الـذي تـرك لي رسـالة صوتيـة يخبرني بهـا، بأنـه قـد عـاد إلى بيتـه بعـد أن أُجريـت لـه الفحوصـات في المستشـفى وتحـت إشراف الدكتـور واثـق.

هاتفـتُ السـيد «الوزيـر» وطمأنتـه عنـي وعـن تنفيـذ العمليـة «بسـلام»، ثـم طلبـتُ منـه إجـازة لمـدة أسـبوع لأنني عـلى وشـك الانهيـار، فوافـق بطيـب خاطـر، ثـم هاتفـتُ غسـان ليخـبرني بـأن فاتنـة تشـعر بوعكـة خفيفـة، فاعتـذرتْ عـن عـدم الحضـور إلى عملهـا.

مسـكتُ الهاتـف مـترددًا، هـل أتصـل برضـوان أم لا؟ كان الاتفـاق أن يعـود رضـوان إلى مـكان الانفجـار ليتأكد مـن موت الهـدف. في تلـك الأثناء رنَّ تلفـون عطـا. حمَلتـه ناظـرًا للرقـم فوجدتـه خارجيًّـا، ضغطـتُ عـلى زر القبـول لأسـمع صوتًـا نسـائيًّا هلعًـا يسـألني إن كنـت أنا عطـا. أخبرتهـا بأن عطـا غـير موجـود، ثـم سـألتني مسـتفسرة عـن خـبر اغتيالـه، فأكـدت لهـا ذلـك متأسـفًا، وحـين سـألتني مـن أكـون، أخبرتهـا بأنـني ضابـط الشرطـة المكلـف بالتحقيـق في الحـادث، سـمعتُ صرخـات المـرأة، فأغلقـتُ الهاتـف، ثـم للحظـة انتبهـت لفظاعـة الخطـأ الفـادح الـذي ارتكبتـه، فقلـت بداخلي:

«يـا إلهـي، مـاذا فعلـت يـا مرهـون؟.. هـل أنـتَ مجنـون؟.. كيـف ترد عـلى هاتـف شـخص لقـي حتفـه في انفجـار سـيارة مفخّخـة، أليـس حريًّا بالمـرأة أن تسـأل لمـاذا لم يحـترق الهاتـف أو يعطـب في الانفجـار؟»

وبسرعة أطفأت الهاتف ودسسته في حقيبة السيارة الداخلية.

هاتفـتُ رضـوان مسـتخدمًا هاتفـي، فأخـبرني بـأن الرجـل قـد تحـول إلى أشـلاء، ولم يبـقَ منـه شيء، لقـد تمـزق متفحـماً، وأن أشـلاءه المتفحمـة قـد تناثـرت مختلطـة بأشـلاء مـن كان هنـاك. طلبـتُ منـه السـكوت وعـدم الاسـتفاضة بالـشرح، وطلبـتُ منـه أن يبعـث بيـان اسـتنكار جريمـة اغتيـال الفنـان الشـهيد إلى وسـائل الإعـلام. سـيجده عـلى مكتبـي داخـل مظـروف أصفـر اللـون. أغلقـتُ الهاتـف دون أن أودعـه، فلـم يعـد بمقـدوري سـماع تفاصيـل جريمتـي. عـدتُ إلى بـاب الـدار لأجـد الرجـل بانتظـاري وقـد اشـترى قفلـين كـما طلبـت منـه.

ثبَّـتُّ أحـد الأقفـال عـلى بـاب غرفتـي، والثـاني عـلى البـاب الخارجي، ثـم توجهـتُ مـع الرجـل إلى المطعـم الـذي سـيختاره لنتنـاول فطورنا.

اشـتريتُ ثـلاث قنـاني مـاء معـدني مـن أقـرب دكان صادفتـه، ناولـتُ إحداهـا إلى الرجـل، وشربـت الثانيـة دفعـة واحـدة، بينـما احتفظـت بالثالثـة لتسـاعدني عـلى ازدراد فطـوري. أشـار الرجـل إلى دكان صغـير تناثـرت بعض الصفائـح المعدنيـة أمامـه حيـث الرصيـف، كان بعـض الرجال يحتلـون بعض الصفائـح كمقاعـد، وكانـت هنـاك صفائـح شـاغرة. ومـا إن جلسـت حتـى تذكـرت غرفـة السـاحة التـي عشـت فيهـا ثـلاث سـنوات قاسـية، والتـي قتلـت داخلهـا «مانـع». ضحكـت قائـلاً بـأن الزمـن يعيـد نفسـه.

لم يكن مهماً أن يطلب الزبون من صاحب المطعم ما يرغب في تناوله، فما عليه إلا أن يجلس على صفيحة، وصفيحة أخرى أمامه تستخدم بمثابة الطاولة حتى يأتيه طعامه: ثلاثة أطباق معدنية، ورغيفا خبز، بيضتان مقليتان، طماطم مقلية، والصحن الثالث يحتوي على أربع قطع من الباذنجان المقلي، مع قطع بصل طازج. كان فطورًا شهيًّا بالفعل.

حين كتبت بيان استنكار جريمة اغتيال صديقي الفنان، كان عطا يرسم لوحته الأخيرة، كما أخبرني: «كلاب ببدلات عسكرية، مشغولة بالقراءة» وكان منتشيًا، تدب الحياة فيه بكلِّ إبداعها. لقد كتبتُ بيان استنكار مؤثرًا جدًّا، وحرصتُ على أن أضمّنه إشارة «نذلة» جدًّا، مشيرًا إلى أن هناك نزاعات عائلية بينه وبين إخوته على إرث تركه لهم والدهم المتوفى قبل عامين.

❋ ❋ ❋

انهارَ الأستاذ عدنان عند سماعه خبر اغتيال صديقنا الفنان. ساءت حالته ونقلته مع هيام إلى المستشفى. كان الدكتور واثق قد بذل قصارى جهده للاعتناء به، حتى خرج من أزمته، لأعيده ثانية إلى بيته بعد ليلة عصيبة مررنا بها، وما إن جلَس على الأريكة حتى نظر صوبي قائلاً: «يا صديقي، لا أحد يضمن بقاءه على قيد الحياة، ولكَ في ذمتي دين كبير، أتمنى عليكَ راجيًا أن تأخذه مني كي ترتاح نفسي وتطمئن..». ابتسمتُ له وقلت: «وكيف لي

475

أن أرد لـكَ الدين الـذي في عنقـي؟.. كيـف أرد تعليمـك ورعايتـك وتوجيهـك لي؟» ضحـكَ بضجـر، وطلـب منـي ألا أتعبـه باللعـب في الكلـمات، وأشـار إلى هيـام أن تأتيـه بـشيء، لتخـرج وتـأتي بكيـس قـماش أزرق اللـون، قـد خيطـت لـه فوهـة بحبـل أبيـض رفيـع، وحـال رؤيتـه ابتسـمت وقلـت مخمنًـا أن هيـام مـن خاطـت ذلـك الكيـس.

وضعـتْ هيـام الكيـس أمامـي حيـث الطاولـة وجلسـتْ إلى جانـب زوجهـا مطوِّقـةً كتفيـه بذراعهـا. قـال عدنـان بـأن السـعادة سـتغمره حـين أحمـل الكيـس معـي وأنـا أودعـه، فحملـتُ الكيـس واقتربـتُ منـه لأطبـع قبلـة عـلى جبينـه مودعًـا.

حـين وصلـتُ بـاب الـدار وأردت توديـع هيـام عـلى أمـل زيارتهـما قريبًـا، لاحظـتُ التـماع دموعهـا، احتضنتهـا وطلبـتُ منهـا ألّا تخـاف على صحـة ووضـع أسـتاذنا، فقالـت: «أشـعر بأننـي سـأفقد عدنـان قريبًـا.. أنـا خائفـة يـا مرهـون..». وضعـتُ رأسـها عـلى صـدري وطلبـتُ منهـا إظهـار التماسـك أمـام عدنـان لأنـه بحاجـة إليهـا.

❋ ❋ ❋

الورقـة التـي خططهـا صديقـي الفنـان الشـهيد، كمقـترح لتمثـال، تنتصـب أمامـي حيـث الجـدار المقابـل لمكتبـي، صرتُ أنظـر إليهـا مسـتعيدًا حوارنـا الأخـير، وكلـما اسـتعدت ذكـرى ذلـك الصبـاح الموجـع، يصلنـي صـوت عطـا بشـكل أوضـح مـن المـرة السـابقة، حتـى صـارت نـبرة صوتـه تلازمنـي عـلى مـدار

الساعة. وفي لحظة، كنت أتأمل فيها ذلك التخطيط، شعرتُ بألا وقت لدي، وأن عليَّ المباشرة بتنفيذ التمثال. رفعتُ الهاتف واتصلت بصاحب الدار الذي طبعت عنده ديوان صديقي الشاعر «عدنان الندائي»، وسألته إن كان يعرف نحاتًا يمكنني الاعتماد عليه بمشروع مهم، فأرشدني إلى شاب نشيط لا ينقصه الإبداع اسمه «ضياء مهدي»، غالبًا ما يكون موجودًا في شارع المكتبات بعد الظهر. طلبتُ منه رقم هاتف الفنان الشاب وسجّلته مباشرة في هاتفي، وما إن أنهيت مكالمتي مع الرجل حتى اتصلت بالفنان النحَّات، واتفقت معه على موعدٍ في مقهى شارع المكتبات.

حين دخلت المقهى، توجهت نحو النادل وسألته إن كان يعرف الفنان «ضياء مهدي»، فأشار لي صوبه. شاهدته منزويًا حيث الزاوية القصية من المقهى، كان يقرأ بكتاب تبينت فيما بعد أنه مسرحية اللصوص لفريدرش شيلر. اقتربتُ منه وألقيت عليه التحية، فوقف لي مرحبًا. حين جلستُ قربه، سألته إن كان قد شرب شيئًا، فنفى وقال إنه كان ينتظر قدومي حتى نشرب الشاي معًا. أعجبتني الفكرة وشكرته، لكن تفكيري راح صوب العوز وقلة المال.

وجدتهُ نحيفًا كثيف الشعر، عروق ساعديه تشير إلى قوة عامل بناء فتِيّ. كان نظيفًا إلى درجة تثير الانتباه، حليق الوجه، جميل الملامح، وقد منحته سمرته مسحة جمال ذات خصوصية.

قلتُ له بأنني جائع، وسألته إن كان يرغب في مشاركتي الأكل، فوافق، ثم طلبت منه اختيار المطعم كونه يعرف الشارع بكل زواياه ومنعطفاته، فقال مازحًا: «الكباب عروس الأمنيات».

جلستُ قبالته، وكانت بيننا طاولة تم تنظيفها جيدًا من قِبل أحد عمال المطعم، وضعت المغلف البلاستيكي على الطاولة وسألته إن كان يعرف الفنان الشهيد عطا، فقال ومسحة حزن قد ارتسمت على ملامحه بأنه يعرفه جيدًا، فقد كان دائم الحضور في شارع المكتبات، حيث عادة ما يلتقي به، أطلق عليه «ملك التجريد»، وراح يشرح لي طريقة عطا في الرسم وسحرها في مجال «التجريدية التعبيرية». عند ذاك، تيقنت بأنه يعرفه جيدًا، وذلك ما منحني راحة نفسية شجعتني على إظهار التخطيط الذي اقترحه عطا للتمثال، شارحًا له الفكرة، مشددًا على ضرورة إضافة بعض اللمسات الضرورية كي يحقق التمثال فكرته.

ابتسم ضياء وهو ينظر صوب التخطيط، وقال بأنه يقترب من التعبيرية أكثر من الواقعية، وأفصح عن إعجابه بالعمل ورغبته في إنجازه، لكنه قال: «هناك عقبة تقف حيال تنفيذ العمل من قِبَلي». حين سألته عن طبيعة المشكلة، قال بأنه لا يمتلك مشغلًا أو استوديو، حتى البيت الذي يسكنه قد يتعذر عليه أحيانًا أن يجد مكانًا ينام فيه لكثرة «التماسيح» التي تشاركه سكنه. أضحكتني الكلمة، وسألته: «تماسيح!.. ماذا تقصد؟» أجابني ضاحكًا هو الآخر: «الأخوات والإخوة.. نحن سبعة، نعيش في غرفتين فقط،

أمـا الغرفـة الخاصـة بوالـدي ووالـدتي فهـي عبـارة عـن «الممـر» بـين الغرفتـين..». ابتسـمتُ لـه واعـدًا إيـاه بإيجـاد حـل للمشـكلة.

صرتُ أفكـر جـادًّا وأنـا أتنـاول طعامـي، باحثًـا عـن مـكانٍ يمكـن اسـتغلاله ليكـون مشـغلًا مؤقتًـا حتـى يتـم تنفيـذ التمثـال، وقـد اسـتبعدت بنايـة المؤسسـة عـن تفكـيري، وكان ضيـاء يـوزع نظراتـه بـين الأكل والتخطيـط، كان مبتسـماً وكأنـه ينثـر إعجابـه بتصوراتـه عـن العمـل. في تلـك اللحظـة، خطـرت لي فكـرة رقصتْ لهـا روحـي طربًـا. نظـرتُ صـوب الشـاب الفنـان مبتسـماً وقلـت لـه: «أعتقـد بأننـي وجـدت الحـل، ولكنـي بحاجـة إلى إجـراء مكالمـة هاتفيـة سـأجريها بعـد الانتهـاء مـن تنـاول الطعـام».

دخـل ضيـاء المقهـى متعطشًـا لـكأس شـاي، وبقيـتُ أنـا خارجهـا بغيـة إجـراء مكالمـة تلفونيـة. هاتفـتُ عدنـان الندائـي لأطـرح عليـه فكـرة تحويـل بيتـه القديـم إلى مشـغل للنحـت! كان مزاجـه طيبًـا حـين كان يسـتمع إليَّ وأنـا أشرح لـه الفكـرة، وحـين اكتملـت صـورة المشروع في مخيلتـه قـال: «لقـد أنقذتنـي بمشروعـك هـذا مـن هـمٍّ ثقيـل كان جاثـماً عـلى روحـي. أرجـوك، افعـل أي شيء لذلـك البيـت شريطـة أن يكـون في مجـال الثقافـة والفـن فقـط».

❋ ❋ ❋

التحقـتُ بضيـاء مُبـشّرًا إيـاه بالخـبر: «لقـد وجـدتُ بيتًـا ليكـون مشـغلًا لـك..». كاد الشـاب يطـير فرحًـا، خصوصًـا بعـد أن عـرف

المنطقـة التـي يقـع فيهـا البيـت، وأن لا أحـد يسـكنه، ومـا إن انتهينـا مـن شربنـا للشـاي حتـى انطلقـتُ بـه صـوب بيـت «النّدائـي».

راح ضيـاء يتفحـص البيـت، وأراد الصعـود إلى السـطح فسـألته عـن حاجتـه لذلـك، فقـال بأنـه يريـد أن يتفقـد كل زاويـة في البيـت مـن أجـل اسـتغلاله بالشـكل الأمثـل. حينهـا شـدَّدتُ عليـه بـأن مـن غير المسـموح محاولـة الدخـول إلى غرفـة السـطح، أمـا بقيـة الأماكـن، فتحـت تصرفـه.

حـين نـزلَ مـن السـطح، وكان قـد أكمـل جولتـه في البيـت متفقـدًا، طلبتُ منـه الجلـوس حيـث المنضـدة، وكـررت عليـه مـا طلبـه منـي الأسـتاذ عدنـان النـدائي حـين زرتـه في بيتـه للمـرة الأولى: «تأكـد مـن صلاحيـة الكـرسي قبـل اسـتخدامه!» ومـا إن اسـتقر عـلى الكـرسي وأجابني مفصحًـا عن رأيـه في البيت بعـد أن سـألته ذلـك، أوضـح لي بأنـه المكان الأمثـل، ولكـن ينقصه الكثير، ثم سـألني بجديـة واضحـة: «هـل يمكنني المبيـت هنـا إن اضطـررت لذلـك؟» ابتسـمتُ لـه موافقًـا، وأخبرتـه راجيًا أن يحسـب البيت بيتـه، ولكن هناك سـقفًا معينًـا يجـب ألّا يتجـاوزه، وحـين سـألني عنـه، أخبرتـه بـأن عـلى الرجـل الجار الـذي أُوكِلَـتْ لـه مهمـة حراسـة البيـت وتفقـده بـين فـترة وأخـرى، أن يعرف بوجـوده كمسـتأجر، والـشيء الثـاني احـترام خصوصيـة الجـيران وعـدم إثـارة الإزعاجـات. وافقنـي واقـترح عـليّ فـترة زمنيـة قصـيرة للتجربـة.

لقـد احترمـت في ذلـك الشـاب جديتـه وثقافتـه. كنـت أتفرسـه طـوال فـترة اللقـاء، فلـم أجـد في روحـه مـا يريبنـي، بـل بالعكـس أشـعرني بسـعادة وأمـل مريـح يُفـضي إلى أن هنـاك العديـد مـن شـبان البلـد يمكـن الاعتـماد عليهـم بـشرف ونزاهـة.

قلـت: «أعـرف أن البيـت غـير صالـح للسـكن، وأعـرف أيضًـا أنـه بحاجـة إلى تعديـلات وتصليحـات، كـما أنـكَ بحاجـة إلى مـا تسـتخدمه بشـكل يومـي: كـراسي، طاولـة، أدوات مطبـخ، بالإضافة إلى عـدة العمل والمـواد الأوليـة؛ لـذا اسـمح لي أن أقـدم لـك مبلغًـا مـن المـال بشـكل أولي؛ كـي تعيـد ترتيـب البيـت..». أعطيتـه المبلـغ الـذي راح ينظـر إليـه وكأنـه غـير مصـدق: «مـا هـذا يـا صديقـي، ألا تعتقـد بأنـه مبلـغ كبـير؟» قلـت لـه مبتسـماً: «لا أبـدًا، وستكتشـف حـين تحـوّل الأوراق التـي بـين يديـك إلى عملـة البلـد، بأنهـا دفعـة أوليـة، سرعـان مـا تحتـاج إلى مثلـه في وقـتٍ قريـب». دسَّ الأوراق في جيبـه، ثـم ألحقهـا بمفتـاح البـاب الرئيـسي الـذي أعطيتـه إيـاه، وأخبرتـه بأنـه حـر التـصرف في البيـت، ولكـن ضمـن حـدود مـا اتفقنـا عليـه، ثـم طلبـت منـه أن يعمـل أكثـر مـن نمـوذج للتمثـال؛ لنختـار الأفضـل.

«والآن دعنـا نذهـب ونطـرق البـاب عـلى جارنـا، الرجـل الطيـب، ربـما نجـده في بيتـه، كـي نحيطـه علـماً بأنـك المسـتأجر الجديـد، فمـن المهـم أن يتعـرَّف عليـك..». قلـت ذلـكَ لضيـاء وأنـا أصطحبـه خارجًـا حيـث بيـت الجـار.

❊ ❊ ❊

في صبـاح اليـوم التـالي، حـين كنـت داخـل بنايـة بنـك العاصمـة لأحـوّل المبلـغ الـذي اسـتلمته مـن الأسـتاذ عدنـان الندائـي، بالإضافـة إلى مبلـغ آخـر أخرجتـه مـن بـين مـا أمتلكـه مـن أمـوال، إلى حسـابي

الـذي فتحتـه حديثًـا في الخـارج، جاءتنـي مكالمـة مـن غسـان، ليخـبرني بـأن الشـيخ جالـس في المقهـى، وإن أردت رؤيتـه والتعـرف عليـه، يمكننـي الالتحـاق بـه حيـث المقهـى. طلبـتُ مـن غسـان أن ينتظـرني هنـاك، لأننـي وجدتهـا فرصـة مناسـبة جـدًّا.

حـال دخـولي المقهـى، وقـع نظـري عـلى الشـيخ صديـق الرئيـس، عرفتـه عـلى الفـور، ليس لأنني كنـت قـد رأيـت صاحـب المقهـى الـذي يجلس إلى جانبـه مـن قبـل، ولكـن جلسـته وهيئتـه وتلـك القـوة التـي تلمسـتها فيـه أوحـتْ لي بذلـك.

كان غسـان الـذي وقـف مرحبًـا بي حالمـا شـاهدني يجلس في الطـرف الأيمـن مـن المقهـى. كان مكانـه رائعًـا، حيـث يمنـح فرصـة عظيمـة لمراقبـة الشـيخ. جلسـتُ إلى جانبـه وطلبـت مـن النـادل شـايًا وقنينـة مـاء، ثـم قرَّبـت رأسي مـن رأس غسـان وسـألته: «هـل وجـدت الطريقـة الأفضـل التـي تمكننـي مـن الدخـول إلى شـقة الشـيخ؟»

ابتسـم غسـان وهـو يداعـب أذنـه اليمنـى بأصابعـه ليـبرر ميـل رأسـه نحـوي: «بعـد أن يتنـاول الشـيخ فطـوره مـع عائلتـه، ينـزل إلى المقهـى ليشرب الشـاي ويتحـدث قليـلًا مـع صديقـه صاحـب المقهـى، ثـم يصعـد مـرة أخـرى إلى شـقته، في تلـك الفـترة يمكنـكَ الصعـود إلى الطابـق الثالـث، ترتقـي السـلم المـؤدي إلى بوابـة السـطح لتنتظـر الشـيخ حتـى قدومـه، وحـين يـشرع بفتـح بـاب شـقته، تكـون أنـتَ خلفـه تمامًـا لتدخـلا معًـا». ابتسـمتُ وأنـا أنظـر إلى غسـان متسـائلًا: «هـل جربـت الطريقـة يـا ملعـون؟» ضحـك وقـال: «ثـلاث مـرات، ودون أن يشـعر

الشيخ بي..!» ثم ضحك وقال: «وبالتأكيد لم أدخل شقته، ولكني حسبت الوقت الذي تتطلبه الخطوات. كنتُ أخبئ نفسي في نهاية السلّم وأنظر إليه فقط».

ثم قال جملة في غاية الأهمية: «يبدو أن الشيخ يعاني من مشكلة في السمع».

قررتُ إنهاء مهمتي التي كلفني بها السيد الرئيس، رغم أنني أحببت الشيخ، ووجدته إنسانًا رائعًا يمكنني التحدث إليه أو سماعه ساعات طوال. شعور تملكني، دون سماع كلمة واحدة منه، لقد سيطرت شخصيته عليَّ، وبتُّ أشعرُ بأنه كنز معلومات، أو صندوق ثقافة يكتنز النوادر التي لا أعرفها، والتي كنت بحاجة إليها. أليس غريبًا أن يتلمس الشخص حاجة في عقل إنسان، ولكنه لا يعرف طبيعة تلك الحاجة؟ سؤال قد لا أجد الإجابة عليه إلا عند أستاذي الندائي، الذي قررت زيارته لأسباب عديدة، أهمها قلقي على وضعه الصحي.

وجدتُ الأستاذ عدنان نائماً حين أدخلتني هيام غرفته، ولكن، ما إن جلست حتى فتحَ الندائي عينيه وقال مُرحّبًا: «أهلاً بك أيها التلميذ النجيب، كنت أنتظر زيارتك، لقد شممت رائحتك التي تشبه رائحة الدم ولكنها أكثر قبولًا..». ضحكتُ لكلماته، لكنها أرعبتني، وصار داخلي متناقضًا مع ما يوحي به جسدي وملامحي.. «تُرى لماذا صار أستاذي يُسمعني كلمات قاسية بين حين وآخر؟.. هل يعرف طبيعة عملي؟» سؤال شائك طرحته على نفسي وأنا أجلس على سرير الندائي، محاولًا الإمساك بطرف إجابة عليه.

أخـبرني عدنـان بأنـه يشـعر بتحسـن منـذ سـماعه فكـرة تحويـل بيتـه إلى مشـغل فنـي، وطلَـب منـي اصطحابـه إلى هنـاك كـي يتعـرَّف عـلى الشـاب بغيـة مسـاعدته في إكـمال المـشروع. وعدتُـه بتحقيـق الزيـارة خـلال الأسـبوع القـادم، كـون الشـاب بحاجـة إلى بعـض الوقـت لإنجـاز بعـض التعديـلات. ابتسـم أسـتاذي لي وشـكرني عـلى الفكـرة، وأثنـاء ذلـك قلـت لـه مقترحًـا مـا فكَّـرتُ بـه وشـغل تفكـيري منـذ أن ودّعـت ضيـاء وخرجـت مـن البيـت القديـم:

«أسـتاذي العزيـز، مـا رأيـك بتحويـل البيـت إلى مركـز ثقـافي فنـي؟ أعتقـد أننـا بعثورنـا عـلى فنـان شـاب نشـيط مثـل ضيـاء، قـد عثرنـا عـلى كنـز يمكننـا اسـتغلاله لتحسـين صـورة الخـراب والإحبـاط التـي تجثـم عـلى أرواحنـا منـذ زمـن؟» اعتـدل النـدائـي بجلسـته وطلـب مبتسـماً مـن هيـام كأس مـاء، ثـم سـألني بفـرح: «كيـف؟» فقلـت لـه:

«باسـتخدام مبلـغ بسـيط، يمكننـا ترميـم البيـت وشـراء أثـاث مكتبـي لـه، ليكـون «مركـز النـدائـي للثقافـة والفنـون»، مـا رأيـك؟»

صفَّـقَ النـدائـي، وانبثـق شـعاع راقـص مـن عينيـه، وقـال: «أخـيرًا سـأحقق أعظـم أحلامـي».

❋ ❋ ❋

في اليـوم التـالي، كنـتُ عـلى موعـدٍ مـع غسـان، بخصـوص عمليـة الشـيخ صاحـب المذكـرات. لم يكـن غسـان عـلى معرفـة بأهـداف العمليـة

484

أو لصالـح مَـنْ. هـو يعـرف بأننـي أروم اغتيـال الرجـل فقـط، ويعـرف أيضًـا بـأن الأمـر في غايـة السريّـة، ولا أحـد يعـرف بـه غيرنـا، أنـا وهـو فقـط.

يـزداد إعجـابي بإخـلاص وسريّـة غسـان في العمـل يومًـا بعـد يـوم، وأعجبـت بـه أكثـر حـين وجـد الطريقـة المثـلى التـي تمكننـي مـن دخـول شـقة الشـيخ بـكل سلاسـة.

وضعنـا الخطـة وحسـبنا دقائـق وثـواني الوقـت الـذي علينـا اسـتغلاله لتنفيـذ العمليـة، لكـن غسـان أبـدى معارضتـه حـين طلبـتُ منـه عـشر دقائـق فقـط أختـلي بهـا مـع الشـيخ، اعـترض ناصحًـا بـأن الدقائـق العـشر تعـد وقتًـا طويـلاً، ولكنـه وافـق في النهايـة، حيـث أخـذ عـلى عاتقـه مراقبـة السـلَّم المـؤدي إلى شـقة الشـيخ تحسـبًا لصعـود أي شـخص مـن أفـراد عائلتـه، أو ربـما يكـون زائـرًا. لكـن المفاجـأة التـي حدثـت ونحـن نـروم التوجـه صـوب البنايـة التـي تضـم شـقة الشـيخ، كانـت مكالمـة هاتفيـة مـن السـيد «الوزيـر» يطلبنـي فيهـا للقـاء عاجـل وعـلى الفـور. نظـرتُ صـوب غسـان مبتسـماً وقلـت: «لقـد مَنَّـتِ السـماء عـلى الشـيخ بسـاعات إضافيـة يعيشـها!»

لم يكـن السـيد «الوزيـر» منزعجًـا، كـما توقعـت، وكـما تلمسـت مـن نـبرة صوتـه أثنـاء المكالمـة. وجدتـه منشرحًـا ينـثر ابتسـاماته في زوايـا مكتبـه، استقبلني بفـرح غامـر ليخبرني بأنـه قـرر التخـلي عـن الـوزارة، وقـد حصلـت الموافقـة، وأن أمامـه سـتة أشـهر فقـط ليخـرج مـن مكتبـه نظيـف اليـد مرتـاح الضمـير. نظـرت إليـه مندهشًـا، ثـم سـألت: «سـيادة

485

الوزيـر، بعـد سـتة أشـهر تظهـر نتيجـة الانتخابـات، هـل كلامـك يعنـي بـأن حضرتـك قـد قـررت عـدم الترشـح». ضحـك ووضـع كفـه عـلى كتفـي واصطحبنـي صـوب طاولـة مكتبـه لنجلـس متقابلـين، ووضـع سـاقًا عـلى سـاق، ثـم أشـعل سـيجارته وقـال: «طالمـا أعجبنـي عملـك يـا صديقـي، وطالمـا فكّـرت بأخـذ منصبـكَ في المؤسسـة؛ لـذا سـأكون مديـرًا عامًّـا للمؤسسـة بعـد انتقالهـا إلى البنايـة الجديـدة».

شـكرته عـلى منحـي فرصـة التخـلي عـن العمـل بالمؤسسـة بتلـك السلاسـة، وعـبرت لـه عـن كـم الآلام والكوابيـس التـي باتـت تغـزو روحـي وسـاعات يومـي بسـبب العمـل وكثافـة الـدم المهـدور، ثـم سـألته إن كانـت المؤسسـة ستشـهد تطـورًا أو توسـعًا، فأجـاب: «بـكل تأكيـد، لقـد اسـتحدثنا ثلاثـة أقسـام جديـدة، يرأسـها ثلاثـة ضبـاط مـن أكفـأ ضبـاط الـوزارة..»، ثـم أشـار لي بسـبابته وكأنـه يريـد التوكيـد، وقـال: «لكنـي لـن أتخـلى عـن فاتنـة مهـما كلفنـي الأمـر!» أفرحنـي كلامه وقلـت لـه: «كيـف تتخـلى عـن العقـل الـذي بنـى المؤسسـة مـن ألفهـا إلى يائهـا؟» أثنـى السـيد «الوزيـر» عـلى كلامـي، ثـم طلـب منـي أن أجهِّـز كل مـا يلـزم لغـرض الانتقـال إلى بنايـة المؤسسـة الجديـدة، فقلـت مسـتفهمًا: «سـيادة الوزيـر، ألم تقـل بـأن أمامـك قرابـة السـتة أشـهر؟»

«نعـم.. ولكـن يمكـن للمؤسسـة الحاليـة الانتقـال إلى المكـان الجديـد، فـكل شيء جاهز..».

«عظيم، وماذا بشأن غسان، هل سيتم الاستغناء عن خدماته؟»

نفـى السـيد «الوزيـر» بشـدة، وقـال بأنـه سـيبقى سـائق فاتنـة

الخاص، وستناط به مهمات خاصة جدًّا، لا أحد يمكنه تنفيذها إلا هو، ثم دَعَك رقبته مبتسماً وأضاف: «ملعون هذا الغسان.. ثعلب!» نظر إليَّ نظرة حنونة وقال بأنه سيشتاق إليَّ، فقد اعتاد على عنادي ومناكفاتي له. ابتسمتُ له وقلت بأنني أود التوجه إلى مجال الثقافة طمعًا في استرخاء نهاية الخدمة، فقال وكأنه تذكر شيئًا: «بالمناسبة، هل فكرتَ بمبلغ مكافأة نهاية الخدمة؟ هل وضعت رقماً معينًا؟»

«لا سيادة الوزير، سأعطيك رقم حسابي الأوروبي، ويمكنك تحديد المبلغ الذي ستودعه لي، وليس مهماًّ معرفة الرقم، ولكنّ هناك شيئًا أهم..». نظر صوبي وكأنه يريد الإصغاء بشوق واضح، فقلت:

«هناك جندي، شريف وشجاع، اسمه «مرهون عيسى الصاحب»، كان يقف حارسًا عند بوابة إحدى المدارس الابتدائية، حين اقترب إرهابي مفخّخ يروم تفجير نفسه وسط جمهرة الأطفال، فما كان من الجندي الشجاع إلا أن احتضن الإرهابي ليبعده عن الأطفال وهو يصرخ بهم طالبًا الابتعاد، حتى فجَّر الإرهابي نفسه لتختلط روحه النتنة بروح الجندي الشجاع». صمتُّ بغية قراءة ملامح السيد الوزير، وإن كان مصغيًا لكل كلمة قلتها، فأشار لي بيده أن أكمل، فقلت متسائلًا: «أليس من حق ذلك الجندي الشريف أن يكون له تمثال صغير عند بوابة المؤسسة الجديدة؟»

أطلق السيد الوزير ضحكة عارمة، وظل يضحك لدقائق حتى اغرورقت عيناه بالدموع، وراح يمسح دموعه وهو يقول:

«والله يستحق.. بل يستحق أكثر.. بالفعل كان شريفًا شجاعًا..!»

وضعتُ على مكتب السيد الوزير ورقة تحمل بيانات رقم حسابي الأوروبي، وأخبرته بأنني سأقدّم خلال يومين طلبًا رسميًّا لإتمام الإجراءات الخاصة بالتمثال.

حين عدت حيث المؤسسة، توجهت إلى شقة غسان، فلم أجده هناك. هاتفته وعرفت أنه يلعب طاولة النرد مع أم عامر التي سمعت قهقهاتها وهي تعلن فوزها على الرجال. طلبت منه الصعود إلى شقته فورًا، لأنني أنتظره هناك.

دقيقتان كانتا كافيتين لأرى غسان ماثلاً أمامي. أقبل عليَّ ضاحكًا وهو يشير إلى نوادر أم عامر الماجنة.

جلستُ حيث الأريكة، طالبًا كأسًا من الويسكي المثلج. كان غسان مستمرًّا بضحكاته، ساردًا حكايات أم عامر، حتى حين دخل مطبخه ليعد الكأس، وحين صار قبالتي طلبت منه الكف عن الضحك؛ لأنني أحمل أوامر صارمة أريد مناقشتها معه.

جلس الرجل مصغيًا إلى حديثي الذي كان محصورًا بعملية اغتيال الشيخ صديق الرئيس، حتى اتفقنا على أن يكون صباح الغد موعدًا للتنفيذ.

أنهيتُ كأسي، وطلبتُ من غسان تدليك كتفيَّ، كوني أشعر بإرهاق، وما إن باشر «الملعون» بالتدليك حتى غفوت دون إرادة مني.

26

كان الشيخ يجالس صديقه صاحب المقهى حين تسللتُ صاعدًا نحو الطابق الثالث، مررت بباب شقة الشيخ، ثم صعدت درجات السلّم المؤدي إلى سطح البناية واختبأت هناك منتظرًا. كنت أمسك هاتفي النقال الذي وضعته على حالة الصمت، بيدي، ناظرًا إليه، مترقبًا إشارة غسان.

مضتْ قرابة الربع ساعة على انتظاري القلق، حتى اهتزَّ الهاتف بيدي، نظرت إلى شاشته لأجد كلمة واحدة: «الآن». كانت تلك إشارة غسان التي فهمتها. تأهبت منتظرًا وصول الشيخ، وما إن اقترب صوت خطواته حتى تحوَّل جسدي إلى قطٍّ بري متأهب للانقضاض على فريسته. كان صوت فتح الباب إشارة البدء بالهجوم، وما إن سمعتها حتى صرت خلف الرجل دون أن يشعر بي. يبدو أنه بالفعل يشكو من عطب في حاسة السمع.

مسكتُ ظهره بقوة حال فتحه الباب، ودخلتُ معه الشقة بسرعة كبيرة، دون أن أمنحه فرصة لرؤية وجهي، ولكن ما إن أوصدتُ الباب حتى صرت قبالته. وجدته مرتجفًا شاحب الوجه،

يتمتم بكلمات ناشفة متلعثمة: «من أنت؟.. ماذا تريد؟..». ابتسمتُ بوجهه طالبًا منه أن يهدأ، فأنا لست عدوًّا له، بل محبًّا، أتيت لأناقشه بأمر مهم.

«ولكن ليس بهذه الطريقة!» قال الشيخ، وشعرت بأن كلماته صارت أكثر وضوحًا؛ مما منحني شعورًا بأنه بدأ يهدأ قليلًا.

بان الشيخ أكبر سنًّا مما رأيته عليه حين كان يجالس صديقه صاحب المقهى، وكان متناقضًا بهيئته وبنيته الجسمانية مع صديقه السيد الرئيس. وجدته واقفًا أمامي كعمود خيمة لم يعرف الانحناء، رشيقًا طويلًا بلحية بيضاء تصل إلى وسط صدره، وكان شعره المنسدل على كتفيه قد اكتمل بياضه منذ زمن ليس بالقصير. طلبتُ منه الجلوس والاسترخاء، ففعل. جلسَ على كرسي خشبي وُضِعَتْ عليه فروة خروف ناصعة البياض، وأمامه طاولة متوسطة الحجم ينتصب عليها «كومبيوتر» بشاشة كبيرة.

تجولتُ بنظري متفحصًا الصالة، فلم أجد أوراقًا متناثرة أو أقلامًا كثيرة كما كنت متوقعًا، بل كانت الصالة مرتبة ونظيفة بشكل مبالغ فيه، وكانت جدرانها تحتضن لوحات فلكلورية وصورًا فوتوغرافية لم أتبينها جيدًا لصعوبة الموقف وحساسيته، ولكن الذي ظل عالقًا في ذهني مجموعة السيوف التي كانت معلَّقة على الجدار، خلف الشيخ الجالس. عند ذاك فكَّرت بأن الشيخ يكتب مذكراته على «الكومبيوتر» وليس الورق، وأن ابنته، أو ربما موظفة، من يقوم بتنظيف الشقة بشكل مستمر؛ لذا فإن صعود

أحدهـم إلى الشـقة وارد وبـأي لحظـة، لكنـي متأكـد مـن أن غسـان يحتـل مـكاني السـابق حيـث السـلَّم المـؤدي إلى السـطح، وكان ذلـك ضمـن مـا اتفقنـا عليـه، أمـا إذا شـعر بـأي حركـة غريبـة، فسـيكتب لي؛ لـذا بقِـيَ الهاتـف في يـدي اليـسرى أسـترَِقُ النظـر إليـه بـين لحظـة وأخـرى.

«هل تشرب القهوة؟»

سـألني الشـيخ، وكان سـؤاله مفاجئًـا لي، فقلـت في داخـلي: لقـد بـدأ الشـيخ يتعـافى مـن الصدمـة، وصـار أكثـر اسـترخاءً.

«نعم، شكرًا».

أجبتـه ونظـري متسـمر عـلى وجهـه ويديـه. كنـت أفكـر فيـما لـو كان يحتفـظ بسـلاح في مـكان قريـب منـه، قـد يشـهره بوجهـي في أي لحظـة. تنـاول دورقًـا أبيـض اللـون «ثيرمـوس»، وقـرَّب منـه فنجانـين اختارهمـا مـن بـين مجموعـة الفناجـين المتراصـة إلى جانـب الطاولـة، ثـم سـكَب القهـوة وناولنـي الفنجـان بيـدٍ تبينـت ارتعاشـتها.

انتظرتـه ليشرب أولًا، فقـد راح تفكـيري صـوب المخـدِّر. ضحكـتُ في سريـرتي وقلـتُ بـأن الـدورق كان منتصبًـا عـلى الطاولـة قبـل أن يدخل الشـيخ شـقته، فمتـى أضـاف إليـه المخـدِّر؟

وأنـا أسـتلم منـه الفنجـان شـاكرًا، سـألني: «مـن أنـتَ؟» فقلـت لـه بأننـي الدكتـور مرهـون، أسـتاذ مـادة الفلسـفة في الجامعـة، ثـم قدمـت له هويتـي ليتأكـد منهـا، ولكنـه لم يمـد يـده ليأخذهـا منـي أو ينظـر إليهـا، بـل قـال عـلى الفـور:

«إمـا أن تكـون دكتـورًا في مـادة الفلسـفة بحـق، ولكنـك تنتحـل صفـة المجـرم، وإمـا أنـكَ مجـرم بالفعـل وتنتحـل صفـة الدكتـور، فـأي الاحتـمالات هـو الأصـوب؟» أعـدت هويتـي إلى جيبـي، وقلـت:

«لا هـذا ولا ذاك، وسـأجيبك عـلى سـؤالك بـكل صراحـة ووضـوح، ولكـن يجـب أن تفتـح «الكومبيوتـر» أولًا حتـى أريـك شـيئًا مهـماًّ». أطلق الشـيخ ضحكـة متشـنجة، تلمسـتُ فيهـا خوفـه الـذي كان عصيًّـا عـلى مفارقـة روحـه، وقـال متسـائلًا:

«تريد أن تريني شيئًا في الجهاز خاصتي؟ أليس هذا غريبًا؟».

«لا أبـدًا.. سـتتأكد مـن صـدق كلامـي عندمـا تشـغِّل الجهـاز». ضغـط الشـيخ عـلى زر التشـغيل وهـو ينظـر صـوبي مبتسـماً، ومـا إن أضـاءت الشاشـة حتـى قـال متمتـماً: «أشـم رائحـة مريبـة!»

كنـت أبغـي التأكـد مـن أن الشـيخ لا يسـتخدم كلمـة سريـة لفتـح جهـازه، ومـا إن انفتـحَ الجهـاز بسـهولة حتـى تأكـدتُ مـن عـدم وجـود أي كلمـة سريـة. حينهـا طلبـتُ مـن الشـيخ الـذي ظـل متمسـكًا بجلسـته، بعـد أن اقتربـت منـه ووقفـت إلى جانبـه، أن يفتـح الملـف الخـاص بمذكراتـه. أطلَـق العجـوز ضحكـة مغموسـة بالخـوف، وقـال متسـائلًا: «هـل تعـرف لمـاذا يحكـم الأرض حفنـة مـن المجرمـين بـدلًا مـن أن تحكمهـا الثقافـة والفـن وقيـم الحـب والجـمال؟» لم أجبـه ورحـتُ ناظـرًا في عينيـه الشـاحبتين صـوب عينـي، فأضـاف مجيبًـا: «لأنهـم يمتلكـون المـال «القـذر»، وبـه يمكنهـم امتـلاك السـلطة معتمديـن عـلى الأغبيـاء وأولاد الشـوارع..». اعـتراني غضـب شـديد، ولكنـي لم أنطـق

492

بكلمة أو أتحرك ميليمترًا واحدًا، بل بقيت صامتًا كتمثال، أنتظر فتح الملف الخاص بالمذكرات.

«أصحاب الأموال «القذرة» دائماً ما يخشون النبلاء، يخافونهم، بل يرتعبون منهم؛ لذلك يقتلونهم..»، ثم مسك كف يدي اليسرى بقوة وقال متسائلاً: «هل تعرف ما معنى كلمة «نبيل»، أيها الشاب؟.. هل تعرف متى يكون الإنسان نبيلاً؟»

شعرتُ بأن كلماته تنغرس في جسدي كخناجر بدوية مسمومة، ودون وعي مني أفلَتُّ كفي اليسرى من قبضته، ورفعتها لأطوِّق بذراعي رقبته، وراحت كفي بأصابعها تمسك بحنكه الملتحي، بينما يدي اليمنى صارت على هامته بقبضتها القوية، وفي لحظة خاطفة، أدرت رأسه جهة اليسار لأسمع طقطقة فقراته العنقية، وربما حبلها الشوكي، وحين تركته بعد أكثر من دقيقة وأنا أشدُّ بكل قوتي التواءة رقبته، تدلى رأسه على صدره، وصار ساقاه أقل ارتجافًا.

أخرجتُ السلك الكهربائي من جيبي، وربطت إبهامي كفيه بطرفي السلك الأجردين، وقبل أن أوصل طرف السلك الآخر إلى مأخذ التيار الكهربائي، فتحتُ برنامج الكتابة في «الكومبيوتر»، وكتبتُ عبارة: «الانتحار أفضل وسيلة للعيش بسلام». بعثت أمر الطباعة لأستدل على وجود الطابعة من صوتها. خرَجتِ الورقة على جهاز الطبع، تناولتها ووضعتها بين يدي الشيخ الجميل الذي أحببته، ثم فصلت أسلاك الكومبيوتر وحملته تحت إبطي الأيسر. طبعتُ قبلة على هامة الشيخ قبل أن أوصل طرف السلك إلى المأخذ الكهربائي وأخرج مسرعًا، موصدًا الباب خلفي.

مـا إن رآني غسـان خارجًـا من بـاب الشـقة متأبطًـا جهـاز الكومبيوتر، حتـى قفَـز مسرعًـا ليسـبقني نـازلًا السـلم بخفـة وسرعـة مذهلـة، فقـد كان عليـه أن يقـرِّب السـيارة إلى بـاب البنايـة كـي أسـتقرَّ داخلهـا بأقـصى سرعة.

❋ ❋ ❋

اتصلـتُ بالدكتـور واثـق، وأخبرتـه بـأن طلبًـا لسـيارة إسـعاف سـيصل إلى إحـدى مستشـفيات العاصمـة قادمًـا مـن إحـدى الشـقق الواقعـة في شـارع «ابـن رشـد»؛ لنقـل جثـة رجـل منتحـر، وعليـه أن يحـاول أن تكـون جثـة الرجـل تحـت إشرافـه، وأنـه مـن سـيقوم بكتابـة شـهادة الوفـاة بعـد التشريـح، مـع ضرورة الانتبـاه إلى أنَّ سـبب الوفـاة «انتحـار بواسـطة تيـار كهربائـي». ضحِـك واثـق كثـيرًا، وأشـار إلى سـخافة المسدسـات الكاتمـة مقابـل اكتشـافات طـرق المـوت التـي يخترعهـا مرهـون، ثـم أشـارَ لي عـلى صعوبـة المهمـة، حيـث إن مراكـز الإسـعاف لا ترتبـط بدائـرة سـيطرة مشـتركة، لكنـه أخـبرني بثقـة عاليـة، بعـد أن أخـذ منّـي عنـوان شـقة الشـيخ، بـأن أطمئِـنَّ، وأنَّ كل شيء سـيكون كـما أريـد. شـكرتُه وودَّعتـه عـلى أمـل سـماع أخبـار أكثـر، قريبًا.

حـين أغلقـتُ الهاتـف، كان غسـان خلـف المقـود يقـترب بسـيارته مـن عـمارة الشَّـكَري، قـال:

«لقـد تأخـرتَ كثـيرًا داخـل الشـقة يـا دكتـور، حتـى فكَّـرت بكسر البـاب، فقـد ظننـتُ أن مكروهًـا قـد أصابـكَ».

ضحكتُ لكلماته وقلتُ مازحًا:

«لـو فعلتهـا لنلـتَ مـن مسـدسي الكاتـم رصاصـة في الجبـين..». ارتعبَ غسـان، وكنـتُ أنظـر إليـه حابسًـا ضحكـة عظيمـة، ثـم احتلـب ريقـه وقـال:

«الآن عرفـتُ السـبب وراء فيـض محبتـكَ لي..». لم أسـتطع أن أتمالـك نفـسي أكثـر، فأطلقـت مـا كان محبوسًـا بصـدري، وضحكـتُ حتـى دمعـت عينـاي.

وصلـتُ المؤسسـة، وكان غسـان قـد افـترق عنـي داخـلًا شـقته. كانـت فاتنـة بانتظـاري، ومـا إن رأتنـي حتـى ارتمـت عـلى صـدري وقالـت بـأن خوفًـا لا تعـرف مصـدره قـد تملّكهـا منـذ قرابـة السـاعة. أخرجـتُ هاتفـي واتصلـت بنشـوان. جـاء صوتـه مزقزقًـا كعصفـورٍ صغـيرٍ قـد جـرّب الطـيران منـذ قليـل، وقـال بأنـه في باحـة المدرسـة، وأنـه يتمتـع بفرصـة بـين الدرسـين. وحـين اطمأننـتُ عليـه، أغلقـت الهاتـف وطلبـت مـن فاتنـة أن تمنحنـي ربـع سـاعة فقـط كـي أسـتحم، ومـن ثـم أوصلهـا إلى بيتهـا. سـألتني عـن جهـاز «الكومبيوتـر» الـذي جلبتـه معـي، فقلـتُ لهـا بأنـه مهمتهـا ليـوم غـد، عليهـا دراسـته ومعرفـة كل محتوياتـه. سـألتني إن كان بالإمـكان أخـذ الجهـاز إلى مقـر المؤسسـة الجديـد، فغـدًا يتـم نقـل كل محتويـات المؤسسـة إلى هنـاك. رفضـتُ وقلـتُ إن الجهـاز يخصنـي فقـط، ولا يمـتُّ للمؤسسـة بـأي صلـة.

حـين خرجـتُ مـن الحـمام، هاتفـتُ السـيد «الوزيـر» طالبًـا منـه توزيـع وقـت دوام فاتنـة إلى قسـمين، ولمـدة أسـبوع واحـد فقـط، القسـم

495

الصباحـي يكـون عنـدي حيـث بنايـة الشَّـكَري، وأمـا القسـم الآخـر فيكـون داخـل البنايـة الجديـدة، فوافـق بعـد لأيٍ متحججًـا بثقـل المهمات التـي عـلى عاتـق فاتنـة لترتيـب الأرشـيف في مكانـه الجديـد.

انطلقـتُ وفاتنـة بسـيارتي، إلى بيتهـا، كـي تنعـم بقسـط مـن الراحـة، ومـا إن أوصلتهـا حتـى طلبـتْ منـي مرافقتهـا إلى الداخـل. رفضـتُ متحججًـا بموعـد مهـم يقتـضي موافاتـه بعـد أقـل مـن نصـف سـاعة. الحقيقـة، كنـتُ أروم زيـارة بيـت الندائـي القديـم، فقـد مضـت قرابـة العـشرة أيـام عـلى آخـر لقـاء لي بضيـاء. كنـتُ أروم الاطـلاع عـلى مـا أنجزه في تلـك الفـترة قبـل أن أصطحـب الأسـتاذ عدنـان للتعـرُّف عليه.

هاتفـتُ الأسـتاذ عدنـان لأطمئـن عـلى صحتـه، وأن أخـبره بأننـي سـأكون عنـده بعـد قرابـة السـاعة لنـزور معًـا بيتـه القديـم. ردّتْ هيـام عـلى مكالمتـي وأخبرتنـي بـأن زوجهـا نائـم. طلبـتُ منهـا أن تخـبره بموعـد زيـارة بيـت الندائـي. أغلقـتُ الهاتـف وأنـا أترجّـل مـن سـيارتي متوجهًـا لملاقـاة ضيـاء الفنـان.

أذهلنـي مـا رأيـت، فقـد صـار البيـت مكانًـا آخـر لم أشـاهده مـن قبـل. الجـدران مكسـوة بالأسـمنت، وقـد تـم طلاؤهـا بلـونٍ أبيـض محمـر، والأرض مكسـوة بالبـلاط، كـما توزّعـتْ المصابيـح عـلى الجـدران والسـقوف بطريقـة مدروسـة ورائعـة.

عانقـتُ ضيـاء وشـكرته، وسـألته إن كانـت كل تلـك التغيـيرات قـد تـم إنجازهـا بفعـل المبلـغ الـذي أعطيتـه إيـاه، فأخـبرني بأنـه قـد اسـتلفَ مبلغًـا آخـر حتـى يلتقينـي ويسـترده. ابتسـمتُ لـه شـاكرًا، وازدادت

ثقتـي بـه كونـه أهـلاً للمسـؤولية عـرف كيـف يحـل المشـكلة دون أن يتصـل بي ويطلـب مـا كان بحاجتـه.

سـألته بلهفـة عـن التمثـال، فاصطحبنـي إلى إحـدى الغـرف التـي وجدتهـا كـما كانـت مـن قبـل، فلـم يجـر عليهـا أي تحسـينات عـلى خـلاف أروقـة البيـت الأخـرى، باسـتثناء أربعـة مصابيـح كبـيرة تـم توزيعهـا عـلى الجـدران الأربعـة، ويبـدو أن ضيـاء قـد اتخـذ مـن الغرفـة مشـغلًا لـه حتـى ينهـي عمـل التمثـال.

دخلـتُ الغرفـة لأشـاهد ثلاثـة نـماذج طينيـة رائعـة التكويـن والأفـكار، لكننـي وجـدتُ في النمـوذج الـذي يقـترب مـن المقـترح الـذي خططـه صديقـي الفنـان عطـا، الأقـرب إلى روحـي، فـأشرتُ إليـه معلنًـا اختيـاري لـه، ابتسـم ضيـاء ووافقنـي بفـرح، وأفصـح عـن توافـق رأيينـا في اختيـار النمـوذج نفسـه. سـألته إن كان يعـرف مصهـرًا يمكننـا الاعتـماد عليـه، فأشـار إلى أن المصهـر الوحيـد الـذي يمكننـا الوثـوق بـه، وبأقـل التكاليـف، هـو المصهـر التابـع لـوزارة الثقافـة.

أخبرتـه أن بالإمـكان الحصـول عـلى موافقـة الـوزارة خـلال ثلاثـة أيـام. تلمسـتُ الفـرح في روح ضيـاء، وقبـل أن أودعـه عـلى أمـل اللقـاء بعـد قرابـة السـاعة كـوني سـأصطحب صاحـب الـدار ليمنحنـا موافقتـه، سـلَّمته مبلغًـا مـن المـال طالبًـا منـه إتمـام مـا بـدأه. نظـر ضيـاء إلى المـال الـذي بـين يديـه ثـم سـألني بفـرح: «ألا تجـد أن المبلـغ كبـير بعـض الـشيء؟»

497

«لا أبـدًا..». قلـت لـه مبتسـماً وأضفـت: «أرجِـع المبلـغ الذي اسـتلفته إلى صاحبـه، وتـصرّف بالباقـي حتـى يكتمل المـشروع..».

«المشروع..؟!» سأل ضياء بدهشة واضحة، فقلت بقناعة تامة:

«نعـم.. «دار الندائـي للثقافـة والفنـون» الـذي سـتكون مديـرًا لـه والمـشرف الوحيـد عليـه..».

وقفَ ضياء مندهشًا وهو ينظر إليَّ، فقلت:

«كـما سـمعت بالضبـط، وبمرتـب شـهري تتقاضـاه مـن وزارة الثقافـة كونـك موظفًـا تابعًـا للـوزارة».

راحَ ضيـاء يرقـص ناطًّـا ككنغـرٍ صغـير في باحـة الـدار. تركتـه ضاحـكًا وخرجـت متوجهًـا صـوب سـيارتي.

* * *

رنَّ هاتفـي وأنـا في طريقـي إلى بيـت الأسـتاذ عدنـان، وحـين قبلـت المكالمـة، سـمعتُ صـوت الدكتـور واثـق يخـبرني بـأن جثـة الشـيخ صـارت تحـت إشرافـه. سـألته إن كان الأمـر قـد سـبّب لـه بعـض المتاعـب، فقـال بـأن حـلًّا واحـدًا كان أمامـه، وكان هـو الحـل الأمثـل، ثـم شرح لي الكيفيـة، فعرفـت أنـه توجـه بسـيارته صـوب المـكان، وجلـسَ في المقهـى منتظـرًا وصـول سـيارة الإسـعاف، ولكنـه قبـل ذلـك سـمع صوتًـا نسـائيًّا صارخًـا قادمًـا مـن الأعـلى. هُـرِعَ النـاس داخلـين إلى البنايـة، فوجـد واثـق أن الفرصـة مواتيـة، وراح

يسأل مستفسرًا عما حدث، فأخبروه بأن هناك رجلًا عجوزًا قد أقدم على الانتحار، حينها أخبرهم بأنه طبيب، وطلَب منهم أن يسمحوا له بإلقاء نظرة علّه يستطيع تقديم بعض العون، وبالفعل أخذوه إلى الشقة، فشاهد شيخًا قد تفحّمت جثته نتيجة سريان التيار الكهربائي لفترة طويلة، ربما تصل إلى الساعة، حتى فصل الفاصم الكهربائي أو أن فترة التجهيز بالتيار الكهربائي قد انتهت كالمعتاد.

حينها سارع الدكتور واثق إلى طلب الإسعاف الخاصة بمستشفى العاصمة، فتم نقل جثة الشيخ إلى هناك ليكون تحت إشرافه. سألته إن كان قد حرر شهادة الوفاة، فأخبرني بأن الأمر معقد بعض الشيء، كون عائلته قد تقدمت ببلاغ للشرطة، لاعتقادهم بأن هناك من قام باغتيال الشيخ، معتمدين على اختفاء جهاز «الكومبيوتر»، وأن هناك فنجاني قهوة؛ مما يشير إلى أن ضيفًا كان مع الشيخ، وهو من قام بقتله.

«هل تعتقد أن الأمر سيأخذ وقتًا طويلًا؟» سألته وكنت قد وصلت بيت عدنان، وتوقفت هناك لحين إنهاء المكالمة.

أخبرني ضاحكًا، وقال بأن الأمر إذا ساء كثيرًا، فنتيجته بقاء جثة الشيخ في الثلاجة لفترة طويلة، ثم أضاف قائلًا:

«كن مطمئنًا أيها المتخصص بكسر الرقاب».

شكرته وودعته على أمل أن يخبرني بكل جديد.

طرقتُ باب بيت الأستاذ عدنان، لأشاهد بعد قرابة الدقيقة بهاء هيام وقد غاب عنه الألق. دعتني مُرحّبةً لأدخل الدار، فالأستاذ بانتظاري، وما إن دخلتُ الصالة حتى وجدتُ النداثي وقد استعد للخروج، وكان يرتدي بدلة أنيقة بربطة عنق من الحرير. احتضنته وقبَّلته فرحًا، وأفصحتُ له بأنني أراه أفضل من المرة السابقة، فقال: «أشعر أن أملاً قد أعاد دبيب الحياة في خلايا جسدي، إنه بيتي القديم وأفكارك التي تعادل تأثير كل أدوية الأطباء..»، ثم صمتَ وهو ينظر بوجهي مبتسماً، وبعد برهة قال: «أشعر أن بيت أبي سيخلّد ذكرى النداثي..». دسَّ ساعده بين أضلعي وزندي ليحتضنه وهو يودّع هيام قائلاً لها:

«في المرة القادمة ستكونين معي لنزور «دار النداثي للثقافة والفنون»».

❃ ❃ ❃

دخل عدنان بيته القديم مبتسماً، إلا أن ابتسامته تحوّلت إلى دهشة وهو يقف وسط باحة الدار. راح يجول بنظره بين زوايا بيته سارحًا في عالم أحلامه، حتى خرَج ضياء من مشغله ليستقبلنا بابتسامة عريضة. صافحني، ثم قدمتُ له الأستاذ عدنان النداثي مالك الدار، صافحه مرحبًا، ويبدو أنه تلمَّس علامات التعب على ملامحه، فسارع إلى سحب كرسي وقرّبه من عدنان، وطلبَ منه الجلوس.

حين جلس عدنان، وتحسس الكرسي، قال: «وأخيرًا انتهى عهد الكراسي التالفة القديمة، وحلَّت كراسيٌّ جديدة في بيت الندائي»، ثم طلبَ من ضياء الجلوس قبالته، فسارع الشاب إلى إحضار كرسيين، قرَّب أحدهما مني، واتخذ من الثاني مقعدًا له. راح الندائي يطرح على ضياء بعض الأسئلة العامة، كان من الواضح أنه يريد كسر حواجز اللقاء الأول بينه وبين الشاب، ويبدو أنه قد أفلَح في ذلك، فقد صار الشاب أكثر استرخاءً، حينها طرح عدنان عليه سؤالًا واضحًا ومحددًا:

«كم يلزمكَ من المال والوقت لإتمام ترميم الدار بالكامل؟»

دعَك الشاب راحتيه وهو ينظر إلى وجه الندائي مبتسمًا، وقال:

«لا أدري بالضبط، ولكني استلمتُ مبلغًا من الأستاذ مرهون أعتقد أنه يكفي لترميم غرفة المشغل وغرفة السطح، بعد أن يقوم الأستاذ مرهون بإفراغها قريبًا كما وعدني..».

قاطعه عدنان قائلًا:

«ترميم واجهة الدار واستبدال بابه، ثم يجب أن تكون هناك مكتبة في إحدى الغرفتين، وهذا يتطلب تأمين كتب وكراسٍ ومناضد، ثم يجب الاعتناء بالمطبخ جيدًا؛ لأنه سيقدّم للزوار بعض المشروبات..». صار ضياء يدعك خصلات شعره وهو يستمع إلى الأستاذ عدنان، حتى قلتُ مقاطعًا أستاذي:

«أعتقد أن هناك موضوعًا مهمًّا، وهو استحصال اعتراف رسمي من وزارة الثقافة بالدار؛ لذا سيكون الطلب غدًا صباحًا على

501

مكتب السيد الوزير، وأقترحُ أن يُقدّم الطلب باسم ضياء كونه المدير المسؤول عن المشروع..».

أخرجَ الندائي مبلغًا ماليًّا سلَّمه لضياء الذي راح ينظر إليه مذهولًا، ثم رفَع رأسه ناظرًا صوب الأستاذ عدنان وقال:

«أعتقد أن عشرة أيام كافية لإتمام الترميمات وتجهيز المكان بالأثاث..». ابتسمتُ له، وقلت بأنني سأتكفل بكل الإجراءات الرسمية، وكذلك اليافطة التي ستعلّق على باب الدار، ثم قلت وأنا أفرد ذراعي إلى الجانبين مشيرًا إلى حجم اليافطة:

«دار الندائي للثقافة والفنون!»

كنا قد قررنا إنهاء الزيارة والخروج من بيت الندائي حين دخلت ثلاث فتيات وشاب إلى الدار. ألقوا علينا التحية وصافحونا الواحد تلو الآخر، ثم قال ضياء معرّفًا: «الشباب أصدقائي وزملائي، وهم من ساعدوني في إتمام الترميمات، وأنوي اتخاذهم هيئة إدارية مُؤسِّسة للدار، فما رأيكما؟» وافق الأستاذ عدنان على الفور، وأوضح لضياء بأنه الشخص المسؤول عن المشروع، ومن حقه اتخاذ أي قرار يصب في مصلحة الدار، ثم قلتُ موجهًا كلامي للجميع:

«الآن يمكننا الاطمئنان على المشروع، بعد أن عرفنا أن هناك طاقات شابة تقوم على مساعدة الأستاذ ضياء..»، ثم ابتسمتُ للفتيات وقلت: «وبما أن الهيئة الإدارية تضم فتيات جميلات وذكيات، فيمكننا أن نضمن بأن الدار ستضم أهم وأجمل مطبخ..».

❋ ❋ ❋

في صباح اليوم التالي، وبعد أن التقيت «ضياء» في دار الندائي، وحصلت على إمضائه على الطلبين اللذين كتبتهما باسمه أمس ليلًا، وضعتُ أمام السيد «الوزير» طلبَ التعاون مع المصهر التابع لوزارة الثقافة في صبِّ التمثال، وكذلك طلبَ موافقة وزارة الثقافة على تبني مشروع دار الندائي للثقافة والفنون، وما إن قرأهما سيادته حتى طلَب هاتفيًّا أحد موظفيه، بعد أن دوَّن بضع كلمات على الطلبين، وحين دخل الموظف سلَّمه الطلبين وأمَره بالتوجه إلى وزارة الثقافة ليلتقي الوزير شخصيًّا هناك، ولا يعود إلَّا بعد أن يحصل على تأشيرتي الموافقة على الطلبين، وأخبره أيضًا بأنه سيتصل بوزير الثقافة خلال الدقائق القادمة ليُطلعه على الأمر.

حين خرَج الموظف حاملًا أوراق الطلبين، نظر «الوزير» إليَّ مبتسمًا، فشعرتُ بحجم الأمر الذي سيُفجّره بوجهي، ابتسمتُ له وقلت: «هات ما عندك أيها العرّاب الجليل!» ضحك عميقًا وهو يسحب سيجارة من العلبة التي أمامه وقال: «طالما أعجبني ذكاؤك أيها المخلص..»، ثم صمتَ قليلًا وهو يداعب سيجارته وقال متسائلًا:

«مَنْ قتَل الشيخ داخل شقته في شارع «ابن رشد»؟»

«أنا». أجبته بسرعة وتلقائية واضحة، وكنت معتقدًا بأنه سيطرح عليَّ السؤال، فقال ضاحكًا:

«شكرًا لكَ.. لم أشكّ يومًا بإخلاصك.. ولكن هل لي أن أعرف لصالح مَنْ؟»

«لصالحي الخاص.. الأمر يتعلق بي شخصيًّا، وتأكد بأنني سأشرح لكَ الأمر، ولكن في وقتٍ لاحق».

شعرتُ بأن الوقت يكاد يفلت من قبضتي حالما خرجتُ من مكتب السيد «الوزير»؛ لذا توقفتُ منزويًا وأخرجتُ هاتفي لأكتب رسالة نصية إلى السيد الرئيس:

«الأمانة بحوزتي، أرجو أن تطلبني ضيفًا مرة أخرى». أعدتُ الهاتفَ إلى جيبي وتوجهتُ صوب سيارتي لألتحق بفاتنة التي تجلس أمام «كومبيوتر» الشيخ صاحب المذكرات، لتتفحصه وتكتشف محتواه.

كانت فاتنة أمام «الكومبيوتر». اقتربتُ منها بخفة قطٍّ، وطبعتُ قبلة على جيدها. جفَلتْ، وحين شاهدَتني، أعادت نظرها صوب الشاشة وأشارت بدلالٍ واضحٍ على أنها في وقت العمل. لم أبتعد بشفتيَّ عن رقبتها كثيرًا، بل قرّبتها حيث شحمة أذنها وهمست: «كل فراشات العشقِ ترتجفُ شوقًا للهفة اللقاء.. أيتها الكريمة.. لهفةً لقبلاتٍ واحتضانٍ وثناء.. صباحكِ حُبّ وانتشاء.. يا سيدة العشق والبهاء!». وقفتْ منتفضة، ثم أمالت رقبتها بسحرٍ آسرٍ نحو اليمين، وفي لحظة شممتُ فيها شذى رغبة عارمة، أطبقتُ شفتيَّ على شفتيها مطوِّقًا خصرها، ورحَلتُ بها صوب عوالم الشهوة، حتى أمطرتْ روحي وامتزجتْ بمصدر غيثها.

جلستْ قبالتي وهي تلملم نفسها مرتديةً ما كان على جسدها من ثياب، وقالت: «لم يحتوِ الجهاز إلا على برنامج الـ «Word»

فقـط، وفيـه وجـدتُ أكثـر مـن مائتـي صفحـة مكتوبـة عـلى شـكل مذكـرات..»، ثـم نظـرتْ صـوبي وكأنهـا قـد تلمّسـتْ شـيئًا خطـيرًا، وقالـت: «لقـد طبعـتُ لـكَ كل مـا كان مكتوبًـا..». شـكرتها وطبعـتُ قبلـة عـلى شـفتيها.

وضعـتْ فاتنـة بـين يـديّ أوراق مذكـرات الشـيخ، بعـد أن وضعتْهـا داخـل حافظـة بلاسـتيكية خـضراء اللـون، ومـا إن تناولتُهـا مـن يدهـا حتـى قالـتْ: «تأكـد بـأن مـن كتـب هـذه المـادة يمتلـك شرفًـا نـادرًا، وحبًّـا لوطنـه لم أتلمّسـه عنـد أحـد مـن قبـل!»

لقـد وجَّهـتْ فاتنـة طعنـة شرف إلى ضمـيري؛ لأننـي كنـت عـلى يقـين بـأن الشـيخ كان شـخصية نـادرة في بلـد المـوت.

سـألتها لأداري خيبتـي: «كيـف لشـخص قـد عـزَم عـلى السـفر إلى بلـدٍ آخـر أن يأخـذ جهـاز «الكومبيوتـر» معـه؟» ابتسـمتْ مؤكـدة ظنونهـا، وقالـت: «أن ينتـزع القـرص الصلب، أقصـد الــ «hard disk» ويأخـذه معـه، وهنـاك يسـتطيع تركيبـه عـلى جهـاز آخـر..». شـكرتها وطلبـتُ منهـا أن تخـزّن لي نسـخة مـن المذكـرات عـلى «فلاشـة»، وأن تقـوم بعـد ذلـك بانتـزاع القـرص الصلـب مـن الجهـاز، وشـدَّدتُ عـلى عـدم دخـول أي معلومـة تخـص مـا هـو موجـود في المذكـرات إلى الأرشـيف الخـاص بالمؤسسـة، فوافقـتْ مؤكـدة حرصهـا.

505

27

قبل أن يحلَّ موعد الافتتاح الرسمي لـ«دار الندائي للثقافة والفنون» بثلاثة أيام، كنتُ قد حصلت على التأشيرة الجديدة لدخول البلد الذي يقيم فيه السيد الرئيس، وكنت في اليوم نفسه أحد الشاهدين على عقد قران كوثر بالدكتور فارس، اللذين أقمتُ لهما دعوة عشاء خاصة في أحد مطاعم العاصمة.

عند الصباح، وقبل افتتاح «دار الندائي للثقافة والفنون» بثماني ساعات، كنتُ وضياء في مصهر وزارة الثقافة، لصبِّ التمثال بشكله النهائي. أفرغتُ أكياس الضحايا قطعة إثر قطعة في بوتقة المصهر الكبيرة، ومع كل قطعة، كانت ذاكرتي تعيدني إلى لحظات الموت، إلى العيون الشابحة صوب السماء، وأرواح تئن زافرة آخر أحلامها، كنتُ أشمّ رائحة الدم الساخن، وأسمع آخر الكلمات، حتى شعرتُ بأنني أقتل ضحاياي مرة أخرى.

صرتُ على وشكِ الانهيار، حين رميتُ بآخر رمز ضحية، كان جهاز «كومبيوتر» الشيخ صاحب المذكرات الخالي من قرصه الصلب. وقفتُ إلى جانب ضياء وصرت أسمع صوتًا بعيدًا يسألني:

«أستاذ مرهون، ما بك؟.. لماذا كل هذه الدموع؟» إلا أنني، ودون دراية، لم أُعِر الصوت اهتمامي، فقد كنتُ مستمتعًا بهلعي وأنا أسمع موسيقى أنين الرموز وهي تذوب ممتزجة ببعضها. تحسستُ جيب قميصي متلمسًا قلم عبد الله الذي أبيتُ أن أرميَه، وفي لحظة سمعتُ صوت أمي ينادي من داخل البوتقة: «أين عطا.. عطا! أين أنتَ؟» انتفض جسدي وتحفَّز عقلي: «آه..! لقد نسيتُ صديقي الفنان!» هرعتُ إلى سيارتي وفتحت الصندوق الصغير داخل السيارة، تناولت هاتف عطا وعدتُ إلى أنين الضحايا، طبعتُ قبلة على الهاتف ورميته داخل السعير. سمعتُ الهاتف يرن في رأسي، كانت نغماته ضحكات عطا التي أعرفها، ضحكات متواصلة داخل صندوق رأسي بدأت تتعاظم حتى قررت الهرب مبتعدًا عن سخونة ومرارة الذاكرة.

تركتُ ضياء وحيدًا، وهربت حيث النهر.

دخلتُ النهر وأنا أردد: «يا أمي، بلادكِ، حيث ضحايا الغدر، محتمية بتراب الفجيعة.. بين ثنايا أسمالكِ، يا أمي، تختبئ رائحة البلاد العتيقة، رائحة الدم والبارود وسرمدية القطيعة..». كنتُ أسير بخُطى وئيدة وأنا أردد كلماتي، ولكنني حيث شعرتُ بماء النهر وقد صار يُطبق على صدري، سمعتُ صوت أمي يخاطبني بانكسار:

«هكذا تعود يا صغيري، إلى النهر.. حيث ثديَيْ أُمكَ، ما زالا، لدى النهر وديعة..».

للحظة شعرتُ بالرعب، وشعرتُ بأن أمي تريد الانتقام، تريد أن تغرقني بالغرق. عدتُ هاربًا حيث الضفة، أتخبط بماء النهر وطينه. عدتُ إلى الضفة هاربًا من الماضي وسنينه.

❋ ❋ ❋

أسعفني الوقت لأصل إلى المؤسسة. استبدلتُ ملابسي بعد أن تحممت، ثم نزلت حيث شقة أم عامر طلبًا للقهوة.

احتضنتني طويلاً، فقد هالها الشحوب الذي تلمسته على ملامحي. عرفتُ ذلك بعد أن شاهدتُ دموعها وهي تنظر إلى وجهي، مفصحة عن فزعها جراء حالتي، ابتسمتُ وقلت لها بأن قلة النوم والعمل المتواصل من يقفا وراء حالتي تلك.

جلستُ إلى جوارها وركنت رأسي على صدرها، لأحظى بأعمق إغفاءة عرفتها طوال سنواتي الماضية، إغفاءة لعشر دقائق فقط أعادت لي توازني. شعرت بذلك وأنا أفيق على رائحة القهوة التي صنعتها لي الفتاة صاحبة الصوت العذب.

❋ ❋ ❋

حين وصلتُ دار الندائي، استقبلني صديقي «عطا الفنان» ضاحكًا. ابتسمتُ له وبقيتُ متسمرًا أمام عينيه اللتين صارتا

509

تراقبانني بصمت. وقفتُ أمام صورته الكبيرة مفصحًا عن شوقي له وحنيني المؤلم لسماع موسيقى ضحكاته.

كان افتتاحًا ساحرًا، حظيت به دار الندائي. لا أدري من أين أتى ضياء بكل الشباب الرائعين الذين راحوا ينشدون قصائدهم، ويعزفون الموسيقى، ويغنون ويرقصون. وكان عدنان الندائي مزهوًّا كعريس وهو يمسك يد هيام التي كانت بكامل ألقها رغم مسحة الحزن التي قرأتها في عينيها.

وقَف عدنان وسط الباحة وهو يدعو ضياء الفنان ليقف إلى جانبه. طلَب الندائي من الحضور قليلاً من الهدوء والإصغاء كي يقول شيئًا، وما إن حظِيَ بالانتباه حتى مسكَ كف ضياء اليسرى وأفصح عن سعادته الغامرة في تحقيق أحد أحلامه على يد شاب فنان مفعم بالحيوية وحب الآخر والحياة، ثم أخرَج من جيبه ورقة وأفردها أمام ناظريه وقال:

«اسمحوا لي أن أقدم إلى الفنان ضياء مهدي، مدير الدار والمسؤول عنها، تنازلاً رسميًّا مني عن ملكية الدار، ليكون بالإضافة إلى مسؤولياته سابقة الذكر، المالك الشرعي والوحيد للدار..». علت الأصوات معلنة بهجتها بالخبر، وراح ضياء مرتجفًا تحت تأثير المفاجأة يحتضن الندائي ويقبّله، ثم رفع يده طالبًا من الحضور الاستماع إليه، وبعد برهة قال:

«شيء واحد فقط أريد أن أفعله أمامكم، فاسمحوا لي..».

انحنـى عـلى حقيبتـه وأخـرج بطريقـة مسرحيـة مطرقـة مسـكها في يمنـاه، وحفنـة مسـامير مسـكها في اليـسرى، ورفـع كفيـه عاليًـا ليثـير دهشـة الحضـور وابتسـاماتهم المسـموعة، ثـم انحنـى عـلى الحقيبـة مـرة أخـرى لينتشـل قطعـة معدنيـة مسـتطيلة الشـكل حملهـا وتوجـه صـوب بـاب إحـدى الغرفتـين المتلاصقتـين، وقـام بتثبيـت القطعـة إلى جانـب البـاب، ليقـرأ الحضـور مـا هـو منقـوش عليهـا: «قاعـة الشـهيد عطـا الفنـان».

صفَّـق الجمهـور كثـيرًا، وهنـاك مـن الشـباب والشـابات مـن راح يحتضـن ضيـاء شـاكرًا ومـؤازرًا، ثـم رجـع ضيـاء صـوب حقيبتـه ليلتقـط لوحًـا معدنيًّـا آخـر عمـد إلى تثبيتـه وبالطريقـة نفسـها إلى جانـب بـاب الغرفـة الثانيـة. كان اللـوح يحمـل اسـم الأسـتاذ عبـد الله، «قاعـة الشـهيد الأسـتاذ عبـد الله».

جلَـس عدنـان إلى جـواري باكيًـا، وكانـت هيـام تحتضنـه بحنـان أمٍّ رؤوم. طبعـتُ قبلـة عـلى رأس أسـتاذي الندائـي، وأخـرى عـلى هامـة هيـام، التـي مـا زلـتْ أحتفـظ بشـذى شـعرها مسـتقرًّا داخـل أعماقـي، وخرجـتُ مـن الـدار دون أن يشـعر بي أحـد.

❋ ❋ ❋

مـا إن لاح لي أول خيـط فجـر وهـو يراقـص غيمـة بعيـدة حتـى توجهـتُ إلى النهـر. هنـاك، وكـما في كل مـرة، اغترفـتُ بكفـيَّ مـن مائـه. قبّلتـه ثـم غسـلت بـه وجهـي.. «كـم جميـل أن تغتسـل كل صبـاح بقـبر أمـك!»

ملأتُ القنينتين الزجاجيتين اللتين جلبتهما معي بماء النهر، ثم استدرت مودّعًا قبر أمي وأختي «الكبير»، حاملًا بيديَّ قبرين جديدين، صغيرين.

انطلقتُ بسيارتي بعد أن وضعت خصلة الشعر التي قصصتها من فروة رأس وداد بعد موتها، داخل أحد القبرين، وتوجهتُ صوب المطار.

حين صرتُ داخل الطائرة، وبعد أن طُلِب من الركاب إقفال الهواتف، بعثتُ برسالة نصيّة إلى غسان: «السيارة في المطار، عليكَ أخذها من هناك بعد ساعة من الآن»، ثم أقفلت الهاتف.

صرتُ في كبد السماء دون أن أودّع أحدًا؛ لأنني لا أعرف أحدًا كي أودعه.

28

أجلسُ الآن أمام قبر أمي وأختي، أمام البحيرة الساحرة، التي صارت قبرًا جميلاً بعد أن أضفتُ ماء إحدى القنينتين إلى مائها.

البحيرة التي صرتُ أغتسل بمائها كل صباح.

«جميل أن تغتسل بقبر أمكَ كل صباح!» عبارة صرتُ أرددها كل صباح وأنا أدخل البحيرة بجسدٍ عارٍ.

أجلس الآن أمام البحيرة منتظرًا دورق القهوة الذي تعده لي فيرونيكا الموجودة في المطبخ، وبين يدي الكتاب الذي اشتريته وأنا صبي من مزاد علني عند بداية شارع المكتبات، ذلك الكتاب الذي ما إن استلمته من يد البائع والتفتُّ منفلتًا من بين الجموع حتى قابلت أستاذي عدنان الندائي لأول مرة، بعد انتقاله من سجن الأحداث.

فتحتُ الكتاب الذي كنتُ قد أنهيت قراءة مقدمته منذ قليل، وصرتُ أقرأ في فصله الأول:

«ليدوِّ صُور يوم الحساب، متى شاء، فلسوف أتقدّم إلى الديّان الأعظم وبيدي هذا الكتاب، ولسوف أقول بشجاعة: «هذا ما فعلتُ، وهذا ما جرى به فكري، وهذا ما كنتُ عليه. ولقد قلتُ الخير والشر بالصراحة نفسها. فما سكتُّ عن قبيح، ولا أضفتُ من شيء حسن. ولئن اتفق لي أن عمدتُ إلى بعض التنميق الذي لا طائل تحته، فلم يكن ذلك قطّ إلَا سدًّا لثغرة سببها وهنُ الحافظة، وربما قدَّرتُ صدْقَ ما عرفتُ أنه قد يكون حقًّا، ولكن لم أقدِّر يومًا صدْقَ ما عرفتُ أنه باطل. لقد أبديتُ نفسي كما كنتُ عليه، أبديتُ نفسي محتقرًا نذلًا حينما كنتُ كذلك، وأبديتُ نفسي طيِّبًا كريماً ساميًا حينما كنتُ كذلك، فكشفتُ عن دخيلتي كما رأيتها..».[1]

---

(1) جان - جاك روسو، الاعترافات - ترجمة: خليل رامز سركيس - مجموعة الروائع الإنسانية - الأونسكو، السلسلة العربية - اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع، بيروت، 2891، الصفحة 91.

514

فهرست الرواية

7 الوجه الأول

11 الوجه الثاني

35 الوجه الثالث

49 الوجه الرابع

69 الوجه الخامس

89 الوجه السادس

105 الوجه السابع

121 الوجه الثامن

149 الوجه التاسع

177 الوجه العاشر

197 الوجه الحادي عشر

223 الوجه الثاني عشر

251 الوجه الثالث عشر

259 الوجه الرابع عشر

516

277 الوجه الخامس عشر

285 الوجه السادس عشر

313 الوجه السابع عشر

333 الوجه الثامن عشر

355 الوجه التاسع عشر

387 الوجه العشرون

409 الوجه الحادي والعشرون

423 الوجه الثاني والعشرون

429 الوجه الثالث والعشرون

455 الوجه الرابع والعشرون

469 الوجه الخامس والعشرون

489 الوجه السادس والعشرون

507 الوجه السابع والعشرون

513 الوجه الثامن والعشرون

517

وجوه لتمثال زائف

رواية «وجوه لتمثال زائف» مغامرة سردية ضمن عمل درامي يرصد مرحلة مهمة من التاريخ المعاصر لبلد لم يُذكَر داخل الرواية بشكل صريح، لكن أحداث الرواية وطبيعتها السردية المتقنة، كفيلة بالإفصاح عن اسمه وبشكل جلي. هي إذًا، رواية تحاول دراسة التركيبة الشخصية الملتبسة المنبثقة من خراب الحروب والتقلبات الكارثية التي تعصف بالمجتمعات، شخصية ملتبسة الأفكار والطموحات، غرائبية التكوين والنزعات، لكنها تعيش بيننا بشكل «طبيعي» ولا تثير فينا الفضول أو الريبة، بل غالبًا ما نميل إليها و«نحبها».

ترصد الرواية يوميات بطلها «مرهون عيسى الصاحب» الذي ولد ونشأ وسط الخراب، بطل ينتمي إلى جيل الخيبات، لكنه يعي تمامًا أن خيبته وانكساره ما هي إلّا خيبة وانكسار أجيال متلاحقة باتت تشكل صورة وطن، لذا يتلمس القارئ، أن رصد الرواية يجمع بين الواقع وفنتازيا الواقع بكارثيته التي عملت بجد على خلق إنسان لا ينقصه التشويه والازدواجية بغرائبية مرة.

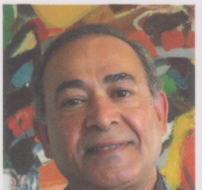

حسين السكاف

- حسين السكاف، ناقد وروائي عراقي.
- نشر له العديد من القصص القصيرة والمقالات والبحوث الفنية في مجال النقد الفني والأدبي.
- له بعض الترجمات الفنية والأدبية من الدنماركية إلى العربية.
- صدر له: «كوبنهاغن - مثلث الموت» رواية 2007. «الرواية العراقية.. صورة الوجع العراقي» كتاب نقدي 2014. «طاقة الحب» مسرحيتان 2015.

ISBN 9789927126512

9 789927 126512